المسيحيّة

في خطوطها الكبرى وتحدّياتها الراهنة

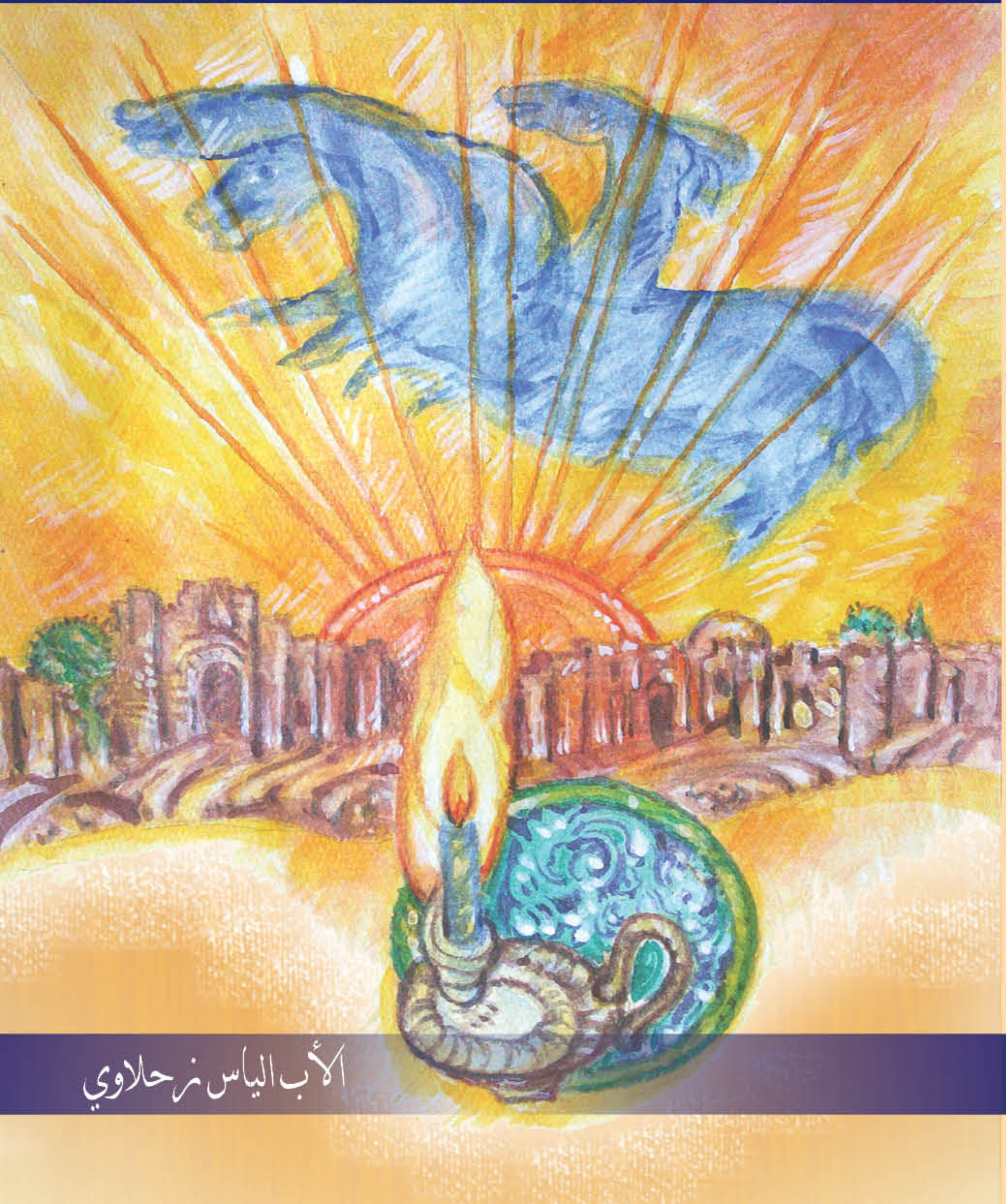

الأب الياس زحلاوي

المسيحيّة

في خطوطها الكبرى وتحدّياتها الراهنة

بقلم الأب الياس زحلاوي

2017

المســيحيّة

في

خطوطها الكبــرى
وتحدّياتها الراهنة

الأب الياس زحلاوي

الأب الياس زحلاوي

المسيحيّة

في خطوطها الكبرى وتحدّياتها الراهنة

2017

حقـوق الطبـع محفوظـة للمؤلف
الطبعـة الأولى
2017

ترخيص الطباعة
وزارة الإعلام
الجمهورية العربية السورية

الغلاف
الفنان الياس زيات

إلى يسوع...

في كنيسته العربية القادمة... !

بمثابة مقدمة

هي محاولة ليس إلا، لاكتشاف يسوع في الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما، في الفكر الذي طرحه، وفي التأثير الذي خلّفه ويخلّفه إلى اليوم.

المحاولة واسعة، ولا شك. إلا أني أرجو أن أسدّ بها ثغرة ما في ثقافتنا العربية، المسيحية وغير المسيحية.

ألتزم فيها نهجَين مختلفين، ولكن متكاملين:

في الأول، أتوقّف طويلاً، بل طويلاً جداً، عند استكشاف بيئة يسوع وزمانه.

في الثاني، أرسم لوحات كثيفة، خاطفة، ولكن واضحة، ألتزم فيها الوقائع في خطوطها الكبرى، وأبرز بعض أكثر الأحداث والتواريخ، تأثيراً وتوجيهاً، دون الغوص في بحار التفاصيل، تاركاً للقارئ في الكثير منها، أن يعود بنفسه إلى المراجع المذكورة وسواها.

من هنا كان المخطط التالي:

الفصل الأول: يسوع في إطاره الزمني والاجتماعي والديني

الفصل الثاني: يسوع في ذاته

المصادر الرئيسة

1. مراحل تدوين الإنجيل
2. حياة يسوع من الطفولة إلى عتبة الحياة العلنية
3. من كلام يسوع: العظة على الجبل: (متى 5–7)

المصادر الثانوية

1) المصادر اليهودية
2) المصادر الوثنية
3) المصادر المسيحية

الفصل الثالث: يسوع في بداياته

يسوع قائداً

يسوع قائداً في شخصه

يسوع قائداً في تلاميذه

التلاميذ قادة في خطى يسوع...

الفصل الرابع: نشوء المسيحية

الكنيسة الأولى

التأسيس

الانتشار المسيحي

المواجهة بين الكنيسة و"العالم"

الفصل الخامس: يسوع في كنيسته

1. القداس في القرون الأولى

2. الصلاة في القرون الأولى

3. الأعياد المسيحية على مدار السنة

4. الحياة المسيحية في الترنيم

5. الحياة الرهبانية في المسيحية

الفصل السادس: الفكر المسيحي في نشأته ووجوهه

أولاً- آباء الكنيسة

1. "آباء" أواخر القرن الأول حتى إعلان ميلانو عام 313

2. عصر "الآباء" الذهبي

3. آخر عصر "الأباء"

ثانياً- من أدب الآباء: "الرسالة إلى ديوغنيتس"

الفصل السابع: يسوع في التاريخ

1. ملمح عام للمسيحية، ولا سيما منذ إعلان ميلانو حتى مطلع القرن الحادي والعشرين

2. أبرز المحطات في هذا التاريخ، وتوبة الكنيسة بشأنها

الفصل الثامن: يسوع في مواجهة إلغائه
1) المحطة الأولى، المشروع الصهيوني.
وثيقة أولى: ولادة الصهيونية
وثيقة ثانية: نبوءة مبكرة
2) المحطة الثانية، اختيار فلسطين.
وثيقة أولى: جهوزية الحركة الصهيونية...
وثيقة ثانية: سؤال لا غير، أوجّهه إلى "الباحثين" العرب في الشأن العربي والفلسطيني
وثيقة ثالثة: خريطة لسورية، كما رسمتها وزارة الخارجية الفرنسية عام 1910.
3) المحطة الثالثة، الازدواجية الغربية.
وثيقة أولى: كذب الغرب الأوروبي، وعمله الدؤوب لتفتيت العالم العربي.
وثيقة ثانية: الثورة على تقسيم سورية
4) المحطة الرابعة، قرار تقسيم فلسطين.
وثيقة أولى: ابتزاز وتهديد لتمرير مشروع قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة
وثيقة ثانية: حول تسليح المنظمات اليهودية
5) المحطة الخامسة، بزوغ إسرائيل.
وثيقة أولى: تصريح رئيس الجامعة العبرية عام 1946.
وثيقة ثانية: حول مفهوم الإنسان في الدستور الإسرائيلي.
وثيقة ثالثة: حول التطهير العرقي والجغرافي في دولة إسرائيل.
6) المحطة السادسة، دولة العدوان.
وثيقة أولى: رسالة البروفسور الإسرائيلي "بنجامان كوهين" إلى صديق له.
وثيقة ثانية: "ديانة المحرقة"
وثيقة ثالثة: "الشرق الأدنى المتفجر"

7) المحطة السابعة، طلائع "الربيع العربي"...

الوثيقة الكبرى: الكشف الأكبر!...

8) المحطة الثامنة، الحرب الكونية على سورية.

وثيقة أولى: اعتراف من نعوم تشومسكي

وثيقة ثانية: صوت حق من فرنسا.

وثيقة ثالثة: البربرية الحديثة

وثيقة رابعة: أساليب الاستعمار الجديد

9) المحطة التاسعة، مسؤولية الكنيسة في الشرق والغرب معاً.

وثيقة أولى: بيان صادر عن ثلاثة بطاركة شرقيين

وثيقة ثانية: بيان صادر عن اللجنة الإدارية لمؤتمر الأساقفة الكاثوليك في أميركا.

الفصل التاسع: هل من مخطط إلهي في الصوفانية (1982-2014)؟

ذلك هو مخطط هذه المحاولة.

قلت وأقول: كل ذلك ليس سوى محاولة، أدين بها لشبّان وشابّات أسرة الرعية الجامعية، و"فريق ملح الأرض"، في مسعى مني للإجابة على العديد من التساؤلات التي طرحوها بالأمس القريب والبعيد، والتي يطرحها وسيطرحها اليوم وغداً الكثيرون...

أرجو لها أن تستثير البعض، لينطلقوا منها إلى ما هو أبعد وأعمق، في استجابة منهم للتحديات المصيرية، التي أفرزتها الحرب الكونية على سورية، على مستوى المنطقة والعالم.

ولسوف أكون في غاية الشكر، اليوم وفي الزمن الآتي، لكل مطّلع على هذا الذي أقدّمه، إذا ما أبدى فيه رأياً شاركني فيه، أو إذا ما بدرت منه مبادرة ثقافية أغنى بها سواي!

في 2017/5/15

ذكرى النكبة العربية في فلسطين

الفصل الأول

يسوع في إطاره الزمني والاجتماعي والديني

أولاً: الإطار الأوسع، وهو الإمبراطورية الرومانية.

ثانياً: الإطار المحلي، وهو المجتمع اليهودي في فلسطين.

الإمبراطورية الرومانية

فلسطين، وطن يسوع،

كانت منذ عام 64 ق.م. قد أُلحقت بالإمبراطورية الرومانية. فلا بد إذن من دراسة هذا الإطار الأوسع بوصفه دولةً أولاً، وحضارةً ثانياً.

الفقرة الأولى: الدولة الرومانية

1) اتساعها الجغرافي:

أ- أقاليمها وحدودها:[1]

عندما أصبح "أوغسطوس" (63 ق.م.- 14 ب.م.) عام 27 ق.م. إمبراطوراً، فتسلّم جميع السلطات، كانت الإمبراطورية تشمل البلدان التالية، وكان قلبها روما العاصمة:

إيطاليا والجزر المجاورة. إلى الغرب: شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال)، وبلاد غاليا حتى نهر الراين. إلى الجنوب: الساحل الإفريقي

[1] انظر الخريطة في الملحق الملون

كلـه، مـن جبـل طـارق إلى البحـر الأحمـر. إلى الشـرق: فلسـطين وسـورية وآسـيا الصغرى حتـى أرمينيـا الكبرى. أخـيراً إلى الشـمال: اليونـان وجميـع جزرها ومكدونيا وتراكيا، وقسماً من ساحل البحر الأدرياتيكي.

ومـا بـين عـام 27 ق.م. إلى وفـاة الإمبراطـور "ترايـانوس" عـام 117 ب.م. ضمّت جيوش روما مناطق جديدة إليها. فإلى الشرق: بلغت نهر الفرات. وفي أوروبـا: أُخضـعت المنـاطق الممتـدّة جنـوب نهـر الـدانوب. وفي جانبـه الشمالي: أُخضع إقليم "داقيا". وأُخضعت أيضاً الجزيرة البريطانية حتى حدود اسكتلندا. أما بلاد الجرمان، فقد أُلحقت هي أيضاً بالإمبراطورية.

ب- الأمن الشامل:

استطاعت السلطة المركزية في روما، على الرغم من اتساع أرضها، أن تبسط الأمن والسلام. بالطبع لم تخلُ الظروف من اضطرابات متفاوتة هنا وهناك، ولكن السلام الروماني لم يكن كلمةً فارغة. وقد ساهم النظام الجمهوري أوّلاً، ثم الإمبراطوري، في ربط الأقاليم، بعضها بالبعض الآخر، ربطاً محكماً وسريعاً، من خلال شبكة مدهشة من الطرقات الصخرية، بلغت أقاصي الأقاليم كلّها. وقد أُبدِعت هذه الشبكة لغايتين: الأولى أمنية وعسكرية، والثانية اقتصادية لنقل البضائع والمواد الغذائية، وتنقّل المسافرين. ثم إن الإمبراطور "أوغسطس" أحدث "البريد" بمركباته ومراكزه، التي غطّت شبكة الطرقات كلها، فوفّر المزيد من الأمن والراحة.

وفي البحـر، ولا سـيما في المتوسـط، وكـذلك علـى سـواحل الأطلنتيـك وبحر الشمال، كانت المواصلات كثيفة. وقد ساعد على ذلك الحملة التي قضى بها القائد الروماني "بومبيوس" عام 67 ق.م. على القرصنة البحرية.

بـرزت في هـذه الأثنـاء، سمـات مشـتركة لحضـارة موحّـدة، أخـذت شـيئاً فشيئاً تغطي البلدان، وتحلّ محلّ الحضارات المحليّة، أو تقارب ما بينها. وقد ساهم في عملية التوحيد هذه، عوامل كثيرة، منها:

- كثرة المستعمرات الرومانية واللاتينية.

- اتساع حقّ المواطنة الرومانية.

- انتشار الفرق الرومانية العسكرية والكتائب الملحقة بها.

- كثرة عدد أسرى الحروب، وقد بيعوا كعبيد.

- نموّ التجارة وتزايد رحلات التجار والباعة، الذين لم يَدَعوا أرضاً إلا ووطِئوها.

- انصباب أبناء الأقاليم على روما، وتعاظم المدن الكبرى. وقد انصهرت فيها الجماعات القادمة من مختلف المناطق والمستويات.

وبذلك كانت روما واليونان والشرق كّله، والعالم المسمّى بعالم البرابرة، كل ذلك كان، وبنسب متفاوتة، يرفد هذا الشكل الحضاري الموحّد والمعقّد في آن واحد، الذي بات يُعرف بتسمية لا تخلو من السطحية، هي الحضارة اليونانية - اللاتينية.

2) تنظيمها السياسي:

أ- السلطة المركزية:

تتمثل السلطة المركزية، من حيث القانون، في شخص الإمبراطور ومجلس الشيوخ، والشعب الروماني.

1- الإمبراطور وكبار موظّفيه:

كان "أوكتافيوس" - وهو هو الذي أصبح فيما بعد أول إمبراطور على روما - في حرصه على مراعاة حساسيّات مجلس الشيوخ والشعب معاً، قد أحكم قبضته شيئاً فشيئاً، على مجموع السلطات، التي كان تَوزّعُها المتوازن يميّز الحكم الجمهوري. وسرعان ما خطا بعد ذلك خطوات استأثر فيها، عبر مراحل أربع، بالسلطة الكاملة. فقد أصدر أربعة قوانين، كانت على التوالي:

- "حول القيادة"، وهو قانون يمنح "المنتخَب" للسلطة العليا، السلطات الأربع الكبرى: التشريعية والقضائية والإدارية والعسكرية.

- "حول تمثيل الشعب"، وهو قانون يضيف إليه الامتيازات السابقة لُمثّلي الشعب، ورئاسة مجلس الشيوخ، ورئاسة المجالس الشعبية.

- "حول إدارة الأقاليم"، وهو قانون يعطيه الإشراف المطلق على الأقاليم الخاضعة لسلطة الإمبراطور الخاصة، وتلك الخاضعة لسلطة مجلس الشيوخ، في آن واحد.

- "حول الكاهن الأعظم"، الذي يجعل منه الرئيس الأعلى للديانة الرسمية.

وكان في إمرة الإمبراطور هيئة واسعة من الإداريّين في روما نفسها، يساعدونه. وكان في قمة هؤلاء الموظفين، قائدا الحرس الإمبراطوري، وكانا بمثابة معاونَين له، ويتلقّيان منه تفويضاً لسلطته القضائية. وقد حدث للقديس بولس، عندما رفع دعواه من حاكم ولاية اليهودية، إلى "قيصر"، أنه مَثَل أمام قائدي الحرس الإمبراطوري.

يلي قائدَي الحرس مرتبةً، قائد روما، وهو يشرف على إدارة المدينة. فهو يقود الكتائب الخاصة بروما، ويتمتّع بسلطات قضائية واسعة.

يليه "قائد التموين"، ثم "قائد الحرس الليلي"، وكلاهما يتمتّع بسلطات قضائية واسعة في نطاق مهمّتهما.

يليهما المسؤولون عن الشؤون الخاصة بالمياه والتنظيفات وممتلكات الدولة والضرائب الخ...

أخيراً يأتي رئيس الديوان الإمبراطوري، المكلّف بتوسيع مهام الديوان وفق المقتضى. أما مجلس الاستشارة الإمبراطوري، فقد اتخذ شيئاً فشيئاً حجم وطابع مؤسّسة رسمية.

2- مجلس الشيوخ:

حافظ مجلس الشيوخ، في ظل الإمبراطور، على مظهره السابق. فهو يضم (600) عضو، يُختارون في صفوف الطبقة الخاصة به، ممّن لا يقلّ عمرهم عن خمسةٍ وعشرين عاماً، والذين كانوا قد تولّوا إحدى المهام الكبرى في النظام الجمهوري. ويعود للإمبراطور وحدَه حقّ تعيينهم، دون أن يتقيّد بأيٍّ من القوانين المرعيّة. وكان همّه الواضح أن يحطّ من منزلة نبلاء العائلات

القديمة، بل أن يلغيها كليّاً، وأن يدفع بالمقابل وجوهاً جديدة إلى المقدّمة. وكانت المرتبة بين أعضاء مجلس الشيوخ، تُحدَّد وفقاً للمهام الموكولة إليهم.

وكان من حقّ مجلس الشيوخ انتخابُ الإمبراطور أو إقالته. كما كان من حقّه أيضاً تمجيد الإمبراطور بعد وفاته، أو تلطيخ ذكره.

وكان من حقّه أيضاً تعيين مسؤولين في المهام الجمهورية التي أبقى عليها، باستثناء "مهمة الرقابة" التي احتفظ بها الإمبراطور لنفسه.

وهو الذي يعيّن الإداريين في المراكز الخاصة بالأقاليم التي أُبقيت تحت إمرته.

وكانت قراراته وحدَها تتّسم بسمة القانون، بينما الأعمال التشريعية التي كانت تصدر عن الإمبراطور، من مراسيم وتفويضات الخ... كانت تُعتبر بمثابة دستور.

وقد احتفظ مجلس الشيوخ ببعض الصلاحيات القضائية والمالية والإدارية. وظل قيّماً على التقاليد والطقوس الدينية.

إلا أنّ الإمبراطور كان يختار لعضويّته مَن يشاء، ويرئس جلساته متى يشاء، ويُخضِع لرقابة وتوجيه دقيقين كلّ حركاته ونقاشاته، بواسطة ممثّلَين عنه يحملان اسم "ممثلَي القيصر العظيم". وباختصار، كان مجلس الشيوخ، عمليّاً، قد تحوّل إلى أداةٍ تنفيذيةٍ بيد الإمبراطور، ليس إلا.

3- الشعب:

جُرِّد الشعب بالكلية من أيّ مشاركة فعلية في الحكم. وقد خوّل الإمبراطور نفسَه جميع الصلاحيات، التي كان يتمتّع بها بواسطة المجالس الشعبية - سواء منها التشريعية أو الانتخابية - مع أنّ الإمبراطور "أوغسطس" أبقى هذه المجالس من حيث المبدأ. ولم يعد للشعب البتة أن يختار أيّ مسؤول لأيّ مهمة. واقتصر دوره على التجمّع في الساحة الكبرى المسمّاة "ساحة مارس"، كي يستمع إلى مقرّرات مجلس الشيوخ، ولكي يؤيد بالهتافات الإمبراطور الجديد الذي نصّب نفسه أو الذي نصّبه مجلس الشيوخ، حاكماً مطلقاً.

ب- إدارة الأقاليم أو الولايات:

1- تقسيم الولايات:

كانت إيطاليا تتمتّع بوضعٍ متميّز وسط هذه الإمبراطورية الشاسعة. إلا أنّ "أوغسطس" اتخذ سلسلة من الإجراءات التي وضعتها شيئاً فشيئاً في مصاف سائر الولايات.

إبان النظام الجمهوري، كانت الأراضي مقسّمة، باستثناء إيطاليا، إلى ولايات ترتبط قانوناً بروما، إما بصفة ممالك، وإما بصفة مدن حليفة. من ذلك مثلاً أن فلسطين كانت في عهد الملك "هيرودس الكبير"، مملكة صديقة وحليفة، الأمر الذي كان يعني في واقع الأمر مملكة تابعة ليس إلاّ.

كان حكام الولايات ينتمون إلى فئتين: تلك التي يعيّنها مجلس الشيوخ، أو تلك التي يعيّنها الإمبراطور نفسُه. ذلك أن "أوغسطس" ارتأى أن يتقاسم مع مجلس الشيوخ إدارة الولايات. إلا أنه احتفظ لنفسه بالولايات التي ضُمّت حديثاً، أو تلك التي كانت عرضةً للاضطرابات.

كانت الولايات الخاضعة للإمبراطور بصورة مباشرة هي: "لوزيتانيا" (البرتغال الحالية) وإسبانيا الشمالية وبلاد غاليا كلها، ومصر وجزيرة قبرص وسورية وكيليكيا.

أما الولايات التابعة لمجلس الشيوخ، فكانت: أفريقيا الشمالية، آسيا الصغرى، "بيتينيا" (شمال غرب آسيا الصغرى)، آكائيا، "أيليريا" (تقع ما بين يوغسلافيا وإيطاليا والنمسا)، مكدونيا، جزيرة كريت، القيروان (شمال شرق ليبيا الحالية)، جزيرة صقلية، سردينيا، وإسبانيا الجنوبية.

وكانت الولايات التابعة للإمبراطور تتزايد وتتّسع بحكم الفتوحات الجديدة أو التقسيمات الطارئة، وذلك على حساب الولايات الخاصة بمجلس الشيوخ.

2- الولاة والمندوبون:

أُطلق اسم "والي" على حكام الولايات التابعة لمجلس الشيوخ. وكان يعاونه في هذه المهمة، مسؤولون من مختلف "الاختصاصات: للشؤون المالية والقضائية والعسكرية. وكان تعيين المسؤول عن الشؤون العسكرية متعلّقاً بالإمبراطور نفسه. أمّا الوالي نفسه، فكان يرتبط مباشرةً بمجلس الشيوخ، الذي كان يوجّه إدارته ويشرف عليها ويراقبها. إلا أنّ حقّ تدخّل الإمبراطور في ولايته، حقّ مطلق ولا يحدّه شيء.

وكانت الولايات "الإمبراطورية" بإمرة ممثّلين للإمبراطور. وكانت هذه الولايات تخضع لترتيبٍ معينٍ، من حيث الأهمية، وقد كان لولاية مصر بينها، مكانةٌ مميّزة. كما كانت بعض المناطق، التي لم يكن قد مضى على إخضاعها زمان بعيد، أو التي لم يكن الأمن قد استتبّ فيها على نحوٍ مرضٍ، تخضع لحاكمٍ يرتبط من حيث السلطة، بحاكم أقرب الولايات الإمبراطورية. وقد كان ذلك ينطبق على مقاطعة اليهودية أيام المسيح، فكان حاكمها يرتبط بحاكم ولاية سورية، كما جاء ذكره في الإنجيل بحسب لوقا (2-1/2)**.**

كان إذن حكام الولايات الإمبراطورية مجرّد مندوبين عن الإمبراطور. فكانوا يمارسون صلاحيّاتهم في ارتباطٍ وثيقٍ جداً به. ولذا كان يحقّ لأيّ مواطن تابع لهم، أن يرفع إلى الإمبراطور نفسه، أي شكوى ضدّ أي حاكم.

لدينا مثلان بارزان على هاتين الحالتين:

الأول، حالة تبعية الحاكم المباشرة للإمبراطور، وهو ما حدث لحاكم ولاية "بيتينيا"، "بلينوس الأصغر"، إذ كتب يسأل "ترايانوس" توجيهاته الخاصة في أمر تطبيق القرارات المتعلقة بملاحقة المسيحيين.

الثاني، حالة حق رفع الشكوى للإمبراطور دون الوالي، وهو ما حدث للقديس بولس، يوم مَثَل أمام حاكم "اليهودية"، "فستُوس"، إذ طلب رفع دعواه إلى "القيصر" مباشرة، وكان له ما أراد (**أعمال الرسل** 25)**.**

وهذا بعينه ما خشي حدوثه "بيلاطس البنطي" حاكم اليهودية، يوم هدّده اليهود برفع شكواهم إلى "قيصر" إذا هو تمنّع - كما كان يحاول - عن الحكم على يسوع بالموت (يوحنا 12/19-16).

وكان هؤلاء الحكام، بالمقابل، يتمتّعون بسلطات عسكرية مطلقة، في نطاق ولايتهم، فيتصرّفون على نحو مطلق بالجيوش المرابطة في حدودهم. وما كان حكام الولايات التابعة لمجلس الشيوخ، ليتمتّعوا بمثل هذا الامتياز.

أما على صعيد الإدارة المالية، فكان يعاون حكام الولايات الإمبراطورية، مسؤول يعيّنه الإمبراطور نفسُه.

ج- الجيش:

1- **تكوين الجيش:**

كان الجيش الإمبراطوري يتكوّن من الفيالق والفِرق المساعدة والقوات الخاصة.

كان لكلّ فيلق سِمتُه واسمُه ولقبه، وترتيبه داخل الجيش. وكان يتألف مبدئياً من عشر كتائب تضم كل منها (600) رجل، تتألف بدورها من ثلاث مجموعات تضم كل منها (200) رجل، وفي كل مجموعة زمرتان تضم كل منها (100) رجل. فكان مجموع رجال الفيلق (6000) رجل. وقد ألحق الإمبراطور "أوغسطس" بكل فيلق، قوة من الفرسان.

وكانت الفيالق منتشرةً في الولايات الحدودية، حيث كان لها معسكر ثابت يرئسه قائدٌ عام ومحلّي. وكان على رأس كلّ فيلق ممثّل عن الإمبراطور، وبإمرته ستّة قادة.

وكانت الفرق المساعدة تضم كتائب من المشاة، مختارة، بإمرة قائد خاص بها، كما كانت تضم كتائب من الفرسان أو الأجنحة، تخضع هي أيضاً لقائد خاص بها.

أما القوات الخاصة، فكانت تتمركز في روما، وكانت تضم الكتائب المسمّاة "بريتورية"، وقد رفع عددها الإمبراطور "ترايانوس" إلى عشر، والكتائب المدنية، التي تراوح عددها بين ثلاث وتسع، والتي كانت بمثابة الشرطة، والكتائب "الساهرة" التي كانت بمثابة شرطة الليل ومكافحة الحرائق. وتضم أيضاً رجال الحرس الإمبراطوري الخاص، والشرطة السرية.

2- **انتقاء عناصره:**

كان رجال الكتائب "البريتورية" والمدنية يُختارون حصراً من الإيطاليين، ورجال الحرس الإمبراطوري من "البرابرة". أما الكتائب "الساهرة"، فكان عناصرها من "المحرَّرين أو المُعتَقين"، أي الذين عرفوا العبودية وأُعتقوا لسببٍ ما... وكان رجال الفيالق والفرق المساعدة، يتألّفون في معظمهم من متطوّعين وفدوا من الولايات الإمبراطورية، علماً بأنّ المواطنين الرومانيين كانوا من حيث المبدأ ملزَمين بالخدمة في الجيش. أما مدة التطوّع، فكانت خمسةً وعشرين عاماً في الفرق المساعدة، عشرين عاماً في الكتائب المدنية والفيالق، وستة عشر عاماً في الكتائب "البريتورية". وكان العسكري لدى انتهاء خدمته، ينال مكافأة كبيرة وراتباً تقاعدياً. أمّا الذي خَدَم في الفيالق، فكان ينال حقّ المواطنة له ولجميع أفراد أسرته.

3- **تنظيم البلديات:**

كانت المدينة هي الجهاز السياسي الطبيعي لدى الرومان واللاتينيّين، كما كانت لدى الإغريق. وكانت المدينة تعني مركزاً مدنيّاً ما، أُلحقت به منطقة ريفية متفاوتة الاتساع، يؤلّف سكانها مع سكان المركز المدني هيئةً سياسيّةً واحدة.

كانت الإمبراطورية الرومانية أشبه شيء بمدينة، هي روما، وقد أُلحقت بها أو أخضَعت لنفسها عدداً كبيراً من المدن. وكان وضع هذه المدن يختلف باختلاف طبيعة العلاقة التي كانت تربطها بروما العاصمة.

1. ترتيب المدن والدول في الإمبراطورية:

- 1- تضم الفئة الأولى المستعمرات الرومانية و"المدن المستلحقة". فالأولى لها إدارتها الخاصة، وتُعتبر جزءاً لا يتجزأ من روما. وهي تتمتّع بحق المواطنة الرومانية، كما يتمتّع سكانها بالحقوق نفسها التي يتمتّع بها القاطنون في روما. أما "المستلحقات" فلها أيضاً حق المواطنة، بما فيه حق الانتخاب، إلا أنه لا يحق لهم أن يمارسوه إلا في روما بالذات. والمعروف أن المستعمرات الرومانية كانت من حيث المبدأ تدين لروما في تأسيسها، بينما "المستلحقات" كانت مدناً قائمة سابقاً، وقد مُنحت حقّ المواطنة الرومانية كلها دفعةً واحدة.

- 2 - تضم الفئة الثانية "المدن اللاتينية" و"المستعمرات اللاتينية". فإن "المدن اللاتينية" هي مدن الحلف اللاتيني القديم، و"المستعمرات اللاتينية" هي المدن التي أسّسها الحلف اللاتيني القديم، أو التي أسّستها روما نفسها فيما بعد، وأدخلتها في نطاق القانون اللاتيني. لم يكن ذلك معادلاً لحقّ المواطنة، ولكنه كان يقاربه بحيث كان "اللاتينيّون" بمثابة حلفاء روما الممتازين، ويُمنحون بسهولة حقّ المواطنة الرومانية عندما يطلبونها.

أما سائر المدن الأخرى، فكان لها نظام خاص يخضع لترتيب آخر. فهناك:

- المدن الحرّة والحليفة. فهي دويلات تحتفظ لنفسها بهذه الصفة، ولا تخضع لدفع أي ضريبة لروما. خير مثال على ذلك مدينة "طرسوس"، موطن القديس بولس. إلا أنّ حرية هذه المدن لم تكن لتمنعَها من التبعية لروما.

- المدن الخاضعة، وكانت تضم بمجموعها الأقاليم. فقد كانت تدفع ضريبةً لروما، وتخضع خضوعاً تاماً في إدارتها لمندوب الإمبراطور أو ممثّله.

- الممالك الصغيرة، وكانت في وضع المدن الحرّة والحليفة. كانت روما

تبقي عليها إما داخل الإمبراطورية في الأقاليم، وإما على حدودها الواسعة، ريثما تُتاح لها الفرصة لابتلاعها وإخضاعها. وقد كانت تدفع الضريبة لروما، خلافاً لوضع المدن الحرّة. وخير مثال على ذلك الوضع، ما كانت عليه فلسطين في عهد هيرودس الكبير وأبنائه الملوك أو "حكام الرَّبع".

2. الجمعيات والمجالس والموظفون في البلديات:

كان يعيش في المدينة أو في المنطقة التابعة لها، مواطنون أو غرباء مقيمون فيها. لم تكن سُكنى الغرباء لتخوّلهم حقّ المواطنة. فكان للمواطنين جمعية تمثّلهم. وهي بدورها تنتخب مجلساً وموظفين، تختلف أسماؤهم باختلاف الأمكنة. وكانت حتى المدن "الخاضعة" تحكم نفسَها بنفسها، ولكن تحت إشراف مندوب الإمبراطور أو ممثّله. وقد آثرت روما ألاّ تتحمل هي بنفسها هذا العبء.

إلا أن السياسة الإمبراطورية، ولا سيما في عهد "أوغسطس"، ترمي، خصوصاً في البلدان ذات الحضارة الهيلينية، إلى تقليص عدد المواطنين، واستبدال النظام الديمقراطي الوافد من التقليد الإغريقي، بنظام "نُخبوي" يمنح المواطن بموجبه حقّ الاقتراع مع واجب دفع الضريبة. وتلك كانت حال مدينة "طرسوس" - موطن بولس - عندما كلّف "أوغسطس" أستاذه السابق "الفيلسوف اتينودوروس"، عام 15 ق.م. بإحداث هذا الإصلاح. وكانت السلطة الإمبراطورية في الوقت نفسه، تشجّع هيمنة المجلس على حساب المجالس الشعبية. وأما الموظفون الذين كان يُناط بهم بالدرجة الأولى المهام المالية، فقد كانت أعباؤهم مرهقة، وأظهروا بدورهم من التفاوت في الكفاءة، بحيث إن السلطة الإمبراطورية ابتلعت في نهاية المطاف حكم المدينة كلياً.

ومع ذلك، فقد وجدت هذا النظام البلدي ملائماً جداً لها، حتى إنها أدخلته أولاً في بلاد غاليا وفي البلدان الشبيهة بها، أي التي كانت وحدتها السياسية تقوم على واقع الشعب، أكثر ممّا هي تقوم على "المدينة".

3. الجمعيات الإقليمية:

في اليونان، كانت قد قامت اتحادات بين المدن، تهدف إلى الاحتفال المشترك بعيد ديني.

وفي عهد الإمبراطورية، ازدادت هذه الاتحادات رسوخاً في الأقاليم، في نطاق شعائر العبادة لروما وأوغسطس. وقد أشرفت السلطة نفسها، بصورة عامة، على تنظيم هذه العبادات، مستخدمة في سبيل ذلك مؤسسات دينية سابقة. وكان مندوبو المدن يجتمعون تحت رئاسة "الكاهن الأعظم" المنتخَب من قبلهم - فيصبح بذلك شخصيةً مرموقةً جداً - حيث كان قد أُقيم الهيكل أو المعبد، الذي كانت المدن تتنافس لانتزاع شرف الحصول عليه. فكانت تُقام الشعائر الدينية الخاصة، وتُنظَّم ألعابٌ متنوّعة. ثم كان المندوبون يُجرون مداولاتٍ حول اهتماماتهم المشتركة، ويعقدون اتفاقيات فيما بينهم، ويعربون عن رغبات لهم، يرفعونها إلى روما عن طريق وفود رسمية تكلَّف بتقديمها ودعمها.

د- وضع الأحرار والعبيد:

التسميات كثيرة، بعيداً عن التمييز المألوف العام بين أحرار وعبيد.

هناك العبيد الذين تحرّروا أو بالأحرى أُعتِقوا. قد لا يكون "للمعتَقين" سادة، إلا أنّ لهم دوماً "معلّم" يمارس عليهم سلطةً، تتفاوت بحسب القانون. وكان المُعتَقون يؤلّفون طبقة كثيفة، وكانت آخذة في التزايد. وقد تساءل بعضهم ما إذا كان القديس لوقا واحداً منهم. إلا أنّ الحرية التامة التي كان يتمتّع بها على نحو واضح، تستبعد هذا الاحتمال.

ثمّة صفة تخصّ الرجال الأحرار فقط، بما فيهم المُعتَقون. هي صفة المواطنة أو عدم المواطنة، وهذه الأخيرة تعني الغرباء المقيمين. ثم هناك تمييز في المواطنة نفسها: فالمواطن الأول هو المواطن المقيم في روما، والمواطن ذو المرتبة الثانية، هو المواطن ذو الحقّ اللاتيني أو الإيطالي، والمواطن ذو المرتبة الثالثة، هو المواطن المقيم في المدينة الحرّة أو في المدينة

التابعة. ويحقّ لمواطن من هذا القبيل أن يحصل على صفة المواطنة الرومانية، دون أن يفقد مواطنة مدينته الأصلية.

أما مواطنو روما، فكانوا يقسّمون إلى ثلاث طبقات، هي طبقة مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان والطبقة الشعبية. وكان معيار هذا التقسيم ثروة كل منهم.

كانت طبقة مجلس الشيوخ مقتصرةً على كبار موظفي العهد الجمهوري، الذين خوّلتهم كفاءتهم السابقة حقّ الدخول في مجلس الشيوخ، وأهلية القيام بأعلى المهام في العهد الإمبراطوري.

وكانت طبقة الفرسان تتدرّج في السلك العسكري وفي مختلف مهامّه، فقدمت للسلطة الإمبراطورية ذلك الحشد من كبار الموظفين، الذين كان الإمبراطور ينتقيهم على نحو يُؤّثِر فيه الوجوه الجديدة على النبلاء القدامى.

أما الشعب، فكان ينصرف للصناعة والتجارة والخدمات العامة.

وشيئاً فشيئاً، اضطُرّ الأباطرة إلى إحداث مثل هذه الطبقات في مدن الأقاليم، وكانت هي أيضاً تقوم على أساس الثروة.

الفقرة الثانية: الحضارة اليونانية - اللاتينية

1) العبادات الرسمية:

قد تبدو تسمية "الحضارة اليونانية – اللاتينية" غريبة. إلاّ أنّ الواقع التاريخي يفسّرها: فقد قِيل بحقّ: إنّ الرومان قهروا اليونان عسكرياً، ولكن اليونان قهرت الرومان حضارياً.

ما يعنينا بالدرجة الأولى، بالنسبة إلى بحثنا، إنما هي العناصر الروحية التي قامت عليها هذه الحضارة. والعبادات الرسمية جزء أساسي فيها. وقد خضعت لمدّ وجزر في حيويتها. ولكن التبدّلات التي طرأت عليها، ومن خلالها على الحياة الدينية الرسمية، ظهرت بمثابة نتيجة لتبدّلات سابقة، تمّت على صعيد الوضع السياسي والاجتماعي، وفي الحالة الفكرية والأخلاقية لهذا العالم الإغريقي – اللاتيني.

أ- عبادة المدينة:

كانت الطقوس الدينية تلعب دوراً أساسياً في حياة المدينة. وقد كانت الديانة آنذاك أقرب إلى الطقس منها إلى المعتقد. كانت طقساً يمارَس بالضرورة، أكثر مما كان واجباً دينياً فردياً. كان طقساً مدنياً كرّسه القانون العام. وينطبق الأمر نفسه على القواعد الأخلاقية التي يفرضها. وقد كانت الوحدات الدينية الحقيقية: المدينة ذاتها والجماعات التي تتعايش ضمنَها في ترتيب معين، من قبيلة وأخوية وعائلة. ولم يكن الفرد ليشكّل بأي حال تلك الوحدة الدينية. وكانت جدية الروح المدنية، هي المعيار الحقيقي لجدّيّة العبادة الدينية.

عندما أحدث "أوغسطس" النظام الإمبراطوري، أخضع لقيده القوي جميع بلدان البحر المتوسط. ولقد بقيت عند ذاك المدينة هي الوحدة الإدارية، وبنسبة أدنى، السياسية، لتلك الإمبراطورية الواسعة. وقد برز في المناطق اليونانية خصوصاً روح التنظيم البلدي بشيء من الاعتزاز. إلاّ أن شيئاً ما كان قد تغيّر. ذلك أن المدينة الخاضعة، بل والحرّة، أيّاً كان الحقّ الذي تعيش في ظلّه، لم تعد تلك المدينة ذات السيادة والاعتزاز، التي عُرفت سابقاً. فقد كان شيء من التراخي العام على قواها القديمة، قادها شيئاً فشيئاً إلى الذوبان التام في وحدات سياسية وثقافية ودينية، أكثر اتساعاً. وقد ضعُف بالتالي وجه العبادات القديمة، التي كانت المدينة تؤكد من خلالها فرادة شخصيتها، وتجعل منها أداة تعبير عن تقليدها الذاتي.

ب- تعدد العبادات والنزعة التوفيقية:

ثمّة عوامل أخرى ساهمت في تسريع هذا التبدل في المدن والعبادات الرسمية.

هناك مثلاً، التجمع السكاني الضخم الوافد إلى المدن الكبرى، من الأقاليم أو الغرباء، الذي يظلّ تقليد العبادة الرسمية غريباً عليه، والذي يحتفظ لنفسه بعباداته الخاصة.

هناك أيضاً، هذا التنقّل العجيب يقوم به الآلهة الكثيرون بين المدن والناس، مع ما يحمل معه من معتقدات متنوّعة وممارسات طقسيّة مختلفة، وما ينجم عنه تداخل الآلهة ببعضها البعض، وتشابهها في نهاية المطاف، بحيث تمَّحي شيئاً فشيئاً، الملامح المميّزة للعبادات المحليّة، وتتراخى بدورها الروابط القوية التي كانت فيما مضى تشدّ المدن بعضها إلى البعض الآخر.

وهناك أيضاً تصاعد موجة عبادة روما و"أوغسطس"، تصاعداً عاتياً، يعبّر في الحقيقة عن ظهور وضع سياسي جديد، ابتلعت فيه روما المدن كلّها. وإن كان هذا الوضع بعيداً عن الروح الدينية، فقد استطاع أن يلغي ملامح العبادات الدينية المحلية.

وإلى ذلك، فقد ظلّت بعض العبادات المحلية قائمةً ومزدهرةً، ولكن ليس بوصفها عباداتِ مدينة ما، بقدر ما هي طقوس محليّة تجتذب إليها الحجيج. مثل هذه العبادات كانت تعود على المدينة بالنفع المادي والمعنوي الكبير. ولم تكن أهميتها تعود إلى التقوى الفردية، بقدر ما كانت تعود إلى وجود صورة أو تمثال لإله شعبي محبوب في هيكل مشهور، كما كانت تعود إلى نشاط بعض الجماعات الكهنوتية، تدعمها مصالح مادية تتقن إدارتها. خير مثال على ذلك، عبادة الإلهة "ديانا" في أفسس، وقد حدث فيها للقديس بولس حادث طريف، يرويه القديس لوقا في أعمال الرسل (فصل 19/23–40).

ج- النهضة الدينية التي رمى إليها "أوغسطس" ومعوقاتها:

خشي بعضهم "أن تموت الآلهة، لا نتيجة ضربات أعداء غرباء، بل نتيجة إهمال المواطنين أنفسهم". وكان "أوغسطس" نفسه يخشى هذا الأمر. فاتّخذ إجراءاتٍ إداريةً، وسعى بشتى الطرق ليستنهض الرأي العام من أجل إحياء عبادة آلهة روما القديمة، وآلهة اللاتين والآلهة الأجنبية في الأقاليم. وفي روما نفسها، رمّم المعابد، وأقام معابد جديدة، وأعاد تنظيم الجماعات الكهنوتية.

ولكن هذا المسعى الإصلاحي اصطدم بعقباتٍ، يفوق خطرها خطر تلك التوفيقية الدينية التي نجمت عن تداخل العبادات، أو خطر تمسّك الفردية ببعض عباداتها، أو خطر التحلل اللاأخلاقي الذي أخذ ينتشر على نطاق واسع في كل طبقات المجتمع... كانت العقبات الحقّة والكبرى هذه تأتي من حركة مزدوجة، هي أوّلاً حركة فكرية تبحث عن فهم الأمور وإنشاء علم ما، وحركة رديفة لها، هي حركة البحث عن علم أخلاقي جديد. ولم تكن هاتان الحركتان بالضرورة معاديتَين للعبادات من حيث المبدأ. صحيح أنها كانت أحياناً تقول أن الآلهة الكبار ليسوا سوى ملوك ارتقوا إلى مصفّ الآلهة. ولكنها عقلية جديدة أخذت المذاهب الفلسفية الجديدة تصوغها، وأخذت هي بدورها تلحّ على مقتضيات نقدية وأخلاقية ودينية، لم تعد العبادات الرسمية تفي بها. وفي حين كانت جماهير الشعب المختلفة، تضيع في طقوس وممارسات لا حصر لها، كانت طبقة المثقفين تنغلق في لامبالاة، أو تتيهُ في بحثٍ مضنٍ عمّا يُشبع حاجاتِها الروحية، بعيداً جداً عن عبادات الدولة الرسمية.

2) المذاهب الفلسفية:

كانت المذاهب الفلسفية هي الإسهام الذي قدّمته الثقافة الهيلينية، في هذا البناء الضخم، المسمّى الإمبراطورية الرومانية، فأُطلق عليه اسم "الحضارة الإغريقية- الرومانية". وكان انتشارها مسؤولاً إلى أبعد حدّ عن ظهور هذه العقلية الجديدة التي أشرنا إليها، والتي أدخلت جديداً على النفوس، وهيّأت لتبدّلات محتومةٍ، حتى لو لم تغيّر شيئاً يُذكر في نمط الحياة الخارجي. فلا بدّ من سردٍ تاريخي لها، وشيء من التحليل يتناولها بإيجاز، من حيث علاقتُها بأصول المسيحية، ويتناولها في أهم مدارسها.

أ- المذهب الكلبي:

كان مؤسّسه أحد تلامذة "سقراط"، وهو "انتيستينوس". وضع علم "السفسطة" في خدمة علم الأخلاق الذي دعا إليه سقراط، ولكنه بزّ

فيه، على نحو وقح - من هنا تسمية الكلبية - الفردية والنزعة التهجّميّة. فكان يجابه كل أنماط الحياة المألوفة، من دينية ومدنية وعائلية، وكل تقليد، كان يجابهه بما يسمّيه الطبيعة، داعياً إلى اتّباعها في كل شيء، دون الالتفات إلى الرأي العام. بل كان يذهب إلى أنّ العقل في الإنسان قد استُعبد للتقاليد، فلا بد من تحريره منها. وأما الطبيعة في نظره، فكانت بكل بساطة الطبيعة الحيوانية بجميع غرائزها الثابتة. إلا أنه كان يرفض الانسياق وراء الحاجات المصطنعة، وما قد يبدو رغباتٍ طبيعيةً، وكلتاهما لا حدود لها، وتنأى بالإنسان عن الفضيلة والسعادة. فلا فضيلة ولا سعادة إلا في الحدّ من الرغبات والاكتفاء بالضروري منها، فالضروري هو الطبيعي.

وخَلَفه الفيلسوف "ديوجانيس" الشهير، الذي يعود إليه إبداع نمط من العيش، شظفٍ إلى أبعد الحدود، تحدّى به المجتمع كلّه، ممّا ثبّت على هذا المذهب تسميته بالكلبية.

وفي القرن الثالث، صاغ الفلاسفة الكلبيّون سلاح هذا المذهب في نمطٍ من الدعوة، امتزج فيه الحوار بالوعظ الهجومي، الشعبي، المحسوس، الجريء حتى القِحة والعدوانية، وكان دوماً ذا نزعة أخلاقية واضحة. وفي نهاية القرن الأول المسيحي، برز فيلسوف كلبي هو "ديون كريزوستوموس" من آسيا الصغرى، وكان له من النشاط الفكري وسعة الشهرة، ما يدلّ على تأثير هذا المذهب الكبير. وفي روما نفسها، في عهد الأباطرة الأوائل، كان "الوعّاظ" الكلبيّون منتشرين جداً، ويجدون لهم جمهوراً واسعاً.

بوسعنا أن نؤكّد أنّ المذهب الكلبي هو أول مذهبٍ معروفٍ، يدعو إلى ممارسة أخلاق لا تستند إلى أساس ديني. وكان أيضاً أحد أبرزِ ما اتّسمت به نزعة فردية جديدة، لا تقيم وزناً يُذكر للمدينة ولمصلحة المدينة وتقاليدها وقيمها.

ب- أفلاطون ومدرسته (الأكاديمية):

يضع أفلاطون (427–348 ق. م.) عالَم "المثال" فوق العالم الحسّي. وفي قمة عالم المثال، تقف فكرة "الجمال"، وخصوصاً فكرة "الخير". والعالم الحسّي صنيعة الإله "الخالق"، الذي يستمدّ "سائرُ الآلهة" وجودَهم منه. وهؤلاء الآلهة ليسوا سوى أرواح الكون الإلهيّة، وأرواح الكواكب والأرض، الذين تُقدّم لهم طقوس العبادة... واسم هؤلاء الآلهة: زوس وأثينا الخ...

ليس لنا أن نعرض لفلسفة أفلاطون كلّها. ما يهمّنا منها لغرضنا، هو بضع نقاط مفصليّة. منها تأكيدها على خلود الروح وعلى الحساب بعد الموت، وعلى فكرة العقاب. ومنها أيضاً تأكيده على تفوّق الفضيلة على جميع الأشياء، وعلى اعتبار الالتزام بالفضيلة تشبّهاً بالحياة الإلهيّة. والفضيلة تقوم على تحرير الروح من "سجن" الجسد وتبعية الحسّيّات. أما مصدر الحياة الفاضلة، فإنما هو حبّ الجمال والخير، وهو الذي يحمل النفس على تأمّلٍ يقودها إلى السعادة. وليس للجماهير أن تبلغ هذه الحياة الفاضلة ولا هذا التأمل. فللجماهير عبادة الآلهة العاديين. أما النخبة الحكيمة، فهي التي تتمتّع بتعاون الألوهة السامية، التي تحرّك وحدَها قبسَ الألوهة الكامن في أعماقها.

ج- مذهب أرسطو (384-322 ق. م.):

تستوقفنا من مذهبه فكرتان رئيسيّتان في بحثنا: الله والأخلاق.

إلهُه هو الفعل الخالص، العقل الأول الذي يتفكّر ذاته، الكمال المطلق، وإذن الخير الكامل الذي يتوقّف الكون عليه. ما يفتقر إليه هذا "الإله"، هو غموض العلاقة بينه وبين "الكون"، من حيث الحرية في عملية الخلق أوّلاً، وغياب "العناية الإلهية" في علاقته بهذا الكون ثانياً.

بالطبع هناك في مذهب أرسطو، "عقول سامية" تحرّك الكواكب، كما في مذهب أفلاطون. وهناك أيضاً "آلهة السماء الإغريقية"، كما لدى أفلاطون، التي لم يُبدِ أرسطو رغبةً صريحةً في التخلي عنها وعن طقوس عبادتها.

أما مفهوم الأخلاق لدى أرسطو، فينطوي على سموٍ كبير. فهو يرى "أن سيرة الإنسان العاقل هي أعظم تكريم يُقدّم للألوهة". أما فكرة الحساب الأخروي، فكانت بعيدةً عنه.

وقد واصل تلاميذ أرسطو الدرب الذي شقّه، في اتجاهات مختلفة ومتباعدة أحياناً: بعضهم في اتجاه وضعيٍ علميٍ، وبعضهم في اتجاهٍ نفسي، وبعضهم في اتجاهٍ طبيعيٍ ماديّ. إلا أن تأثير هذا المذهب، في العهد المسيحي الأول، ظهر بصورةٍ خاصة في ما استوحته الفلسفة الرواقية، من عناصر فعلت فعلَها في العقلية آنذاك. وقد يشرح ذلك انعدام الودّ الذي أبداه "المدافعون الأوائل" من آباء الكنيسة، حيال أرسطو، مثل القديس "يوستينوس النابلسي" و"تاتيانوس" وسواهما...

د- مذهب الرواقية:

يرى الفيلسوف "زينون القبرصي" (335–264 ق.م.) مؤسّس الرواقية، أن الشيء الوحيد الموجود هو "العالم". ولكن "العالم" إلهي، بوصفه مظهراً من مظاهر الإله الكلي الذي هو "النار". هو "نار" جسدية، كسائر الأشياء كلّها، ولكنها في آنٍ واحد، نار عاقلة، وهو "القانون والعقل" (اللوغوس). هذه النار الإلهية محايثة للعالم، هي المصير وهي العناية الكلية، ومنها تأتي النفس البشرية العاقلة، وكذلك آلهة العناصر المادية في الطبيعة وآلهة الكواكب. ولكنها، في نقائها الأوّلي، الأثير أي الإله زوس، وهو الأزلي الأوحد والإله الأوحد. أما العالم بوصفه "كائناً حياً"، فإن "زوس" نفسه هو روحه الإلهية. وهذا العالم تتأكله النار الإلهية بصورة دورية، ليُبعث من جديد كما كان، وفقَ قانونٍ حتمي يخضع له كل شيء، حتى تلك النار الإلهية التي هي الإله "زوس".

على هذه القاعدة من الحلولية، يبني "زينون" مفهومه للأخلاق، وهو في نظره أهم ما لديه. فهو يرى أن الإنسان يسعى لبلوغ السعادة. ولكن السعادة ليست سوى وعي الفضيلة. والحال أنّ الفضيلة تقوم على اتّباع

الطبيعة، أي العقل، أي ما يشارك به الإنسان في ألوهية "اللوغوس"، اللوغوس الذي هو القانون الأعلى لكل شيء. فبات على الإنسان أن يركّز همّه كلّه على أن يعيَ بعقله مَقاصد اللوغوس الإلهي ورغباته، ليخدمها طوعاً. هذا الأمر تحقّقه الجماهير دون وعيٍ منها، أو على الرغم منها. أما الحكيم، فإنه يحقّقه تلقائيّاً، وهو بذلك يندرج في مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم. وكلّ ما عدا ذلك، فلا قيمة له، بل إن الحكيم يعتبره وهماً.

وقد عرفت الرواقية تطوّراتٍ كثيرةً. حسبُنا أن نشير إلى أمرين:

الأوّل أن الرواقية، في الفترة التي ظهر فيها المسيح، كانت أكثر المذاهب الفلسفية انتشاراً في حوض البحر المتوسط، ولا سيما في جانبه الشرقي.

الثاني أن اسمها ورد من المكان الذي كان الفيلسوف "زينون" يعلّم فيه تلاميذه: كان "رواقاً" جميلاً يدعى رواق "بيكيلا" في أثينا.

هـ- الخلاصة عن الفلسفة الإغريقية:

لا شك أن هذا الاختمار الفلسفي الطويل، أبرزَ بنقاء أعظم فكرةَ الألوهة، بالقياس إلى تعدّد الآلهة والأساطير اليونانية والرومانية.

إلا أن فكرة الوحدانيّة الإلهيّة كانت ما تزال بعيدة جداً. فلا أفلاطون ولا أرسطو ولا زينون، استطاعوا أن يتخلّصوا من هناتٍ كبرى في مفهوم الألوهة، ولا خصوصاً استطاعوا أن يتحرّروا من "واقعٍ" تعدّد الآلهة في سماء الإمبراطورية.

ولكن التقدّم الصريح والأوضح كان على نطاق المفهوم الأخلاقي. فالجميع يُجمع على أن الحياة الأخلاقية، يجب أن تكون انعكاساً للحياة واقتداءً بها. ولكنهم لم يتبيّنوا قط طبيعة هذا الاقتداء وشروط تحقيقه.

3) الأخويات الصوفية:

أ- الأخوية الأورفية:

يشوب الغموض تاريخَها. ولكن اسمها يعيدها إلى البطل الأسطوري "أورفيوس"، الذي "عاش" في القرن السادس ق.م. وقد حِيكت أساطير كثيرة

حوله، نشأت بحكمها حركة دينية إغريقية صرف، عرفت تطوراً كبيراً، ولكنها تُلخّص بالنقاط التالية: في البدء تمرّد "الجبابرة" على إله الآلهة "زوس"، فأحرقهم بصاعقته... من رماد الجبابرة المصعوقين، وُلد الإنسان، الذي أصبحت روحه سجينة جسد مادي، نتيجة الخطيئة الأولى: خطيئة تمرّد الجبابرة... فبات على الإنسان أن يخلّص القبس الإلهي القابع في أعماقه، وهو أرقى ما في الإنسان، بواسطة سلسلة من التقشّفات والتطهّرات، تقوده من حياةٍ إلى حياة – التقمّص – حتى التحرّر الأخير والخلاص...

كانت الأورفية أقرب إلى الديانة الطقسية، منها إلى الحركة الفكرية... وقد كانت لها طقوس، منها المعلَن ومنها السري، الذي يشرف عليه "مدرّب متخصّص".

وقد عرَفت انتشاراً واسعاً حتى في الطبقات الشعبية. كما وأنّ مختلف الفلسفات الدينية، و"العبادات ذات الأسرار" استقت منها. صحيحٌ أنها لم تتحرّر من تعدّد الآلهة المألوفة في المجتمعات القديمة، ولكنها أظهرت نمطاً من الأخلاق والدعوة الأخلاقية، كان أحد أرقى الأنماط التي عرفَتها العصور القديمة. إلاّ أنها إبان ظهور المسيحية، كانت قد تلاشت بوصفها عبادة، ولكنها ظلّت تؤثر كثيراً بوصفها عقلية.

ب- الأخوية الفيثاغورية:

"فيثاغورس" فيلسوف إغريقي عاش في القرن السادس ق.م. بلغ من تأثيره أن الأسطورة تناولته بحيث نشأت انطلاقاً من تفكيره الرياضي والفلسفي، ظاهرةٌ دينية أخرى تميّزت عن الأورفية بمنحيَين اثنَين: المنحى التنظيمي والمنحى التأمّلي الفلسفي. فقد كان يعتبر الأرقام وبالتالي الرياضيات، أساسَ كل شيء في هذا الكون، حتى إنّ الآلهة نفسها والبشر يخضعون لها.

انتظم كل ذلك في طقوس دينية، عرفت في القرن الثالث ق.م. حيويةً ملحوظة. إلاّ أنّها لم تنَل في روما حظوة الاعتراف الرسمي.

ج- من أهم معتقداتها القول بالتقمّص سعياً وراء خلاص مُرتجى.

4) العبادات ذات الأسرار:

كانت كثيرة. نقتصر على بعضها.

أ- أسرار "إيلوزيس":

مدينة "إيلوزيس" في اليونان تقع إلى الشمال الشرقي من أثينا.

كانت منذ القرن السابع ق.م. مركزاً لعبادة وفدت إليها من جزيرة كريت، تُكرّم فيها إلهة الخصب. وكانت مراسم "الأسرار" تقام مرةً كل سنة، وفيها احتفالان، الأول يُدرَّب فيه "طالب الخلاص" على طقوس أوّلية يحتلّ فيها تعاطي الجنس - تشبّهاً بإلهة الخصب "ديميتير" - الجانب الأهم، والثاني يخضع فيه "طالب الخلاص" نفسه، بعد عام كامل، لطقوس جديدة تزيده تشبّهاً بالإلهة... ولم يكن يُحرم من هذه العبادات سوى كبار المجرمين والبرابرة.

أما الغاية الكبرى من تعاطي هذه "الأسرار"، فكانت ضمان الخلاص في الحياة الأخرى، ولا شيء سوى ذلك، وذلك دون أن يُلزَم "طالب الخلاص" بأي تغيير أخلاقي أو مسلكي.

وقد كان لهذه "الأسرار" رواج كبير قبل وبعد ظهور المسيحية. ولكنها شيئاً فشيئاً، أخلت المكان لأسرار أخرى وفدت من الشرق.

ب- أسرار "إيزيس":

وفدت من مصر أيام حكم البطالسة (مطلع القرن الرابع ق.م.). وانتشرت سريعاً في حوض المتوسط. ولكنها لم تنَل الاعتراف الرسمي في روما، إلا في عهد الإمبراطور "كاليغولا" (37-41 ب.م.). وكانت أشبه شيء بنسخة شرقية لأسرار "إيلوزيس". ولكن إلهَين مصريين، هما "إيزيس" و"سيرابيس"، حلاّ هنا محلّ البطلين الإغريقيّين "كوريه وديميتير". ويضاف فيها إلى "الخلاص الأُخروي"، الذي كانت "تضمنه" أسرار "إيلوزيس"، يقين التكريس للإلهة "إيزيس"، بحيث ينال "المؤمن" سلطتها الإلهية على

الكون، ويفلت من "قيد" القدر المفروض على سائر البشر على هذه الأرض، ويفلت أيضاً من "سجن الجحيم" في الحياة الأخرى. وهو باختصار يصبح إلهاً نورانيّاً، ويدخل في مصاف الآلهة السماويين الذين، لحظة موته، يستقبلونه كواحد منهم في الآخرة.

ج- أسرار "كيبيليس":

وفدت من منطقة "فريجيا" في آسيا الصغرى، وقد انتشرت على نطاق واسع في روما في القرن الثالث ق.م. بَطَلاها الإلهة الأم "كيبيليس" وعشيقها الإله "اتّيس"، الذي يشاركها الألوهة والوظيفة. فهي "مصدر الحياة" بوصفها "الأم الكبرى"، وهو شريكها بوصفه "إله الزرع". والطقوس فيها تشبه كثيراً بمضمونها وممارساتها، الطقوس السابقة. وكانت تُقام خلال شهر آذار، على مرحلتين، الأولى يوم 15 منه و24 منه. ثم يعقبها ثلاثة أيام متلاحقة من أعياد "فَرِحة" تُكرّم فيها "الإلهة الأم".

ما تجدر الإشارة إليه أنّ طقوس هذه الأسرار، تنطوي على احتفالين هامّين: الوليمة المقدسة التي يشترك فيها "المتدرّب" بحياة "الإلهة الأم"، واحتفال أُضيف خلال القرن الثاني (ب.م)، يُرَشّ فيه "المتدرّب" بدم الأضحية تكفيراً عن خطاياه.

لاقت أسرار "كيبيليس" ترحيباً كبيراً في روما، وتبنّاها بعض الأباطرة، بدءاً من "أوغسطس". ومن أبرز "آباء" الكنيسة، "اقليميس الاسكندري" (150-211 ب.م)، الذي كان، قبل اهتدائه، من أتباعها.

5) آلهة الخلاص:

أ- لقب المخلّص الإلهي:

لم يُعرف هذا اللقب في العهد الوثني الإغريقي، قبل القرن السابع ق.م. منذ ذلك الحين بدأ يُطلق على عدد كبير من الآلهة. وشيئاً فشيئاً أصبح صفةً ملازمة للألوهة. ثم أُطلق على بعض الملوك "المؤلَّهين"،

كالبطالسة في مصر، والسلوقيين في سورية، وأخيراً القياصرة في روما. أما آلهة "الأسرار"، فكانت وظيفة "المخلّص" تلازم طقوسهم بالضرورة، وإن لم يُطلق عليهم أنفسهم صفة المخلّص دائماً.

ب- ما المعني بالخلاص؟...

هو "خلاص" الصحة بالدرجة الأولى. وخلاص استعادة العافية بعد مرض: لذا كان الإلهان "أبولون" و"أُسكلِيبيوس" الإلهين المخلِّصين بالدرجة الأولى. ثم هناك "خلاص" الازدهار المترافق بإقصاء الكوارث والأخطار. أما القياصرة فكانوا "مخلِّصين" خصوصاً من حيث أنهم يحقّقون السلام والأمن للفرد والجماعة.

وكانت العبادات "ذات الأسرار"، تحدّد للآلهة دورَ خلاصٍ في ضمان السعادة بعد الموت.

ج- طرق تحقيق هذا الخلاص:

يتم بالاتحاد "السري" بالإله أو الآلهة، عبر ممارسات طقسية تفترض التحرّر من الخطيئة، ولكنها تبيح "فحشاً قدسياً"، جدواه في ضمان السعادة في الآخرة. وقد يترافق كل ذلك بإحساس داخلي "بالحركة الإلهية"، ولكن دون إحداث تغيير أخلاقي في واقع الحال.

د- من هم هؤلاء الآلهة؟

كثرت أسماؤهم مثل: "اتّيس" و"ايزيس" و"اوزيريس" وسواهم...

إلا أن وظيفتهم واحدة: أشخاص أسطوريّون حاول الإنسان من خلالهم أن يصنع لنفسه "خلاصاً"، يرضي على نحو غريب ومتناقض، أسوأ ما فيه من غرائز، وأعمق ما فيه من حنين إلى الألوهة أو إلى تخطّي ذاته... صحيح أنه تصور أيضاً موت الإله الأسطوري وقيامته، ولكنه لم يتصوّرهما يوماً في علاقة خاصة بوضع الإنسان، ولا بخلاص الإنسان. إنما موت الإله جاء نتيجة مغامرة خاصة به، وقيامته جاءت أيضاً نتيجة

تـدخّل "إلهـة" تريـده لـذاتها لـيس إلا... ولم يُلحـظ في أي مـن الـديانات القديمـة كلـها، ولا في أسـرارها، أي إشـارة إلى أن مـوت الإلـه المخلّـص تمّ بوصفه تضحية كفّارة عن خطايا البشر. ولـيس هنـاك أي إشـارة أيضـاً إلى أن موت "الإله المخلص" هو الذي يجلب الخلاص والحياة لأتباعه.

ذلك هو الإطار الأوسع الذي ظهر فيه المسيح.

وقد اقتصرنا البحث على الخطوط الكبرى.

الفقرة الثالثة: العالم اليهودي في فلسطين زمان المسيح[1]

إنّ المعرفة الدقيقة لتاريخ يسوع وللتعليم الذي حمَلَه، تفترض حتماً معرفة البيئة التي عاش فيها. ذلك أن الظروف التي أحاطت بيسوع تنتمي إلى اليهودية من حيث الأفكار والتقاليد والتطلّعات. وليس من يشك بأن يسوع كان يهودياً، وأنه خاطب اليهود، واختار تلاميذ له من وسط يهودي، وأن أوّل أتباعه كانوا يهوداً. ومن الواضح أنّ الأناجيل كلّها تموج في جوٍّ يهودي.

إلا أنّ الوسط التاريخي والسياسي والثقافي والاجتماعي، الذي يُطلق عليه اسم "الوسط الإنجيلي"، هو بكلّيّته وسط فلسطيني، وهو وسط يهود فلسطين، وهو لا يمتّ إلى يهود الشتات بصلة. وهو يندرج من حيث التوقيت الزمني، ما بين موت هيرودس الكبير (العام 4 ق. م.) وموت يسوع نفسه. وقد كان إطاره الجغرافي العام مناطق ثلاث هي: اليهودية والسامرة والجليل. وكان يتّفق سياسيّاً مع فترة حكم "رؤساء الربَّع الهرودوسيين" والولاة الرومان. أما على الصعيد الديني، فكانت السيطرة فيه للفرّيسيين.

بالطبع، كان اليهود منتشرين جداً خارج فلسطين، وهذا ما يُسمّى بيهود الشتات. إلا أنّهم لا يعنونا كثيراً بالنسبة إلى دراستنا. ولسوف نتصدّى لهم يوم ندرس انتشار المسيحية على يد التلاميذ، ولا سيما القديس بولس.

[1] انظر الخريطة في الملحق الملون.

1) مصادر هذه الدراسة

هذه المصادر كثيرة ودقيقة.

1- الإنجيل بجميع أسفاره:

لا نعني بالإنجيل الأسفار الأربعة التي يروي فيها الإنجيليون سيرة يسوع وحسب، وإنما نحن نعني به أيضاً أعمال الرسل ورسائل التلاميذ... كلّها تزخر بتفاصيل دقيقة حول الأفكار الدينية، والعادات والحياة الدينية والأخلاقية، التي كانت سائدة في الوسط اليهودي آنذاك. قد تكون تفصيلية بعض الشيء، ولكنّها تكفي لرسم ملامح واضحة، بشأن التأثير الفرّيسي وتصوّر المسيح المنتظر، والممارسات اليهودية بشأن الشريعة والطقوس الخ...

2- مؤلّفات المؤرخ اليهودي "يوسيفوس":

ولد "يوسيفوس" حوالي عام 37 ب.م. في القدس، من أسرة كهنوتية فرّيسية. وكان من قادة ثورة عام 66، ثم انقلب عليها وأصبح أحد المقرّبين للقائد الروماني "تيطس"، وقد شهد سقوط القدس عام 70، وكان أوّل من أرّخ لهذه الثورة ولنهايتها المأساوية. من هنا كانت الشبهات المشروعة التي تحوم حول مؤلّفاته الأربعة المعروفة: "الحرب اليهودية" (71-72)، "العاديات اليهودية" (93)، و"السيرة الذاتية"، (95) و"ضد ابيون" (97).

3- الأدب اليهودي المنحول:

هو مجموعة من المؤلّفات التي لا يُعرف مؤلّفوها، والتي تمتد من القرن الثاني قبل المسيح، إلى نهاية القرن الأول بعده. تكاد تنتمي كلّها إلى الجنس الرؤيوي، وقد اختلطت فيها على نحوٍ غريب، أنبل التطلّعات الدينية مع أكثر الأفكار والتوقّعات غرابة وإسفافاً. وقد وُضِعت كلّها تحت أسماء شهيرة. حسبنا أن نذكر أهمّها:

"كتاب اخنوخ" (160-63 ق.م.) - "كتاب اليوبيلات" (150-100 ق.م.) - "وصية الآباء الإثني عشر" (القرن الأول ق.م.) - "مزامير سليمان" (80-40 ق.م.) - "مقاطع من مؤلّف صدّوقي" (القرن الأول ق.م.) - "انتقال موسى" (50-40 ق.م.) - "كتاب عزرا الرابع" (نهاية القرن الأول المسيحي) - "رؤيا باروخ" (مثله).

4- التلمود:

كلمة "تلمود" تعني التعليم. واسم العَلَم هذا يعني مؤلَّفاً يضم مجموعاتٍ من التفاسير والشروحات الخاصة بالتوراة، ومن الفتاوى القانونية والوعظ الأخلاقي، والعديد من الذكريات، بعضها يرجع إلى أصل تاريخي، وبعضها أسطوري.

جاء "التلمود" وليد عمل طويل. وقد بُدِئ بجمعه في أواخر القرن الثاني الميلادي. ويعود الفضل فيه إلى ثلاثة حاخامات هم: "عكيبا" و"ميئير" وخصوصاً "يهوذا" الملقب بالقدّيس، وقد ثبّتوا كتابةً "تعليم" المعلمين السابقين. وأُطلق على هذا العمل اسم "الميشنا" أي "المراجعة".

ثم كان أن أضيف إلى "الميشنا"، تعليقات وشروحات جديدة من قبل بعض معلّمي الأجيال اللاحقة. فأُطلق على هذه الإضافة اسم "الجيمارا".

وكان كتاب "التلمود" المؤلّف الذي يجمع بين دفتيه "الميشنا" و"الجيمارا".

إلاّ أنّ تمييزاً أساسيّاً قد نشأ ضمن "التلمود" الواحد، نظراً للبيئة التي نشأت فيها أقسامه: فهناك "تلمود القدس"، و"تلمود بابل". فالميشنا تحتوي (63) فصلاً موزّعاً على ستة أقسام، وهي تنقل أقوالاً وأحكاماً وتوجيهاتٍ من وضع حاخامين سبقوا المسيح أو عاصروه. لذا كانت "الميشنا"، بسبب قدمها، أعظم قيمةً من "الجيمارا".

5- مؤلّفون أغارقة ورومانيّون:

هناك العديد من المؤلِّفين القدامى الذين تحدّثوا عن تاريخ اليهود وديانتهم وعاداتهم. نخصّ بالذكر من اليونانيين: "بوليبوس المؤرخ" (حوالي 200-125 ق.م.) و"ديودوروس المؤرخ" (القرن الأول ق.م.) و"سترابون الجغرافي" (58 ق.م.- 21 ب.م.) و"بلوتارخوس" المؤرخ (حوالي 50-125 ب.م.). ومن اللاتين: "شيشَرون" الخطيب (106-43 ق.م.) والمؤرخ "تيتوس ليفوس" (حوالي 59 ق.م.- 17 ب.م.) والمؤرخ "تاكيتوس" (55-120 ب.م.) والمؤرخ "سُويتُونيوس" (حوالي 69-125 ب.م.).

2) لمحة جغرافية

هذه اللمحة الوجيزة تتناول الموضوع من زاويتيه: البشرية والسياسية.

كانت فلسطين (واسمها قديماً كان: سورية الفلسطينية)، إبان موت هيرودس الكبير، تُحدّ من الشرق بصحراء العربية، من الجنوب بالمملكة النبطيّة وشبه جزيرة سيناء، من الغرب بالبحر الأبيض المتوسط، من الشمال بولاية سورية الرومانية.

كانت مملكة هيرودس تضمّ المناطق التي تقع حول ضفّتي نهر الأردن والبحر الميت: وهي الجليل والسامرة واليهودية وبلاد آدوم، إلى الغرب. أما إلى الشرق، فهي: مرتفعات الجولان، وسهول حوران وعِبر الأردن أو "بيريه". أما المنطقة المسمّاة بـ"الديكابوليس" أي منطقة المدن العشر الواقعة ما بين جنوب الجولان وشمال "عِبر الأردن" (بيريه)، فلم تكن تخضع للملك هيرودس.

كانت مساحة فلسطين تقارب (30.000) كم^2. وكان عدد سكانها اليهود يقارب المليونين، وربما ثلاثة ملايين.

(1)- اليهودية:

1. **حدودها: تقع ما بين البحر المتوسط والسامرة والأردن وبلاد آدوم، وكانت تقابل، من حيث المساحة، المملكة التي أسّسها الملك داود ليس إلاّ.**

2. **تأثيرها: كانت قلب الحياة اليهودية، دينيّاً وقوميّاً. وقد حافظت على زخم الحياة اليهودية القديمة، وإن كانت أُثقلت بدقائق مفرطة العدد، بحكم روح الفتوى التي أدخلها الفريسيّون، ونمط تفسيرهم للشريعة.**

3. **اللغة: كانت اللغة هي الآرامية، وقد حلّت منذ النفي، محلّ العبرية. وكانت اليونانية مألوفةً لدى الكثيرين من سكان القدس وسكان شاطئ المتوسط، مع أنّ اليونانية كانت لغة المحتل وعَبَدة الصنم. إلا أنها كانت لغة الموظفين الرومان، والحجّاج الوافدين من الشتات، والتجار الأجانب، فضلاً عن أنها كانت قد انتشرت على نطاق واسع في اليهودية، منذ العهد**

السلوقي وإبان حكم هيرودس. أما اللغة العبرية الكلاسيكية أو القديمة، فكانت وقفاً على الضالعين في دراسة الشريعة الموسوية. ومع أنها كانت تُستخدم في الطقوس الدينية، فقد كانت في عداد اللغات الميتة.

4. **مدنها**: كانت أعظمها القدس، مدينة جبليّة على ارتفاع (790) متراً، يطلّ عليها شرقاً جبلُ الزيتون. وهي تنشر أبنيتها على هضبتين، شرقية وغربية، يفصلهما وادي الجبّانين. فعلى الغربية بنيت قصور المكابيّين وهيرودس ورئيس الكهنة، بالإضافة إلى "المدينة العليا". وعلى الشرقية تقع قلعة الحاكم الروماني المسمّاة "انطونيا"، والهيكل، ومن ثم "المدينة السفلى". وكانت أسوار ضخمة تحيط بالمدينة من كل جانب، فضلاً عن الأودية الطبيعية العميقة، التي كانت تَضَع حاجزاً طبيعياً قوياً من الغرب والجنوب والشرق.

إلى الشرق من القدس، وعلى المنحدر الشرقي لجبل الزيتون، تقع بلدتا بيت عنيا (بلدة لعازر وأختيه مريم ومرتا)، وبيت فاجي.

إلى الجنوب: بيت لحم على بعد قرابة عشرة كلم.

بجوار البحر الميت (390 متراً تحت سطح البحر)، مدينة أريحا حيث قصور هيرودس، وإلى غربها مباشرة "جبل التجربة" المسمى بجبل "القرنطل". أما بلدة عمّاوس فتقع على الطريق بين القدس وحيفا، على مبعدة (30) كم.

5. **سكانها**: منذ عهد المكابيّين (عام 167 ق.م.) طغى السكان اليهود على الوثنيّين، فباتت معظم المدن والقرى يهوديةً صرفاً، ومنها خصوصاً حيفا. ولم تحتفظ بوثنيّتها إلاّ بعض مدن الساحل، مثل غزة وعسقلان واشدود.

(2)- الجليل:

1. **حدودها**: سُمّيت كذلك لأنها كانت قديماً، الموطن الذي "جلا" إليه الوثنيون. وقد أعاد اليهود إليها حضورهم الكثيف، منذ مطلع القرن الأول قبل المسيح.

2. **مدنـها**: أبـرز مـدينتين فيهـا: طبريـا وصـفوريس، ويبـدو أن يسـوع لم يدخلهما، وكان سكانهما مزيجاً من اليهود والوثن.

وثمّة بلدة الناصرة، وجبل ثابور (التجلي)، (ارتفاع 562 متراً).

هناك أيضاً بحيرة طبريا (208 م تحت سطح البحر)، وما يحيط بها من مدن وقرى، على ضفتيها الشرقية والغربية إلى الشمال. ما يعنينا منها خصوصاً هي: إلى الغرب، على الطريق من القدس إلى دمشق: مجدل وكفرناحوم، وبينهما سهل "جَنّصارت"، وفي أقصى الشمال، بلدة "كورازين" - وإلى الشرق، في أولى مشارف مرتفعات الجولان، سهل "بيت صيدا" وبلدة "بيت صيدا"، منشأ كل من سمعان بطرس، وأندراوس وفيليبس، وهم أوّل التلاميذ. وإلى الجنوب من "بيت صيدا" منطقة "الجيراسيين".

3. **سكانها**: اشتهر سكان الجليل بعنفهم وعدوانيّتهم. وما كانوا ليركنوا لحكم هيرودس، عميل الرومان الوثنيين. وكانوا سريعي التمرد، وقد سجّل لهم التاريخ ثورات كثيرة ضد الرومان. وما كانوا ليقبلوا بالتفاسير الكثيرة التلوّن، التي كانت مألوفة لدى سكان القدس وزعمائها.

4. **لغتها**: كانت اللغة السائدة الآرامية. كما كانت اللغة اليونانية مألوفةً لديهم، نظراً لانفتاح المنطقة على التأثير الهيليني، منذ القرن الثالث ق. م. وقد يكون يسوع عرف اليونانية أيضاً.

(3)- المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن:

تُقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- "**عِبر الأردن**": هي المنطقة الواقعة على طول نهر الأردن، حتى منتصف شاطئ البحر الميت، وتحدّها من الشمال مدينة "بيلاّ"، وإلى الشرق مدينتا "جيرازا" و"فيلادلفيا" (عمّان الحالية). من أهم مراكزها، بلدة "ماكِيرونتة"، حيث قلعة شهيرة للملك هيرودس، وحيث اعتُقل، في رأي المؤرخ اليهودي "يوسيفوس"، يوحنا المعمدان. كانت هذه المنطقة، منذ

عهد المكابيّين، قد أصبحت تحت السيطرة اليهودية. وقد أمضى فيها يسوع بعض الأشهر، في أواخر حياته العلنية.

ب- "**المدن العشر**": هي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من بحيرة طبرية، على ضفتي نهر الأردن، وإلى الشرق من "عِبر الأردن"، وكانت تضم عشر مدن، أهمها "بيسان" الحالية، غَدَرَة، بيلاّ، جيرازة وفيلادلفيا. وكانت كلّها قد تأثرت جداً بالحركة الهيلينية منذ أمد بعيد، وكان معظم سكانها من عَبَدة الوثن.

ج- **شمال المدن العشر**: تضم مناطق حوران والجولان والتّرَاخون. وكان معظم سكانها غير يهود. من مدنها، يهمّنا خصوصاً "قيصرية فيليبّس"، التي تقع على مشارف حدود ولاية سورية. وقد شُيّدت بجوار نبع، هو أحد روافد نهر الأردن، وأقيم فيها معبد شهير للإله "بان"، إله القطعان والرعاة، وكانت تحمل اسم هذا الإله، "بانياس". فأعاد رئيس الرّبع فيليبّس بناءها، وأطلق عليها اسمه واسم القيصر معاً، فأصبحت "قيصرية فيليبّس". وقد جاء ذكرها في الإنجيل، إبان حادثة هامة جرت ليسوع مع تلاميذه (راجع متى 16/13-20، ومرقس 8/27-30).

(4)- السامرة:

1. **حدودها**: هي المنطقة الواقعة ما بين الجليل شمالاً واليهودية جنوباً، غرب نهر الأردن.

2. **سكانها**: كان يقطنها اليهود من مملكة "إسرائيل". وفي عام 721 ق.م. استولى سرجون الثاني الآشوري على العاصمة، السامرة، ورحّل القسم الأكبر من السكان إلى بلاده، واستبدلهم بمستوطنين جدد، اختلطوا بالسكان الأصليين. فباتوا في نظر اليهود، نجسين، لا تجوز مخالطتهم. ولما سمح الملك الفارسي "قورش" بعودة اليهود إلى بلادهم، عام 538، وأخذوا يعيدون بناء الهيكل، لم يسمحوا لسكان السامرة بمساعدتهم. وفي القرن الرابع ق.م. طُرد من القدس كاهن يدعى "مَنَسّى"، لأنه تزوج امرأة

سامرية، فأقام في السامرة، وبنى على جبل "غرِزيم" هيكلاً أراده منافساً لهيكل القدس، ونظّم فيه خدمة كهنوتية، فاعتُبِروا منشقّين.

3. **معتقدها: كانت معتقدات السامريّين وطقوسهم لا تختلف كثيراً عن تلك التي لليهود. ولكن قضية المعبد والكهنوت خلقت حقداً عميقاً ومتبادلاً. وقد باتت صفة "سامري" تعني إهانة بالغة. وفي الإنجيل إشارات كثيرة إلى السامرة والسامريين (يوحنا 4– و48/8 – ولوقا 17/11–19، ولوقا 9/51–56).**

3) لمحة تاريخية

(1)- هيرودس الكبير:

تهيمن شخصيّته على المرحلة التي سبقت مباشرة ظهور يسوع في فلسطين. وقد لُقّب بالكبير لسببين: الأول لتمييزه عن سابقيه، الثاني نظراً للدور السياسي الذي قام به. فمن هو وكيف جاء إلى الحكم؟...

عودة سريعة إلى الفترة السابقة، التي حكم فيها المكابيّون أو "الحَشْمونِيّون".

1. **إثر وفاة الاسكندر الكبير، تقاسم كبار قادته إمبراطوريّته الشاسعة (عام 323)، وما يهمّنا منهم اثنان:**

- بطليموس الأول، ابن "لاجي" - من هنا اسم السلالة: البطالسة أو اللاجيين - حكم مصر منذ عام 323، وأعلن نفسه عليها ملكاً عام 306، وتوفّي عام 283.

- وسينتهي عهد البطالسة في مصر على يد الرومان عام 31 ق.م. إثر معركة "اكسيوم" وانتحار كليوباترا.

- سلوقس الأول حكم بابل، وأسّس سلالة "السلوقيّين"، وقد اغتيل عام 281. وقد خلفه على سورية وآسيا الصغرى، "انطيوخس الأول" الملقب بالمُخلِّص... وقد وضعت روما حدّاً، لحكم السلوقيّين عام 64، باستيلائها على سورية.

2. طوال قرن كامل تناوبت الحروب بين البطالسة والسلوقيين، للسيطرة على فلسطين والساحل السوري. وفي عام (200) ق. م. طَرَد السلوقيّون المصريين نهائياً من سورية وفلسطين، وفرضوا سلطتهم على اليهودية، حتى قامت ثورة المكابيّين ضدّ حكم السلوقيين، في عهد الملك "انطيوخس الرابع"، الذي حاول أن "ينهي" كلّياً الديانة اليهودية.

3. ثورة المكابيّين (قد تعود التسمية إلى كلمة تعني "المطرقة")، قامت على يد كاهن يهودي اسمه "ماتَتْيِاس"، وأولاده، وكان أشهرهم "يهوذا" الذي لُقّب "بالمطرقة". تواصلت الثورة سبع سنوات (167-160 ق. م.)، ولكنها لم تنته كلّياً إلا بانتزاع السلطة تدريجياً من السلوقيين، وقد تمّ ذلك على مراحل:

- الاعتراف بالحرية الدينية الكاملة عام 162.
- مَنح لقب رئيس الكهنة لشقيق "يهوذا"، واسمه "يوناتان"، عام 152.
- الإعفاء الكلّي من الضرائب في عهد شقيق آخر ليهوذا، هو "سمعان"، عام 142، الذي اغتيل عام 134، فخلفه ابنه "يوحنّا هيركانوس"، فحكم من عام 134-104.

4. أحد خلفاء "يوحنا هيركانوس"، هو "هيركانوس الثاني" (63-43)، الذي دخل في نزاعٍ على السلطة مع أخيه "ارستوبولس الثاني". فدخلت جيوش روما فلسطين، بناء على طلب من "هيركانوس الثاني". فكلف "بمبيوس" هيركانوس بالمهمّتين: الدينية (بتعيينه رئيس كهنة) - والمدنيّة - (بتعيينه حاكماً على اليهودية)، ولكن في تبعية تامة لحاكم سورية الروماني. وقد انتزعت السلطة الرومانية من "حاكم اليهود"، ساحل فلسطين والسامرة و"المدن العشر"...

5. أقامت روما في القدس ما يكاد يكون "مديراً للبلاط"، إلى جانب هيركانوس الثاني، من أصل "آدومي"، واسمه "أَنْتيباتِر". وفي عام 47، مُنح هذا لقب "والي"، وانتزع لولديه سلطاتٍ عسكريةً واسعةً، فعيّن أحدهما،

وهو "فازائيل" حاكماً على القدس، وثانيهما، وهو هيرودس، حاكماً على الجليل. وكان أن مُنِحا بعد فترة وجيزة - أي عام 45 - لقب "رئيس الربع".

6. في الفترة نفسها، غزا "البارْتيّون" فلسطين، وأُسِر "هيركانوس الثاني"، وانتحر "فازائيل"، ونصّب الغزاة ابن "اريستوبولس الثاني"، "انتيغوس" بالسلاح، واستمرت المعركة ثلاث سنوات حتى كُتب له النصر، ودخل القدس فاتحاً، وقطع رأس خصمه عام 37، الذي كان ملكاً ورئيس كهنة في آن واحد.

7. في المرحلة الأولى من حكمه، سعى هيرودس إلى إرساء قوته، فتزوج أميرة من أسرة المكابيّين. ولكنّه ظل في نظر الجميع "الغريب الدخيل"، فواجه بقوة وعنف خصومه، ولجأ إلى السلب والقتل والاغتيال، ولم يتورّع حتى عن قتل زوجته وحَمَاتِه وسواهما الكثيرين. وواجه حزب الفرّيسيّين القوي، كما أرهب أغنياء البلاد. وفي عام 31، منحه الرومان تأييدهم، إذ لقّبوه بـ "ملك اليهود".

8. واجه أيضاً عملية بناء في الداخل، بعد أن أرسى أسس حكمه، جعلت منه "قيصراً" صغيراً في بلاده... وقد حاول أن يقلّد في كل ذلك قياصرة روما، ولم يتورّع عن بناء القصور والمُدرّجات والمسارح حتى في القدس، بعد أن جدّدها وأعاد بناء سورها الضخم. وبدأ بناء هيكل فريد في القدس، لم تكتمل أعماله البنائية إلا عام 66 ب.م. أي قبل تدميره بأربع سنوات فقط... كما أنه بنى هياكل وثنية، تكريماً لأولياء نعمته في روما، وذلك في مختلف أنحاء مملكته. وأعاد بناء مدينة السامرة، وأنشأ مدينة على البحر، أطلق عليها اسم "قيصرية". وجدّد بناء مدينة أريحا كلّيّاً. وزود مملكته بالعديد من الحصون، أبرزها كان حصن "ماكيرونتة" على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، حيث يقول المؤرخ "يوسيفوس" إن يوحنا المعمدان اعتُقل...

9. حاول هيرودس أن يفرض الثقافة الهيلينيّة على شعبه. فأحاط نفسه بعددٍ من المثقّفين الإغريق، أبرزهم كان المؤرخ والخطيب "نقولاوس

الدمشقي" (64 ق.م.- أوائل القرن الأول). وكثيراً ما كان يعمد إلى القوة في هذا السبيل. وكانت روما تؤيّد نزعته هذه، ولكن ضمن حدود. إلا أنّ شعبه لم يكن ليغفر له هذا الأمر. وعلى الرغم من دعمه للحقوق اليهودية والديانة اليهودية في الداخل والخارج، فقد ظلّ في نظرهم "الغريب والدخيل". وكانت الضرائب المرهقة تزيد حقدَ الناس عليه. إلاّ أن عنفه الدموي، الذي طال حتى أبناءه وزوجاته، كان يفرض جوّاً من القمع والإرهاب، جعل الإمبراطور "أوغسطس" نفسه يقول: "من الخير للإنسان أن يكون خنزيراً لدى هيرودس، ولا ابناً له"، ذلك أنه لم يكن يأكل الخنزير، ولكنه أعدم العديد من أبنائه، وآخرهم "انتيباتر"، وقد أمر بقتله قبل وفاته بخمسة أيام فقط!...

10. توفّي هيرودس في مدينة أريحا، في أواخر آذار عام 4 ق.م. وكان يسوع آنذاك في سنته الأولى أو الثانية. أما الأفق في فلسطين، فكان قاتماً جداً، حاضراً ومستقبلاً.

(2)- أبناء هيرودس:

وصيّة هيرودس نصّت على تقسيم مملكته بين أبنائه، على النحو التالي:

- أركيلاوس، ابنه من السامرية، يرث اليهودية وبلاد آدوم والسامرة، مع لقب "ملك اليهود".

- انتيباس، ابنه من السامرية ذاتها، يرث الجليل و"عِبر الأردن"، مع لقب "الأثنارخوس" أي الزعيم.

- فيليبّس، ابنه من كليوباترا، يرث الجولان وحران والتراخون، مع اللقب نفسه. ولكن هذه الوصية كانت بحاجة إلى موافقة وتثبيت من روما. وسرعان ما قامت عليه ثورة في القدس، قمعها أركيلاوس بالدم. ثم رحل إلى روما يطلب موافقتها، وكان أخوه أنتيباس قد سبقه إليها، للغاية ذاتها.

وقبل أن يتخّذ الإمبراطور قراراً ما، اشتعلت الثورات في مختلف أنحاء فلسطين. فأسرع حاكم سورية الروماني إلى إخمادها بالقوة، وعاد إلى أنطاكية، بعد أن ترك في القدس حاميةً من الجيش الروماني. فثارت ثائرة اليهود لوجود "وثنيّين" في القدس، واشتعلت الثورة كالبارود في جميع الأنحاء. وفي الجليل قاد الثورة ابن قاطع طريق، وكان اسمه "يهوذا"... فعاد حاكم سورية الروماني، "فاروس"، وأخمد الكل في النار والدم. ومن مظاهر الانتقام: صُلِب أَلْفا يهودي حتى الموت...

في هذه الأثناء، وصل إلى روما وفدان يهوديّان: الأوّل يضم وجوهاً من القدس، يرفعون شكواهم ضد أركيلاوس، للقيصر نفسه... والثاني يضم فيليبّس شقيق أركيلاوس، وقد جاء يدعم مطالب أخيه.

وقرر الإمبراطور التالي:

أ- أركيلاوس يظل يحكم اليهودية وبلاد آدوم والسامرة، ولكن بلقب "اثنارخوس"، على أن يُعطى له لقب الملك فيما بعد، إذا برهن عن جدارة.

ب- أنتيباس وفيليبّس يظلاّن، هما أيضاً، يحكمان المنطقة التي خصّهما بها هيرودس، بصفة "اثنارخوس" أيضاً.

ج- ولكن الثلاثة يحكمون في تبعية تامة لروما، من خلال حاكمها في ولاية سورية.

1. <u>أركيلاوس</u>:

حكم أركيلاوس على نمط أبيه: بالحديد والنار، وفي تحدٍّ صارخ لمشاعر اليهود الدينية، لا سيما عندما أقال رئيس الكهنة مرتين. ولكثرة الشكاوى التي رُفِعت إلى روما، اضطرّ بعد مرور تسع سنوات على حكمه، اضطرّ للمثول أمام المحكمة الإمبراطورية. فجُرِّد من منصبه ومن ثروته، ونُفي إلى مدينة "فيينا" في "فرنسا". وأُلحِقت "منطقته"، وفقاً لرغبة الوفود، بولاية سورية، وعُيّن فيها "والٍ" روماني.

2. **هيرودس أنتيباس** (4 ق. م. - 39 ب. م.):

هو هو هيرودس الذي يشير إليه الإنجيل، وقد صُكّت العملات والمداليات باسمه. وكان يحكم الجليل و"عِبر الأردن"، طوال الفترة التي عاش فيها يسوع، بُعيد مولده.

كان مثل والده شغوفاً بالبناء، يكثر منه وينثره في أرجاء منطقته. ومن أهم ما بنى، مدينة كاملة على شاطئ بحيرة طبريّة الغربي، أطلق عليها اسم ولي نعمته: "طيباريوس"، فكانت طبرية.

ولكنه تحاشى أن يصدم مشاعر شعبه الدينية: لم يبنِ معابد وثنيّة، وبنى كُنُساً يهوديّةً، وكان يحجّ إلى القدس في الأعياد (لوقا 23/7). وعندما وضع الوالي الروماني "بيلاطس"، تُروساً تزيينيّة عليها إشارات وثنية، عام 31، ضمّ صوته إلى صوت المحتجّين الذين رفعوا شكواهم إلى الإمبراطور.

ومع ذلك، فقد ارتكب أنتيباس خطيئةً، قضت عليه دينيّاً وسياسيّاً:

عام 26، سافر إلى روما. وفي طريقه، التقى هيروديا، زوجة أخيه من أبيه، فأحبّها وأراد الزواج منها، ففرضت عليه الطلاق من زوجته، ابنة الحارث الرابع ملك النبطيّين. فكان لها ما أرادت. ولكن ابنة الحارث كانت قد سبقته إلى والدها في البتراء. فجنّد والدُها الحارث جيشاً وبدأ الزحف نحو الشمال، وانتصر أخيراً على أنتيباس عام 36.

وحاول بعد ذلك بعامين، بناءً على إلحاح هيروديا، أن يسافر إلى روما ليحصل من الإمبراطور "كاليغولا" على لقب "ملك". ولكن اللقب عينه كان قد أعطي إلى أخيه "أغريبا"، الذي جنّد له في روما من أعوانه مَن يتّهمونه بخيانة مصالح روما. فجُرّد هو أيضاً من ثروته وصلاحياته، ونُفي إلى "ليون" بفرنسا الحالية عام 39.

لم يكن أنتيباس بعنف والده وتصلّبه. بل كان متردّداً، وأحياناً كثيرة يحرص على معاملة رعاياه بالحسنى. ولذا نراه على محاولته إسكات صوت يوحنا المعمدان، الذي هاجمه علناً بسبب زواجه من زوجة أخيه

فيليبس، يحرص أيضاً على الإصغاء إليه. ولكن ضعفه البالغ حيال هيروديا، دفعه أخيراً إلى قتله... أما موقفه من يسوع، فلم يتعدّ محاولة "تخويفه" (لوقا 31/13) ضمن حدود ضيّقة فيما يبدو... وفي أسبوع الآلام، فرح للفرصة التي أتيحت له أن يرى يسوع عن كثب، ويشاهد ربما بعض معجزاته... ولكن أمله خاب... أما يسوع فكان يعتبره "ثعلباً" (لوقا 32/13).

3. فيليبّس (40 ق. م. - 34 ب. م.):

لا يهمّنا كثيراً، لأنه كان بعيداً عن أحداث الإنجيل. وقد جاء ذكره مرةً واحدةً في مطلع الإنجيل بحسب لوقا (1/3). المهم أنه كان يحكم منطقة، معظم سكانها من الوثنيين، فكان تعامله مع اليهود قليلاً وسليماً. وكان همُّه الأكبر كسبَ ودّ ولاة نعمته في روما. وبعد وفاته، أُلحقت منطقته، ما بين عام 34-37، بولاية سورية، ثم أُعطيت لأغريبا، حفيد هيرودس الكبير، وشقيق هيروديا، الذي خلع عليه الإمبراطور كاليغولا لقب "ملك اليهود".

(3)- الولاة الرومان:

خضعت اليهودية والسامرة لإدارةٍ واحدة، بعد خلع "أركيلاوس" عام 6 ب. م. واستمر ذلك حتى عام 66، حيث قامت ثورةٌ، كانت القاضية على اليهود... وقد آثر اليهود حكم الرومان المباشر، على حكم "الغرباء الدّخلاء".

كان الوالي يتمتّع بصلاحيّاتٍ تختلف عمّا يتمتّع به الحاكم في الولايات التابعة سواء للإمبراطور أو لمجلس الشيوخ. إلا أنها كانت توازي تقريباً صلاحيّات حاكم سورية الروماني، وإن كان يخضع له خصوصاً في الأمور العسكرية. وكان الوالي يقيم في قيصرية على ساحل المتوسط، وهي المدينة التي بناها هيرودس القديم. وكانت ترافقه حامية عسكرية قوية، تتّخذ مركزاً لها في قصر الوالي وفي قلعة "انطونيا" الشهيرة.

وكانت صلاحياته العسكرية واسعة. فمعظم القوات تتمركز في قيصرية. وكانت تقيم في القدس حامية صغيرة، تتعايش بسلام مع الناس. أما سائر

القوات، فكانت تُختار من السكان غير اليهود، وتنتشر في مختلف المناطق. أما اليهود، فكانوا لا يخضعون لخدمة السلاح... (لوقا 14/3، ومتى 5/8 الخ...)

أما الإدارة المالية، فلم تكن بالأمر السهل. ذلك أن الضرائب كانت كثيرة ومتعدّدة: منها ما هو على الأراضي والممتلكات، ومنها ما هو على الأفراد، ومنها ما هو على الدّخل ونقل البضائع. فالأولى والثانية، كان يقوم بجمعها موظّفون رسميّون. أما الثالثة، فكانت "تُقتطع" اقتطاعاً لأفراد - واسمهم العشّارون - أو جمعيات، مقابل "مبلغ" يدفعه الأفراد أو الجمعيات... فكان ذلك سبباً لسرقات واسعة، يثور منها الناس لأنها سرقة، ولأنها "ضريبة" تُعطى للمحتل الروماني... وكان القائمون بها موضعَ احتقارٍ وحقدٍ عميقين... إلا أنّ ذلك لم يمنع يسوع من التعامل معهم على نحو مدهش ومثير. (لوقا 27/5 - ولوقا 19/1-2 - ومتى 17/18 الخ...).

على الصعيد القضائي، كانت روما قد تركت لليهود محافلهم تقضي في خلافاتهم، ومنها المحفل الأكبر (السَنْهَدريم)، والمحافل المحليّة. وكان القضاة اليهود ينظرون في جميع القضايا الدينية والمدنية والجنائية، الخاصة باليهود. إلا أنّ كلّ حكم بالإعدام يصدر عن السنهدريم، كان لا بدّ من موافقة الوالي الروماني عليه، ليصبح نافذاً أو لا... وهذا ما حدث ليسوع (يوحنا 13/18). ذلك أن الوالي الروماني كان وحدَه يملك حقّ الحياة أو الموت، من حيث المبدأ.

على الصعيد الديني، لم تتدخّل روما قط. وقد تركت لليهود حرية إقامة شعائرهم في الأيام العادية والأعياد الكبرى، في القدس وفي الكُنُس المحلية، كما وأن مواسم الحج كانت حافلة بالزوار، يؤمّون القدس من جميع أنحاء الشتات، ويحملون التقادمَ للهيكل، سواء كانت موسمية أو استثنائية... ذلك أن كلّ يهودي كان ملزماً بإرسال مبلغ محدّد للقدس سنوياً...

وكان رئيس الكهنة، من حيث المبدأ، يُعيّنه الوالي، ومدى الحياة. ولكن الحقيقة العملية أنّ الولاة كانوا يعيّنون ويُقيلون رؤساء الكهنة وفق "المقتضى". والمعروف أنّ ثمانية رؤساء كهنة تعاقبوا في القدس، من عام 6 إلى عام 41.

على الصعيد العام، كان يشعر اليهود الأرستقراطيون وطبقة الكهنوتيين، بأنهم ينعمون بما يبدو لهم حريةً معقولةً، بعد الإذلال الذي تحمّلوه أيام حكم هيرودس وأبنائه. وأما الفرّيسيون فكانوا يخضعون لسلطة روما مُكرَهين...

توالى ولاةٌ كثيرون. يُذكر عن الذي سبق بيلاطس البنطي، واسمه "فاليريوس كراتوس"، أنه حكم من عام 15 إلى 26. وفي عام 18، أقال رئيسَ الكهنة "حنّان"، وعيّن محله صهره "قيافا"، الذي كان يتمتّع باحترام اليهود والرومان على السواء. وقد ظلّ في رئاسة الكهنوت حتى عام 36.

وفي عام 26 تولّى بيلاطس الإدارة حتى عام 36. يذكر "يوسيفوس" و"فيلوس"، أنه كان قاسياً، ظالماً وجشعاً... وأنه كان يحتقر اليهود ويعاملهم بشدة. وقد صَدَم، فور تسلّمه الإدارة، شعورَ اليهود الديني، فسمح بدخول القوات الرومانية القدس، وأعلامُها مُشرعة، وعليها الشعارات الوثنية التي "تُنجِّس" القدس. فثار عليه اليهود، ونظّموا مسيرات احتجاج، أمام قصره في قيصرية مدة خمسة أيام، فكاد أن يأمر بقتل المتظاهرين... وبعد فترة، أمر بوضع تروس مماثلة على قصره في القدس، فقامت حركة مماثلة... وأخيراً نزع التروس ووضعها في معبد "أوغسطس" في قيصرية. يذكر القديس لوقا مجزرةً حصلت في القدس، ربما عام 29 (13/1-2).

وإبان محاكمة يسوع، اتّضح أنّ بيلاطس تصرف بجبانة، إذ وافق على تنفيذ حكم الإعدام الذي أصدره السنهدريم بحقّ يسوع خلافاً لاقتناعه الشخصي.

والمعروف عنه أنه أُقيل من منصبه عام 36، إثر مجزرة ارتكبها بحقّ بعض السامريين، فرُفعت بحقّه شكوى إلى كاليغولا، كانت هي القاضية.

4) **الحياة الدينية**

تُعرّف عادة الديانة اليهودية، بديانة أتباع موسى. وهي مجمل المعتقدات والمؤسسات والممارسات، التي اكتملت في الفترة الممتدة من عهد الكاهن "عزرا" (منتصف القرن الخامس ق.م)، إلى خراب القدس عام 70 ب.م. فقد قام بإصلاح، يرويه "سفر عزرا"، من أسفار العهد القديم، ثُبِّتت بموجبه أبرز العناصر التي تخص الديانة اليهودية. فقد بات لها، منذ ذلك الحين، معتقداتُها وكُتبُها المقدسة، وهيكلُها وكهنوتها وطقوسها ومعلّموها. واكتسب بذلك الشعبُ اليهودي وحدتَه الدينية المطلقة، وقد بات "شعب الشريعة الموسوية". وبات أبناء إبراهيم ينظرون باعتزاز إلى ديانتهم، على أنها كنزٌ خاص بهم، لا توازيها كنوز الأرض. وهم يؤمنون بأنهم ورثوها من "أب الآباء إبراهيم"، وقد جاءته مباشرةً من الله الذي خصّهم باختيار لم يحظَ به أيّ شعب من الشعوب. والآيات في ذلك كثيرة (راجع مثلاً: سفر تثنية الاشتراع، الفصل 32/8-9).

ومنذ العودة من جلاء بابل، شكّل الشعب اليهودي في فلسطين، عالماً خاصاً ومقفلاً، بمنأى عن سائر العالم، إذ بات كلّ تماس مع سواهم مجلبةً للنجاسة أو الانحلال. ومنذ أن فرزهم الله، (سفر اللاويين 26/20) وطالبهم بالقداسة، باتوا يتصرّفون بتفوّقٍ وتعالٍ، حيالَ سائر الشعوب، ويتمسّكون بالشريعة وتفاصيلها، ويُبدون للهيكل وطقوسِه إجلالاً عظيماً، ويحرصون على نفقاته وخدمته أشدّ الحرص.

لذا كانت الروح اليهودية، في زمان المسيح، روح تديّن مفرط ومتعصّب. ولكنها كانت تعاني أيضاً من غياب الأنبياء منذ أربعة قرون، الذين كانوا يذكّرون الشعب أبداً بأمور غابت عنهم، وتصلّبت نتيجة سيطرة "الكهنوت" على الديانة، طوال هذه المدة، وقد احتلّ "رجل الشريعة" - معلّمها وكاتبها ومفسّرها - المكان الذي كان في الأصل يحتلّه "النبي".

نستعرض الآن بإيجاز مقوّماتِ الديانة اليهودية، الأساسية.

1- الديانة:

كلّ وصفٍ من هذا القبيل يفترض تعميماً وتبسيطاً. وفي ذلك تسطيحٌ كثيرٌ للأمور. إلا أن الأساسيّات قائمة. وكما هي الحال في كل ديانة، فالذين يمارسونها ينتمون إلى مختلف الطبقات ومختلف المستويات. ينجم عن ذلك بالضرورة تباينٌ واضحٌ في بعض القضايا الخاصة بالثقافة الدينية أو الممارسات الطقسية. إلا أنّ الأهم من كل ذلك، هو النقاط الهامة التي تخصّ يهود فلسطين في زمان المسيح، بخطوطها الكبرى، وهذا لا يختلف فيه اثنان.

1. **التوحيد:**

أ. إن أساس المعتقد اليهودي هو التوحيد: جاء هذا التأكيد المطلق في العهد القديم، وجاء في الإنجيل. (العهد القديم، مثلاً: تثنية الاشتراع 6/4–9 **و** 11/13–21 **وسفر العدد** 15/37–41) **(والإنجيل: مرقس** 12/28 **ومتى** 22/34–40 **ولوقا** 10/25–28).

ب. لا إله إلا يهوه: "يهوه" هو الكائن... وهو قائم ولا إله سواه. وهو الخالق الأوحد: خالق السماء والأرض. وكل ما عداه من "آلهة"، باطل ولا وجود له. ذلك هو شعور المؤمن اليهودي. وهو واضح في جميع مؤلّفاتهم "المقدسة" والعادية. وقد كان هذا الإيمان هو السبب الرئيسي في مختلف الثورات التي قامت هناك، ولا سيما ثورة المكابيّين. ولا بدّ لنا من أن نلاحظ بهذا الصدد أن يسوع، وقد وبّخ اليهود ورؤساءَهم على أمورٍ كثيرة، وبلهجة بلغت منتهى القسوة، لم يوبّخهم يوماً على "معتقدات وثنية أو ممارسات وثنية"، كما فعل جميع الأنبياء من قبله دون استثناء.

ج. هذا الإله اختار له شعباً دون سائر الشعوب: وأقام بينه وبين هذا الشعب، "عهداً" أي عقداً يفرض على الطرفين واجباتٍ وحقوقاً. وقد أبرم "الله" هذا العهد مع "الآباء"، مثل إبراهيم واسحق ويعقوب، على أن يلتزم هؤلاء و"أبناؤهم" ببنود هذا العهد. ولكن "الشعب المختار" كثيراً ما خان

العهد، فعاقبه الله عقاباً متنوّعاً، كان أشدّه الجلاءُ إلى بابل. وكان الأنبياء كثيراً ما ينذرون "الشعب المختار" بأشدّ الويلات، إن لم "يتُب" إلى الله. وكان "الشعب المختار"، كلّما أعلى من شأن الله، فينزّهه عن مجرد ذكر اسمه، مستعيضاً عنه بتسميات أخرى كالقدوس والرحيم والمتعالي، يزيد استئثاراً به ويعتبره "مُلكاً" خاصاً به، مسقِطاً عليه جميع شهواته "القومية"، ومبرّراً بذلك جميع تجاوزاته الأخلاقية. بل مضوا إلى أبعد من ذلك، فاعتبروا أن الله قد خصّ بنعَمِه اليهود، دون سائر الشعوب "الوثنية"، التي لا تحقّ لها إلاّ اللعنات ومظاهر غضب الله. وكانوا في أحسن الأحوال يتساهلون في أمر دخول "وثني ما" في اليهودية، كي ينعم بدوره بمعرفة الله والتعبّد له، تبعاً لتقاليدهم وطقوسهم طبعاً.

2. التوراة:

أ. <u>معنى كلمة "توراة"</u>: التعليم، أي تعليم... ثم منذ ما قبل الجلاء، أصبحت الكلمة تعني "التعليم" الذي يلهمه الله لممثّليه كي يُنقَل إلى "شعبه"... ومنذ عهد الكاهن "عزرا"، أُطلقت كلمة "توراة" على مجمل التعليم الموسوي، الذي تحتويه أسفار العهد القديم، الخمسة الأولى، وقد باتت تسمى "توراة موسى"، ويُنسب تأليفُها إلى موسى النبي. وفي مرحلة لاحقة، أُطلقت الكلمة على "الشريعة"، لأن الترجمات اليونانية لأسفار العهد القديم، استخدمت كلمة "الشريعة" اليونانية للتعبير عن كلمة "توراة"، فباتت الكلمتان مترادفتين، مع أنهما غير متطابقتين من حيث المعنى. وفي الإنجيل، جاء الاستعمال هذا مألوفاً، فقيل "الناموس والأنبياء" (والناموس كلمة يونانية تعني الشريعة)، حيث يُفهم "الكتاب المقدّس" بأسفاره الأولى...

وكان اليهود الذين عاصروا يسوع، يقولون بتوراة مكتوبة، وتوراة غير مكتوبة، والتوراة غير المكتوبة تعني "النقل"، أي التقليد الشفهي الذي سنأتي على ذكره في حديثنا عن "الكتبة والتقليد".

ب. تصوّر اليهود التوراة على أنها تجسّد الإرادة الإلهية: بل هي تكاد تكون بديلاً عن الله. ولذا فهي كاملة، وليس من اليهود مَن يفكّر بمناقشتها... وقد حِيكت الأساطير حولها لإبراز طبيعتها وحسناتها. فهي تحظى بتكريم يبلغ حدّ العبادة. بل إن توراة موسى تُعتبر نسخة مطابقة لأصلها السماوي... وقد مضى أحد شرّاحها، وهو سمعان الملقب بالصدّيق (القرن الثالث ق. م.) إلى القول بأن الكون يدين لها بثباته. فالتوراة صامدة صمود الله، لذا فهي ستبقى دون تحريف. أكثر من ذلك، ذهب بعض الحاخامين إلى التأكيد بأن الله نفسه ينكبّ على دراستها، وأنه يتقيّد بتعاليمها بدقة.

ج. يحب اليهودي التوراة ويحياها: ويجد أن "نيرَها خفيف"، على الرغم من وصاياها الـ (613). فكثرة الوصايا دلالة محبّة الله له، وتقيّده بها مفتاح سعادته. فهو يطيل التأمل فيها، ويفخر بتقيّده بها. وإنّه لِمَا يضاعف فرحَه، يقينُه بأنّ الوثنيّين محرومون منها. فهو بذلك يرفع الشكر لله الذي وهبه إيّاها، ويضمن في آنٍ واحد الحياة على الأرض وفي الآخرة. بكلمة واحدة: لا يفهم اليهودي الحياة الدينية أو الأخلاقية، دون التقيّد بوصايا التوراة. وبذلك أصبحت التوراة مبرّرَ وجود الشعب اليهودي، فخرَه ومجدَه، موضع حبِّه وتقديسِه، والمبدأ والمنظِّم لحياته الدينية والأخلاقية. وهي ما يبقى لهم في نهاية المطاف، إذا ما انتُزعت منهم جميع خيرات الأرض، وحتى الوطن. بذلك كان الشعب اليهودي قد حقّق في زمان المسيح، أمنية الكاهن المصلح "عزرا": فالشعب اليهودي يحيا من التوراة وبها ولها. ومنذ خراب القدس وتشرّدهم، أصبحت "الوطن النقّال" والرابط الأقوى.

3. الإيمان بالأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة:

انتشر كثيراً الاعتقاد في الأوساط اليهودية، بوجود أرواح خيّرة وشرّيرة، وذلك منذ نهاية الجلاء. وفي الفترة التي سبقت مجيء المسيح، كان قد ساد جميع الأوساط اليهودية، المثقّفة والشعبية على حدٍّ سواء. ونرى ذلك واضحاً جداً في أسفار الإنجيل، في أعمال الرسل ورسائل بولس والرؤيا.

وما من شك، أنّ اليهود قد تأثروا على هذا الصعيد بالحضارات السورية والبابلية والفارسية. إلا أنّ اعتقادَهم بوجود أرواح خيّرة وشريرة لم يَمسّ، لا من قريب ولا من بعيد، إيمانَهم بوحدانيّة الله. فهم يرون أنّ هذه الأرواح تدين بوجودها لله، وتخضع له في فعاليتها. فهي مخلوقات روحيّة، لا تحتلّ أيّ مكان وسط بين الله والإنسان، ولا تنبثق من مبدأ خيّر أو مبدأ شرير، وليست أنصاف آلهة، كما في الأساطير اليونانية.

أ. الملائكة:

الملائكة مخلوقات أثيرية نيّرة، وليست روحيّةً محضاً. إلا أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون (متى 20/22). وهم كثيرو العدد، أشبه شيء بجيش لدى الله. لا تراهم العين، ولكنهم يتراءون للبشر، في هيئةٍ بشرية وبثياب ناصعة البياض (مرقس 5/16 وأعمال 10/1). وهم يَمثُلون أبداً أمام الله (متى 10/18)، وهم "رسلُه". وتُنسب إليهم، بتأثير من الثقافات المجاورة، مهامّ السهر على سير الكواكب وقوى الطبيعة، ومسار الفصول، ورعاية الشعوب والأمم... وهم أيضاً حماة الناس الأتقياء، يصلّون لأجلهم، ويأتون لنجدتهم في الضيق... فهم ملائكة حرّاس (سفر طوبيا 5، ومتى 18/18، والأعمال 15/15). ولهم في آخر الأزمان، مهمّة عظيمة (متى 39/13-41،49 ومتى 31/24 ومتى 31/25). والملائكة تخضع لترتيب وتصنيف. فهناك حشود "الشيروبين" و"السيروفين" و"القوات" و"الرئاسات" و"السلطات". وهناك ملائكة تُعرف بأسمائها: "ميخائيل" و"رافائيل" و"جبرائيل". فالملاك ميخائيل - واسمه يعني "مَن مثل الله؟" - يظهر بمثابة حارس الشعب اليهودي وقائده. كما أن سفر الرؤيا يصوّره (12/7-9) وهو يسحق الشيطان ويطرد الملائكة المتمرّدين من السماء. ورافائيل هو ملاك الشفاء (طوبيا 5/6-9). أما الملاك جبرائيل - واسمه يعني "رجل الله" أو جبّار من لدن الله - فهو ملاك الوحي الإلهي (سفر دانيال 16/8 و21/9 ولوقا 19/1 و 26).

ب. الملائكة الأشرار.

هم أعداء الله والإنسان. وقد صُوّر منشأُهم بطرق مختلفة، منها ما جاء في سفر الرؤيا (12/7-10). ليس لهم جسد، ولكنهم قد يظهرون في شكل بشري، وهم يملأون الدنيا، ويقيمون في جميع الأمكنة: السماء والصحارى والقبور والأماكن النجسة، وفي أجساد بعض الناس... وهم أعداء النور والخير، تنصبّ كلّ قواهم على فعل الشر والحضّ عليه. وهم المسؤولون عن جميع الشرور التي تصيب الناس: الأمراض والمصائب وأشكال الموت العنيف والفشل... وهم يعمدون إلى التجربة والإغراء ليوقعوا بالصدّيقين. كما أنهم يلهمون الأشرار والكفرة. إلاّ أنّ قوتهم هذه سوف تنتهي في نهاية الأزمان، إبّان مجيء المسيح المنتظر. وسيُحكَم عليهم بالعذاب الأبدي (متى 25/41). وهم يأتمرون بزعيمهم الأكبر "الشيطان" - واسمه يعني "العدو" أو "الواشي" - وقد يكون له اسم آخر هو "بليعال" - واسمه يعني "دونما نِير" - ويسمّى أيضاً "ملك الشياطين" (سفر طوبيا 8/3). أما "بعلزبول" كما جاء ذكره في الإنجيل (متى 12/24 ولوقا 11/15)، فقد يكون تحريفاً مقصوداً وساخراً لإله وثني يُدعى "بعلزبوب"، بحيث يصبح معناه "إله المزابل". أما مقاومة الشياطين، فكانت تتمّ بطرق عديدة: الابتهال إلى الله والملائكة الحرّاس، واعتماد تمائم تضم كلماتٍ من التوراة، والتلفّظ بأقوال ولعنات ضدّهم، واستخدام التعزيم، أي تلاوة صلوات خاصة لطردهم. (متى 12/24 و27 - ولوقا 9/49 - وأعمال 19/13).

4. الحياة الأخرى:

عرف مفهوم الحياة الأخرى مراحل كثيرة:

أ. اليهود القدامى سلّموا بوجود مكان خاص بالموتى أسموه "شيوول" (الجحيم)، حيث تقيم الأرواح في حالة من الخدر، خالية من أي نبضٍ حي، لأنها فقدت بموتها مبدأ الحياة. في تلك الفترة، كان المنظور القومي،

دينيّاً وأخلاقيّاً، هو وحدَه يسيطر على فكرهم. ذلك التصوّر لم يكن يعني للأفراد سوى شيء قريب من العدم. وكان "الوجود الزمني القومي" هو المهيمن، وكانت مسألة الحساب لا تتعدّى هذا المنظور العام والزمني.

ب. خلال الجلاء إلى بابل، أكّد النبي حزقيال: (فصل 18)، على مسؤوليّة الفرد وحسابه، ولكنّها فكرة بعيدة عن المسلّمات السابقة السائدة، وتبدو في تعارض معها.

ج. بعد العودة من بابل، وحتى نهاية القرن الثاني قبل المسيح، ظلّت الأفكار القديمة هي السائدة. ويتضح ذلك في العديد من النصوص: في المزامير (16، 115) في سفر الجامعة (9/4-6، 10)، وفي سفر يشوع بن سيراخ (17/22-23 و 41/4). والجدير بالذكر أن مؤلّف هذا السفر ينتمي إلى طبقة الكتبة، وقد كتب مؤلَّفه في نهاية القرن الثالث قبل المسيح.

د. خلال القرن الثاني ق.م. تأثّر بعضهم بالبيئة الهيلينيّة في الإسكندرية، وبالفلسفة اليونانية، فانعكس ذلك في سفر الحكمة (15/15 و3/1-9)، إيماناً أكيداً بأن الصالحين يَحيون، بعد موتهم، في سلام هانئ، لأن أرواحهم أمانة بيد الله، وما من شرّ يَطالُهم.

هـ. وفي القدس، بزغت فكرة قيامة الموتى، كحلّ نهائي لمسألة الحساب. بزغت شيئاً فشيئاً، هنا وهناك: أشعيا (26/17-19) وفي سفر دانيال (12/1-3 و 7/9، 14، 36 و 12/44، 46)، وفي "كتاب اخنوخ" المنحول، وفي "وصية الآباء الاثني عشر"، وفي سفر عزرا (7/32). وإنّ مجموع هذه الشهادات تثبت أن عقيدة قيامة الموتى، كانت سائدة في البيئة اليهودية بفلسطين زمان المسيح. والأناجيل وسفر أعمال الرسل تدعم هذه النتيجة، إذ بيّنت الخلاف القائم بين الفرّيسيّين والصدّوقيين حول القيامة (متى 22/23-33 ومرقس 12/18/27 وأعمال 4/1-2 و23/6-8). تلك الفكرة كانت تُظهر بوضوح فكرة عدالة الله وتطمئن المؤمن. وقد تقبّلها الشعب.

5. الممارسات الدينية:

نعني بالممارسات الدينية مجمل العادات والطقوس والمراسم، التي تميّز الديانة اليهودية. وكلّها تخصّ الأفراد والجماعات على حدٍّ سواء. وفيها فروض تقول بها التوراة، كما فيها ما هو من وحي الرغبة في إرضاء الله، وقد أصبح تقليداً دينيّاً عامّاً.

أ. التطهير:

عادة التطهير ليست وقفاً على اليهود. كانت تُمارس قديماً، رمزاً لانتماء الفرد إلى الجماعة. ويبدو أنّ اليهود تلقّوها من سابقيهم، إلا أنهم أضفوا عليها معنىً دينيّاً، هو الانتماء إلى "الشعب المختار". وهي واقع لا نقاش فيه، ولا يحتاج إلى تبرير. (سفر الخروج 24/4... - سفر يشوع 2/5-9). والتطهير يتمّ بأمرٍ من يهوه (يشوع 2/5). وهو علامة جسدية للعهد المبرم بين الله وشعبه، حتى إنّ الدم الذي يسيل، أثناء ختان الطفل في يومه الثامن، سوف يسمى في فترة لاحقة، "دم العهد". واليهود يردّونها إلى إبراهيم، (التكوين 9/17-14 و4/21)، وقد جاء ذكرها في التشريع اليهودي صراحةً (اللاويين 3/12). والتطهير ضروري للاحتفال بعيد الفصح اليهودي. ويوم منعها أنطيوخوس السوري، وقامت ثورة المكابيّين، بات التطهير رمزاً خارجياً، وتحدّياً يُفرض فرضاً على المتردّدين من اليهود، ويمارس على الأطفال، ولو كلّفهم ذلك الحياة (1 مكابيين - الفصل الأول)... ثم كان أن أشار بعض الأنبياء إلى أنّ "ختان الجسد" ليس بشيء، بل ختان القلب هو الأهم (إرميا 24/9 و4/4 وحزقيال 7/44...) إلا أن ختان القلب هذا لا يمكن أن يتم إلاّ بعطيّةٍ من الله (تثنية الاشتراع 12/30...).

ب. السبت:

يوم السبت هو يوم الرب، وبأمر من الرب (الخروج 13/31...). فهو أمر مقدّس يجب التقيّد به. وفيه يتوقّف كلّ عمل. ومن يخرقه يُعاقَب بالموت وفق التوراة، وقد تفنّن مفسّرو التوراة والشريعة، في تفصيل الأعمال التي

يجب تحاشيها يوم السبت، والخطوات التي يمكن للإنسان أن يخطوها. ويعود الأساس فيه إلى "راحة" الله في اليوم السابع، بعد أن خلق الكون كلّه. وفي زمان يسوع كان التقيد به أكثر من واضح، وقد أثار يسوع بتجاوزه، اليهود عليه مراراً (مرقس 23/2-24 و 1/3-5 ولوقا 10/13-17 و3/14 ويوحنا 1/5-16 الخ...)

وكان يوم السبت يوم صلاة واجتماعات، تُعقد في الكُنُس لإقامة الطقوس وسماع كلام الله.

ج. الأعياد:

كانت الأعياد تُقسم إلى ثلاثة أقسام: أعياد الحجّ وأعياد التوبة وأعياد التذكارات.

1- أعياد الحج: هي ثلاثة: الفصح والعنصرة والمظال. تُسمّى أعياد الحج، لأن الاحتفال بها كان يتم خلال الحج إلى القدس.

- عيد الفصح، يذكّر بتحرّر اليهود من عبودية مصر. هو عيد الحرية. كان يدوم ثمانية أيام، تبدأ مساء 14 نيسان (غروب الشمس في التقويم القديم، كان بداية اليوم التالي)، بوليمة الفصح. كان الخبز آنذاك وطوال أيام العيد، خبزاً خالياً من الخميرة، ولذلك سُمّي الخبز الفطير. وكانت حملان الفصح تُذبح في الهيكل، بعد ظهر يوم 14 نيسان، وكان الكهنة يرشّون المذبح بدمائها. أمّا وليمة الفصح، فكانت تُقام في البيت، وبحضور الأسرة. فيجلس الجميع على فرش، على الطريقة اليونانية. كانت الوليمة تبدأ بمباركة أول كأس من الخمر. ثم يتناول الحاضرون خضاراً مغمسة في "زوم" خاص. ثم يُؤتى بالحمل المشوي على النار، فيشرح رب الأسرة رمز العيد، ويذكّر بتحرر اليهود من عبودية مصر، بمنّة من الرب. ثم يُطاف بكأس من الخمر ثانيةً، ويُؤكل الحمل المشوي مع أعشاب مرّة. ثم يُطاف بكأس الخمر ثالثةً، وتُرفع صلوات الشكر لله. ثم تُشرب كأس رابعة من الخمر، وعندها ينشد المجتمعون صلاةَ التهليل، التي تضم المزامير

113-118. وفي يوم 16 نيسان، تُحمل إلى الهيكل أوّل باقة من حصاد الشعير. كان عيد الفصح أعظم أعياد اليهود، ويجلب إلى القدس اليهود من فلسطين وسائر أنحاء العالم. وقد ذكر يوسيفوس أنّ فصح عام 64 حشد في القدس قرابة ثلاثة ملايين إنسان.

- عيد العنصرة يُحتفل به بعد الفصح بخمسين يوماً. والعنصرة كلمة عبرية تعني الاجتماع. وكان يُسمّى عيد الأسابيع، لأنه يقع سبعة أسابيع بعد الفصح. يعيده التقليد إلى ذكرى إعلان الشريعة الموسوية على جبل سيناء. وقد يكون مجرّد تكريمٍ للرب، بتقديم باكورة الحصاد له، بعد أن يكون اكتمل نضجه خلال الخمسين يوماً، التي تفصله عن الفصح. وكان يُحتفل به في يوم واحد.

- عيد المظال يُحتفل به في 15 تشرين (أواخر أيلول - أوائل تشرين الأوّل). كان يذكّر بإقامة اليهود في صحراء سيناء، وكان يصادف فترة القطاف، فيتم في جو من الفرح والتسلية، فيتواصل ثمانية أيام. وكان اليهود في المناسبة يمضون إلى هيكل القدس، وهم يحملون سعف النخل وأغصان الآس باليمنى، وثمرة الكبّاد باليد اليسرى. وكان الهيكل يُنار بقوة أثناء الليل. وفي صباح الأيام السبعة من العيد، كان الماء يُسكب على المذبح، الماء المستقى من بركة سلوام (راجع الفصل التاسع من إنجيل يوحنا). وكان هذا الطقس يرمز إلى الأمطار المرجوّة في المواسم القادمة.

2- **أعياد التوبة:**

أعياد التوبة هي سلسلة الاحتفالات التي تُقام بدءاً من الأول من تشرين، وتستمر حتى 10 منه بعيد الغفران. ومنذ 9 مساءً حتى مساء 10، يكون الشعب كلّه في "حالة حزن"، بينما تُقام في الهيكل طقوس التطهير والتكفير، طلباً لرحمة الله، في مقابل المعاصي التي ترهق الشعب والأفراد.

3- **أعياد التذكارات:**

كانت هذه الأعياد تتّسم بالفرح أو بالحزن، وفق الذكرى التي تُحييها. وكانت تضم عيدَين فقط: الأول عيد الأقدار، ويُحتفل به يومي 14-15 آذار، وهو يحيي ذكرى خلاص اليهود من المجزرة في فارس، بفضل "مردخاي واستير". وكان أشبه شيء بمهرجان من الأفراح الشعبية. والثاني هو عيد التطهير. كان يقع في أواخر كانون الأوّل، ويدوم ثمانية أيام. وقد أُقيم إحياءً لذكرى تطهير الهيكل ممّا ألحقه به "انطيوخوس السوري"، من تدنيس مقصود (عام 165 ق.م). كان عيداً قومياً بكل معنى الكلمة، ويجلب إلى القدس أعداداً هائلة من الحجيج.

د. **الأصوام:**

كان الصوم يكتسي في نظر اليهودي بميزتين: الأولى التواضع والامّحاء أمام الله، والثانية جلب رضا الله والحصول على الغفران. إلا أنّ التوراة لم تكن تفرض الصوم إلا في يوم عيد التكفير، وكان ذلك واجباً على كل يهودي، ولا تهاون فيه. وكان معظم اليهود يصومون أيضاً في أيام التوبة، التي تسبق هذا العيد. وفي ذكرى الكوارث الكبرى التي حلّت بالشعب (سقوط القدس بيد الكلدانيّين، الجلاء إلى بابل، خراب القدس والهيكل). وكان هناك أيضاً أصوام، يفرضها محفل السنهدريم الأكبر في الأوقات العصيبة: خطر يهدّد الشعب، أو انحباس الأمطار، أو حلول مجاعة... وفي زمان يسوع كان الأتقياء من اليهود يضيفون إلى كلّ ذلك، أصواماً شخصية. والإنجيل يؤكّد - وكذلك الميشنا - أنّ الفرّيسيّين كانوا يصومون مرتين في الأسبوع: يوم الإثنين والخميس (لوقا 12/18). وكان تلاميذ يوحنا المعمدان، يتقيّدون بالصيام نفسه دون شك (مرقس 18/2). ولم يكن ذلك ليُفرض على الشعب العادي، نظراً لانهماكه في أشغال يومية مرهقة.

هـ. **الاغتسال والتطهير:**

ثمّة علاقة وثيقة بين طقوس الاغتسال والتطهير، والدعوة الكتابية إلى

القداسة. الله هو القدوس، وعلى المؤمن به أن يكون على صورته. وعلى مثاله، ينبغي عليه أن يكون منزّهاً عن كل تلوّث مادي أو معنوي. وقد فصّلت أسفار العهد القديم والميشنا، بصورة دقيقة جداً، كل حالات النجاسة والتلوث. فمنها ما يصدر عن الإنسان نفسه، سواء أكانت خطايا في الجسد أو في الفكر، ومنها ما يسبّبه الاتصال بما هو نجس، سواء كان شيئاً أو إنساناً: فالنجاسة من نصيب الوثنيّين، والبرص والجثّة وبعض الحيوانات (كالحيّة والخنزير)، وبعض الألبسة والأواني إذا ما لُوّثت... (سفر اللاويين الفصول 12-15)

أما الاغتسال من أجل التطهير، فكان على نوعين: فإما تُغسل الأيدي، وإما يغتسل الجسم كلّه. وكان غسل الأيدي مألوفاً قبل الطعام (مرقس 7/2-5 ويوحنا 6/2). وإنّ سفر اللاويين لَيُحدّد الحالات التي توجب الاستحمام. والمعروف أنّ الكهنة كانوا ملزمين بالاستحمام الطقسي قبل البدء بأسبوع خدمتهم في الهيكل.

و. الصلوات:

كانت الصلاة تحتل مكاناً واسعاً في حياة اليهودي اليومية. فإن الميشنا تخصّها بأول فصل من فصولها. والصلوات إما طقسيّة، وتُقام في الهيكل في القدس، أو في الكُنُس اليهودية، وإما شخصية. وكان كتاب المزامير يوفّر مادةً واسعةً وطبيعيةً للصلاة، للأفراد والجماعات. وكان تأثيره في النفس اليهودية، في زمان المسيح، يكاد ينافس تأثير التوراة. فالمزامير غنية لاهوتيّاً وإنسانياً. لذا يتّضح لنا تأثيرها في صلاة العذراء (لوقا 1/46-55) وزكريا، والد يوحنا المعمدان (لوقا 1/67-80). ومن الصلوات ما كان يُتلى يوميّاً بالضرورة، من قِبل كلّ رجل بالغ. ثمّة صلاة أخرى، كانت تلاوتها تُفرض ثلاث مرات، على كلّ يهودي، بما فيه النساء والأطفال والعبيد. من ناحية أخرى، لم يكن اليهود ليتناولوا أيّ طعام أو شراب دونما صلاة. وكان رب البيت، قبل الطعام وبعده، يتلو صلاة تختلف باختلاف الأطعمة، ويشاركه

فيها جميع الحضور. ومن أغرب الأوامر التي يحدّدها سفر تثنية الاشتراع، هذا الأمر: (10/8): "عندما تأكل وتشبع، ستشكر الرب الإله للأرض الطيبة التي منحك"...

ز. أعمال الرحمة:

كانت ممارسة المحبة لدى اليهود وفيما بينهم، واجباً أخلاقياً لا يجوز لأحد تجاهله. يقول "سمعان الصديق" (القرن الثالث ق.م.): "إن العالم يرتكز على ثلاثة أشياء: التوراة والعبادة وممارسة المحبة". وكان يفرض عليهم مشاركة بعضهم بعضاً في الأفراح والأحزان. وقد أفاضت التوراة وأسفار العهد القديم من بعد في التأكيد على ذلك. وكانت تُنظّم الجباية لهذا الغرض، في الكُنُس، كما كان في هيكل القدس غرفة خاصة، تُسمّى "غرفة الصمت"، يضع فيها المتبرّع مالَه، دون أن يحسّ به أحد. إلا أن المحبة لم تكن تقتصر على المساعدة المادية. فالمحبة تفترض اليقظة حيال المحرومين وحيال المتخمين، لتقدّم لهم المساعدة الروحيّة التي يفتقرون إليها. وقد قال أحد أئمّتهم، إنّ ما من صفة تعدل طيبة القلب...

6. المسيحانيّة أو تصور المسيح المنتظر:

تُطلق كلمة "مسيحانيّة" على مجموع المذاهب والمعتقدات والتصورات والآمال المتعلّقة بملكوت الله الذي سيقوم على الأرض، وبشخص ودور "المسيح"، الذي سيكون ممثّل الله على الأرض، والقائد المنظور لهذا الملكوت، وبآمال الشعب اليهودي، الذي سيكون المستفيد الأكبر والأوحد من حلول الملكوت على الأرض.

وكان الأنبياء كلّهم قد أكدوا أنّ الله إلهٌ عادلٌ وقوي، وأن وعودَه للشعب اليهودي لا تراجعَ عنها، فلا بدّ له من أن ينتصر بصورة فائقة على أعدائه، وبالتالي على أعداء الشعب اليهودي... فكان الشعب أبداً في انتظار تحقيق هذا الملكوت...

كانت هذه الآمال متأجّجة، على نحوٍ خاص في القرن الذي سبق وتلا مجيء المسيح. فقد كان الشعب اليهودي يعاني منذ زمان بعيد من ظروف قاسية جداً: خراب وجلاء إلى بابل، واضطهاد السلوقيّين لهم، واستبداد هيرودس وأبنائه بهم، وسيطرة الرومان عليهم... فكان الشعب، كلّما عانى من هذه الظروف، ازداد رجاؤه بالمسيح الآتي. بل أصبح هذا الانتظار محموماً وعنيفاً. وكان الكثيرون يستعجلون بوادر مجيئه. فالله وشيك الظهور... وأبناء إسرائيل سيُجمَعون من الرياح الأربع، ويعاد بناء الأمّة من جديد، ويعاد بناء مملكة يهوذا، ولكن في حدود أوسع، تشمل الأرض كلها، ويسود الحقّ والعدل، وتنتشر في العالم كلّه عبادة "يهوه"، وتسري في العالم نشوة الازدهار مع انتشار الحقّ، ويبسط اليهود سيطرتهم على العالم كلّه، الغارق في وثنيّته.

تلك هي عناصر هذا الحلم المسيحاني. وقد جاء تصويرها على نحو خاص في المزمور 17 من "مزامير سليمان"، التي وُضعت بُعيد استيلاء "بومبيوس" على القدس (عام 63).

"ملكوت الله"، تلك هي العبارة عينها التي استخدمها يوحنا المعمدان يوم بدأ تبشيره. وهي هي التي استخدمها يسوع أيضاً...

كانت تصوّرات المتع الدنيوية، تسيطر سيطرة شبه كاملة على مفهوم "الملكوت"، وإن كان التقيّد بشرائع التوراة، يُعتبر شرطاً أساسيّاً لمن يريد أن ينعم بمتعه هذه.

أما "المسيح" - الكلمة آرامية وتعني "الممسوح" (بالزيت) أو المُكرّس - فهو المختار والمرسَل، وهو النبي الأعظم، الذي يُمسَح ويكرّس على الطريقة نفسها التي كان الملوك والكهنة قديماً، يُمسحون ويُكرّسون بها. وكان هو المحرِّر المنتظر، الذي يَشْخص إليه نظر الشعب بأكمله. فكان له مكان ومكانة خاصّين في قلب اليهودي. وفي آداب ذلك العصر، وفي بعض الكتب المنحولة، مثل "كتاب اخنوخ" (حوالي عام 77 ق.م)، جاء وصف

المسيح على أنه كائن سماوي وإنساني معاً، وهو مختار الله ومسيحه، وهو أيضاً "ابن البشر". وقد كانت هذه التسمية أُطلقت في سفر دانيال (13/7) على شخص غامض، سيبسط سيطرته على جميع الشعوب. فهو مخلوق قبل العالم، وقد ظلّ في السماء كي يتجلّى في آخر الأزمان، ليُجري الدينونة العامة.

وفي أقدم نصوص التلمود، قيل إنّ المسيح سيكون إنساناً من نسل داود، وملكاً مقاتلاً، معلّماً ومقيماً العدل في الأرض. وسيكون غامض المنشأ، ولكنه سيظهر بقوة، ويحرّر شعبَه ويفرض سيطرته على الأرض كلّها. وكان ذلك وشيك الوقوع...

هو إذن مسيح في جوهره قومي وزمني، يعكس تصوّر اليهود القومي، بكل ما فيه من حرمان وجوع إلى متع الأرض...

أما المسيح كما صوّره النبي أشعيا (القرن الثامن ق.م) في الفصل 53، والنبي زكريا (10/12...)، المسيح المتألم، فقد كانت صورته غائبة كلياً عن الأذهان، إلا عن قلة قليلة جداً... ولم تظهر ملامحها حقاً في الفكر اليهودي، إلا في منتصف القرن الثاني الميلادي...

إلا أن مجيء المسيح المنتظر كان، في نظر الجميع، وشيكاً... وإن ذلك ليتضح من بعض ما جاء في الإنجيل، في حادثة السامرية مثلاً (يوحنا 4)، وفي مجيء الوفود إلى يوحنا المعمدان (لوقا 19/7)، وفي مناسبات أخرى. ثم إن المؤرخ "يوسيفوس" لَيَذكر العديد من المغامرين، الذين ادّعى كلّ منهم أنه المسيح المنتظر، وجرّ الناس وراءه وجلب لهم ويلات لا توصف، وكان من أخطرهم وأكثرهم تأثيراً "ابن الكوكب"، الذي أثار حرباً طاحنة على الرومان، في عهد الإمبراطور "هادريانوس"، دارت رحاها على الشعب اليهودي في نهاية المطاف، وقضت بتفريغ فلسطين، منذ ذلك الحين، من العنصر اليهودي...

7. تصوّر المستقبل ونهاية العالم:

لم تكن الكتابة "الرؤيوية" بغريبة على اليهود. بل كانت أكثرها استخداماً طوال القرنين اللّذين سبقا مجيء المسيح، والقرن الذي أعقبه. وهي كتابة مارسها بعض الأنبياء، مثل "أشعيا" (24-27) و"حزقيال" (32) و"يوئيل".

كلمة "رؤيا" في الأساس تعني الكشف من قبل الله عن أحداث آتية، تتعلّق خصوصاً بآخر الأزمان... أما الموضوعات المطروحة فكانت في الغالب تخص الأزمنة "المسيحانية"، كما وصفناها في الفقرة السابقة. إلا أن الفكرة الرئيسية فيها تدور حول حلول الملكوت، وما يرافقه من تحقيقٍ لأحلام الشعب اليهودي... والأسلوب يزخر بالصور الغريبة والأفكار المفاجئة والرموز... ولذا جاء تفسيره زاخراً أيضاً باحتمالات شتى وغريبة...

من أبرز هذه المؤلفات: "كتاب اخنوخ"، و"وصية الآباء الاثني عشر"، و"انتقال موسى"، و"رؤيا باروخ". جميع هذه المؤلفات لا يُعرف واضعوها، وإنما هي نُسبت إلى أسماء كبيرة لتزيدَ ثقلها... وما من شك في أنّ واضعيها ينتمون إلى طبقة الكتَبَة، لأنهم يبرهنون عن معرفة عميقة بالكتاب المقدس، وبالتقاليد والأفكار السائدة في الأوساط التقيّة والحكيمة.

وقد برز هذا الأدب في فترة مقاومة اليهود للحكم السوري، وإبان ثورة المكابيّين. كما كان سفر دانيال قد أشعل فتيله. فقد كان الشعب آنذاك بحاجة ماسّة إلى ما يُحيي فيه الآمال بمستقبل، يحقّق الأماني بعد الانسحاق... وفي نطاق هذه الكتابة، كانت جميع المبالغات متاحةً، وجميع التعارضات مع الواقع القائم، ممكنة، بل ضرورية... وقد لا تكون أثّرت هذه الكتابات كثيراً في عقول عامّة الناس، إلا أنها تركت بصمتها في بعض التصوّرات، التي نرى انعكاساً لها في مؤلّفات العهد الجديد: مثل تصوّر عالم الملائكة والشياطين، وتصوّر كوارث نهايات العالم، والقيامة العامة والدينونة.

8. مقاومة الحركة الهيلينية:

بدأت "هَلينَنَة" الشرق بفتوحات الاسكندر. وتواصلت في الفترة اللاحقة، وطالت جميع بلدان الشرق، بما فيها فلسطين. فقد كانت خاضعة في القرن الثالث ق.م. لبطالسة مصر، ثم أُلحقت عام 198، بمملكة سورية السلوقية. والحال أن البطالسة والسلوقيّين كانوا من قادة الاسكندر المتحمّسين للثقافة اليونانية. فضلاً عن ذلك، فقد كانت أُنشئت مدن هيلينية كثيرة، في جوار المنطقة التي يسكنها اليهود في فلسطين. فبات التماس طبيعياً ومباشراً بين اليهود والحضارة الهلينية.

في مطلع القرن الثاني ق.م. كانت الطبقة الحاكمة في القدس، ولا سيما الطبقة العليا من الكهنة، قد انحازت بمعظمها إلى الحركة الهيلينية. وكان أحد رؤساء الكهنة، واسمه يسوع، قد استبدله باسم يوناني هو "ياسون"، وأُنشئ ملعب رياضي فيها، فكان الكهنة يُكثرون من التردّد إليه بدل الخدمة في الهيكل، ودرجت العادة على إرسال مساهمة مالية إلى صور، مشاركة منهم في الاحتفالات والذبائح، التي كانت تقام هناك تكريماً للإله هرقل... بل إنّ بعضَهم بات يعتبر "الختان" عيباً يجب إخفاؤه... (1 مكابيين 1/11–16 و 2 مكابيين 7/4–20). بذلك دخلت العادات الوثنية إلى قلب القدس. فقامت الثورة وأُبعد الخطر إلى حين... ثم عاد يتسلّل إلى البلاد من خلال حكامها: "اريستوبولس الأول" (عام 104 ق.م.) الذي اتّخذ له اسماً هو "حبيب الهيلينية"، و"هيركانوس الثاني" (عام 63–40) الذي أفاض بالترحيب باليونانيين القادمين إلى فلسطين. إلا أنّ هذه النزعة تفاقمت في عهد هيرودس، الذي كان يفاخر بحبّه للهيلينية، فأحاط نفسه بمثقّفين يونانيّين، وأقام مسرحاً في القدس، ومدرجاً وملعباً لسباق الخيل والعربات والألعاب المختلفة، وقد أراد لها أن تكون جذابة ومؤثرة، كما في روما. ومن المؤشرات البارزة لتأثير الهيلينية على الروح والفكر اليهوديّين، تسلّل العديد من الكلمات اليونانية إلى اللغة الآرامية المحكية آنذاك...

جاء الرد على هذا التأثر بالحركة الهيلينية، على مستويات عدة وبطرق شتّى. ففي عهد السلوقيّين، تكتّل اليهود في حركتين، روحيّة وعسكريّة، نمتا بمرور الزمن وبتفاقم الخطر الهيليني. ثم إنهم تجاوبوا مع نداء الحكماء، فتشدّدوا في تمسّكهم بالتوراة وبالطقوس، تُقام في الهيكل أو في الكُنُس، وبالتقاليد المتوارثة، وباللغة نفسها... وقد كانت اللغة اليونانية مشبوهةً، وكذلك مَن يستخدمها، فكيف بمَن يتعلّمها، حتى إن التلمود يقول: "إن الذي يعلّم ابنه اللغة اليونانية، ملعون كالذي يربّي الخنازير".

2- الهيكل والكهنوت:

1. هيكل القدس:

كان الهيكل هو "بيت الله"، وهو رمز الإيمان بوحدانية الله، وقلب الحياة الدينية والقومية. وكان اليهود ينظرون إلى هيكل القدس على أنه الهيكل الأوحد الذي يرضى الله عنه. مع أن يهود مصر كانوا قد بنوا لهم هيكلين في مصر. إلاّ أن يهود فلسطين كانوا يعتبرونهما غير قانونيين.

كان سليمان قد بنى هيكل القدس. فدمّره الكلدانيون عام 587 ق.م. وأعيد بناؤه ودُشّن عام 515 ق.م. ثم أعاد بناءه هيرودس الكبير ووسّعه. وقد بُدئ بأعماله عام 20 ق.م. ولم تنتهِ إلا عام 64 ب.م. وكان يضمّ عدداً من الأبنية والساحات. ويقوم في شمال المدينة السفلى، بإزاء وادي قدرون، مقابل جبل الزيتون. وكان يبلغ أقصى طول له 490 متراً، وأقصى عرض له 320 متراً. وكان محاطاً بسور ضخم يضفي عليه هيئة القلعة الحصينة. وقد جاء أكمل وصف له في كتابات "يوسيفوس المؤرخ".

كان الهيكل يُقسم إلى قسمين، يسعنا أن نسمّيهما "الهيكل الكبير والهيكل الصغير". فالهيكل الصغير يحتلّ مكان القلب من الهيكل الكبير، وهو يحتوي أقدس الأمكنة فيه. وفيه ثلاثة أقسام هي: المدخل، والقدس، وقدس الأقداس، حيث كان يوضع تابوت العهد، والذي بات فارغاً منذ أن فُقِد تابوت العهد. وفي القدس مذبح صغير من الذهب، تُحرق فوقه أعواد

البخور صباح مساء (لوقا 9/1)، وعليه الشمعدان الذهبي ذو الأغصان السبعة، ومائدة خبز التقدمة... أما "الهيكل الكبير" أي البناء العام، فكان يقوم حول "الصغير"، ويضم عدداً من الساحات المحاطة بأروقة من الأعمدة اليونانية. فإلى الجنوب والشمال من "الهيكل الصغير"، باحة كبرى تُسمّى باحة الأمم، لأنه كان يُسمح للوثنيّين بدخولها. وكان الرواق الجنوبي أوسع الأروقة وأجملها، ويُطلق عليه اسم الرواق الملكي. وإلى الشرق، يقوم أقدم الأروقة المسمّى رواق سليمان (يوحنا 33/10). وكثيراً ما كان المعلّمون يلقون الدروس في هذه الباحة وتحت الأروقة. وإلى الزاوية الشمالية الغربية، تقوم القلعة المسمّاة "قلعة انطونيا". وفي الأعياد الكبرى، كان التجار والصيارفة يضعون موائدهم وأبقارهم وخرافهم في "باحة الأمم"، ومعهم أيضاً باعة الحمام... (مرقس 15/11 ويوحنا 2/14-16). وكان يقوم حول "الهيكل الصغير" باحة داخلية تعلو "باحة الأمم" بما يقارب خمسة عشر ذراعاً، وقد أحيطت بدرابزين من الحجر، لا يُسمح حتى لليهود بدخولها، إلاّ إذا خلعوا أحذيتهم وتركوا العصي التي بأيديهم. وكان يحظّر على الوثنيين دخول هذه الباحة، تحت طائلة الموت (أعمال الرسل 28/21-29). وفي هذه "الباحة الداخلية"، كانت تقوم باحة كبيرة تُسمّى باحة النساء، يُدخل إليها عبر باب ضخم غُطّي كلّه بالفولاذ المصنوع في كورنثس، يُسمّى "الباب الجميل" (أعمال الرسل 2/3). وهناك أيضاً باحة ثانية، تُسمّى باحة إسرائيل، وباحة ثالثة تُسمّى باحة الكهنة. وكان يقوم بين باحة إسرائيل و"الهيكل الصغير"، مذبح الذبائح. وكانت تلك الباحات الثلاث محاطة بغرف، كانت إحداها تطل على باحة النساء، وتُسمّى "غرفة الكنز" (مرقس 41/12، ويوحنا 20/8). وكانت نقوش كثيرة تزيّن جدران هذه الأبنية الخارجية، منها ما قدّمه يهود، ومنها ما قدّمه الغرباء (2 مكابيين 16/9، ولوقا 5/21).

كانت الأموال تتدفّق على هيكل القدس بوفرة عجيبة، ومن كل جانب.

فهناك تقادم الحجّاج والزوار ومساهمات يهود الشتات. وكانت أيضاً ضريبة "الدرهمين"، المفروضة على كل يهودي بلغ العشرين (متى 24/17)، وكانت تُجبى من قبل موظفين، لا يمتّون بصلة إلى العشارين، أو جباة الضرائب الرومانية.

كان هيكل القدس آيةً في جماله ومفخرة لليهود جميعاً. يقول فيه يوسيفوس:

« لم يكن في واجهة الهيكل الخارجية كلها، إلاّ ما يستدعي "الإعجاب". كانت كلّها إلى الشرق، مغطّاة بشرائح ذهبية بلغت من الكثافة ما يجعل العين، إذ تقع عليها منذ بزوغ الشمس، تبهر أكثر ممّا لو كانت تحدق في أشعة الشمس. أما الجوانب الأخرى، فلم يكن فيها ذهب، ولكن الحجارة فيها بلغت من البياض ما يجعل هذه الكتلة الرائعة، تبدو من بعيد كجبل مغطى بالثلج. » (متى 24/1-3 ومرقس 13/1-2 ولوقا 21/5-23).

2. **رئيس الكهنة:**

كان رئيس الكهنة زعيم الشعب اليهودي حقاً، إذ كان يملك عليه السلطة الدينية والمدنية. وكان يستمدّ سلطاته، مبدئيّاً، من مركزه بالذات. فوظيفتُه مقدّسة وهي وقف على "أبناء هارون"، ولم يكن يحقّ لأحد سواهم أن يشغلوا هذا المنصب. فكان رئيس الكهنة ممثّل الشعب الرسمي أمام الله، وحارس الهيكل القدسي، والمكلّف برئاسة الصلاة في بني قومه، ورئيس الكهنة وخَدَمة الهيكل (اللاويّين). وكانت وظيفته مبدئيّاً مدى العمر ووراثيّة. إلاّ أن عدداً من الولاة الرومانيين قد غيّروا رؤساء الكهنة على هواهم: فقد عُيّن في هذا المنصب، ما بين العام 37 ق.م. والعام 26 ب.م. خمسة عشر رئيس كهنة. ومع ذلك، فقد كان رئيس الكهنة "المخلوع"، نظراً للمسحة التي يتلقّاها، يحتفظ بلقبه وبنفوذ كبير أحياناً.

أما الثياب التي كان يرتديها أثناء إقامة الطقوس، فقد وصفها مؤلّف

سفر "بن سيراخ" (45/6-13)، كما أنّه وصف سَير الصلاة التي يقيمها في الهيكل (50/5-21).

في المجال الزمني والسياسي، كان لرئيس الكهنة نفوذ كبير. فقد كان بوصفه رئيس المحفل الأكبر (السنهدريم)، يُعتبر أوّل مسؤول في الدولة اليهودية، ولم يكن شيء يحدّ سلطاته، سوى سلطة الوالي الروماني.

بزوال عهد "الحشمونيين"، الذين كانوا قد نصّبوا أنفسهم ملوكاً، ورؤساء كهنة في آن واحد، توصّل بعض المتنفّذين من الأسر اليهودية في القدس، إلى الاستئثار بمنصب رئيس الكهنة، دون أن يكونوا من "أبناء هارون". فكان ذلك مجلبةً لفساد كبير، ولنقمة تبدّت في التلمود، حيث جاء فيه:

« "يا للكارثة بسبب عائلة "بويثس": الويل لي بسبب رماحهم. يا "للكارثة بسبب عائلة "حنّان": الويل لي بسبب فحيح الأفاعي الصادر عنهم. يا للكارثة بسبب عائلة "فيابي": الويل لي بسبب قبضاقم. فهم رؤساء كهنة وأبناؤهم مؤتمنون على كنوز الهيكل، وأصهرقم قادة الهيكل، وخدّامهم يضربون الشعب هراواقم.»

وكانت أبرز شخصيّات هذه العائلة، تنال لقب "رئيس كهنة"، دون أن يكونوا قد مارسوا هذه المسؤولية. وفي الإنجيل، كما لدى "يوسيفوس"، تصادفنا هذه التسمية الواسعة أحياناً.

في الفترة التي عاش فيها يسوع، تجدر الإشارة إلى اثنين من رؤساء الكهنة، هما حنّان وقيافا. فقد عُيِّن حنّان عام 6 ب.م. رئيس كهنة، وأُقيل عام 15، ولكنه احتفظ بنفوذ عظيم حتى آخر عمره الطويل، إذ قد توالى في زمانه، على رئاسة الكهنوت، أبناؤه الخمسة، ثم صهره قيافا. وقد كان هذا الأخير متملّقاً، بحيث استطاع أن يظلّ في رئاسة الكهنوت حتى عام 36، حيث أُقيل. وقد كان ألعوبةً بيد حنّان. وقد كان لهما دور محزن إبان محاكمة يسوع (لوقا 3/2 ومتى 26/3 ويوحنا: 11/49 و 18/13 تابع).

3. الكهنة واللاويّون:

كان يقوم بخدمة الهيكل جماعة كهنوتيّة، كثيرة العدد وذات مراتب، تضم الكهنة واللاويّين. وكانوا كلّهم ينتمون إلى قبيلة "لاوي". وكانوا يؤلّفون مجموعتين يفصلهما، على نحوٍ واضحٍ، المرتبة والوظيفة.

1. الكهنة:

كان الكهنة موزّعين إلى أربع وعشرين طبقة، يتناوبون دوريّاً في خدمة الهيكل. يذكر منها القدّيس لوقا طبقة (أو فرقة) "ابيا"، بوصفها فرقة "زكريا" والد يوحنا المعمدان (لوقا 5/1). وكان الكهنة يُختارون بالقرعة لمختلف الخدمات: (لوقا 9/1). وكانت بعض الخدمات، ذات الأهمية الخاصة، والتي تقتضي حضوراً دائماً، تُوكل إلى أعضاء العائلات الكهنوتيّة، التي كانت تُقيم بصورة دائمة في القدس، والتي تشكّل أرستقراطية الكهنوت. وكان الكهنة الآخرون بمعظمهم، يقيمون إمّا في القدس، وإما في الضواحي (لوقا 23/1). وكان بعضهم يُقيم في القرى المجاورة، أو في ريف مقاطعة اليهودية. أمّا عددُهم فكان ضخماً، حتى إن "يوسيفوس" يقدّرهم بعشرين ألفاً.

كانت مهامّهم ترتبط بخدمات طقسية بالغة التعقيد. وأما عملهم، فلم يعدُ القيام بالطقوس والاحتفالات. وكان طابع القدسيّة التي تضفيها عليهم مهامّهم، تضمن لهم احترام المؤمنين. وكانوا يتباهون بتقديس الشريعة وممارستها، فهي تضمن لهم امتيازاتِهم ومراكزَهم، إلا أنّهم في الحقيقة لم يكونوا ليهتمّوا، لا بدراسة الشريعة، ولا باجتهادات مدارسها ومدرّسيها. وكان هذا الواقع ينطبق بصورة خاصة على ذوي المراتب العليا، من أصحاب المهام الكهنوتية، إذ كانوا شديدي الحرص على الحفاظ على مراكزهم، ومضاعفة مدخولهم، بدل حرصهم على تنمية الروح الدينية في الشعب، أو العمل على تهيئة حلول ملكوت الله على الأرض. وكان أرستقراطيّو الطبقة الكهنوتية اليهودية، في رضاهم عن وضعٍ مثل هذا، لا

يحلمون إلاّ باستمراره، يأخذون بمعظمهم بالمذهب الصدّوقي في أمور العقيدة والأخلاق والسياسة.

2. **اللاويّون:**

كان اللاويّون مساعدي الكهنة وخدمتَهم، في أمور الطقوس وسائر أمور صيانة الهيكل وتنظيفه. وبسبب هذه الأعمال بالذات، كانوا دائماً في المؤخرة، ولا يُقام لهم أيّ اعتبار في حياة الشعب الدينية أو السياسية. وكان مدخولهم الوحيد قسماً من العُشر المقدّم للهيكل، يعيشون منه. لذا كانت أوضاعهم المادية باهتةً جداً، ذلك بأن مدخولهم من العُشر، كان ضئيلاً وغير منتظم، لأن القسم الأعظم منه كان يذهب إلى جيوب الكهنة.

3- **الشعور الديني:**

1. **الكتبة والتقليد:**

كان الكاهن لا يخرج، من حيث مهامّه، من حدود الهيكل. أما الكاتب، فقد كان يتولّى مهمة تعليم الشعب الأمور الدينية، وبالتالي كان له نفوذ كبير في جميع ما يتعلّق بحياة الشعب، على الصعيد العائلي والاجتماعي. فقد كان "الكاتب" هو الدليل الروحي والموجِّه والمعلّم.

- نشوء الكتبة:

منذ العودة من جلاء بابل، ونظراً لانهماك الكهنة في الشؤون الطقسية الصرف، برز من صفوف الرجال العاديين (لنَقُل: العلمانيّين)، من اهتمّ بشؤون التعليم الديني، والاستجابة لحاجة الشعب العادي إلى مثل هذه التغذية الروحيّة. فقد كانت التوراة محطّ اهتمامٍ بالغٍ من قبل الشعب. وكان الكثير من "العلمانيّين" بعيدين جداً عن التفكير بحصر حياتهم الدينية في إقامة الطقوس ليس إلاّ... فبرز عندها بمرور الزمن، عددٌ ممّن سُمّوا كتبة، في إثر أوّلهم، الذي كان الكاهن المصلح "عزرا"، وكانت كلمة "كاتب" تعني في الإشارة إلى "عزرا"، المعلّم والمرشد الديني. وفي عام 200 ق.

م. كانت ظاهرة "الكتبة" قد احتلّت مكاناً مرموقاً، ومعترفاً به في المجتمع الديني والعام كلّه. وباتوا يشكلّون طبقةً واضحةَ المعالم، ومنتشرةً على نحوٍ واسع في فلسطين. وفي عهد الملكة "الكسندرا" (76-67 ق.م.)، كان أبرز الكتبة يجلسون في السنهدريم، جنباً إلى جنبٍ مع ممثّلي الطبقتين الأرستقراطيّة والعلمانيّة. وفي أيام هيرودس الكبير، لم يحظَ أحدٌ في فلسطين كلّها، بمثل ما حظي به من تكريمٍ وإجلال، الكاتبان "هيليل" و"شمّاي". وقد تمتّع العديد من خلفائهما بمثل هذا التقدير. يسعنا أن نذكر على سبيل المثال: في القرن الأول الميلادي "غماليئيل"، معلّم القدّيس بولس، و"رابي يوحنان بن زكاي"، مؤسّس المدرسة الحاخامية في "جفنة"، وفي القرن الثاني: "رابي عقيبة" و"رابي ميئير" و"رابي يهوذا القديس"، وهم محرّرو "الميشنا" الرئيسيّون. (أذكّر بأن كلمة "رابي" تعني "المعلم").

- فعالية الكتبة والتعليق على التوراة:

كان اسم الكاتب باللغة العبرية هو "السوفر" أي "رجل السِّفر"، والسِّفر على نحوٍ ممتازٍ هو التوراة. أما الألقاب الشرفية من أمثال "رابي"، و"ربوني" - يا معلمي - فإنها تعود إلى عهد هيرودس. وفي الإنجيل، تصادفنا الأسماء التالية، باليونانية طبعاً: "كتبة" و"رجال الشريعة" و"معلّمو الشريعة". وفي "الميشنا" يُطلق على الكتبة، اسم "حكَمِيم" أي الحكماء أو العلماء.

كانت فعالية الكتَبة كلّها منصبّةً على التوراة. فكانوا يدرُسونها ليُتقنوا أمرين: معرفتَها وتطبيقَها. وكانت هي موضوع تعليمهم الأوحد، كي ينشروا معرفتها، ويحملوا الناس على تطبيقها. ولما كان تعليمُ نصٍّ مكتوب، لا يتحقّق إلاّ بالشرح والتعليق، بات تفسيرهم للتوراة أمراً ضرورياً، لا سيما وأنه كان يُطلب إليهم أن يجدوا في التوراة قواعدَ، تُبنى عليها ممارسة الحياة اليومية، على الصعيدين الديني والمدني معاً. ولم يكن النص المكتوب، بالطبع، لِيقدّم غالباً، الأجوبة المتوقّعة أو المطلوبة. إلا أنه

هو المعتمد، فكان لا بدّ من تفسيرٍ له يوفّر الجواب، لأنّ التوراة وحدَها هي قاعدة الحياة بالنسبة إلى اليهودي. وهكذا وجدت المسائل الجديدة أجوبةً ملائمةً، تستند إلى النص المقدس. وقد تفنّن الكتَبة في وضع نظامٍ وعُرفٍ، تأتي ترتيباتُه مطابقةً للقواعد المكتوبة.

بالطبع لم يكونوا بذلك يطمحون في إضافة جديد إلى التوراة. فهم يستخرجون الجديد من التوراة، الذي يحتوي، في نظرهم، كلّ جديدٍ أبداً. وكانوا يرفضون أن يُقال عنهم إنهم يجدّدون. وهم بذلك يستندون إلى تقليدٍ متّبعٍ ومعترفٍ به. فكان أحدُهم، وهو "رابي يشوع بن لاوي" - مطلع القرن الثالث ق. م)، يقول: "كلّ ما يسع أيّ تلميذٍ أن يُعلّمه بحضور معلّمه، قيل لموسى على جبل سيناء". كما جاء في "الميشنا" هذا القول: "موسى تلقّى التوراة في سيناء. فسلّمها ليشوع، ويشوع سلّمها للأقدمين، والأقدمون للأنبياء، والأنبياء لأعضاء المحفل الأكبر". فالسلسلة إذن متّصلة الحلقات، ممّا يضمن قيمة التقليد الشفهي.

وكان الكتَبة يؤلّفون فيما بينهم جماعاتٍ، ليتدارسوا التوراة جماعيّاً، ويناقشوا تفاسيرها وشروحها جماعيّاً، ويقرّروا تطبيقاتها جماعيّاً. من هنا أيضاً كانت قوّتهم الخاصة. ولما كانت مهمّتهم تعليمَ التوراة وشرحَها، كانوا بصورةٍ طبيعية، يبسطون تعاليمهم في "الكُنُس"، دون أن يشغلوا فيها وظيفةً ما. إنّما هم كانوا القادة الروحيّين. وكانوا إلى ذلك، يحرصون على إحاطة أنفسهم بجماعة من التلاميذ الشبّان، يحملون تعليمهم، وينطلقون بدورهم تحت إرشادهم.

- تسميات التعليق على الشريعة:

كان التعليق على الشريعة يسمى "المدراش" (أي البحث)، وهو اسم عام، يُقال في كلّ عمل يتناول الشريعة بالتعليق.

ولما كانت التوراة تحتوي عنصرين متميزين، هما الوصايا والروايات، بات "المدراش" يتناول إما التفسير القانوني للوصايا، وإما الشرح التوجيهي

للرواية. فكان "المدراش" يسمّى "هلكة" في الحالة الأولى، ويسمّى "هاجادا" في الحالة الثانية. وكلمة "هلكة" تعني الطريق، و"هاجادا" تعني التعليم.

وكانت "الهلكة" تُبسط على أنها قاعدة للحياة الأخلاقية، إلاّ أنها قاعدة غير موجودة في الكتاب المقدس، ولكنّها تتمتّع بالسلطة ذاتها التي يتمتّع بها كلام الله.

وكانت "الهاجادا" تُبرز العبرَ الدينيّة والأخلاقية، التي تنطوي عليها القصص المروية في التوراة. فكانت تتيح المجال لتأويلاتٍ واستنتاجاتٍ، يجنح فيها الخيال إلى أبعد الحدود، لا سيما عندما تتناول قصص "الآباء" الأوائل وموسى والأنبياء، أو القصص ذات الرموز الكثيرة أو الأساس الأسطوري... وإلى هذا الضرب من الأدب ينتمي كتاب "وصية الآباء الاثني عشر" و"كتاب اليوبيلات"...

- تقليد الأقدمين و"الإفتاء":

كان يُطلق اسم "تقليد الأقدمين" على مجمل هذه التعليقات والتفاسير (متى 2/15 ومرقس 4/7). فكان بمثابة "توراة شفهيّة"، إلى جانب التوراة المكتوبة، تتناقلها الأفواه جيلاً بعد جيل بأمانةٍ كليّة، ولا يجوز الخروج عليها. وقد ترسّخ مفهوم التقليد، وانتشر على أوسع نطاق بظهور "الهلكة".

بالطبع كان كلّ جيل من الكتبة، يضيف إلى سابقيه ما ابتدع من تفاسير، ويتفنّن في إرساء تفاسيره الجديدة على قاعدة التوراة المكتوبة، كي يغطي ما عنده بسلطة سابقيه. من هنا كان التفنّن في استنباط التفاسير والتعليقات على نحوٍ، يسعنا معه أن نسمّيَه "فنّ الإفتاء". وقد وجدوا لهم في المجال الأخلاقي أوسع الميادين. إلا أنهم استطاعوا أن يحيطوه بما سُمّي "سياج الوصايا"، كما استطاعوا أن ينتزعوا لهذا العمل احتراماً، يوازي احترام الناس للشريعة المكتوبة نفسها. وقد ذهب بعضهم إلى مدىً لا يُصدّق: فوضعَ التقليد فوق التوراة... وقد كُتب في أحد

مؤلّفاتهم هذا التأكيد الفاضح: "إنّ رفض كلمات الكتَبة أشدّ خطراً من رفض كلمات التوراة"...

ولم يكن الكتبة ليقصُروا نشاطَهم على الميدان الديني. فقد تخطّوه إلى الميدان العائلي والاجتماعي. وباتوا يخطّطون حتى للحياة الفردية في جميع دقائقها. فهم المشرّعون وهم القضاة، وهم اللاهوتيّون، وهم المفسّرون. وكانوا المرجع الدائم في جميع الخلافات والمنازعات، أيّاً كان نوعها. وكانوا في الأمور المدنية، يحدّدون القواعد القانونية، ويصدرون الأحكام، بوصفهم حكاماً أو قضاة.

- مكانة الكتَبة في المجتمع اليهودي:

في سفر "يشوع بن سيراخ"، مديح عظيم للكتبة (24/38 - 11/39)، ولا بدّ من قراءته، لمن يريد أن يستوضح المكانة الفريدة التي كانت للكتبة في المجتمع اليهودي. فلم يكن فيه ما يماثله لقباً وكرامة. لذا كان الأهل جميعاً، يحلمون بأن يصبح أحد أبنائهم، ذات يوم، كاتباً... فقد جاء في الميشنا، أقوال كهذه: "احترم معلّمك، بالقدر نفسه الذي تخشى فيه الله" - "إن دراسة التوراة، إذا ترافقت مع ممارسة مهنة، تصبح مجلبةً للخلاص" - "إنّ الذي يخسر كلمةً واحدة من التعليم المقدّم له، يسبّب خرابه الشخصي" - ويقول "رابي هيليل": "احفر تربةَ التوراة وأعد حفرها: فكلّ شيءٍ فيها. سمّر فيها نظرك، امضِ العمر في دراستها، احرق نفسك فيها، ولا تتحوّل عنها: فليس لك مصيرٌ أعظم من هذا المصير".

وقد اعترف يسوع نفسه بما للكتبة من المكانة. فوصفهم بأنهم جالسون على كرسي موسى...

ولكن يسوع هاجمهم هجوماً بالغ العنف. فوبّخهم على كبريائهم وتقيّدهم الحرفي بالشريعة، وعلى استنباطهم تقاليد بشرية، حجبت التقليد الإلهي، ووصفهم بالقبور المجصّصة الخ... ولا بدّ من قراءة الفصل 23 من إنجيل القديس متى، ليقيس الإنسان مدى الغضب الذي أثاروه في يسوع...

- الكتبة والفرّيسيّون:

كان معظم الكتبة ينتمون إلى حزب الفريسيّين. وكانوا هم بعض أفضل عناصره. والمعروف أن "هيليل" و"غماليئيل" و"شمّاي"، كانوا كتبةً محترفين.

وقد يبدو من بعض نصوص الإنجيل، أنّ الكتبة والفريسيّين فئةٌ واحدة، لأنّهم كثيراً ما يجتمعون ضدّ يسوع، وما يُنسب فيه إلى هؤلاء، يُنسب أيضاً إلى أولئك. ذلك يعود إلى أنّ غالبيّة معلّمي الشريعة، كانوا يؤيّدون الفريسيّين في مواقفهم ومطالبهم. إلاّ أن الحقيقة أنّ التمييز يجب أن يقوم بين طبقة الكتبة وحزب الفريسيّين، الذين سنأتي على ذكرهم بعد حين.

2. **الكُنُس أو المجامع:**

كلمة "مجمع" هي المستعملة في الإنجيل، في ترجمة للكلمة العبرية "كنيست"، وهي تعني أوّلاً "اجتماع المؤمنين". ثم باتت تعني "مكان الاجتماع".

- أصل الكُنُس وتعدّدها:

تعود أولى محاولات التجمّع إلى عهد الجلاء في بابل. فقد فقدَ اليهود هيكلَهم، وباتوا بعيدين عن القدس، ولكنّهم بحاجة للصلاة، فأخذوا يجتمعون للصلاة، وسماع التوراة، تلاوةً وشرحاً. ولما عادوا إلى فلسطين، احتفظوا بهذه العادة، استجابةً منهم لحاجتهم الدينية المتنامية. وقد سهّل ذلك مهمة "الكتبة"، الذين كانوا يقومون بمهمّة تثقيف الشعب دينيّاً.

ولكن ليس من الأكيد، أنّ هذه الاجتماعات قد تحوّلت سريعاً إلى مؤسسة، كما عُرفت فيما بعد، قبل القرن الثاني ق.م. ففي الحروب المكابية، لم يرد أي ذكر لأي كنيس اجتمع فيه اليهود، أو دمّره السوريون. ولكن ظاهرة "الكُنُس" بدت منتشرةً على نطاق واسع، في عهد المكابيّين (أو الحشمونيين). أما في زمان يسوع، فكانت الكُنُس منتشرةً في كلّ بقعة، أصغرها وأكبرها. ويذكر التلمود، ربما بشيءٍ من المبالغة، أنّ القدس

وحدَها كانت تحتضن أربعمائة كنيس، كان أحدها في جوار الهيكل. وكانت الكُنُس تكتسي زينةً وزخرفةً، بقدر ثراء المؤمنين المتواجدين في المنطقة.

- هندسة الكنيس وترتيبه:

كان البناء عادة يتجه من الجنوب إلى الشمال. والمدخل فيه من الشرق، كما هي الحال في "الهيكل الصغير" في القدس. وهو يضم قاعةً كبيرةً مستطيلة، قد تُقسم إلى ممرّات تفصل بينها أعمدة. وقد يسبق باب المدخل، باحةٌ كبرى. أما الزينة، فلم يكن يتخلّلها أي تصوير. وكان يوضع، في ما يشبه "المعبد"، "تابوت" يحتوي لفائف الشريعة، وكانت بدورها ملفوفةً في كتّانٍ، وموضوعةً في غمد. وكان قنديلٌ واحد على الأقل دائم الاشتعال أمام "التابوت". وفي وسط القاعة أو الممر الأوسط، تقوم منصة انتصب عليها مقرأ، حيث يقف القارئ والواعظ. وكان الرجال المرموقون يتّخذون مكاناً لهم بين "المعبد" والمنصة، على مقاعد الشرف التي أشار إليها الإنجيل مراراً (مثلاً متى 6/23).

وكان على رأس كلّ كنيس مسؤول، يُختار من بين أقدم رجال الجماعة. وكان يُطلق عليه اسم "رئيس المجمع". كان مكلّفاً بأمور المجمع كلّها، ماديّاً وروحيّاً، ويسهر على قيام النظام أثناء الاجتماعات، ويُعيّن مَن يتولّون أداء الخدمة بمختلف مراحلها. وكان بإمرته موظّف (لوقا 20/4)، مكلّف بحفظ اللفائف، وتقديمها للقارئ، والتبويق في بدء السبت ونهايته. وكان أحياناً في بعض القرى يقوم بمهمة القارئ، ومعلّم المدرسة.

- الاجتماعات في الكُنُس:

كانت الاجتماعات تُعقد يوم السبت وأيام الأعياد. وكان لا بدّ من توفّر عشرة أشخاص على الأقل. وكان الطقس المقام يتضمّن دوماً الصلاة وقراءة الكتاب المقدس والعظة. فتُتلى أوّلاً صلاة، تُسمّى "اسمع يا إسرائيل"، وصلاة التبريكات التي يفرضها الطقس. ثم يُقرأ نصٌّ من التوراة، ونصٌّ آخر من أسفار الأنبياء (لوقا 14/4). وكانت التوراة -

الأسفار الخمسة الأولى - قد قُسِّمت في فلسطين إلى أقسام يتراوح عددها بين 154 و175، بحيث كانت قراءة كامل النصوص تستغرق حوالي ثلاث سنوات. وكانت القراءة تتمّ باللغة العبريّة. ولمّا كان الحضور لا يفقهونها، كان هناك مَن يترجمُها إلى الآرامية. وكان يُنصَح بعدم التقيّد بالحرفية، وبتحاشي فرط التصرّف بها. ثم كان رئيس المجمع يدعو أحد الحضور، لشرح النصوص التي تُليت. وإذا ما كان هناك غريب ذو مكانةٍ ما، فكان يُطلب إليه القيام بهذه المهمة (أعمال الرسل 15/13). وكان أحدهم أحياناً، ينهض من تلقاء نفسه، ويطلب حقّ الكلام (لوقا 16/4). وكثيراً ما كان الخطيب ينتمي إلى جماعة الكتبة، لأنه كان يُفترض فيه معرفةٌ عميقةٌ بالكتاب المقدس، وكان الشرح يتّسم عادةً بأسلوب التعليق الوعظي. ويُلاحَظ في الأناجيل، أنّ يسوع استخدم هذه الفرص، ليقولَ كلمتَه في الناس المجتمعين (متى 23/4، ومرقس 21/1، ولوقا 6/6 و10/13، ويوحنا 59/6 و20/18). وكان الاجتماع يُختَم بالبركة، يتلوها كاهن، في حال وجوده، أو رئيس المجمع. ويجيب المصلّون بكلمة "آمين" (أي ليكن هكذا) ويخرجون.

وكان يُلحق عادةً بالمجمع بيتٌ، بمثابة مدرسة، يُعطى فيه التعليم الديني للأطفال، استناداً إلى التوراة.

كانت المجامع تلعب دوراً هاماً في الحياة الدينية والقومية. فقد كان اليهود، بفضل هذه الاجتماعات يحافظون على الترابط فيما بينهم، والاتصال الدائم. وكانت الصلوات الجماعية، وتلاوة النصوص الكتابية، تغذّي فيهم قاعدةً دينيّةً، تشكّل أرضيةً مشتركةً وثابتة. وبذلك أصبح السبت يومَ صلاةٍ وتقديسٍ واجتماع. وكان الكتبة يثبّتون هذه الروابط الدينية، ويعمّقونها بالتعاليم المنتظمة، فكان ذلك يزيد من تضامن الشعب بين أفراده، ويُحيي فيهم ذكرياتٍ دينيّةً وقوميةً، تسري فيهم كالدم الواحد في الجسم الواحد.

4- الأحزاب والبدع:

نشأت في صفوف اليهود جماعات كثيرة، بعضها أقرب إلى الحزب الديني والسياسي، وبعضها شبيه بالبدعة. من هؤلاء: الفريسيّون والصدّوقيّون والأسينيّون. وهناك أيضاً تنظيمان سياسيّان، هما الهيرودسيّون والغيورون.

1. الفرّيسيّون:

1- أصل الاسم:

كثُرت محاولات تفسير الاسم، ومنشئِه. وتُرجَّح إعادته إلى "فرز"، بمعنى "فصل الذات عن الآخرين". يقول بعضهم، إنّ "صفة الفصل" لم يُلحقوها بأنفسهم، لأنهم كانوا شديدي الحرص على الاحتفاظ برابطةٍ متينةٍ مع الجماعة اليهودية. وقد تكون الصفة أُلحقت بهم تهكّماً، كما يرتئي سواهم من قِبل خصومهم، الذين كانوا يأخذون عليهم تشدَّدهم المفرط والحرفِي بشأن الشريعة وتطبيقها.

2- أصل الحركة وتطوّرها:

كانت الحركة، أساساً، ترمي إلى إنشاء حزب ديني صرف، يضم اليهود الذين كانوا يريدون تحقيق القداسة، التي يطالبهم بها الله، وتأمر بها الشريعة والتوراة. وقد برزت هذه السمة منذ اللحظة التي ظهرت فيها هذه الحركة، إبّان ثورة المكابيّين. فهم ينتمون إلى فئة "الحاسيدين"، أي الرجال الأنقياء، الذين ساندوا المكابيّين ضدّ "انطيوخوس ابيفانوس" وضدّ الحركة الهيلينيّة، وناهضوا تسلّل مظاهر الوثنية إلى المجتمع اليهودي، فمات معظمهم، وهم يدافعون عن دينهم. هؤلاء هم بحق، أجداد الفريسيّين.

إلا أنهم لم يبرزوا على الساحة السياسيّة والدينية بهذا الاسم، إلاّ في عهد الملك "يوحنا هيركانوس" (135-105). ولقد برزوا على الفور كحزب منظّم. وقد ساندوا هذا الملك. إلا أنهم تخلّوا عنه في نهاية المطاف، عندما

اتضح لهم في أواخر عهده، بأنّ حرصَه على تثبيت حكمه وتوسيع مملكته، يفوق كثيراً حرصَه على تطبيق التوراة. واكتملت القطيعة بينهم وبين "النظام"، في زمان خَلَفه وابنه "اريستوبولس الأول" (104)، والملك "الكسندروس ينّاوس" (103-76). ولكن الملكة العجوز "الكسندرا" (76-67)، منحتهم ثقتَها، وكسبت ودّهم، فساندوها وأتاحت لهم مشاركةً واسعةً في الشؤون العامة. واستخدموا نفوذَهم لكي يفرضوا أوامر التوراة فرضاً، ويلغوا جميع القرارات التي استلهمت توجّهَ "الصدوقيّين". إلا أنّ الصدّوقيّين عادوا إلى الساحة والنفوذ مع الملك "اريستوبولس الثاني" (67-63).

وفي عهد هيرودس اتّسم موقف الفرّيسيّين بالريبة حيالَ الملك، فبادلهم العداء، وأقام رؤساء كهنة من الصدّوقيّين، وأخضع "السنهدريم" لما يشبه العبوديّة.

وفي عهد الولاة الرومانيين، تحاشوا أيّ تدخل في الشؤون السياسية، وحصروا نشاطَهم كلّه، وبصورةٍ متزايدة، في المجال الديني. فكان نفوذهم يزداد كلّما برز دورهم كمدافعينَ عن التوراة والتقليد، لا سيما وأن معظم "الكتبة" كانوا ينتمون إلى حزبهم.

3- <u>الفرّيسيّون والكتبة</u>:

من الخطأ الاعتقاد بأن جميع الفرّيسيّين كانوا كتبة. فإن حزبهم كان يجمع عناصره من مختلف الفئات، وحتى من الطبقة الكهنوتية. إلا أنّ الغالبية الساحقة من أعضاء الحزب، كانوا ينتمون إلى عامة الناس. ولقد قدّر المؤرخ يوسيفوس عددَهم بـ (6000)، فكانوا أشبه شيء "بتجمّع ضمن المجتمع". وكان الجميع يمارسون شيئاً من المساواة، دون تمييز بين فقير وغني، حتى إنهم كانوا يُطلقون على أنفسهم، وفيما بينهم، صفة "الرفاق". أما شروط الانتساب فكانت: معرفة التوراة والشريعة بدقة، لا في خطوطها الكبرى وحسب، بل أيضاً في تفاصيلها وجميع تطبيقاتها، سواء

منها ما يختص بالسبت والطهارة الشرعية والطقوس، وما سوى ذلك... وقد وصفهم يوسيفوس بكلمة تلخّص بحقّ جوهر ما يرمون إليه ويمثّلون، إذ قال:

« هم جماعةٌ من اليهود، يريدون أن يفوقوا سواهم بالتقوى، ويقدّمون للشريعة أكثر التفاسير دقةً. »

4- **الفرّيسيّون و"الرعاع أو الملعونون"**:

كان كلّ فريسي في واقع الحياة اليومية، مضطراً "للانفصال" عن كلّ ما يمكن أن يلوّثه أو ينجّسه، سواء كان شيئاً أو إنساناً. ولّما كان خطر "التلوّث" محيقاً به من كلّ جانب، كان في حالة انفصالٍ شبه دائمة. وقد وقعوا في ما يشبه الخوف المَرَضي من النجاسة. وهذا ينطبق على تعاملهم مع الوثنيّين، كما ينطبق على اليهود "المنجَّسين"، أمثال العشارين جباةِ الضرائب، أو كلّ مَن يبدو في وضعٍ مشبوه... وشيئاً فشيئاً باتوا ينفصلون عن الناس غير المنتمين إلى الحزب... أكثر من ذلك: جرّتهم حالتهم هذه إلى الانفصال عن عامة الناس، الذين قاموا في الأساس لتوجيههم وتثبيتهم في التوراة والشريعة... ذلك بأنّ تعاليهم وادعاءَهم بمعرفة التوراة والشريعة والتقليد، دون سواهم، قاداهم إلى اعتبار كلّ مَن ليس بمستواهم، "ملعوناً" ومن "الرعاع". فكانوا لا ينفصلون عنه وحسب، بل يصفونه بالإنسان الخاطئ الذي لا يجوز بأيّ حالٍ التعامل معه... وكانوا يعلنون أنّ مثل هذا الإنسان لا يمكنه أن يكون صادقاً، ولا تقيّاً... وأنه محطّ غضب الله، بل بأنّه مجلبةٌ لغضب الله عليه، وعلى الشعب بكامله... ومضوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فقالوا أنّه لا يحقّ له أن يقدّم شهادةً ما في المحاكم... وأنّ جهله بأمور الدين لا يؤهّله لأيّ وظيفة... فيتوجّب على كلّ مؤمنٍ، أن يمتنع عن بيعه أي شيء، أو شراء أيّ شيء منه، وأن يُمنَع من دخول بيت المؤمن، وأن تُرفض له كل دعوةٍ، لاستضافة أحدٍ في بيته...

وأنه لا تجوز عليه الرحمة والحسنة... أما أن يُسمح له بالزواج من ابنة مؤمن ما، فكان منتهى النجاسة والكفر... وقد نقل التلمود أقوالاً لبعض معلّمي الفرّيسيّين، في وصفهم هؤلاء "الملعونين":

« إنّ مجالسة "الملعونين" تجلب الموت... » (رابي دوزا بن اركينوس)

"الويل لي، لأني أعطيت قطعة من خبزي لأحد "الملعونين" (رابي يهوذا القديس).

"يجوز طعن "ملعون" حتى يوم الغفران، ولو وقع يوم سبت" (رابي اليعازر).

في ضوء هذا الواقع، تُفهم الكلمة التي قالها الفريسيّون، في إنجيل يوحنا بصدد بحثهم عن يسوع (يوحنا 49/7). وليس من شك في أن يسوع كان في نظر الفرّيسيّين أحد أسوأ الملعونين، لأنه كان يجالس العشارين والخطأة (مرقس 16/2)، ويخرق حرمة السبت (مرقس 24/2 و2/3 الخ...)، ويهمل طقوس التطهير (متى 15/1-2)، ولا يتقيّد بالأصوام التقليدية (مرقس 18/2-19).

وكان الفرّيسيّون يحصدون ما يزرعون: نقمةً وحقداً... وقد رُوي عن أحد أكبر الحاخاميّين، وهو "عقيبة"، أنه كان، يوم كان من الملعونين، يردّد بمتعة هذا القول: "أودّ أن أقبض على أحد هؤلاء الحاخاميين، لأنشبَ فيه أسناني كالحمار"، فقال له تلاميذه: "بل تريد أن تقول: كالكلب"، فقال: "كلا ثم كلا. لأن الحمار عندما ينشب أسنانه، يكسر العظم، أما الكلب فلا"...

ولكن من أعنف ما قيل في الفرّيسيّين، تهجّم يسوع عليهم كما جاء مراراً، وخصوصاً في الفصل 23 من إنجيل القديس متى.

5- <u>**التقليد والشكليّة لدى الفرّيسيّين:**</u>

وضع الفرّيسيّون التوراة والتقليد في مرتبة واحدة: فالتوراة هي الشريعة المكتوبة، والتقليد هو الشريعة المقولة. وهما تؤلّفان كتلةً واحدةً لا تنفصل. وكانوا في تأويلهم الشرائع، يتفنّنون في ابتداع المسائل والحلول، على نحوٍ

غير معقول من التفاهة والإسفاف أحياناً. صحيح أنهم كانوا يتصوّرون أنهم يخدمون الله بذلك خدمةً عظيمةً، ولكنهم كانوا ينزلقون إلى هاوية إنشاء ديانة، فيها من الشكليّة والتحجّر أكثر ممّا فيها من الروح... بل إنهم انتهوا إلى اعتبار أنفسهم المسؤولين عن الديانة اليهودية، وفق ما باتوا يصوّرونها. ولقد بالغوا جداً في الادّعاء، حتى إن التلمود نفسه يذكر سبع فئات من الفرّيسيّين، لا يمدح منها إلا فئةً واحدة. ولقد كال لهم يسوع من الذم، ما لم يخصّهم به مفكّر، لا قبله ولا بعده. (متى 23).

6- **الفرّيسيّون والعقيدة:**

أما فيما يخص العقيدة، فلم يخرج الفرّيسيّون عليها. ولا بدّ من أن يُعترف لهم بفضلهم على صياغة مفاهيمَ دينيةٍ، على درجة عالية من الروحانيّة والدقة. فقد أكّدوا على الحريّة الإنسانية، وإن كانوا يؤكّدون أيضاً على قدرة الله اللامحدودة... وعلّموا خلود الروح وقيامة الأجساد، كما كانوا يؤمنون بوجود الملائكة، ويتوقّعون حلول ملكوت الله، وكانوا من أشدّ الناس حماسةً للزمان "المسيحاني" المنتظر. صحيح أنهم يغوصون في تفاصيل تافهة جداً، ويُبيحون أحياناً محرّمات كبيرة، كما قال لهم يسوع: "تصفّون من البعوضة، وتبلعون الجمل"... ولكنهم كانوا بحقّ ولفترة طويلة، القوة التي مكّنت اليهودية، كديانة، من الصمود إثر كوارث مخيفة، كالتي حلّت بهم عام 70 ب. م. وعام 135 ب. م.

ولذا كان منهم مَن يرتاح، ولو سرّاً، ليسوع... لم يذكر الإنجيل إلا عدداً قليلاً منهم، مثل سمعان الفرّيسي، ويوسف الرامي، ونيقوديموس... وفي عهد الكنيسة الأولى، انضمّ عددٌ كبيرٌ منهم إلى المسيحيّين (أعمال الرسل 5/15). ولا يفوتنا أن نذكر أن "غمالئيل" الذي واجه السنهدريم دفاعاً عن التلاميذ (أعمال 34/5)، كان فرّيسيّاً. أما أعظمهم شأناً، فكان "شاول"، وهو الفرّيسي ابن الفرّيسي (فيليبي 5/3-6)، الذي "شهد" مقتل استفانوس، ثم بات "شاهداً" على قيامة يسوع، بل أعظم الشهود...

2. الصدّوقيّون:

1- **تسميتهم:**

يشكّل الصدّوقيّون حزباً سياسياً واقعياً موالياً للنظام. وكانوا على الصعيد الديني يختلفون كلّيّاً عن الفرّيسيّين. أما تسميتهم، فقد تعود إلى اسم كاهن يُدعى "صادوق"، حلّ في عهد الملك سليمان، محلّ كاهنٍ آخر اسمه "ابياتار". وقد جاء في سفري "حزقيال" و"ابن سيراخ"، مديح عظيم "لأبناء صادوق"، بوصفهم "كهنة العلي" دون سواهم. والواقع التاريخي يبيّن أنّ معظم أعضائه ينتمون إلى الطبقة الكهنوتيّة.

2- **تاريخ الحزب:**

تاريخ الصدّوقيّين هو تاريخ حزب سياسي وأرستقراطي.

كان الحكم في القرن الثالث، وحتى عهد "الحشمونيين"، بيد مجلس من الشيوخ، يرئسه رئيس الكهنة، وينتمي جميع أعضائه إلى أبرز العائلات الكهنوتيّة والعلمانية. وفي إثر الحروب المكابيّة، تسلّم زمام السلطة المكابيّون، وفقدت الأرستقراطية الكهنوتية والعلمانية معظم نفوذها. ولكنها استعادته قوياً، عندما تسلّم الحكم "يوحنا هيركانوس"، ووقعت القطيعة بينه وبين الفريسيين، الذين كانوا لفترة طويلة قد أيّدوه. وبعودتهم إلى الساحة السياسيّة، ظهروا بهذا الاسم. واستمدّ الملك "الكسندر ينّاوس" بعض نفوذه منهم. إلا أن الملكة "الكسندرا" أبعدتهم من البلاط، ومن دوائر الحكم. ثم استعادوا كامل نفوذهم مع الملك "اريستوبولس الثاني". ولكنهم في عهد هيرودس، عانوا كثيراً، مثلهم مثل الفرّيسيّين، من بطشه وارتيابه، فظلّوا في الظل... وعندما أقامت روما حكم الولاة في فلسطين، تلاءموا بسرعة، لا سيما وأنهم كانت لهم اليد الطولى في الهيكل والطبقة الكهنوتية. ولكن خراب الهيكل والقدس كان نهايتهم.

يسعنا القول بأن الصدوقيين كانوا سياسيّين محنّكين، أكثر منهم قادةً روحيّين. وكان همهم الأكبر والأوحد الحفاظ على سلطتهم وامتيازاتهم.

وكان ذلك في متناولهم، لأنهم كانوا أصحاب السلطة والنفوذ في أمور المال والطقوس، المتعلّقة بهيكل القدس. وبسبب حرصهم على امتيازاتهم، كانوا يمالئون الفريسيين ويُظهرون لهم التأييد، ولكنهم كانوا في حقيقتهم لا يهتمّون إلا لمصالحهم، انتهازيين عظيمي التخمة، قليلي الإيمان.

3- **نزعاتهم الدينية:**

على صعيد التعليم، كان خلاف جوهري، يقوم بينهم وبين الفريسيين: فهم يرون أن التقليد الشفهي لا يمكن أن يكون بأهمية التوراة، ولا يمكنه أن ينطوي على أيّ طبيعة إلزامية، فليس من إنسان مُلزَم بالتقليد. كان ذلك في تعارضٍ كاملٍ مع مبدأ الفريسيين، ولذا كانوا يعتبرون الفرّيسيّين مجدِّدين، ويسخرون من فتاواهم المفرطة التفصيل...

وعلى صعيد المعتقد، لم يكونوا يؤمنون بخلود الروح ولا بالقيامة، ولا بالثواب والعقاب طبعاً. ويرفضون وجود الملائكة، ويقلّصون إلى أبعد حد القول برعاية الله لشؤون العالم... فكانوا بكل ذلك على طرفَي نقيض مع الفرّيسيّين. فكانوا يدّعون التمسك الشديد بموسى والأنبياء، ممّا جعلهم شديدي المحافظة على الصعيد الديني، في حين كانوا على الصعيد السياسي ينادون بانتهازية وليبراليّة مفرطتَين.

وكانوا على صعيد المحاكم، أكثر تشدّداً من الفريسيين، الذين كانوا بفضل فتاواهم يجدون حلولاً كثيرةً، لا يبدو أن الشريعة تُجيزُها...

وكانوا بالنسبة إلى الطقوس وأمور التطهير، على طرفَي نقيض أيضاً مع الفريسيين، الذين كانوا يتشدّدون كثيراً، حتى إنهم ادّعوا أنّ جميع أواني الهيكل يجب أن تخضع للتطهير في الماء المقدّس، بما فيه الشمعدان ذو الأغصان السبعة.

4- **وضعهم الاجتماعي والسياسي:**

كان الصدوقيون يتمتّعون بقوة ونفوذ يعودان إلى مركزهم الاجتماعي وانتهازيّتهم، لا إلى مثال أعلى، أو سموّ في العقيدة. فقد كانوا محافظين

يبيحون لأنفسهم حريّاتٍ كثيرةً، حتى التعامل مع الوثنيين، فيما كانوا يتشدّدون في تطبيق الشريعة على كل من عداهم. ولما كان نشاط الفريسيين يزعجهم، وصفوهم بالتطفّل والسّخف. وبما أن أوضاعهم العامة كانت مريحةً جداً ومفيدة، حرصوا على التعامل مع الحكام الرومان. وبسبب ما كانوا يتمتّعون به من متع الأرض، لم تكن تصوّرات الحياة المنتظرة في عهد "المسيح الآتي"، تُغريهم لا قليلاً ولا كثيراً.

3. **الهيرودوسيّون:**

ذُكر اسم الهيرودوسيّين مرتين في الأناجيل (مرقس 6/3 و13/12، والنص المقابل متى 16/22). وقد جاء ذكرهم أيضاً لدى المؤرّخ يوسيفوس، الذي يؤكّد أنهم كانوا متواجدين في الجليل، حتى قبل سيطرة هيرودس الكبير الكاملة على البلاد. وقد كانوا أعوان هيرودس الكبير وعملاءَه، يومَ أحكمَ سيطرته على البلاد. وكان ذلك أمراً طبيعياً، نظراً للدعم الكبير الذي تلقّاه من روما، التي لم تكن تضنّ عليه، وعلى رؤساء الرَّبع بالدعم المطلوب. وقد شجّعهم على ذلك أوّلاً مصالحهم، ثانياً الغيرة التي أبداها هيرودس الكبير، حيال بناء الهيكل والأعمال الإنشائية الضخمة التي نثرها في أنحاء البلاد. ثمّ إن رؤساء الربع كانت لهم أيادٍ بيضاء في التعامل مع اليهود: من ذلك أن "انتيباس" كان يعامل رعاياه بلينٍ كبير، وقد ذكر القديس لوقا "حنة زوجة كوزا" قيّمه، التي كانت إحدى النساء اللواتي كنّ يقدّمن المساعدة ليسوع. أما "فيليبّس" رئيس الرَّبع في بلاد آدوم، فقد كان حَسَن السيرة والشهرة. ويُذكر أيضاً أن "هيرودس اغريبا الأول" (عام 34–44)، استُقبل بحماس شديد يوم تسلّمه الحكم، وكان الناس يحبّونه بصدق لأنه كان يعاملهم بطيبة. فلا عجب أن يكون لهم أعوان.

وكان الهيرودسيّون يقولون بحلٍّ وسط، بين الاستقلال الذي بات في نظرهم حلماً مستحيلاً، والعبوديّة المطلقة للرومان الوثنيّين: الحل الوسط هو نظام هيرودس وأبنائه. فهذه الأسرة يجري في عروقها دم يهودي، وهي

بقيادتها البلاد توفّر جوّاً من الاستقلال الظاهري. ومن ناحية أخرى، كانوا عظيمي الارتياب في أمور النظرة "المسيحانية"، لأنهم كانوا حريصين جداً على مراعاة مشاعر الرومان، وتحاشي أي صدام مع روما. إلا أنهم كانوا قليلي العدد، ومحدودي التأثير على الصعيد الشعبي.

4. **الغيورون:**

يظهر هذا الاسم لأول مرة إبان الثورة التي اندلعت عام 66 ب. م. وقد وصف يوسيفوس الأحداث المخيفة التي قامت آنذاك، فنعَتَ بـ"الغيورين"، المتعصّبين الذين ثاروا على الأرستقراطية الكهنوتية وعلى الرومان. وقد لا يكون استعمل هذا الوصف قبل هذه الثورة، إلا أن الحقيقة التاريخية تقول، بأن الرومان لاقوا دائماً مقاومةً عنيفةً، وُصِف رجالُها بالغيورين. وقد لا نخطئ إن قلنا مع القائلين بأنهم يؤلّفون جماعةً من المؤمنين كانوا يرفضون كلّ سيادة عليهم إلا سيادة الله. وقد اتبعوا في سبيل ذلك خطة المكابيّين، فهم يرون أن تحرير الأرض لا يمكن أن يتم إلا بالتمرّد، وبالتمرّد المسلح، وباستخدام جميع الوسائل أيّاً كانت.

من تلاميذ يسوع واحدٌ يدعى سمعان ويلقب بـ"الغيور". وقد ذُكر اسمه في الإنجيل (لوقا 15/6، وأعمال الرسل 13/1). وقد يكون من أتباع الغيورين، إلا أنّهم في عهد يسوع لم يكونوا بالعنف الذي عُرفوا به فيما بعد، ولا سيما إبان ثورة 66.

5. **الأسينيّون:**

يرتبط اسم "الأسينيين" باسم آخر، هو "خربة قمران". هي منطقة تقع إلى شمال غربي البحر الميت، عُثر فيها على آثارٍ، هي أشبه شيء بديرٍ كبيرٍ، يضمّ بركةً وآباراً وأمكنةً للتموين، ومجموعةً من الغرف الكبيرة والصغيرة، وبجوارها مدفن. كما عُثر في مُغر الجرف الصخري المجاور، على قرابة (600) مخطوطة، تعود كلّها إلى ساكني هذا الدير. وقد بدأ الكشف عن هذه الآثار في ربيع سنة 1947، وأشرفت عدة فرق أثرية، على

التنقيب عن الدير والمغر والجوار. وكان هذا الاكتشاف حدثاً هامّاً جدّاً في تاريخ الآثار، لأنّه جدّد المعلومات المتعلّقة بهذه الجماعة اليهودية الغريبة. وحتى ذلك الحين، كانت جميع المعلومات الخاصة بهم، وقفاً على ما جاء في مؤلّفات "فيلون" الاسكندري، والمؤرخ "يوسيفوس" والحاكم الروماني "بلينوس الشيخ".

مَن هم "الأسينيون" إذن، وما علاقتهم بالمسيحيّة؟

أصل هذه الجماعة غامض جداً... إنما أولى الإشارات إليهم تعيدهم إلى منتصف القرن الثاني ق. م.

كانوا أشبه شيء برهبان، أو جماعة من الرهبان، يعيشون في جماعة كبرى بجوار البحر الميت، ولهم "مراكز" أخرى صغيرة، هنا وهناك في منطقة اليهودية. وقد أعطى كلٌ من فيلون ويوسيفوس رقماً كبيراً عنهم يبلغ (4000)، على الرغم من تقيّد معظمهم، وفق قوانينهم، بقانون التبتّل الرهباني...

كانوا إذن جماعةً من الرهبان اليهود، ممّن لم يرتاحوا لسلوك زعمائهم، في القسم الثاني من القرن الثاني ق. م. فانصرفوا إلى حياة خاصة بهم بعيداً عن المراكز الكبرى، الدينية والمدنية. وكان على رأسهم "معلّم"، تدعوه المخطوطات "معلّم البرّ". وقد هربوا، فيما يبدو، من وجه الاضطهاد ممّن تدعوه المخطوطات "الكاهن الكافر" وجماعته، وألّفوا في قمران "جماعة العهد". وظلّوا هناك حتى كانت نهايتهم إبان ثورة 66-70، التي قضت عليهم واضطرّتهم لإخفاء مخطوطاتهم في المغر المجاورة، حيث عُثر عليها عام 1947.

نمط حياتهم: رهباني يهودي متزمّت، طابعه الرئيسي نظام اشتراكي، يخضع له جميع أعضاء الجماعة. تمسّكهم بشريعة موسى يرفض المهادنات، التي ينادي بها بعض المسؤولين أو جميعهم، في القدس والمراكز اليهودية الأخرى، داخل فلسطين وخارجها. يرفضون الترتيب الخاص

بهيكل القدس. يراعون جداً قيود الطهارة، بحيث يُضطرّون للاستحمام مرّات كثيرة في اليوم الواحد. ولم يكن يُقبَل في عدادهم، سوى مَن يكون قد أُخضع لفترتي اختبار، الأولى مدّتها سنة، والثانية مدّتها سنتان. وكان الانتماء الرسمي يُفتتح بعماد، يعقبُه قَسَمٌ، يتعهّد فيه العنصر الجديد، بالتقيّد الكامل بنظام الجماعة، بالحفاظ على سرّيّة تقاليدها، وباحترام كتبها المقدّسة. وكان كل شيء مشتركاً بينهم، في كلّ ما يتعلق بتملّك الأراضي وموارد الدير. وكانوا يمارسون الزراعة، ويعيشون منها. يبالغون جداً في أمور الطهارة الطقسية... يصلّون ووجهُهم متّجه نحو الشمس. أما هيكل القدس، فكانوا يرسلون إليه ما تفرضه عليهم الشريعة من مساهمات مالية، ولكنهم يرفضون تقديم الذبائح فيه، إذ كانوا يعتبرون طقوسهم أرفعَ قيمةً وقدسيّة. وكان رفضهم للزواج، وانقطاعهم عن العالم، وانصرافهم إلى الصلاة والطقوس التطهريّة، ودراسة الكتب المقدسة، يحيطهم بهالةٍ من الاحترام، تجذب إليهم الكثيرين، أو تجلب لهم تقديراً كبيراً. وكانوا من دعاة وجود الروح قبل حلولها في الإنسان. وقد كانوا يعتبرون أنفسهم الممثّلين الوحيدين للشعب المختار.

تُقسم المخطوطات التي عُثر عليها هناك إلى ثلاثة أقسام:

- جميع أسفار العهد القديم (باستثناء سفر استير). وإن أقدم ما نملكه من مخطوطات العهد القديم، يكاد يطابق مطابقةً تامةً هذه المخطوطات...

- عدد كبير من الكتب القديمة غير القانونية، مثل "اخنوخ"، "اليوبيلات"، "وصايا الآباء الاثني عشر"، "صلاة منسى"...

- كُتبٌ في أصل الأسينيين وحياتهم وآمالهم المستقبلية، مثل "كتاب النظام" الخاص بالجماعة، وله ملحقان: الأوّل بعنوان "معركة أبناء النور وأبناء الظلام"، والثاني بعنوان "وثيقة دمشق"، التي تتحدّث عمّا حلّ بمعلّم البرّ من شدائد... وهناك "أناشيد روحيّة"... وكتب تفسيريّة للعهد

القديم، وقصص خيالية... وقد كتبت هذه المخطوطات بالعبرية خصوصاً، ثم بالآرامية، وقليل منها باليونانية.

هل من وجه شبَه بينهم وبين المسيحيّة، كما ادّعى البعض؟

بعضهم ادّعى ذلك، ونادى به في تسرّع غير علمي... والنقاط المثارة تخص:

1. القديس يوحنا المعمدان:

- يوحنا كان بعيداً عن الناس، ولكنه في قلب الناس، يدعوهم إلى التوبة، ويعمّدهم مرةً واحدة، ويدعوهم للبقاء حيث هم في مواقع حياتهم، ولكن في تبدّل لسلوكهم كامل... وكان يهيّئ الناس لاستقبال مَن "هو أقوى منه"، ومن "هو قَبله"، المسيح، الذي لا يستحقّ أن "يفكّ رباط نعلَيه". وكان إلى ذلك ابناً لكاهن... فليس بكافٍ أن يكون عاش في البرية، ليُقال أنه كان "أسينياً"، أو اقتدى بهم...

2. المسيحيّون الأوائل:

- ممارسة المسيحيّين الأوائل للاشتراكية الطوعيّة، كما وصفها سفر أعمال الرسل، لا علاقة لها بنمط الحياة المشتركة الخاصة بالأسينيّين.

- الرسالة المنسوبة إلى القدّيس بولس، والمسمّاة إلى العبرانيّين، ليس بينها وبين تعاليم الأسينيّين أيّة صلة... بل بينها وبين تعاليمهم مسافة كبيرة جداً، إذ هي تتكلّم عن الكهنوت والعبادة، من منظور بعيد جداً عن منظور الأسينيين... أما أن يكون بعضهم تأثر بنمط حياة المسيحيين، فأمر ليس بمستغرب، إذ كان في تقشّفهم تربة خصبة، لتقبّل التجرّد المسيحي، والحياة المشتركة التي عاشها المسيحيون الأوائل بصورة عفوية وطوعيّة.

3. الثنائية البارزة في رسائل القدّيسين بولس ويوحنا:

- في رسالة بولس الثانية إلى الكورنثيّين (6/14-7/1)، ورسالته إلى كولوسي (1/12-13)، وإلى أفسس (5/6-13 و6/10-17)، وسواها: ثنائيّة واضحة بين البرّ والفجور، والنور والظلمة، والمسيح وبليعال، والمؤمن والكافر، وهيكل الله والأوثان...

- وفي رسائل القديس يوحنا وإنجيله أيضاً، ثنائية أخرى واضحة جداً: بين الله والشيطان، والنور والظلمة، والحق والباطل، والحياة والموت الخ... إلا أنّ التشابه في الكلمات، يخفي اختلافاً جوهريّاً في المنظور، والدعوة والعقيدة، وشمولية الخلاص، وشخصية المخلّص، ونمط حياة المسيح وتلاميذه... بحيث تبدو الحركة الأسينيّة للعارفين أبعد التيارات اليهودية، التي عاصرت يسوع والمسيحيين الأوائل، عنه وعنهم...

5- المحاكم أو المحافل:

1. المحفل الأكبر أو السنهدريم:

1- **اسمه وأصله:**

السنهدريم هو الصيغة الآرامية للكلمة اليونانية "سينيدريون"، التي تعني "مجلس"، أو "جمعية"، أو "محكمة".

يعيد التلمود أصل "السنهدريم" إلى موسى النبي.

ولكن الحقيقة التاريخية تؤكّد أن السنهدريم لم يقم إلاّ في عهد السلوقيّين، عندما أحاط الملك أنطيوخوس الكبير (233-187 ق. م.)، بصفة الشرعية، مجلس الشيوخ السابق، واعترف له بالسلطة في الشؤون الدينية والمدنية.

أما في عهد المكابيّين وهيرودس الكبير، فلم يبقَ للسنهدريم سوى سلطة اسميّة. ولكنه اعتُرف له بسلطة مطلقة، إبّان سيطرة روما على فلسطين، إذ كانت روما لا تخشى من سيطرة الطبقة الكهنوتية اليهودية، بل تترك لليهود تسيير أمورهم بأنفسهم.

2- **تأليفه:**

كان السنهدريم يتألف من سبعين عضواً ورئيس. وكان الرئيس يحمل لقب أمير، ويشغل وظيفة الكاهن الأعظم (متى 3/26 و57). أما الأعضاء فكانوا يُقسَمون إلى ثلاث فئات أو طبقات، كانت أولاها وأعلاها، طبقة رؤساء الكهنة. ولم تكن تضمّ الرئيس الفعلي والرؤساء السابقين وحسب،

بل أيضاً زعماء العائلات الكهنوتية. وكانت الطبقة الثانية هي طبقة "الأقدمين"، الذين يمثّلون الأرستقراطية العلمانية، وكانوا يُختارون ممّن تخوّلهم ثروتهم، أو مكانتهم ونفوذهم، لتبوّء المراكز الأولى في أمّتهم. وكان جميع هؤلاء ينتمون إلى حزب الصدّوقيّين تقريباً. وفي عهد الملكة الكسندرا، انضمّ إلى السنهدريم بعض "الكتَبة، أو معلّمي الشريعة"، فألّفوا الطبقة الثالثة فيه، فكان لهم من التأثير والنفوذ، ما يتناسب مع ما كان لهم في مجال التشريع والقضاء من مكانة، إذ كانوا وحدَهم يعرفون أدقّ تفاصيل الشريعة اليهودية. ثم إنهم كانوا يتمتّعون بشعبيّة عظيمة لهذه الأسباب مجتمعة، ممّا كان يزيد نفوذهم في السنهدريم. وكان الكتَبة، في معظمهم، يقولون بما يقوله الفرّيسيّون. ويرجَّح أن أعضاء السنهدريم في زمان يسوع، كانوا يتألّفون من هذه الفئات كلّها.

3- **صلاحيّاته:**

من حيث المبدأ، كان جميع اليهود في فلسطين وخارجها، يخضعون لسلطة السنهدريم في القدس.

ولكن في واقع الأمر كانت سلطة السنهدريم، إبّان الحكم الروماني، لا تتجاوز ولاية اليهودية. ولم تكن الجماعات اليهودية الأخرى، ولا سيما في الشّتات، لتطلب تدخّل السنهدريم، أو لتقبل بهذا التدخّل، إلاّ في حالات استثنائية.

وكان للسنهدريم دور المحكمة العليا. وكان يصدر أحكامه في الشؤون المدنية والدينية، كلّما أعلنت المحاكم المحليّة عن عدم صلاحياتها، أو كلّما لم يتولّ ممثّل روما، حلّ الأمور العالقة بنفسه. والمعروف أنه لم يكن ليتدخّل إلاّ نادراً. وكانت أحكام السنهدريم الخاصة بالأخطاء أو الجنايات التي لا تستوجب حكم الموت، نافذةً وغير قابلة للاستئناف، على الفور. كما كانت القرارات الإداريّة والقضائية، الصادرة عنه، تتّسم بصفة القانون. وكانت هناك قوة من الشرطة خاصة لتطبيقها. أما الأحكام التي تنطوي

على الإعدام، فكان لا بدّ لها من موافقة وتأييد الحاكم الروماني لتصبح نافذة، لأنّ روما كانت قد انتزعت من السنهدريم الحقّ على الحياة والموت. وهذا ما يذكره صريحاً القديس يوحنا (31/18)، وما يقرّه التلمود. على كل حال، يبدو أنّ السنهدريم نادراً ما كان يصدر حكماً بالإعدام، وذلك لسببين، الأوّل لأن القوانين النافذة كانت تساند المتهم إلى أبعد الحدود، والثاني لأنّ الحاخاميين القدامى كانوا يقولون بأنه يترتّب على المحاكم أن تتحاشى حكم الإعدام، ما أمكن.

4- **اجتماعاته:**

كان يحقّ لرئيس الكهنة أن يدعو السنهدريم، دون العودة إلى الحاكم الروماني. ولكن لم يكن يجوز عقد الاجتماعات، لا في أيام السبت، ولا في أيام الأعياد. وكانت جلساته تُعقد في قاعة كبيرة، تقوم بجوار سور الهيكل. وكانت تُعقد ما بين ذبيحة الصباح وذبيحة المساء. ولكن في حالات استثنائية جداً، كان يمكن عقد مثل هذه الاجتماعات، في قصر رئيس الكهنة نفسه: وهذا ما حدث إبان محاكمة يسوع (مرقس 53/14).

وقد جاء في "الميشنا"، في القسم الخاص بالسنهدريم، تحديد الإجراءات التالية:

« يجلس الأعضاء في شكل نصف دائرة، ويدوّن مسجّلان جميع ما يُقال ضد المتهم ومعه، وكان على المتّهم أن يَمثُل في لباس الحداد. وفي القضايا التي تستوجب حكم الإعدام، كان الشهود ضدّ المتهم يَمثُلون أولاً. ولم يكن يحقّ لمن شهد لصالحه، أن يشهد ضدّه. وكان على الأعضاء، عندما يُدلون برأيهم أو صوتهم، أن يقفوا أمام الجميع، بدءاً من أصغرهم سنّاً. وكانت الغالبيّة المطلقة تكفي لتبرئة المتّهم. أما إقرار الحكم بالموت، فكان يكفيه غالبيّة صوتين ليس إلا. وفي حال إعلان براءته، كان الحكم يُعلَن على الملأ فوراً. وفي حال صدور الحكم بالموت وإقراره، فلم يكن يُعلَن إلاّ في اليوم التالي. »

2. المحافل المحليّة:

كان لكلّ جماعة يهودية، محفل خاص أو محكمة خاصة، تنظر في الأمور العادية ذات الأهمية الباهتة. وكانت هذه المحاكم، التي يمكن اعتبارها بمثابة محاكم شرطة، أشبه بسنهدريم محلّي (متى 17/10، ومرقس 9/13، ولوقا 12/21). وكانت السلطة القضائية تمارَس فيه بواسطة مجلس السنهدريم، الذي يتألّف من رئيس المجمع، وأبرز أعضاء الجماعة. وكان يحقّ للقضاة المحليّين أن يصدروا أحكاماً جزائية، أو أحكاماً تأديبيّة مثل الجلد أي الضرب بالسياط. وكان حارس المحفل مكلّفاً بمراقبة تنفيذ الأحكام.

وكان الذين يرفضون الخضوع لقرارات أو أحكام محكمة المجمع، يتعرّضون للفصل المؤقت أو الدائم من المجمع. وكان إصدار الحُرم النهائي، وهو أمر نادر جداً، يضع المحروم في مصاف الملعونين، ويسلخه عن المجتمع اليهودي (يوحنا 22/9).

5) <u>**المسيح المنتظر بحسب العهد القديم**</u>

قبل الحديث عن المسيح المنتظر، لا بدّ من الإشارة إلى التوقّع العام لمسيحٍ آت. هذا التوقّع ورد ذكرُه خصوصاً لدى الأنبياء في أوصاف عامة، لا بدّ من رسم خطوطها تجنّباً لأيّ التباسٍ ممكن.

1) ورد ذكر المسيح بوصفه "محرّراً"، هنا وهناك في العهد القديم، وفي أزمنة مختلفة ومتباعدة. ولم تُرسَم ملامحه دفعة واحدة. بل جاءت قليلة العدد والوضوح بادئ الأمر. ثم مضت في تزايد وبروز، يُكمل بعضها بعضاً، فلا بدّ من تتبّع هذا التدرّج في ظهور ملامح المسيح المنتظر.

2) من المعروف عن الأنبياء، أنهم، إذ يرون المستقبل ويتنبأون عنه، لا يميّزون ضمن منظورهم، بين المستويات المختلفة التي يتنبأون عنها. فالمستقبل كلّه يبدو مندمجاً في لوحة واحدة، تختلط فيها الرؤى الخاصة بالمسيح، مع التصوّرات الخاصة بنهاية العالم، أو مع حدثٍ ما يخصّ مستقبل الشعب اليهودي وحدَه... فلا بدّ من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.

3) إن العناصر التي يتألّف منها وصف شخص المسيح وأعماله، ليست متجانسة. فبعضها ذو طبيعة روحية صرف، مثل انتشار الإيمان بالله الواحد في العالم، وتوطيد حكمه فيه، بالعدل والرحمة والقداسة بين جميع الشعوب. وبعضها ذو طبيعة مادية صرف، مثل توطيد حكم "إسرائيل" الزمني، وازدهار مملكة "إسرائيل" على أرض فائقة الخصب، "فيجري منها اللبن والعسل". وبينما تبدو العناصر الأولى أساسية، تبدو الأخرى عابرةً وثانوية. وقد لا تكون أحياناً سوى مبالغات ورموز مضخّمة، ترمي إلى تحذير اليهود من مغبّة نسيان الوعود الإلهية.

ما هي إذن هذه الوعود "المسيحانية"، ومَن هو المسيح المنتظر؟

1- أولى الوعود بالمسيح:

1. الوعد الأول: جاء في الفصل الثالث من سفر التكوين، في إثر حدوث "الخطيئة الأولى"، حيث قال الله للشرير المرموز إليه بالحيّة:

« "أجعلُ عداوةً بينكِ وبين المرأة، وبين نسلِك ونسلِها، فهو يسحقُ رأسَكِ، وأنتِ ترصدين عقبَه". (15) »

إنه وعد من الله للإنسان بخلاصٍ يأتيه من "نسل المرأة".

2. الوعد الثاني: جاء في الفصل التاسع من سفر التكوين، في إثر حادث السُكر الذي ألمّ بنوح... ولما أفاق من خمره، وعلم ما صنع به ابنه الصغير، قال... وقال:

« "تبارك الربّ إله سام" (26). »

وقد فُسّر هذا الوعد على أنه استمرار للوعد القديم، ولكن محدّداً في "عائلة سام"، ومَن يحذو حذوَها في خدمة "إله سام".

3- الوعد الثالث: جاء مرة تلو أخرى في سفر التكوين:

(1) « "وقال الرب لأبرام: انطلق من أرضِكَ وعشيرتك وبيتِ أبيك، إلى

الأرض التي أُريك. وأنا أجعلُك أمّةً كبيرة، وأباركُك وأعظّمُ اسمَك، وتكونُ بركة. وأباركُ مباركيك... ويتباركُ بك جميعُ عشائرِ الأرض". (12/1–3) »

(2) « "فقال الرب: أأكتمُ عن إبراهيم ما أنا صانعُه؟ وإبراهيم سيكون أمّةً كبيرةً مقتدرةً، ويتباركُ به جميعُ أممِ الأرض. وقد علمتُ أنه سيوصي بَنيه وأهلَه من بعده، بأن يحفظوا طريقَ الربّ، ليعملوا بالبرِّ والعدلِ، حتى يُنجزَ الربُّ لإبراهيمَ ما وعَدَه به" (18/17–19). »

(3) « "وقال: بنفسي أقسمتُ، يقول الربّ، بما أنك فعلتَ هذا الأمر، ولم تذخر ابنَك وحيدَكَ، لأباركنّك، وأُكثّرنّ نسلَك كنجومِ السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر... ويتباركُ في نسلك جميعُ أممِ الأرض، من أجل أنك سمعتَ لقولي" (22/16–18). »

(4) « "وتجلّى الربّ له (اسحق) وقال: "لا تنزلْ إلى مصر، بل أقِمْ في الأرض التي أعيّنُها لك. اِنزلْ هذه الأرض، وأنا أكونُ معَكَ وأباركُك، لأنني لكَ ولنسلِك سأعطي جميعَ هذه البلاد، وأفي بالقَسَم الذي أقسمتُه لإبراهيم أبيك. وأكثّر نسلَك كنجوم السماء، وأعطيهم جميعَ هذه البلاد، ويتباركُ في نسلِك جميعُ أممِ الأرض، من أجل أنّ إبراهيم سمع قَولي وحفِظَ أوامري ووصاياي ورسومي وشرائعي" (26/2–6). »

(5) « "وخرجَ يعقوبُ من بئرِ سبع، ومضى إلى حاران. فصادَف موضعاً باتَ فيه إذ غابت الشمس. فأخذ بعضَ حجارةِ الموضع فوضَعَه تحتَ رأسِه ونامَ في ذلك المكان. فرأى حلماً: كأنّ سلّماً منتصبةً على الأرضِ ورأسُها إلى السماء، وملائكةُ الله تصعدُ وتنزلُ عليها. وإذا الربُّ واقفٌ أمامَه فقال: أنا الربّ، إلهُ إبراهيم أبيك وإلهُ اسحق. الأرضُ التي أنت نائمٌ عليها، لكَ أعطيها ولنسلك. ويكون نسلُك كتراب الأرض، وتنمو غرباً وشرقاً، وشمالاً

وجنوباً، ويتباركُ بك جميعُ قبائلِ الأرض وبنسلك. وها أنا معك أحفظُك حيثما اتّجهتَ، وسأردُّك إلى هذه الأرض، فإني لا أهمُلك حتى أفيَ لك بكل ما وعدتُك" (28/10–16). »

وقد فُهِمت هذه الوعود المتلاحقة، على أنها استمرار للوعد الأول بالخلاص، يحمله نسل إبراهيم للبشرية جمعاء...

4. الوعد الرابع: جاء أيضاً في سفر التكوين، إذ جمع يعقوب أبناءه، ليهب لكل منهم البركة التي تعود له، فخصّ "يهوذا" بقوله:

« "يهوذا، إيّاك يحمدُ أخوتُك. يدُك على قفا أعدائِك. يسجدُ لك بنو أبيك. يهوذا شبلُ أسد... جثَم وربضَ كأسدٍ وكلبوءة، فمن ذا يُقيمُه؟ لا يزول صولجان من يهوذا، ومشترع من صلبِه حتى يأتي "شيلو (المسيح) وتطيعه الشعوب" (49/8–10). »

وقد فُهم هذا النص من منظور "مسيحاني"، لدى الشرّاح اليهود والمسيحيين على حدٍّ سواء، على الرغم من خلافات في التفسير... فالآتي من صلب "يهوذا"، والذي ستطيعه الشعوب سيحمل معه عهد خير وفير (الآية 11–12).

5. الوعد الخامس: يعود إلى ما يُسمى بعصر موسى، ويشتمل على وعدَين فُسِّرا بمجملهما ضمن منظور "مسيحاني"، من قبل الشرّاح اليهود أوّلاً، ثم المسيحيّين ثانياً. فالمسيح الآتي سيحرّر الشعب... والشعوب، كما فعل موسى إذ أخرج الشعب اليهودي من مصر... وسيمنحهم أيضاً عهداً جديداً:

(1) « "فقال بلعام لبالاق...

أراه، وليس حاضراً، أبصره وليس بقريب.

يسعى كوكب من يعقوب، ويقوم صولجان من إسرائيل" (العدد 24/12–17) »

(2) « "يقيم لك الربُّ إلهُك نبيّاً من بينكم، من إخوتك مثلي له تسمعون... أُقيمُ لهم نبيّاً من بين أخوهم، مثلك، وأُلقي كلامي في فيه، فيخاطبهم بجميع ما آمرُه به" (تثنية 15/18، 18). »

6. الوعد السادس: تواصل الوعد إيّاه، في أقوال تلاحقت عبر فترتي القُضاة، وبداية الحكم الملكي، وراحت تضيّق المنظور "المسيحاني" شيئاً فشيئاً، حتى حصرته أخيراً في "بيت داود":

(1) « "الربّ يرعد في السماء. الربّ يدين أقاصي الأرض.
يهَبُ لملكِه عزّةً، ويرفعُ قوّة مسيحه" (الملوك الأول 10/2). »

(2) « "كان كلام الربّ في تلك الليلة إلى ناتان قائلاً:
"اِذهبْ وقُلْ لعبدي داود: يقول الربُّ أأنتَ تبني لي بيتاً لسكناي؟
"... فقُلْ الآن لعبدي داود: هكذا يقولُ ربّ الجنود: إني أخذتُك من المربض من وراء الغنم، لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل، وكنتُ معك حيثما سرتَ... إلى يوم أقمتُ قضاةً على شعبي إسرائيل... وقد أخبرك الربّ أنه سيقيم لك بيتاً...
"بل يكون بيتُك وملكُك ثابتين إلى الدهر أمامَ وجهك، وعرشُك يكون راسخاً إلى الأبد..." (الملوك الثاني 4/7–5، 8–9، 11، 16). »

2- المسيح وأعماله وفق كتابات الأنبياء وفي المزامير:

قليلة هي النصوص السابقة، بالنسبة إلى "الوعد بالمسيح المنتظر"، إذا ما قيست بالفترة الزمنية التي جاءت خلالها.

إلا أنّ هذه الإشارات سوف تتكاثر وتتحدّد في أسفار الأنبياء وفي المزامير. وقد رسمت ملامح المسيح المنتظر في وجهين متباينين: أحدهما وجه ملكٍ ظافرٍ وغازٍ، والثاني - وهو الغالب - وجه "صدّيقٍ" معذّب. لنرسم هذين الوجهين:

1. وجه المسيح - الملك:

أ. في المزامير:

بعضهم ينسب المزامير إلى النبي داود. والعهد الجديد، سيراً مع المقولة السائدة، ينسبها إليه أيضاً. ومنها مزموران يتميّزان بمسحتهما "المسيحانية"، وهما المزمور الثاني والمزمور 109، ففيهما أوصاف لا تنطبق على أيّ من ملوك القدس.

1- **المزمور الثاني، يصوّر ملوك الأرض وقد تحالفوا على الرب وعلى "مسيحه"، أي على "المسيح". فيسخر الربّ من جنونهم. فالمسيح قد أقيم "ملكاً" على الجبل المقدّس والرب يقول له:**

« "أنتَ ابني، أنا اليومَ ولدتُك.

"سَلْني، فأعطيكَ الأممَ ميراثاً لك، وأقاصي الأرضِ ملكاً لك.

"ترعاهم بعصا من حديد، كآنية خزّاف تحطّمهم.

"فالآن أيها الملوك تعقّلوا، اتّعظوا يا جميع قضاة الأرض،

"اعبدوا الربَّ بخوف، ابتهجوا أمامَه برعدة" (7، **11**) »

2- **في الآية 7، "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك"، معنى مجازي يمكن أن ينطبق على المسيح بوصفه "ابن الله". إلاّ أنّ الإنجيل نفسه وجدال يسوع مع الفريسيين، يكشف لها بعداً جديداً واقعيّاً، بحيث يكون المسيح "ابن داود" بشريّاً، وابن الله بالطبيعة. (إنجيل متى 22/41-45).**

3- **يحتوي المزمور 109 الأفكار نفسها تقريباً. فالمسيح مدعو للجلوس على يمين الله، فيما أعداؤه ينحنون ليطأهم بقدميه. وشعبه وجيوشه كثر يسيرون معه إلى النصر. وقد أقسم الله بأن يقيمه كاهناً إلى الأبد على مثال "ملكيصادق" (راجع التكوين 14/8).**

4- **يشير المزمور 44 إلى أوصاف تخص "المسيح - الملك"، وقد نشر العدل والسلام في البشرية، حتى إنه يستحق لقب "إله":**

« "عرشُك يا الله إلى الأبد، صولجانُ ملكِك صولجانُ استقامة،
"أحببتَ البرَّ وأبغضتَ الإثم،
"لذلك مسَحَك الله إلهك بدهن البهجة أفضل من شركائك..." »

5- يصف المزمور 71 حكم المسيح هذا بوصفه حكم سلام أبدي وشامل، ينصر فيه المظلوم والمسكين، فتموج الأرض بالخير الأعم،

« "ويسجد له جميع الملوك، وتتعهّد له كلّ الأمم" (11). »

ب. في الأنبياء:

(1) النبي عاموس:

يُنذر النبي عاموس بالعقاب الآتي بسبب خطيئة إسرائيل. ولكنه يعد بيوم يوضع فيه حد للخطأة... و"في ذلك اليوم أقيم مسكن داود الذي سقط، وأسدّ ثلمه، وأقيم ما تهدّم منه وأبنيه كما كان في الأيام القديمة... وأردّ سبي شعبي إسرائيل، فيبنون المدن المخرّبة، ويسكنونها، ويغرسون كروماً ويشربون من خمرها، ويُنشئون جنّات ويأكلون من ثمرها" (11/9، 14).

(2) النبي هوشع:

يندّد هو أيضاً بخطيئة إسرائيل التي ستجلب عليهم ضياعاً يكونون فيه زماناً طويلاً: "لا ملك لهم ولا رئيس ولا ذبيحة"... ولكنهم "وبعد ذلك يرجعون ويطلبون الربّ إلهَهم، وداود ملكهم..." (3) فيرحمهم الله، ويعيد إليهم اسمه ويعيدهم إلى بيوتهم، فيعمّ السلام والخير (2/23-24 و 5/3 و2/18-22).

(3) النبي أشعيا:

أشعيا هو أعظم من تنبّأ عن "المسيح"، بحيث لُقّب "بإنجيليّ العهد القديم". فهو لا يكتفي بمثل ما جاء في الأنبياء السابقين من إنذار ووعيد ورجاء قادم، بل إن كل كتاباته، تشير إلى أنه مكلّف بإضافة أوصاف جديدة إلى المسيح. ومهمة أشعيا تُفهم في إطارها السياسي آنذاك، إذ كان ملك "يهوذا" يرمي إلى قيام تحالف بينه وبين "اشور"، ضد ملك دمشق والسامرة...

وقام تحالف، إلا أن آشور ألحقت بيهوذا خراباً هائلاً، فيما كان على ملك يهوذا أن يضع رجاءه في الله وحده... ومع ذلك فالخلاص آتٍ بيد الله وحدَه، وهو وحدَه سيضع حدّاً للضياع والكفر اللذين سادا آنذاك. فإن "عمانوئيل" سيولد من "عذراء" (14/7). وهو يعد بالآتي الذي يحمل الخلاص:

« "لأنه قد وُلد لنا ولد، وأُعطي لنا ابنٌ، فصارت الرئاسةُ على كتفِه، ودُعي اسمُه عجيباً، مشيراً، إلهاً جبّاراً، أبا الأبد، رئيسَ السلام، لنموّ الرئاسة، ولسلام لا انقضاءَ له على عرشِ داود ومملكتِه، ليقرَّها ويوطِّدَها بالإنصاف والعدل، من الآن وإلى الأبد" (6/9-7). »

يُظهر سياق النص بوضوح أنّ "الولد" الذي سيحمل هذا الخلاص العظيم للشعب، هو هو الذي وصفه النبي بقوله "عمانوئيل". والصفات التي يتّسم بها "عمانوئيل" هذا، لا تنطبق على أيٍّ من ملوك يهوذا، سواء منهم يوتام أو آحاز أو حزقيا، كما وأنها لا تنطبق على أيٍّ من أبناء أشعيا... إن هذا الولد "عمانوئيل"، الذي يتصف بصفات تكاد تكون إلهية، لا يمكنه أن يكون سوى الملك "المسيحاني" المنتظر، "ابن داود". وهو هو الذي يصفه بصورة فائقة في الفصل 11 حيث يقول فيه:

« "يخرج قضيبٌ من جذر يسّى، وينمي فرع من أصوله.

"ويستقرُّ عليه روحُ الربّ، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح العلم وتقوى الربّ. ويتنعّم بمخافة الربّ، ولا يقضي بحسب رؤية عينيه، ولا يحكم بحسب سماعِ أذنيه، بل يقضي للمسكين بعدلٍ، ويحكم لبائسي الأرض بإنصافٍ، ويضربُ الأرض بقضيب فيه، ويهلك المنافق بنفَس شفتيه. ويكون العدل منطقةَ حقويه، والحقّ حزام كشحَيه. فيسكن الذئبُ مع الحمل، ويربضُ النمرُ مع الجدي، ويكون العجلُ والشبلُ والمعلوفُ معاً، وصبي صغير يسوقها... (1-6). »

<u>ثمّة قسم من نبوءة أشعيا يضم الفصول الأخيرة من سفره</u> (40-66).

ففيه ينتقل النبي إلى بابل، ويُعزّي أسراها هناك، محرّضاً إيّاهم على تجديد الثقة بالله الذي سيأتيهم يقيناً بالخلاص. إلاّ أن المقاطع الرئيسية التي تخصّ "المسيح المنتظر"، تختلف كليّاً عن سابقاتها، وتضعنا أمام صورةٍ لمسيحٍ متألّم سوف نعرض له بعد حين.

(4) النبي ميخا:

كان معاصراً للنبي أشعيا. وقد بشّر هو أيضاً بخلاصٍ يأتي على يد ملكٍ قوي ومسالم، يعود في أصله إلى بيتَ لحم: (5/2-5)

« وأنتِ يا بيتَ لحم – افراثا، إنك صغيرةٌ في ألوف يهوذا، ولكن منكِ يخرجُ لي مَن يكون متسلّطاً على إسرائيل، وأصلُه منذ القديم، منذ أيام الأزل. لذلك سيتخلّى عنهم إلى حين تلدُ تلك التي يجب أن تلد، وعندها ترجع بقيّةُ إخوتِه إلى بني إسرائيل. ويقف (المسيح) ويرعى بعزّة الربّ وبعظمة اسم الربّ إلهه، فيكونون ساكنين، لأنه حينئذٍ يتعاظم إلى أقاصي الأرض. »

(5) النبي إرميا:

إنّ إرميا، بادئ ذي بدء، يلوّح بالعقوبات الإلهيّة. ولكن ما إن تحل عقوبة الجلاء إلى بابل، حتى يأخذ يبشّر بالعودة من المنفى، ويصف الأزمنة "المسيحانيّة"، فيشبّه الله براعٍ صالح يجمع شعبه من جديد، ويعقد معه عهداً جديداً أبدياً ينقشه في القلوب (راجع خصوصاً الفصول 30-33). وأما الشعوب الوثنية، فستتخلّى عن أصنامها، وتتوافد إلى أورشليم، وقد أصبحت "عرش الله"، لتنال بدورها البركات التي يمنحها لشعبه (12-15-16 و16/19-22). ثم إن الله سيهب "بقيّة خرافه" التي عادت إلى الراعي، رعاة أوفياء (3/33 و4) ومَلكاً حكيماً عادلاً ينقذ الشعب كلّه:

« ها إنها ستأتي أيام، يقول الربُّ، أقيمُ فيها لداود نبتاً صدّيقاً، ويملكُ ملكٌ يكون حكيماً ويجري الحكمَ والعدلَ في الأرض. في أيامه يخلّص يهوذا، ويسكن إسرائيل في الدعة. وهذا اسمه الذي يُدعى به: الربُّ برُّنا. (23/5-6) »

ويتنبّأ إرميا لهذا الملك "المسيحاني، بكهنوت" يواصل عمل الكهنوت اللاوي... إلاّ أنّ هؤلاء الكهنة ليسوا مقتصرين على "اللاويّين"، لأنّ من الكهنة واللاويّين مَن سيختارهم الله من الأمم المهتدية أيضاً...

(6) النبي حزقيال:

يشدّد على مجيء مَن سيتولّى أمر الحكم في شعب الله: داود:

« وأُقيم عليها (غنمي) راعياً واحداً، ليرعاها عبدي داود، فهو يرعاها وهو يكون راعيها. وأنا الربّ أكونُ لهم إلهاً، وعبدي داود يكونُ في وسطهم رئيساً. أنا الربُّ تكلّمت (34/23–24). »

بعد ذلك يعقد الله مع شعبه عهداً أبدياً يرئسه "خادمه" داود، الذي سيكون "الملك" و"الراعي" و"الرئيس الأبدي". ويكون الله إلههم، فيقيم في وسطهم إلى الأبد، ويكونون هم شعبه إلى الأبد، وتُقام له شعائر العبادة في الهيكل، وفق تنظيم جديد لملكوت الله. وكل ذلك بعد أن كان الموت واليأس استبدّا بهم، حتى باتوا أشبه شيء بالموتى: (راجع خصوصاً الفصل 37).

(7) النبي حجّاي:

يحرّض النبي حجّاي زعماء الشعب، بعد العودة من المنفى، على إعادة بناء الهيكل على نحوٍ رائع، على الرغم من الضائقة المادية القائمة، وهو يصف الأزمنة "المسيحانية" الآتية بأوصاف تفوق كل تصوّر:

« الآن تشدّدْ يا زرُبّابل (حاكم يهوذا)، يقولُ الربُّ، وتشدّدْ يا يشوع بن يوصاداق الكاهن العظيم، وتشدّدوا يا جميعَ شعبِ الأرض، يقول الربّ، واعملوا، وأنا معكم، يقول ربُّ الجنود، على حسب الكلمة التي عاهدتُكم بها عند خروجِكم من مصر، وروحي يقيمُ فيما بينكم، فلا تخافوا. فإنه هكذا قال ربُّ الجنود: إني بعدَ وقت قليل أزلزلُ السماءَ والأرض والبحر واليبس، وأزلزلُ جميع الأمم، ويأتي مشتهى جميعِ الأمم، فأملأ هذا البيتَ مجداً، قال ربّ

الجنود. لي الفضّة، ولي الذهب، يقول ربّ الجنود. وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول، قال ربّ الجنود. وفي هذا الموضع أعطي السلام، يقول ربّ الجنود. (2/5–10) »

(8) النبي زكريا:

نبوءة زكريا تنطوي على قسمين، أحدهما يواصل الرؤية السابقة، والثاني يتحدّث عن المسيح المتألم (الفصول 11–13).

عاصر النبي حجّاي، وركّز في نبوءته على تشجيع رئيس الكهنة ومعاونيه على الالتزام بحياةٍ كاملة، تليق بمجيء المسيح الوشيك (3/7–8). وفي الفصل التاسع (9–10) يصف النبي دخول الملك "المسيحاني" إلى أورشليم، ليحلّ السلام فيها:

« ابتهجي جدّاً يا ابنةَ صهيون، واهتفي يا بنتَ أورشليم، هوذا ملكُك يأتيك صدّيقاً مخلّصاً وديعاً راكباً على أتانٍ وجحشٍ ابنِ أتان. وأستأصل العَجَلَة من أفرائيم، والخيل من أورشليم، وتُستَأصل قوى القتال، ويتكلّم بالسلام للأمم، ويكون سلطانُه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض. »

(9) النبي ملاخيا:

تتميّز نبوءة ملاخيا بأمرين: الأوّل نفور الله من ذبائح إسرائيل، والثاني وعده بالمجيء بنفسه، ليقدّم لنفسه الذبيحة اللائقة به، يقول:

« مَن فيكم يغلقُ الأبواب، أو يوقدُ نارَ مذبحي عبثاً. إني لا مسرّةَ لي بكم، قال ربّ الجنود، ولا أرضى تقدمةً من أيديكم. لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيمٌ في الأمم، وفي كل مكانٍ تُحرَق وتقرَّب لاسمي تقدمةٌ طاهرة، لأن اسميَ عظيمٌ في الأمم، قال ربُّ الجنود. أما أنتم، فدنّستموه. (1/10–12) »

ويقول:

« هاأنذا مرسلٌ ملاكي فيهيّئ الطريق أمامي، وللوقت يأتي إلى هيكله السيد

الذي تلتمسونه، وملاكُ العهد الذي ترتضون به. ها إنّه آتٍ، قال ربُّ الجنود. فمَن يحتملُ يومَ مجيئه، ومَن يقومُ عند ظهورِه؟ (3/1–2). »

ويقول:

« هاأنذا أرسل إليكم إيليّا النبي، قبل أن يجيءَ يومُ الربِّ العظيم الرهيب. فيردّ قلوبَ الآباء إلى البنين، وقلوبَ البنين إلى آبائهم، لئلاّ آتي وأضربَ الأرض بالتحريم. (3/23–24). »

(10) النبي دانيال:

تُلخّص نبوءة دانيال في نقطتين واضحتين، وثالثة تكتنفها التأويلات:

1. الأولى:

إنّ أصل الملك "المسيحاني" أصل سماوي، ورمزه هو الحجر الذي رآه الملك "نبوخذ نصّر"، ينفصل عن الجبل ويدمّر التمثال المؤلّف من ذهب وفضة وحديد، بينما قدماه من الفخار، ثم يملأ الدنيا:

« إنك، أيها الملكُ رأيت، فإذا بتمثال عظيم. كان هذا التمثال الكبير والكثير البهاء واقفاً أمامك، وكان منظرُه هائلاً. وكان رأسُ التمثال من ذهب خالص، وصدرُه وذراعاه من فضّة، وبطنُه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضُهما من حديد، والبعضُ من خزف. وفيما أنت راءٍ، إذ انقطع حجرٌ لا باليدين، فضربَ التمثالَ على قدميه اللتين من حديد وخزفٍ، وسحَقهما. فانسحق الحديدُ والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كعُصافة البيدر في الصيف، فذهبت بها الريحُ، ولم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثالَ فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها. (2/31–35). »

2. الثانية:

بينما كانت ممالك الأرض كلّها تتّخذ لها صورة حيوانات خارجة من البحر، فإن الملك "المسيحاني" يتّخذ له صورة بشرية، أو بالأحرى رمزاً ذا ملامح بشرية، يأتي "على سحب السماء":

« ورأيت في رؤى الليل، فإذا بِمثل ابن البشر آتياً على سحاب السماء، فبلغ إلى القديم الأيام، وقُرِّب إلى أمامه، وأوتي سلطاناً ومجداً ومُلكاً. فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول، ومُلْكه لا ينقــرض. (13/7–15). »

ويقول في تفسير هذا الحلم للرائي:

« لكن قِدِّيسي العليّ يأخذون الملك ويحوزونه إلى الأبد وإلى أبد الآبـــاد... ويُعطَى الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء بأسرها لِشــعبِ قِدِّيســي العليّ، وسيكون مُلْكه أبدياً ويعبدُه جميع السلاطين ويطيعونه. (18/7 و27) »

3. الثالثة: تخصّ موعد حلول هذا الملك "المسيحاني"، وقد جاء في ما يسمّى بـ"نبوءة الأسابيع"، التي أُثير حولها لغط كثير، وما زال... وقد وردت في الفصل التاسع (24–27).

إلا أن مجمل المعنى يشير إلى حلول الملك "المسيحاني"، بوصفه نهاية الخطيئة وحلول العدل الأبدي. ولئن كانت الآيتان 26–27 تشيران مباشرة إلى قتل رئيس الكهنة "أونياس الثالث"، واضطهاد الملك "انتيوخوس – ابيفانيوس" وتدنيسه للهيكل، حيث أقام تمثال الإله زوش في قدس الأقداس، فلا يُستبعَد أن تشيرا على نحو غير مباشر – إذ هي نصوص نبويّة – إلى مقتل المسيح، وخراب القدس على يد الرومان.

2. وجه المسيح - المتألّم:

أ. في المزامير:

ثمّة وجه في المزامير للمسيح المتألم:

1. المزمور 21 أبرز هذه المزامير. قد يكون مؤلّفه وضعه ليصف عذاباً عظيماً ألمّ به، ولكنه في نهاية الأمر يتخطّى مؤلفه. وقد رأى فيه معظم شرّاح المزامير صورة المسيح المتألّم، بل أحياناً تصويراً حيّاً مسبقاً لبعض ما حلّ بالمسيح – يسوع من آلام، إلاّ أنّ المجد أعقب هذه الآلام:

« إلهي، إلهي، لماذا تركتني... (2)
"أنا دودة، لا إنسان، عارٌ عند البشر، ورذالةٌ في الشعب (7)
"كلّ الذين يبصرونني، يستهزئون بي، يفغرون الشفاه ويهزّون الرؤوس (8)
"فَوِّض إلى الربِّ أمرَه، فلْيُنجّه ويُنقذْه، إنه راضٍ عنه (9)
"فتحوا عليّ أفواهَهم أسوداً مفترسةً زائرة (14)
"قد أحاطت بي كلابٌ. زمرةٌ من الأشرار أحدقَتْ بي. ثقَبوا يديَّ ورجليّ (17)
"إني أعدّ عظامي كلّها، وهم ينظرون ويتفرّسون فيّ (18)
"يقتسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون (19)
"وأنت يا ربّ، لا تتباعدْ. يا قوّتي أسرع إلى نصرتي (20)
"سأبشّر باسمِك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبّحُك (23). »

2. **المزمور 15، استخدمه القديس بطرس يوم حلول الروح القدس، ليشير إلى قيامة المسيح من الموت: فيقول بطرس في الفصل الثاني من سفر أعمال الرسل:** (2/22-28):

« يا بني إسرائيل، اسمعوا هذا الكلام: إنّ يسوعَ الناصري، ذلك الرجل الذي أيّده الله لديكم بما أجرى عن يده بينكم من المعجزات والأعاجيب والآيات، كما أنتم تعلمون، ذاك الرجل الذي أُسلِم بقضاء الله وعلمه السابق، فقتلتموه إذ علّقتموه على خشبة بأيدي الكافرين، قد أقامه الله وأنقذه من أهوال الموت، فما كان ليبقى رهينَها، لأن داود يقول فيه:

"كنتُ أرى الربَّ أمامي في كلّ حين.
"فإنه عن يميني لئلاّ أتزعزع.
"لذلك فرحَ قلبي وطربَ لساني.
"بل سيستقرّ جسدي أيضاً في الرجاء،
"لأنك لا تتركُ نفسي في مثوى الأموات،

"ولا تدعُ قدّوسَك ينالُ منه الفساد.
"قد هديتني سبلَ الحياة،
"وستغمرني سروراً بمشاهدة وجهك. (مز **15/8–11**) »

ب. في الأنبياء:

(1) النبي أشعيا:

هو أعظم من تكلّم عن آلام المسيح، بحيث بدا أحياناً وكأنه يصور الآلام تصويراً. وقد جاءت نبوءاته كلّها في ما يسمى بالقسم الثاني من نبوءته، وقد أُطلق عليها من قبل الشرّاح عنوان "أناشيد خادم الرب". وهي المقاطع التالية: الفصل 42/1-7، والفصل 49/1-9، والفصل 50/ بدءاً من الآية 4، ومن الفصل 52 الآية 13، إلى الفصل 12/53. وهي تنقل القارئ إلى عالم جديد، يبدو منقطع الصلة بالعالم "المسيحاني" الأرضي، الذي تكلّم عنه سائر الأنبياء، والذي لم يكن يخلو في بعض الفترات من لمسات "أبدية". حسبنا أن نستعرض أبرز هذه الفقرات، مع كلمة موجزة حول معنى النص:

أ- يعلن "خادم الرب" بنفسه المهمة التي ائتمن عليها:

« "إنّ الربَّ دعاني من البطن، وذكرَ اسمي من أحشاء أمّي...
وقال لي: أنتَ عبدي، فإني بك أتمجّد...
قال: قليلٌ أن تكون لي عبداً لتقيمَ أسباطَ يعقوب، وتردّ المحفوظين من إسرائيل.
إني قد جعلتُك نوراً للأمم، لتكونَ خلاصي إلى أقاصي الأرض (**49/1–6**) »

ب- وفي سبيل هذه المهمة، سيتحمّل الكثير، ولكن رجاءه في الرب:

« بذلتُ ظهري للضاربين، وخدَّيَ للناتفين، ولم أسترْ وجهي عن التعييرات والبصق.
السيّد الربّ ينصرُني. لذلك لم أخجلْ. ولذلك جعلتُ وجهي كالصوّان،
وأنا عالمٌ بأني لا أُخزَى". (**50/6–7**) »

ج- في الفصلين 52-53، يرسم النبي أشعيا وصفاً لـ"خادم الرب"، سُمّي "الآلام بحسب أشعيا"... ففيه وصف لآلام سيكابدها تكفيراً عن خطايا البشر، ووصف لموتٍ مشينٍ يضعه في مصاف الملعونين والمجرمين، ومن ثَمّ وصف لمجد عظيم سوف يجلب له جموع الذين برّرهم بتضحيته الحرة:

« هوذا عبدي يعملُ بالحزم،

يتعالى ويرتفعُ ويتسامى جداً.

فلئن كان كثيرون قد رأوه برعبٍ، لشدّة تشوّه وجهِه، ولفقدِه شكلَه الإنساني،

فإنّ جموعَ الأمم ستُعجب به، وأمامه سيسدّ الملوكُ أفواهَهم،

إذ يرَون ما لم يكنْ قد رُوي لهم،

وإذ يفهمون ما لم يكونوا قد سمعوا به.

مَن تُراه يؤمن بما جاءنا من رسالة؟ ولمن كُشِفت قوة الربّ؟

فهو يرتفع أمامَه كنبتةٍ رقيقة، وكجذرٍ يخرج من أرض جافة.

ليس له شكلٌ ولا بهاء يلفتان أنظارنا، ولا منظر له نشتهيه.

مزدرى ومخذول من الناس،

رجل أوجاع، ومتمرّس بالعاهات، أشبه بشيء يحجبُ الإنسانُ وجهَه دونه، ومحتقَر، فلم نُقِم له أي وزن.

ومع ذلك فلقد حملَ أوجاعَنا، وأخذ على عاتقه آلامَنا،

فيما نحن حسبناه يُعاقب، فيضربه الله ويذلّه.

ولكنه هو، طُعِن بسبب خطايانا، وسُحِق بسبب آثامنا،

وقد حلّ عليه العقابُ الذي يولينا السلام، ونلنا الشفاءَ بفضلِ جراحِه.

ونحن كلّنا، كنّا تائهين كالغنم، ومالَ كلٌّ إلى طريقه.

فأسقط الربُّ عليه هو، إثمنا كلّنا.

أُهينَ وضُربَ، ولم يفتحْ فاه، مثلَ شاةٍ تُساق إلى الـذبح، ومثـلَ خـروفٍ صامتٍ أمامَ الذي يجزُّه.

قُضي عليه بحكمٍ جائر، ومن يفطن له بعد أن اقتُلع من أرض الأحياء وقُضي عليه، بسبب خطيئة شعبي؟

وأُعطي قبراً بين المنافقين، ومثواه الأخير بين المجرمين.

مع أنه لم يُقدِمْ على أعمالٍ جائرة، ولم ينطقْ فمُه بالكذب.

ولكن الربّ ارتضى أن يسحقَه، وقد ملأ نفْسَه كرباً، كما لو كانت مذنبة، سوف يرى ذريّة، ويعيش أياماً طويلة،

وقصدُ الربّ سينجح على يده.

وبعد أن يتخلّصَ من كربِ نفسه، سيرى الربّ وسيشبع من معرفته.

إنّ الصدّيق خادمي، سيبرّر الكثيرين، وسيحمل هو آثامهم. ولذلك سأعطيه الكثيرين نصيباً له، والجموع غنيمة له، لأنه سلّم نفسه للموت، وأحصي مع الخطاة.

هو الذي يحمل خطيئة الكثيرين ويشفع من أجل الخطأة (13/52 و53). »

<u>(2) النبي زكريا:</u>

لديه نصّان رأى فيهما الشرّاح بالإجماع وجه المسيح المتألّم. إلا أن النص الأول ليس بوضوح الثاني، على الرغم من الكلمات التي طبّقها الإنجيليّون أوّلاً على المسيح المتألم. أكتفي بالإشارة إلى النص الأول بوصفه مرجعاً (الفصل 11 الآيات 4-17، والفصل 13 الآيات 7-9). وأتوقّف عند النص الثاني قليلاً (الفصل 12 بكامله إلى الآية 6 من الفصل 13). هذا المقطع يذكّر بما جاء لدى النبي أشعيا، من حيث موت "الخادم" الذي بيع "بثلاثين من الفضة" (11/12-13) والذي طعنوه (10/12)، فجلب الخلاص من الأصنام والخطيئة، للجميع (1/13-6).

3- مسيح العهد القديم ويسوع المسيح:

1. مجمل أوصاف المسيح بحسب العهد القديم:

الأوصاف المتناثرة هنا وهناك في العهد القديم، والتي قدّمناها مجتمعة بعض الشيء في الفقرتين السابقتين، ترسم ملامح للمسيح يجدر بنا أن نجمعها في لوحة واحدة، رأى خطوطها أوّلاً تلاميذ المسيح، ثم آباء الكنيسة وإجماع اللاهوتيّين إلى اليوم.

يعود أصل المسيح إلى أقدم العهود. فولادته ستكون من عذراء، في بيت لحم، وسيتحدّر من نسل داود الملكي.

إلاّ أنّ علاقةً حميمةً بينه وبين الله، تقوم، بحيث سيقول له الله: "أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك".

وستُطلَق عليه أسماء رمزيّة كثيرة، تُشير في آنٍ إلى عظمته الشخصية وإلى عظمة رسالته: فهو "عمانوئيل" (الله معنا)، وهو "الله برّنا"، وهو "المشير العجيب"، وهو "الله القوي"، وهو "الآب إلى الأبد"، وهو "رئيس السلام".

وإنّ روح الله يستقرّ عليه فيهبه مواهب الحكمة والفهم والمشورة، والقوة والعلم ومخافة الرب.

ولما كان يتّشح بالعدل والأمانة والوداعة والصبر، فضلاً عن القوة التي لا تُقهر، فإنه سيُكلَّف بمحاكمة شعبه وملاحقة الظلم والإثم في كل مكان، وبإقامة حكم ينشر العدل والسلام في العالم كلّه.

وإلى ذلك، فإنه سيَضُمّ في ملك واحد لن يعرف انقضاء، لا بَني إسرائيل التائبين وحسب، بل أيضاً جميع الناس التائقين إلى التقيّد بشريعة الله، وإلى الانعتاق من ظلمات الخطيئة. وسوف يكون أول هؤلاء المستنيرين، سكانُ شواطئ بحيرة طبرية عبدة الأصنام.

وسيكون في آنٍ واحدٍ مَلِكاً وكاهناً، ليكون الوسيط في عهد جديد، كامل وأبدي، لا خارجي، بل منقوش في قلب المؤمنين الذين سيصبحون بموجبه شعب الله إلى الأبد.

إلا أنّ مهمته لن تتمّ من دون آلام. فهو سيحمل آثام شعبه وشعوب الأرض، وسيتجرّع الذلّ والمهانة والعذاب بشتى ألوانها. وسيُحكم عليه بصورة جائرة، لا يَفطَن معها أحد للدفاع عنه. وينزل به قضاء الموت كملعون ومجرم.

ولكن موته هذا سيكون فجر انتصاره: سيخرج من القبر دون أن ينال منه فساد الموت، الذي نال من داود نفسه. وسيحيا إلى الأبد ويرث الكثيرين الذين بُرِّروا بتضحيته الحرة. وبعد أن ينتصر على أعدائه، سيجلس إلى الأبد، عن يمين الله.

2. التطابق بين "يسوع" و"المسيح":

التطابق واضح إلى أبعد حدّ ولا شك فيه، بالنسبة، طبعاً، إلى مَن يسلّم بتاريخيّة الإنجيل. بل إنه تطابق مثير. فلنوجزه.

يسوع حُبل به في "العذراء" مريم، بفعل الروح القدس، ووُلد في مذود، في بيتَ لحم.

وهو بوصفه بشراً من سلالة داود الملك، وبوصفه ابن الله المتأنّس، "عمانوئيل".

والذي مهّد لمجيئه، هو "إيليّا جديد" - يوحنا المعمدان - الذي دعا إلى عماد توبة. وهو يعلن أنه "حمل الله الذي يرفع خطايا العالم". (راجع متى 11 ولوقا 7/18-28 ويوحنا 1/21).

ويستقر عليه وفيه روح الله. فإذن بما أوتي من حكمة وقداسة في السيرة والتعليم، ومن معجزاتٍ تدلّ على القوة "الفائقة" والمحبة اللامتناهية لديه، إذن بكل ذلك يجلب إليه النفوس المستقيمة، فينصرف إلى تعليمها الحقائق الأساسية - وهو يخفي عليها في الغالب كونه المسيح، ويصبح عرضةً لكيد المتكبّرين الذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على الله والشريعة. (راجع خصوصاً أشعيا 61/1-2، بالمقارنة مع متى 16/3 ولوقا 18/4).

وأخذ يعظ بادئ الأمر في جوار طبرية، فيدعو إلى السلام والعدل،

مؤكّداً حلول ملكوت الله، وإذا به بعيد عمّا كان اليهود يتوقّعون من سلطانٍ زمني لهم، يبسطونه على الشعوب كلّها، وإنما هو ملكوت روحاني، ذو مرمى أبدي، يستهدف لا أبناء إسرائيل وحسب، بل شعوب الأرض كلّها، وكل مَن يبغي وجه الله في عدل وقداسة.

واختار له زمرة من عامة الناس، ليحمّلهم رسالته من بعده، وكلّفهم بنشرها في الأرض كلّها حتى آخر الأزمان.

وقد عرض على البشرية مثالاً من الكمال، جعل نفسه وسيطاً فيه بين الله والإنسان، ليُقيم بينهما "عهداً جديداً" يمهره بدمه، وقد جعل من نفسه ذبيحةً فداء وتكفير. فبيع بثلاثين من الفضة وجُرِّع من الإهانات والضرب ما لا يُتصوّر، وأُجريت له محاكمة جائرة، فحُكم عليه بالموت وقضى بين لصّين، على صليب كما لو كان ملعوناً. ومات. ولكنه نهض من قبره حيّاً. وعلى مرأى ومسمعٍ من تلاميذه، ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الآب.

ونشر تلاميذه البُشرى والعهد الجديدين، بسرعة خارقة وبوسائل غاية في الضعف وفق المنطق البشري، على الرغم من مقاومة شرسة جداً ومزدوجة، قام بها اليهود والرومان معاً طوال مئات السنوات. فحلّ الإيمان الجديد بدل القديم، وأُقيمت ذبيحة جديدة بدل ذبائح الحيوانات القديمة، هي ذبيحة المسيح إذ اعتلى خشبة الصليب كفّارة عن البشر، وكان الصليب عنوانها ورمزها.

هذا التطابق لا يمكنه بأي حال أن يكون وليد صدفة... وهو ليس بالطبع نتيجة "تطبيقة" أجراها التلاميذ أوّلاً، ثم آباء الكنيسة، ثم اللاهوتيّون منذ ألفي عام إلى اليوم. إنما هو تطابق لم يكن عليهم إلا أن يقرأوه في أحداث تاريخ يسوع، ويتثبّتوا عندها، وعندها فقط، من صحة ما جاء به الأنبياء قبلهم بمئات السنين.

ولكنه إلى ذلك تطابق فاق كل توقع الأنبياء: كان المسيح أكثر مما تصوروا، إذ كان "عمانوئيل" بالمعنى الحَرفي للكلمة.

الفصل الثاني

يســوع في ذاتــه

المصادر الرئيسة

أولاً: مراحل تدوين الإنجيل

1- **الإنجيل المتداول ليس المصدر الوحيد لسيرة وحقيقة يسوع.**

ثمة مصادر:

1. **مصادر يهودية:**

قديمة وممتدة عبر التاريخ ومعاصرة:

(1) **ملاحظة أولية وأساسية بشقّين:**

- **نشأة كل حركة دينية، ضعيفة المعالم، وقلّما يلتفت إليها المعاصرون بجدية، فما قولنا بالمؤرخين؟**

- **نشأة المسيحية في البيئة اليهودية بفلسطين، لم تكن غريبة أولاً، لأن البيئة اليهودية كانت شديدة الاضطراب قومياً ودينياً... ولكن عندما برزت معالمها بعد سنوات من مقتل يسوع، تجاهلها المؤرخون اليهود، كما فعل المؤرخ اليهودي (يوستوس الطبري) في كتابه "تاريخ حرب اليهود" (عام 67-70) و"تاريخ ملوك اليهود من موسى إلى اغريبا الأول" (+44).**

هذان المؤلّفان مفقودان اليوم. إلا أن البطريرك فوتيوس، وقد تسنى له

أن يقرأ الكتاب الثاني، يقول في مؤلف له: "إن الكاتب، عملاً منه بالعيب المعروف عن اليهود، وهو يهودي، قد أغفل كلياً كل ما يتعلق بمجيء المسيح، وما حدث له والعجائب التي أجراها".

(2) ثمة شهادة أخرى للمؤرخ اليهودي "يوسيفوس" في كتابه الشهير "العاديات اليهودية"، التي يتحدث فيها عن تاريخ اليهود، ولا سيما عن حرب عام (70).

هذا المؤرخ كان مقاتلاً يهودياً ضدّ الرومان، ثم أصبح ضابطاً رومانياً، وقاتل شعبه مع الرومان. وقد كتب كتابه هذا حوالي عام (90)، وفيه ثلاثة نصوص: اثنان يخصّان يوحنا المعمدان وحادثة مقتله على يد هيرودس، بطلب من "صالومي" ابنة هيروديا، ومقتل القديس يعقوب بتحريض وطلب من رئيس الكهنة "حنّان"، وهو ابن "حنّان" الذي كان مع قيافا المحرّضَين على صلب يسوع... حول هذين النصين، يتفق جميع المؤرخين على صحتهما...

أما النص الثالث: فهو مثار لنقاش طويل بين العديد من المؤرخين: منهم من يؤيّد صحّته، حتى من كان منهم خصماً لدوداً للمسيحية. ومنهم من يرفض صحّته، حتى من كان منهم مؤيّداً للمسيحية... أما هذا النص فهو يخصّ يسوع، وقد ورد فيه بالحرف الواحد:

« وفي ذلك الوقت عينه، ظهر يسوع، وهو إنسان حكيم، إن جازت تسميته بإنسان، لأنه قام بأعمال خارقة، وهو معلّم أولئك الذين يتقبّلون الحقيقة بفرح، وقد جلب إليه العديد من اليهود وكثيرين من اليونانيين. كان هو المسيح. وقد صلبه بيلاطس بتحريض من رؤساء أمّتنا. والذين اتّبعوه لم يتخلّوا عنه. وقد ظهر لهم بعد ثلاثة أيام حيّاً. كما كان قد تنبّأ بذلك، وبأشياء أخرى خارقة، الأنبياء الإلهيّون. وإلى اليوم تقوم جماعة اتخذت لها، نسبة إلى اسمه، اسم "مسيحيّين" ».

(3) الشهادة الثالثة، وهي الأوضح والأهم: التلمود.

- التلمود بقسميه - الأورشليمي والبابلي - يذكر إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة، أموراً كثيرة تتعلّق بالمسيح. إلاّ أنّ كل ذلك لا يعدو كونه أسطورة وسخة تدور في حلقة مفرغة، أملاها حقد عنيد بدأ باتهامات معاصري يسوع له بمشاركة الشياطين... والأسطورة كلّها اتخذت لها اسم "أصل يسوع"...

(4) الشهادة الرابعة: المؤرخون اليهود عبر التاريخ، وحتى المعاصرون:

- يسوع شخصية تاريخية خرجت على اليهودية فبُتِرت...

- ولكنه كان السبب في ما لحق باليهود من اضطهاد عبر التاريخ، ومن هنا كان وصف الكثيرين له بأنه "وحش" جلب لهم أبشع مصير...

2. مصادر وثنية:

ثمة ثلاث شهادات لثلاثة مؤرّخين رومان، عاشوا ما بين منتصف القرن الأول والقرن الثاني، وهي تتّسم باقتضاب واحتقار يَضمَنان حيادَها وصحّتها.

(1) المؤرخ "سويتونوس" (69-141) يقدم شهادتين هامتين:

- الأولى، بصدد حديثه عن الإمبراطور "كلوديوس" في كتابه "حياة الأباطرة"، يروي بالحرف الواحد:

« إنّ الإمبراطور كلوديوس قد طرد اليهود من روما، بعد أن أصبحوا بتحريض من "المسيح"، سبباً دائماً للفوضى. » (عام **51–52**).

- الثانية، بصدد حديثه عن الإمبراطور نيرون، في الكتاب نفسه، يقول:

«إنّ التعذيب قد فُرض على المسيحيين، وهم قومٌ يتبعون بدعةً "جديدة وسيّئة"، وقد حدث ذلك في أعقاب حريق روما... »

(2) المؤرخ تاكيتوس (55-120)، يقول بالحرف الواحد، بصدد الحديث عن الأحداث نفسها، في كتابه "الحوليات":

« وهذا الاسم، قد جاءهم من المسيح الذي سلّمه الوالي بيلاطس البنطي إلى الموت، في عهد الإمبراطور طيباريوس. وإن هذه البدعة البغيضة، بعد أن قُمعت حينذاك، عادت إلى الظهور، لا في اليهودية وحسب، حيث نشأ شرّها، ولكـــن في روما أيضاً، حيث كل ما يحتويه العالم من فظائع وموبقات، ينصبّ ويجد لـــه فيها زبانية كثيرين... »

(3) المؤرخ والحاكم "بلينوس الملقب بالأصغر" (61-115). وقد حكم مقاطعة بيتينيا (في تركيا الحالية) في عهد صديقه الإمبراطور "ترايانوس" عام (111). يكتب بلينوس سائلاً عن الإجراءات التي يترتّب عليه أن يتّخذها، حيال المسيحيين الذين يوشى بهم... وقد حُفظت الرسالة والإجابة عليها، في كتاب بعنوان "رسائل"، يضمّ مجموعة رسائل بلينوس... وكلا الرسالة والجواب مثيرٌ، ويشير إلى الوضع القانوني للمسيحيين، وإلى العذابات التي يتعرّضون لها في حال استمرارهم في معتقدهم، على أن تكون "الوشاية صريحة وشخصية، لأن الوشاية المُغفَلة وسيلة بربرية غير مقبولة في زماننا"، كما جاء في جواب الإمبراطور...

ملاحظة: قد تبدو هذه الشهادات هزيلةً بالمقارنة مع حجم المسيحية، ولكنها نظراً لمصادرها ووضوحها، والتأكيد على الأحداث التي تتحدّث عنها، والإجراءات التي تشير إليها، تشكل في نظر المؤرّخين وثائق ذات أهمية.

2- الإنجيل المتداول لم يكن أول ما كتب عن البشرى المسيحية.

1- محتوى الإنجيل بمعناه الواسع أي العهد الجديد:

(1) إنه يضم 27 سفراً، بينها أربعة أسفار يُطلق عليها حصراً اسم "الإنجيل".

(2) إنّ علم النقد التاريخي لهذه الأسفار يُجمع على تاريخ ظهورها على النحو التالي:

1- **إنجيل متى الآرامي**	**عام**	50
2- **رسالة يعقوب**	**عام**	58
3- **تسالونيكي** 2	**عام**	52-50
4- **فيليبي**	**عام**	56
5- **كور** 1	**عام**	57
6- **غلاطية**	**عام**	57
7- **كور** 2	**عام**	57
8- **روما**	**عام**	58
9- **كولوسي**	**عام**	62-60
أفسس	**عام**	62-60
فيليمون	**عام**	63-61
10- **بطرس** 1	**عام**	64
11- **إنجيل مرقس**	**عام**	64
12- **تيموثاوس** 1	**عام**	65
13- **تيطس**	**عام**	65
14- **إنجيل متى اليوناني**	**عام**	80-70
15- **لوقا**	**عام**	80-70
16- **أعمال الرسل**	**عام**	80-70
17- **العبرانيين**	**عام**	67
18- **تيموتاوس** 2	**عام**	67
19- **يهوذا**	**عام**	80-70
20- **بطرس** 2	**عام**	80-70
21- **إنجيل يوحنا ورسائله**	**عام**	94
22- **الرؤيا**	**عام**	95

(3) **يُلاحظ من القائمة السابقة أن هذه الكتابات ظهرت عبر** 45 **عاماً...**

(4) ويلاحظ من قراءتها أنها تخص كنائس متعددّة نبتت في مختلف أنحاء الإمبراطورية.

(5) ويلاحظ أيضاً أن الأسفار المسمّاة بالأناجيل، وباستثناء إنجيل متى الآرامي - وقد فُقد منذ السنوات الأولى للمسيحية - قد وضعت في أزمنة أبعد من أزمنة كتابة العديد من أسفار العهد الجديد... فمتّى كتب ما بين (70-80)، ولوقا أيضاً ما بين (70-80)، ويوحنا حوالي عام 94، فيما مرقس كتب عام 64 فقط...

(6) ويلاحظ أن الكتلتين الكبريين في أسفار العهد الجديد، هما "الأناجيل" ومعها سفر أعمال الرسل من جهة، وكتلة رسائل القديس بولس...

(7) ثمة سؤال يطرح نفسه: بما امتلأ الفراغ "الكتابي" الذي يقع بين يسوع وأول أسفار العهد الجديد؟

3- العهد الجديد كان أولاً:

يسوع ولا شيء سوى يسوع، ولكن يسوع في مرحلتين متميزتين ومتتابعتين:

- يسوع الحي في فلسطين، يبشّر بذاته حتى صلبه وقيامته...
- ويسوع الحي في الكنيسة، يبشّر به التلاميذ والكنيسة الأولى...

1) يسوع الحي في ذاته: يبشّر بذاته

- يسوع لم يكتب شيئاً...
- ولكنه عاش وبشّر كثيراً...

2) يسوع الحي في الكنيسة، يبشّر به التلاميذ والرسل... ضمن مرحلتين متميّزتين:

(1) مرحلة ما قبل اهتداء شاول- بولس...

(2) مرحلة ما بعد اهتداء شاول- بولس...

... ...

(1) مرحلة ما قبل اهتداء شاول- بولس:

تتجلّى في الملامح الرئيسية التالية:

1. **لبّوا دعوة يسوع لانتظار الروح القدس، حول العذراء مريم.**
2. **استجابوا لدعوة بطرس لاختيار بديل عن يهوذا شاهداً للقيامة.**
3. **نالوا الروح القدس الموعود، فانطلقوا بشراً جدداً بقوة هائلة.**
4. **بشّروا قبل كل شيء بقيامة يسوع، الذي صلبه اليهود والرؤساء.**
5. **عمّدوا الناس بالآلاف، كما أمرهم يسوع... ودعوهم للتوبة...**
6. **أخذوا يصلّون في الهيكل... ودعوا الناس للصلاة...**
7. **شَفَوا أناساً كثيرين بإيمان يتحدّى كل معقول... وأقاموا موتى.** (43-36/9)
8. **كسروا الخبز، أي أقاموا الذبيحة الإلهية، كما أمرهم يسوع...**
9. **عاشوا حياة مشتركة - كما كانوا يعيشون مع يسوع - وعلّموا الناس نمطاً جديداً من الاشتراكية.**
10. **واجهوا إغراء المال...**
11. **واجهوا إغراء السلطة، فتحاشوها فوراً، وأعتقوا أنفسهم للخدمة الروحية.**
12. **واجهوا تهديد السلطة: (ضرباً وسجناً بل وقتلاً...): تحدّوا بشجاعة...**
13. **اختاروا معاونين... (استفانوس وسائر الشمامسة...)**
14. **واجهوا اليهودية واختلفوا فيما بينهم بالنسبة إلى الإجراءات الجديدة.**
15. **استجابوا لنداءات الرب الجديدة، متجاوزين التقاليد والشرائع اليهودية...**
16. **بعضهم تمثّل يسوع تمثّلاً كاملاً حتى موته: استفانوس...**

ملاحظة: كل ذلك عاشوه دون أن يكتبوا ولا كلمة واحدة، لأنّ جميع ما كُتب عن هذه المرحلة، إنما هو كُتب في سفر أعمال الرسل، ما بين عامي (70-80) **فقط.**

(2) مرحلة ما بعد اهتداء شاول- بولس:

هذه المرحلة تحتل مكانة خاصة ومتفوّقة في تاريخ المسيحية، لأسباب كثيرة، منها:

1. الطريقة التي أُقحم بها شاول- بولس في المسيحية: طريقة فريدة تشير بالأصابع العشر إلى حقيقة قيامة يسوع واستمراره حيّاً فعّالاً، وإن غائباً، في قلب الكنيسة، إذ استطاع أن يبدّل في ساعات شاول المضطهد الشرس، إلى مبشّر يغامر بحياته دون أيّ تردّد في سبيل يسوع هذا الحي... وكان ذلك في دمشق.

2. الانطلاقة التي عرفتها المسيحية في اتجاه العالم، ولا سيما الوثني، فوراً بعد بروز شاول- بولس، وكانت انطلاقة منظمة، احتلّت مدينة أنطاكية السورية القلب منها، وكان شاول- بولس أبرز منظّميها ومحرّكيها، بحيث أنّ المسيحية أنشأت لها في سنوات قليلة، مراكز رئيسية سُمّيت كنائس، وفيها مسؤولون سُمّوا شيوخاً أو أساقفة - أي مراقبين - يقومون بمهام الرسل في تسيير شؤونها اليومية والاستثنائية، كما ينظّمون علاقاتها بسائر الكنائس في طول الإمبراطورية وعرضها...

3. الكتابات التي ظهرت، بشكل رسائل، هنا وهناك، بقلم هذا أو ذاك من الرسل المبشّرين أو التلاميذ المبشّرين، وأهمّها عدداً وحجماً وقيمة، كانت ولا تزال، دون أدنى شك، رسائل شاول- بولس... وقد جاءت كلّها وليدة مناسبات اضطرّت التلاميذ للكتابة في هذا الأمر أو ذاك، مما يخصّ حياة المسيحيّين الأوائل... فكان على واضعيها أن يهتمّوا، دون تجاهل أو إهمال، بالمسائل الملحّة والمطروحة للنقاش أو للتنظيم أو للتوجيه... علماً بأنهم كانوا يكتبون لأناس عرف بعضهم يسوع بالذات معرفة شخصية، أو لأناس أُشبعوا بالمعلومات التي يُفترض بالبديهة، أنّ التلاميذ غمروهم بها، فما عادوا في حاجة إلى سماعها مجدّداً في

رسائل أو كتابات ظرفية، لها حدودها وضروراتها... وهذه الحقيقة تنطبق، كما قلت سابقاً، بالدرجة الأولى على مجموع رسائل شاول- بولس، التي تأتي جزءاً لا يتجزّأ من شخصيّته الفذة والقوية، لأنها استطاعت أن تحمل العبء الأكبر من تأسيس المسيحية في مختلف أنحاء الإمبراطورية، والتي كانت تسارع إلى الإجابة بسرعة وعمق مذهل، على حاجاتها، بل وعلى اعتراضات البعض.

4. المعلومات التي وردت في مختلف هذه الرسائل، مما يخص سيرة يسوع، وإذا بها توافق موافقة تامة ما سوف يجيء بشأنه، فيما بعد، في الأناجيل الأربعة. وكان جميع كاتبي الرسائل من الرسل - من بطرس إلى يوحنا إلى يعقوب إلى بولس - يؤكدون "أنهم لا يتبعون خرافات سوفسطائية، بل إنهم "شاهدوا جلاله"، بل "إنهم شاهدوا الحياة بعيونهم، وسمعوها بآذانهم، ولمسوها بأيديهم"، ولذلك فهم يدعون المسيحيين للتمسك بالتعليم الصحيح، حتى لو جاءهم ملاك من السماء أو بولس نفسه يبشّرهم بخلاف ما بشّروا به...

5. نوجز هذه المعلومات الأساسية والثابتة عن يسوع، كما وردت في رسائل الرسل، في النقاط التالية:

- يسوع وُلد من امرأة (روما 15/5 و1 كور 21/15)
- يسوع كان يهودياً (غلا 16/4)، من قبيلة يهوذا (عبرا 14/7) ومن بيت داود (روما 3/1)
- يسوع خضع للشريعة اليهودية (غلا 4/4)
- كان له "أخوة" (1 كور 5/9)، ومنهم يعقوب (غلا 9/1)
- يسوع تميّز بفقره (2 كور 9/8) ووداعته (2 كور 1/10) وقداسته (2 كو 21/5)
- نال العماد من يوحنا السابق (أعمال 22/1)
- أحاط نفسه ببعض التلاميذ، ومنهم بطرس ويوحنا (1 كور 5/9 و7/15 و9 وغلا 9/3)

- أجرى العديد من المعجزات (أعمال 22/2)
- تجلى أمام التلاميذ (2 بطرس 16/1-18)
- أسس سرّ القربان المقدس (1 كور 23/11-25)
- عرف النزاع والآلام المبرحة وذاق الموت (عبرا 7/5) وخيانة يهوذا (أعمال 6/1 وما يليه و1 كور 23/1)، وعرف الصلب (غلا 1/3 و13 أعمال 23/2) بين لصّين (كول 14/2)، وذلك خارج أسوار أورشليم (عبرا 12/13) وعرف الدفن (1 كور 4/15 وأعمال 19/2)، وقام في اليوم الثالث (روما 11/8 وأعمال 34/2)
- ظهر مرات كثيرة بعد قيامته، وللعديد من التلاميذ (1 كور 5/15-8)
- صعد إلى السماء بمرأى من تلاميذه (روما 34/8 وأعمال 34/2)

6. ثمة حقائق أساسية تبرز في مجمل الرسائل، ولا سيما في رسائل شاول- بولس، تأتي متطابقة بالكلية مع الحقائق التي ستضعها الأناجيل الأربعة على لسان يسوع، أو ستبرزها في سيرة يسوع. حسبنا أن نشير بإيجاز إلى أهمها:
- الحقيقة الكبرى والأولى: تجسد كلمة الله (فيلبي 6/2-11)
- محبة الله للإنسان (روما 39/8)
- الحياة الجديدة في المسيح (غلا 16/5-25)
- الموقف من هذا العالم الزائل والباطل (كورنتس 7/1)
- موت الإنسان القديم وولادة الإنسان الجديد (2 كور 17/5)
- الشريعة الكبرى في الحياة: المحبة (1 كور 13)
- وحدة البشر جميعاً في المسيح (غلا 26/3 و1 كور 13/12)
- وحدة الإيمان من وحدة المسيح (1 كور 3/3-9 و16-17)
- مفهوم الحرية المسيحية (غلا 1/5 و13-14)
- الموقف المسيحي من المال والمتمولين (يعقوب 1/5-5)
- المحبة الواقعية (يوحنا الأولى، الفصل 3)

- **شمول البشرى لغير اليهود (مجمع القدس في أعمال 15)**
- **وحدة الزواج المسيحي (1 كور، فصل 7 وأفسس 5/22-33)**
- **الحياة الأبدية (1 تسالو 13/4 وبداية الفصل 5)**

7. **وأخيراً هناك حقيقة لا بدّ من التوقف عندها، وهي حقيقة استمرار الاتصال بين الكنائس المختلفة والرسل فيما بينهم، في شتى أنحاء الإمبراطورية.**

وتلك حقيقة تاريخية ترسي عليها المسيحية التطابق الكامل بين ما أراد يسوع من كنيسته، وما أراد الرسل من نشر البشرى، كلٌّ بأسلوبه وفي منطقته... أؤكد على ذلك لئلاّ يقال إن بولس، بعد دخوله المسيحية، حَرَفها عن خطّها وجرّ الرسل معه حيث لم يشأ لهم يسوع... وجعلهم يقولون عن المسيح ما لم يقله هو عن نفسه... وهذه الحقيقة تبرز بصورة خاصة لكل قارئ لأسفار العهد الجديد غير الأناجيل بمعزل عن الأناجيل، فكيف به إذا قرأها في ضوء الأناجيل؟... وفي ذلك يقول بطرس الرسول في رسالته الثانية بالحرف الواحد (3/15-16):

« عُدُّوا طول أناة ربِّنا وسيلةً لخلاصكم، كما كَتبَ إليكم بذلك أخونا الحبيب بولس على قدرِ ما أُوتي من الحكمة، شأنُه في جميع الرسائل كلّما تناول هذه المسائل. وقد ورد فيها أمورٌ غامضة يحرّفها الذين لا علمَ عندهم ولا ثبات، كما يفعلون في سائر الكتب، وإنما يفعلون ذلك لهلاكهم. »

3) **يسوع مكتوباً: الإنجيل.**

(1) **حقيقة أولى: يسوع لم يكتب ولم يأمر تلاميذه بالكتابة، بل بحمل البشرى... فحملوها... وكما اقتضت حياة الكنيسة الأولى الإجابة على القضايا والأسئلة المطروحة، فجاءت رسائل الرسل جواباً مكتوباً ثابتاً ومعتمداً أساسياً في المسيحية كلها، اقتضت حياة الكنيسة الأولى أن يكتب الرسل أو بعضهم، أهم أحداث سيرة يسوع**

وتعاليمه، لئلاّ تندثر بموتهم أو باستشهادهم، فيُنسَب إلى يسوع ما لم يقل أو يفعل، فتشوّه المسيحية إلى غير رجعة... فكتبوا ما نسمّيه منذ القدم الإنجيل أي البشرى وهي كلمة يونانية معرّبة...

(2) حقيقة ثانية: لم يكتب التلاميذ سيرة يسوع بصورة منهجية ووفق خطة مسبقة، لا سيما وأنهم كانوا في المرحلة الأولى من البشرى، يتصوّرون أن العالم على وشك الانتهاء، فلم الكتابة...؟ وشيئاً فشيئاً اتضح لهم أن الزمان قد يطول أكثر مما كانوا يتوقّعون، كما واتضح لهم أيضاً أن المؤمنين بحاجة إلى ما يذكّرهم حقيقةَ ما سمعوا وعرفوا من سيرة يسوع وتعاليمه. فكتبوا...

(3) حقيقة ثالثة:

كتبوا، كل منهم في مكان وفي بيئة مختلفين، لفئات من المؤمنين، لهم تقاليدهم وعاداتهم ومفاهيمهم الدينية السابقة... فقدّموا جوهر البشرى في لبوس خاص ومتميّز، ولكن دون أن يمسّوا الجوهر... من هنا كانت أشكال التباين في أسلوب الكتابة والسرد، في كل من الأناجيل الأربعة، على اتفاق واضح في الجوهر...

(4) حقيقة رابعة:

وقد كتبوا ما يتّسم بالمذكّرات أكثر منه بأي شيء آخر... ولكنهم وضعوا فيها الجوهر حقّاً. والجوهر كان يسوع في أهم ما حدث له، وأهم ما فعل، وأهم ما قال. فعلوا ذلك دون ثرثرة شرقية، ودون أي تضخيم... بل اختصروا أقوال يسوع على نحو واضح... وأغفلوا للسبب عينه كل ما عدا يسوع، وكأنه لا علاقة له بجوهر البشرى: من ذلك مثلاً إغفالهم المطلق تقريباً لكل ما يتعلّق بالقدّيس يوسف، على الرغم من عظمة الدور الذي أُنيط به... ومن ذلك أيضاً إغفالهم للعذراء مريم، إلا ما له علاقة هامة جداً بأصول البشرى... ومن ذلك أيضاً إغفالهم لقسم كبير وطويل من حياة يسوع - وهي الفترة التي سبقت حياته العامة - مما أثار شكوكاً لدى

بعض "العقلانيين"، فطلعوا على الناس بنظريات مضحكة لتفسير شخصية يسوع التي حيّرتهم، لأنهم أرادوا لها تفسيراً بشرياً صرفاً...

(5) **حقيقة خامسة:**

كتبوا من الذاكرة ليس إلا... والذاكرة بالنسبة إليهم كانت حياةً عاشوها مع يسوع يوماً بيوم، ضمن أحداث وكلام لا يمكن أن يمرّ عليها الزمن... والذاكرة القديمة كانت المستودع الأمين للحياة كلها... بل للآداب كلها... وكل باحث في تاريخ الآداب القديمة، يعرف تماماً أن جميع هذه الآداب قد وصلت إلينا عبر قرون طويلة، لم تتوفر فيها مطابع ولا كتابة منظمة، بل كانت تختزن فيها الذاكرات ما وصلها من نتاج فكري، أياً كان نوعه، شعراً كان أم فلسفة أم مسرحاً أم تاريخاً، وتنقله بأمانة وباللغة الأصلية، ولكن ضمن هِنات طبيعية يعترف بها الإنسان العادي، ويعترف بها العالِم، هِنات لم تكن لتمسّ جوهر ما نُقِل، فليس من يجهل أن الذاكرة وحدها نقلت إلينا الشعر العربي القديم، والعهد القديم، وخصوصاً عمالقة الأدب القديم، اليوناني والروماني...

(6) **حقيقة سادسة:**

شهادات الأقدمين بشأن واضعي الأناجيل الأربعة، تدعم صحة نسبتها إليهم. وهي شهادات مستقلة بالزمن والمكان.

- **ففي مصر، كتب المعلم الكبير "أوريجانيس" (185-254)، قال:**

« لقد عرفنا من الأقدمين أن الأناجيل أربعة، وهي وحدَها جديرة بالقبول دونما نزاع، في جميع أنحاء كنيسة الله المنتشرة تحت كل سماء. فالإنجيل الأول كتبه متى – الذي كان أوّلاً عشّاراً، ثم صار رسولاً ليسوع المسيح – باللغة العبرية لفائدة اليهود الداخلين في الإيمان. وقد نُمي إلينا أنّ الثاني كتبه مرقس كما سمعه من بطرس، وأنّ الثالث كتبه لوقا لفائدة غير اليهود، وقد أوحى به بولس. أما الأخير فهو إنجيل يوحنا".

- **وفي تـونس، كتـب المفكـر "ترتوليـانوس" (160-240) شـهادة لهـا وزن خـاص، لأنـه ظلّ يقرّ بوحـدة الإنجيـل في ترجماتـه الأربـع، حتـى بعـد أن انحاز، في أواخـر حياتـه، إلى بدعـة القـائلين بـأنّ المسيح لا يغفـر الكبـائر... كتب قال:**

« أربعة يثبتون لنا الإيمان في أسفارهم: اثنان من الرسل، وهما متى ويوحنـــا، واثنان من التلاميذ، وهما لوقا ومرقس. وإن السلطة التي تثبت حقيقـــة إنجيـــل لوقا، هي عينها تثبت حقيقة أناجيل متى ويوحنا ومـــرقس. وإذا نُســـب هـــذا الأخير إلى بطرس، فما ذلك إلاّ لأنّ مرقس كان ترجماناً لبطرس، كما أن إنجيل لوقا يُنسب إلى بولس ».

- **وفي بلاد الغال، أسقف مدينة ليون، وهو "ايريناوس" (140-222). وقد كـان تلميـذ "بوليكربـوس"، أسـقف مدينـة إزمـير، الـذي كـان بـدوره تلميـذاً ليوحنا الرسول. كتب يقول:**

« إن الأناجيل الموحى بها أربعة ليس إلاّ. وقد جمع هذا العدد الروح القدس، فلا سبيل إلى الزيادة عليه. وقد كتب الإنجيليّون هذه الأسفار المقدّسة، ودفعوها إلينا لتكون أساسَ معتقدِنا وعمودَه في المستقبل. وهكذا نشـــر مـــتى إنجيلـــه للعبرانيين في لغتهم، بينما كان بطرس وبولس يبشّـــران في رومـــا ويؤسّســـان الكنيسة. وبعد أن خرجا من روما، نقل إلينا مرقس، تلميذ بطرس وترجمانه، في إنجيله، الحقائق التي بشّر بها بطرس. وكتب لوقا رفيق بولس في إنجيله، ما كـــان يبشّر به معلّمه. وأخيراً نشر يوحنا بدوره إنجيله، إذ كان في أفسس من أعمـــال آسيا، ويوحنا هو التلميذ الذي استحقّ أن يسند رأسه إلى صدر الرب ».

(7) حقيقة سابعة:

إن دراسة المخطوطات الإنجيلية تدعم، بما لا يدع مجالاً لأي شك، صحة هـذا الإجمـاع وتاريخيتـه. وهـي تثبـت أيضـاً تطـابق الـنص الحـالي للإنجيـل بترجماته الأربع، مع النص القديم، كما أخـذت بـه الكنـائس المسيحية كلها،

في مختلف أقطارها، وبمختلف فئاتها الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية. ثم إن هذه المخطوطات أكثر من أن تُحصى، وهي محفوظة في أشهر مكتبات العالم ومتاحفه، وهي في متناول أي باحث. من هذه المخطوطات، ما يعود إلى القرن الثاني، مثل المخطوطين التاليين: المخطوط المسمى "البودميراني" (نسبة إلى مكتشفه "بودمير" السويسري، وقد اكتشفه عام 1956)، ومخطوط "موراتوري"، نسبة إلى العالِم "موراتوري" الإيطالي وقد اكتشفه عام 1740. ومنها ما يعود إلى القرن الخامس والسادس.

وقد يبدو للبعض أن الفارق الزمني، القائم بين البشرى الإنجيلية المقولة، أي بين المسيح والرسل، والنُّسَخ الأولى للبشرى المكتوبة، أي المخطوطات، ينطوي على شك في صحة ما يُنسب إلى المسيح والرسل، وبالتالي في صحة البشرى بالذات.

إلا أن الحقيقة العلمية على خلاف ذلك، كما سبق وأشرنا. فإن مثل هذا الفارق الزمني يكاد لا يقوم له وزن في عرف علم التاريخ والنقد التاريخي. بل إن نتيجة كهذه تبلغ حدّ اليقين الذي لا يتزعزع، إذا عمدنا إلى مقارنة نزيهة بين ما نحن بصدده، وبين الفارق الزمني الممتد من تاريخ عمالقة الأدب القديم، اليوناني والروماني، إلى تاريخ ظهور النسخ الأولى لمخطوطاتهم.

فلئن كان بين المسيح وأولى مخطوطات الإنجيل المكتوب، فارق زمني يتراوح بين مائتي عام وخمسمائة عام، فإنه من الثابت أن الفارق الزمني الذي يفصل، مثلاً، بين أوريبيدس وسوفوكليس واسخيلوس واريستوفانيس وتوسيديدس وأفلاطون وديموستينوس والشاعر اللاتيني كاتولوس، وأولى المخطوطات المعروفة لمؤلفاتهم، هذا الفارق الزمني يمتدّ من ألف ومائتي عام إلى ألف وستمائة عام. ولكن هناك استثناءين لا غير، هما الشاعران اللاتينيان فرجيليوس وتيرنسيوس، إذ إنهما يتمتّعان بفارق زمني يتراوح بين أربعمائة عام وسبعمائة.

(8) حقيقة ثامنة:

إن المنازعات والبدع التي ظهرت في المسيحية، منذ أواخر القرن الأول، والتي ظلّت تنمو وتتنوّع حتى القرن السادس، لم تتنكّر قط لهذا الإجماع حول وحدة الإنجيل، وقد اعتمدت جميعها نص هذه المخطوطات عينه، الذي تعتمده اليوم جميع الكنائس.

خاتمة بعدة نقاط:

نقطة أولى: هذه الدراسة، على اقتضابها، تبرز بوضوح تام أن الرسل والتلاميذ الأُول عرفوا يسوع، بشرياً ولاهوتياً، معرفة شخصية، وقد مهروا شهادتهم بدمائهم. فيسوع ليس وليد خيال، إنما هو حقيقة تاريخية، لا يمكن أن ينالها أيّ شكّ أو تشكيك.

نقطة ثانية: إن التشابه المذهل بين ما جاء في رسائل بولس حول سيرة يسوع وتعاليمه، وفي الأناجيل الأربعة، لم يؤثر بأي حال على صيغة الأناجيل، علماً بأن بولس كتب قبل الإنجيليين بسنوات كثيرة، وكانت رسائله متداولة ومنتشرة يوم كتب الرسل أناجيلهم... وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على الأمانة المطلقة التي تقيّد بها مؤلّفو الأناجيل من جهة، وعلى وحدة الإيمان والشهادة التي وقف بولس وسائر الرسل والتلاميذ، حياتهم لها.

نقطة ثالثة: كل ذلك يبرز الترابط الحيوي المستمر منذ ألفي عام، بين يسوع الحي في ذاته، ويسوع الحي في بشارة الرسل والتلاميذ، ويسوع الحي في كنيسته اليوم. وإن كان ذلك يعني شيئاً، فإنما هو يعني أن يسوع ليس "كتاباً" - مهما كان الإنجيل عظيماً - بل هو، كما هو دائماً، "كلمة الله" وقد تجسّد ليتيح للإنسان أن يعرف حقيقة الله، فيتسنّى له عندها أن يعرف حقيقة الإنسان في نور الله، وبالتالي حقيقة الوجود كلّه.

ذلك هو معنى التجسّد وغايته.

ثانياً: حياة يسوع من الطفولة إلى عتبة الحياة العلنية

قبل أن نغوص في تفاصيل الإنجيل بشأن هذه المرحلة من حياة يسوع، لا بد من إلقاء نظرة على الوثائق التي بحوزتنا. وهي كثيرة ومتنوعة.

(+) رسائل القديس بولس وأعمال الرسل.

إن رسائل القديس بولس هي أقدم الكتابات المسيحية، ومثلها الخطب التي ألقاها الرسل في أيام الكنيسة الأولى، كما وردت في سفر الأعمال. وهي تكشف بجلاء أنّ الغاية الأولى من البشارة المسيحية كانت الإعلان عن يسوع بوصفه المسيحَ الذي تنبّأت به أسفار العهد القديم، والداعيةَ لملكوت اللّه، وفادي البشر، والديّان المطلق للأحياء والأموات. وكان المبشّرون الأوائل يركّزون في سبيل ذلك، على أبرز أحداث حياة يسوع العامة، وموته وقيامته. وكان منشؤه البشري كثيراً ما يُترك في الظل.

إلا أنهم كانوا، إلى ذلك، يؤكّدون على صلته الوثيقة ببلدة الناصرة في الجليل، بحيث كانوا يدعونه عادة "يسوع الناصري"، كما ورد مراراً في سفر أعمال الرسل (22/2 و6/3 و10/4 و14/6 و38/10 و8/22 و9/26). وكان يُطلق على أتباعه تسمية "شيعة النصارى" (أعمال 5/24). وقد أُعلن بكل ثقة، كما جاء في بعض رسائل القديس بولس، أنه "من نسل داود" بحسب الجسد (روما 3/1 و2تيمو 8/2). أمّا أمّه، فقد سُمّيت في سفر الأعمال باسمها على أنها "مريم أمّ يسوع"، إذ ذُكر أنها كانت مع التلاميذ بصحبة بعض النساء، وقد اجتمعوا للصلاة في العلّيّة (14/1).

وكان طبيعياً أن تهتم الكنيسة الأولى، شيئاً فشيئاً، بالمرحلة من حياة يسوع التي سبقت ظهوره بين الناس. وتناقل الناس بعض المعلومات، ولم يطل الأمر بها حتى دُوِّنت على نحو مقتضب في كتابات عُرفت بالأناجيل.

(+) **الإنجيل بحسب القديس مرقس.**

افتتح القديس مرقس إنجيله بحياة يسوع العامة، منطلقاً من عماده. ولم يأتِ على ذكر ما سبق، لا من قريب ولا من بعيد.

إلا أنه يقدّم بعض المعلومات الهامة خلال سرده للأحداث، حول منشأ يسوع. من ذلك أنه خلال حديثه عن مرور يسوع بالناصرة، يضع على لسان مواطنيه هذه الملاحظة المعبّرة: "من أين له هذا؟ وما هذه الحكمة التي أوتيها، وهذه المعجزات التي تجري على يديه؟ أما هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أوَليست أخواته عندنا ههنا؟" (3-2/6).

عُرف إذن يسوع بأنه نجّار. وتُعرَف له عائلة وأقرباء. وقد ذكر مرقس حول يسوع "أمّه وإخوته" (31/3). والغريب في الأمر أن يُذكَر يسوع على أنه "ابن مريم"، علماً بأنّ العادة عند اليهود كانت تفرض تسمية الابن بالنسبة إلى أبيه... فكيف يفسّر ذلك حتى لو كان أبوه يوسف قد فارق الحياة؟ والأرجح أنّ هذه التسمية قد تعود إلى الإنجيلي أكثر منها إلى معاصري يسوع، لغاية واضحة وهي إبراز العلاقة الخاصة جداً والمتميّزة والفريدة، التي تقوم بين يسوع وأمّه مريم.

ثمّة شخصيات أخرى تدور في فلك أسرة يسوع، ويتحدّث عنها القديس مرقس، وقد سمّاهم "إخوة وأخوات يسوع". وقد أثارت هذه التسمية بعض اللَبس، لا سيما منذ الحركة الإصلاحية المعروفة بالبروتستانتيّة، ولكن ليس لدى أحد أهمّ روّادها، وهو لوتر. إلا أنّ الشرق، القديم والحديث، يعرف استخداماً لهاتين الكلمتين بعيداً عن معناهما الحصري. فهما تعنيان كلّ قريبين، أية كانت درجة القربى. وإن التدقيق في معناهما، كما ورد في العهد القديم وفي الإنجيل تحديداً (متى 56/27 ولوقا 10/24، ويوحنا 25/19)، ليكشف في الواقع أنّ المقصود بهما في الإنجيل، إنما هم أنسباء يسوع. ويسعنا استنتاج ذلك من إنجيل مرقس وحده، فهو يذكر

مراراً اسمين منهم، ويذكر اسم أمّهما، فإذا بها غير مريم أمّ يسوع بكل تأكيد (مرقس 40/15 و47/15 و1/16).

(+) **الإنجيل بحسب القديس يوحنا.**

لم يُشر إنجيل القديس يوحنا إلى طفولة يسوع. إلا أنه يحتوي معلومات حول منشأ يسوع، بالغة الأهمية. فهو يقدّمه لنا على أنه "ابن يوسف من الناصرة" (45/1). ويذكر أمّه دون تسميتها، مرّات كثيرة (2/3-5 و12، و25/19)، كما وأنه يذكر "أخت - أو نسيبة - أمّه"، وهي "مريم زوجة كلاوبا" (25/19)، ويذكر أيضاً أولئك الذين يسمّيهم "إخوته" (12/2، و3/7، 5، 10).

يذكر أن يسوع من ناصرة الجليل (45/1 و5/18،7 و19/19). ولكن يوحنا الإنجيلي يوحي بأن قُرّاءه على علم بحقيقة أخرى، بالغة الأهمية. وإنه ليجدر بنا أن نروي المناسبة التي أتاحت له ذكرها. حدث ذلك في آخر يوم من أيام عيد المظال. فقد سمعه بعض الناس، فقالوا: "هذا هو النبي حقاً". وقال غيرهم: "هذا هو المسيح". وقال آخرون: "أمن الجليل يأتي المسيح؟. ألم يقل الكتاب إنّ المسيح يأتي من نسل داود، ومن قرية بيت لحم؟" (40/7-43).

واضح أن يوحنا ينقل بدقة الصعوبة التي واجهها معاصرو يسوع، إذ كانوا يظنّون أنه ولد في الناصرة. فقد كان يوحنا يعرف أن يسوع وُلد في بيتَ لحم ومن نسل داود، كما تنبّأ بذلك الأنبياء. وإن جهلَ اليهود لمنشأ يسوع الحقيقي، لا يلغي تلك الحقيقة. إلاّ أنّ يوحنا لا يقصد دحض هذا الجهل... ومن الواضح أيضاً أن ذلك لا يقلقه. وفي موقفه دلالة قوية على أنّ هذا الاعتراض لم يكن ليثير أي قلق لدى المؤمنين بيسوع، وهذا دليل على أنّ مولد يسوع في بيت لحم، كان أمراً مفروغاً منه بالنسبة إلى المسيحيين، إبان كتابة هذا الإنجيل أي في أواخر القرن الأول.

ثمـة حقيقـة أخـرى يفترضـها القـدّيس يوحنـا مـن المسـلّمات الـتي لا تُناقَش: وهي عقيدة بتولية العذراء على كونها أم يسوع. فهو يؤكد أن يسوع الناصري هـو كلمـة الله بعينـه، وقـد أصبـح إنسـاناً (14/1). وهـذا يعـني أن الكلمـة لم يتّخـذ لـه جسـداً سـبق أن وُلـد ولادةً طبيعيـة، بحيـث يحـلّ فيـه. فالطبيعة الإنسانية التي اتخـذها كلمـة الله إبـان تجسّـده، تشكلت في بطـن مريم منـذ اللحظـة الـتي "أصبـح فيهـا إنسـاناً". وإنّ ذلـك ليفترض مداخلـة إلهيّة فورية، دون اللجـوء إلى رجـل تلـد منـه العـذراءُ الكلمـةَ المتجسّد. مـن هنـا الـتلازم المفـروض بـين تجسّـد الكلمـة والحبـل بـه بقـوة الله في نقـاء مطلـق. وواضـح أيضـاً أنّ يوحنـا لم يُشـر إلى ذلـك بصـورة مكشـوفة، إذ يفترض الإيمان بذلك لدى المؤمنين، من المسلّمات العقائدية.

(+) <u>الإنجيل بحسب متى ولوقا.</u>

ينفـرد كـل مـن هـذين الإنجـيلين بـذكر لمحـات مـن طفولـة يسـوع. وهمـا يتفقان في الأساس، إلا أنهما يتباعدان قليلاً في بعض النقاط. من ذلك أن لوقا يروي تقديم يسوع إلى الهيكل، بعد ولادته بأربعين يوماً، ثـم يعـود بـه إلى الناصـرة، دون أن يـأتي علـى ذكـر مذبحـة الأطفـال والهـرب إلى مصـر، اللذين أعقبا، بحسب القديس متى، زيارة المجوس. ومن ناحية أخـرى، فـإنّ القديس متى يوحي بأنّ والدَي يسوع مصمّمان، بعـد عودتهمـا مـن مصـر، على العودة به إلى اليهودية، كما لو كانت إقامتهما فيهـا، ويظهـر ذهابهمـا إلى الناصـرة بسـبب خوفهمـا مـن "أركـيلاوس" ابـن هـيرودس وخليفتـه، وبقصد تحقيق إحدى النبوءات.

هذه الاختلافات واقعة، ولكنـها إن دلّـت علـى شـيء، فهـي تـدلّ علـى أن كلاً من متى ولوقا كتب بمعزل عن الآخر. وفي ذلك ما فيـه مـن الموضـوعية والنزاهة، بل والتكامل في شهادتهما. وتلك ضمانة لصحّتها.

فلنـدخل في شـيء مـن التفصـيل في كـلّ مـن هـذين الإنجـيلين بشـأن طفولة يسوع.

(++) **الإنجيل بحسب متى.**

أثبت النقد الأدبي أن الفصلين اللذين يتحدّث فيهما متّى عن طفولة يسوع، يؤلّفان مع الفصول الستّة والعشرين الأخرى، وحدةً متماسكة.

من الثابت أيضاً أن المؤلّف يخصّ بكتابه المسيحيين الذين وفدوا من الدين اليهودي. والدلائل على ذلك كثيرة، أبرزها حرصه الدائم على إبراز الحقيقة الكبرى بأنّ حياة يسوع كلها جاءت تطبيقاً كاملاً للنبوءات القديمة. وما كان ليُبدي مثل هذا الحرص، لو لم يكن قرّاؤه من المطّلعين على الكتاب المقدس، ومن المهتمين خصوصاً بالنبوءات المتعلقة بالمسيح المنتظر. وإلا فما الذي يفسّر حرصه على ذكر نسب يسوع في مطلع الإنجيل (1/1-17)، على أنه من نسل داود وإبراهيم؟ وكذلك النقاش الذي أثير إبان مجيء المجوس حول المكان الذي يولد فيه المسيح؟.

ومن الواضح أيضاً أنّ متى نفسَه ينتمي بكل كيانه إلى البيئة اليهودية. فهو يعرف جيّداً الكتاب المقدّس، ويتآلف إلى حدّ بعيد مع العادات اليهودية... وهو يتقن اللغة العبرية واللغة الآرامية المحكية آنذاك في فلسطين. حسبنا مثَلان على ذلك: حديثه عن "عمانوئيل" (23/1 - راجع أشعيا 14/7) إذ يفسرها بقوله "اللّه معنا"، وكذلك شرحه لاسم "يسوع" الذي يعني "المخلّص"، إذ يقول في ذلك "لأنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم" (21/1).

كل ذلك يؤكّد أنّ التقليد المنقول بشأن منشأ يسوع، كما رواه متى، لقرّائه من يهود متنصّرين، هو تقليد راسخ في الكنيسة الأولى في فلسطين.

(++) **الإنجيل بحسب لوقا.**

يبدو الإنجيل بحسب لوقا للوهلة الأولى مغايراً بعض الشيء. فهو يتّسم بطابع عام هو طابع هيليني مسيحي، يوحي بأنّ واضعه من اليونان المتنصّرين. إلاّ أنّ الدراسة الدقيقة للفصلين اللذين خصّ بهما طفولة يسوع،

توحي أوّلاً بأنهما يؤلّفان مع كتابه كلّه وحدةً متكاملة، كما وأنها توحي ثانياً بأنّ هذين الفصلين يضمّان معلومات تؤلّف تقليداً راسخاً في الكنيسة الأولى، أي كنيسة فلسطين بالذات.

ثمّة أمور كثيرة توحي بذلك. فهناك الأسلوب بصيغته العبرية، ليس في الأناشيد (زكريا والعذراء...) ذات الطابع الكتابي الصرف وحسب، بل أيضاً في طريقة السرد نفسها. فهو يتحدّث عن أمور عبرية وفلسطينية صرف: التمسّك بالشريعة وتطبيقاتها... والهيكل هو محور الحياة كلها... والطقوس الدينية ودور الكهنة فيها... والتقادم الخاصة ببعض المناسبات... وتوقّع المسيح الآتي... واللغة المستخدمة في الحديث عن المسيح المنتظر، أقرب إلى لغة معاصري يسوع منها إلى لغة المسيحيين الأوائل...

واضح إذن أنّ التقليد الذي نقله لوقا يمتّ بصلة وثيقة إلى بيئة يسوع الأولى، وقد استقى بعض معلوماتها من مصدرها الأساسي: مريم أمّ يسوع...

واضح أيضاً أنّ المعلومات المنقولة ملاصقة بصورة كاملة للبيئة التي نشأ فيها يسوع. ولذلك كان الحديث عن تضخيم أسطوري لشخصية يسوع، كما ادّعى بعض أنصار "العقلانية" من الباحثين، ضرباً من ضروب الخروج على العقل ليس إلاّ...

2) تاريخية الحبل البتولي بيسوع.

الحديث عن هذه المسألة ضروري لدحض ادعاء بعض العقلانيين حول "تضخيم مزعوم" لشخصية يسوع، خرج به من نطاق التاريخ، وأدخله نطاق الأسطورة...

(+) الحبل البتولي في الإنجيل بحسب متى.

إن قضية الحبل بيسوع في "عذراء بتول"، تحتلّ جوهر التقليد المسيحي. ولا يصعب على المرء اكتشاف حضورها في إنجيل متى كلّه. فإن نسب يسوع في مطلعه، ينتهي إلى القول الآتي، وهو ذو دلالة كبيرة:

"يعقوب وَلَدَ يوسف، خطيبَ مريم، التي وُلد منها يسوع المسمّى المسيح" (**16/1**).

ثمّ هناك شكّ يوسف الذي رواه متى بكل وضوح (18/1-19) بشأن بتولية مريم وأمانتها. ويأتي قول الملاك المطمئن له، إذ يؤكد له أنها "حبلى من الروح القدس" (20/1-21). ويدعم متى كلّ ذلك بربطه الحدث بنبوءة أشعيا، الذي تحدّث عن ولادة العمانوئيل من عذراء (22/1-23). وما جاء في الفصل الثاني من أحداث، يبرز بصورة غير مألوفة في الآداب الشرقية، دور الأم، تاركاً ليوسف ما يبدو أنه دور "الوصيّ" ليس إلاّ... (11/2 و13 و14 و20 و21).

(+) **<u>الحبل البتولي في الإنجيل بحسب لوقا.</u>**

الفكرة ذاتها تواجهنا في هذا الإنجيل. فقد جاء ذكر الحبل البتولي واضحاً (34/1-35) لا لَبس فيه.

« فقالت مريمُ للملاك: "أنىّ يكون هذا، وأنا لا أعرف رجلاً؟" فأجابها الملاك: "إنّ الروحَ القدسَ يحلُّ بكِ، وقدرةَ العليّ تظلّلُك، لذلك يكون المولود قدّوساً، وابنَ العليّ يُدعى ».

والحبل البتولي إيّاه يلوح من خلال الآيتين التاليتين 36-37:

« وإنّ نسيبتَكِ اليصابات قد حَبِلت هي أيضاً بابنٍ في شيخوختِها، وهذا هو الشهرُ السادسُ لتلك التي كانت تُدعى عاقراً. فما من شيءٍ يُعجِزُ الله ».

وليس في كلام الملاك سوى التأكيد المطلق على أنّ ما يقوله سيكون من عمل الله وحدَه. وإلاّ فما الذي يفسّر كلام مريم أيضاً، إن كانت ستلد إنساناً بطريقة طبيعية، لا سيما وأنها مخطوبة لرجل اسمه يوسف؟ ويأتي كلام الملاك في حديثه عن اليصابات "العاقر"، ليؤكّد على نحو مطلق بأنّ حبَلَها هي بيسوع، سيكون بفعل الله الذي لا يُعجزه شيء...

ولنا في جواب مريم في الآية 38، دلالة أكثر من واضحة على "معجزة" الحبل بيسوع، إذ قالت: "ها أنا أمةُ الرب. فليكن لي بحسبِ قولِك"... فلو كان المولود منها سيأتيها بطريقة طبيعية، ما الذي يبرّر جوابها للملاك؟

ويبرز لوقا المكانة الخاصة لمريم في كلا الفصلين: في البشارة، وفي زيارتها لنسيبتها اليصابات (29/1 و42-43)، وفي عودتها "إلى بيتها" (56/1)، وفي زيارة الرعاة (19/2)، وفي تقدمة يسوع للهيكل (35/2)، وفي العثور عليه في الهيكل (48/2)، ففي جميع هذه الأحداث تظهر مريم في المقدمة، بينما يحتل يوسف مكاناً ثانوياً.

ثمّة اعتبار أخير له أهميته: من الواضح أن هناك علاقة وثيقة بين رواية حبَل اليصابات بيوحنا، ورواية حبَل العذراء بيسوع. فحبَل اليصابات معجزة، ولكن بطريقة طبيعية، وهو معجزة نظراً لتقدّم اليصابات بالسن. وهو يمهّد لمعجزة أكبر، وهي حبَل العذراء بيسوع بفعل الروح القدس. وهذا يفسر أيضاً كلمة اليصابات للعذراء: "من أين لي أن تأتي أمّ ربّي إليّ؟".

إذن من الواضح أن فكرة الحبَل الإلهي بيسوع، فكرة عميقة الجذور في الكنيسة الأولى وفي فلسطين بالذات. وقد سلّم بها المؤمنون واللاهوتيّون على السواء. وتلك حقيقة بالغة الأهمية بالنسبة إلى المؤرّخ، أي مؤرّخ. وهي تتعارض كلّيّاً مع ادّعاء "العقلانيّين" بالتضخيم الأسطوري لشخصية يسوع، منذ مولده حتى مماته. فلنستعرض هذا الادّعاء.

(+) هل الحبل البتولي تضخيم أسطوري؟

يدّعي الفكر العقلاني أو أصحاب النزعة العقلانيّة أنّ فكرة الحبَل البتولي ليست بجديدة. صحيح أنهم لا يزعمون أنها جاءت نتيجة تخطيط مدروس وصياغة فكرية تبلورت مع الزمن. إلاّ أنهم يؤكّدون أنّ اعتبار يسوع مسيحاً وابنَ الله، وضّع تربة خصبة أنبتت أسطورة الولادة البتولية من الله...

إنّ مثل هذا الادعاء يفترض عقولاً أو أقلّه عقليّات قابلة لمثل هذا التوضّع والتضخيم. والحال أن العقلية اليهودية أبعد ما تكون عن مثل هذا الأمر... من ناحية أخرى، لم تكن البيئة الوثنية نفسها لتقبل بمثل هذا الأمر، إذ إنها كانت على العكس من ذلك تنسب لعظمائها منشأً يفوق البشر، وقد فعلت ذلك مثلاً بالنسبة إلى أباطرتها وبعض فلاسفتها مثل أفلاطون وبيثاغورس.

من ناحية أخرى، لم يكن مثل هذا العمل "التضخيمي" ممكناً في حال يسوع، لا من حيث المدة التي نشأت فيها هذه "الأسطورة"، ولا من حيث حياته المتواضعة التي انتهت بمأساة الصليب، والتي لم يكن فيها أي مادة قابلة لمثل هذا "التضخيم" السريع. فقد كان لا بدّ من مرور زمان طويل على مأساة صلبه، حتى يبدأ الناس بتصوّره على غير ما كان وما فعل، ليُسقطوا عليه صفات "تضخّمه" لتبدعَ منه كائناً آخر.

(+) مزاعم العقلانيين وتعارضها مع الوقائع.

(++) إن فكرة الحَبَل البتولي لم تظهر بصورة متأخرة، بل واكبت نشوء المسيحية، حتى إنها كانت من المسلّمات العقائدية منذ أواخر القرن الأول، وفي البيئة الفلسطينية اليهودية بالذات، على الرغم من رفض اليهود المطلق لمثل هذه الفكرة. ولنذكّر أن مجرد ادعاء يسوع لألوهية ما، جلب له الموت على الصليب. فليس من ثمّ أي مكان لفكرة الارتقاء بإنسان ما إلى مرتبة الإله، ولا لفكرة تدخّل إلهي مباشر في ولادة بشرية.

(++) لا تجوز المقارنة بين رواية الحبل البتولي بيسوع، والروايات التي يُزعَم أنها تماثلها، في الأساطير الوثنيّة القديمة. ففي هذه غموض وغرابة، وأحياناً إباحيّة وقذارة. أمّا في الإنجيل، فمنتهى البساطة والاقتضاب والنبل. وليس لأي عقلاني أن يقول عكس ذلك، إلا إذا كان متعامياً بالكلية. والمشهور عن المؤرخ والمفكر العقلاني الفرنسي "رينان"، أنه لم يتورّع عن الانتهاء من هذه المقارنة، إلى القول بأن كاتب الإنجيل الثالث، أي لوقا، "فنّان إلهي"، وأن ما يصادفنا في روايته "فنّ إلهي". وقد كتب العبارة الأولى في "سيرة يسوع" عام 1867، والعبارة الثانية في كتابه "الأناجيل" عام 1877.

(++) والمقارنة بين "شخصية يسوع" وأبطال الأساطير الوثنية، الذين نُسِبت إليهم ولادة بتولية، تبرز تفوّق يسوع عليهم على نحو بالغ العظمة. فيسوع يدّعي لنفسه صفات بشرية وإلهية، تضعه في مرتبة متفرّدة إلى

أعلى حدّ. كما أنه برهن على صحة ادعاءاته بقدرات فائقة، مادية وروحيّة، تواصلت حتى بعد غيابه عن الزمن، من خلال أتباعه الرسل الأوّلين، وبعض القدّيسين عبر التاريخ منذ ألفي عام وحتى اليوم... ناهيك عما له من تأثير فريد على البشر، حتى بين الذين لا يدينون به... ومن الواضح أن القول ببتولية ولادة يسوع يأتي في حتمية منطق ظهور هذه الشخصية، أكثر من القول بولادته ولادة طبيعية...

بذلك نجدنا أمام لوحة تدعونا تفاصيلها كلها، كما يدعونا مجموعها، إلى الإقرار بتاريخية التقليد الكنسي الأول، حول ولادة يسوع البتولية، بوصف هذا التقليد حجر الزاوية في الإنجيلين الأول والثالث. وإن تاريخية هذه الواقعة الرئيسية لتشكّل ضمانة على صحة الأحداث التي رافقتها وأحاطت بها...

(+) تاريخية الأحداث المروية بصورة عامة.

من أهم أسس هذه التاريخية، صفة "الإنجيليّين"، أي الذين يُنسب إليهم وضع الأناجيل.

(++) يرى أصحاب المدرسة المستقلّة في النقد التاريخي أن مؤلّف الإنجيل الأوّل هو يهودي متنصّر من الجيل الثاني، ويعتقدون أنه دمج بين إنجيل مرقس وبعضٍ من خطب يسوع التي تعود إلى الرسل أنفسهم، وقد تكون هذه الخطب من وضع القدّيس متى. وفي مثل هذه الفرضية أيضاً، يصحّ الاعتقاد بأنّ المؤلّف، وقد استخدم مثل هذه الوثيقة الرئيسية، أي مختارات من خطب يسوع يعود وضعها لأحد الرسل الأولين، قد استقى من منبع أصيل، التقاليد التي يرويها في مطلع إنجيله.

مثل هذه النتيجة تتعزّز إلى حدّ بعيد، إذا ما سلّمنا، كما جاء في التقليد الكنسي، بأن هذا الإنجيلي إنما هو في الحقيقة الرسول متى نفسه.

(++) أما واضع الإنجيل الثالث، فإنه يفتتح كتابه بمطلع يخبر به تلميذه "حبيب الله"، أنه يرمي منه إلى إظهار "صحّة ما تلقّى من التعليم" (4/1). وهذا يعني بكل وضوح أن "حبيب الله" على علم سابق بالأحداث المعنية... ويقول المؤلف أيضاً، من ناحية أخرى، إنه "حرص على تتبّع كل شيء من أصوله" (2/1). فهو حريص على صحّة بحثه، وعلى نقله بكل أمانة... فهل وُفّق في هذا النقل أو التبليغ؟ كلّ شيء في كتابه، إذا ما قورن بالأناجيل الأخرى، يؤكّد بأنه وُفّق إلى أبعد الحدود، أيّاً كان الرأي حول شخصية المؤلف. ذلك أنّ النقاد يُجمعون على هذا: وهو أنه استخدم مجموعة من الخطب شبيهة جداً بتلك التي استخدمها واضع الإنجيل الأول، تعود إلى الجيل الأول من الرسل. فقد تسنّى له أن يستند إلى مراجع قديمة جدّاً، وذات قيمة بالغة بشأن أصول يسوع ومنشئه. وهذا الذي أدرجه هو في الفصول الأولى من إنجيله، يطابق تمام المطابقة مضمون التقليد، ويشير بوضوح إلى أنه، هو المتنصّر القادم من آسيا الصغرى ومن الثقافة الهيلينية، قد استقى معلوماته من مصادر كنيسة فلسطين، ذات الأصل اليهودي عينه.

ولكن كل شيء يؤكّد أن هذا الإنجيلي ليس بمجهول. فالمقارنة الدقيقة بين إنجيله وسفر أعمال الرسل، يؤكد ما جاء في التقليد الكنسي الشفهي والمكتوب، وهو أنه هو هو تلميذ القديس بولس ورفيق أسفاره، الطبيب الأنطاكي لوقا. ولقد كان شديد التماس برسل يسوع الأوّلين، وعلى اتصال مباشر بالتعليم الذي كان الرسل الأولون قد نشروه في كل الكنائس، وعلى الأخصّ في كنيسة فلسطين والقدس بالذات. فتسنّى له أن يتحقّق من المصادر نفسها، حقيقة الأحداث والتعليم الخاص بيسوع. وما من شك في أنه استقى الكثير منها من المصدر الرئيسي نفسه، مريم العذراء، أم يسوع المسيح.

ثالثاً: نص من الإنجيل المقدس

العظة على الجبل

(متى 5-7)

« فَلمَّا رَأى يسوع الجُمُوعَ، صَعِدَ الجَبلَ وجلسَ، فدَنا إليه تلاميذُه. فشرعَ يعَلّمُهم قَال:

« طُوبى لفقراء الرُّوحِ، فإنَّ لهُم مَلكُوتَ السَّمَوات.

طُوبى للوُدَعاءِ، فإنّهم يَرِثُونَ الأرضَ.

طُوبى للمحزونين، فإنّهم يُعَزَّون.

طُوبى للجِياعِ والعِطاشِ إلى البِرِّ، فإنّهم يُشْبَعُون.

طُوبى للرُّحَماءِ، فإنّهم يُرحَمون.

طُوبى لأطهارِ القلوب، فإنَّهم يُعَاينونَ الله.

طُوبى للساعين إلى السَّلامِ، فإنَّهم أبناءَ الله يُدْعَون.

طُوبى للمضطهدين على البِرِّ، فإنَّ لهُم مَلكُوتَ السَّموات.

طُوبى لكم، إذا شتَموكم واضطهدوكم وافترَوا عليكم كلَّ كذبٍ من أجلي، اِفرحُوا وابتهجوا: إنَّ أجرَكم في السَّموَاتِ عظيمٌ، فهكـــذا اضطهدوا الأنبياءَ من قَبْلِكم.

"أنتُم مِلحُ الأرضِ، فإذا فَسَدَ المِلحُ، فأيُّ شيءٍ يملِّحُه؟ إنّه لا يَصلُحُ بعدَ ذلك إلاَّ لأن يُطْرَحَ خارجَ الدار فيدوسَه النّاسُ.

"أنتُم نورُ العالَمِ. لا تخفَى مَدِينةٌ على جَبل، ولا يُوقَدُ سِراجٌ ويوضع تحـــتَ المِكيالِ، بل على المَنارَةِ، فيُضيءُ لجميعِ الذينَ في البَيتِ. هكذا فَلْيُضِئْ نـــورُكُم للنّاسِ، لِيرَوا أعمالَكُم الصالحة، فيمَجِّدوا أباكم الذي في السَّموات.

"لا تظنُّوا أنِّي جئتُ لأُبطلَ الشريعة أو الأنبياءَ: ما جئتُ لأُبطل، بل لأُكمِل. الحقَّ أقولُ لكُم: لن يزُولَ حَرفٌ أو نُقطةٌ منَ الشريعة حتَّى يتمَّ كُلُّ شيءٍ، أو تزولَ السماءُ والأرض. فمَن خالفَ وصيّةً من أصغر تلك الوصَايا وعَلّمَ النّاسَ أن يفعلوا مثلَه، عُدَّ الصغيرَ في ملكُوت السَّماوات. وأمَّا الذي يعمل بها ويعلِّمها، فذاك يُعدُّ كبيراً في مَلكوتِ السَّماواتِ.

فإنّي أقولُ لكم: إنْ لم يَزِدْ بِرُّكم على الكتَبَةِ والفَرِّيسيِّين، لا تدخلوا ملكوتَ السَّمواتِ.

سمِعتُم أنه قِيلَ للأوّلين: "لا تقتُلْ، فإنّ من يقتلُ يستوجبُ حكمَ القضاء". أمَّا أنا فأقولُ لكُم: مَنْ غضِبَ على أخيهِ استَوجبَ حُكمَ القضاء، ومَن قالَ لأخيهِ: "يا أحمق" اسْتَوجبَ حكمَ المجلس، ومَن قالَ له: "يا جاهل"، اسْتَوجبَ نار جَهَنَّم. فإذا كنتَ تقرِّب قُربانَكَ إلى المذبَحِ وذَكرتَ أنَّ لأخِيكَ عليكَ شَيئاً، فدَعْ قُربانَكَ هناكَ عند المذبَحِ، واذهَبْ أوَّلاً فصالح أخاك، ثمَّ عُد فقرِّب قُربانَكَ. سارع إلى إرضاء خَصمِكَ ما دُمتَ معه في الطَّريقِ، لئلاّ يُسلِمَكَ الخَصمُ إلى القاضي، والقاضي إلى الشُّرَطِيِّ، فَتُلْقى في السِّجنِ. الحقَّ أقولُ لكَ: لن تخرُجَ مِن هناكَ حتَّى تؤدّي آخرَ فَلْس.

"سمِعتُم أنّه قِيلَ: "لا تَزْنِ". أمّا أنا فأقولُ لكم: إنَّ كلَّ مَن نظرَ إلى امرأةٍ بشهوة، زَنى بها في قَلبِهِ. فَإذا كانتْ عَينُكَ اليُمنَى سببَ عثْرَةٍ لك، فاقلعْها وألْقِها عنكَ، فلأَن يَهلِكَ عضوٌ من أعضائِكَ خيرٌ لك من أن يُلقى جَسدُكَ كُلُّه إلى جَهنَّمَ. وإذا كانتْ يدُكَ اليُمنى سببَ عثْرةٍ لكَ، فاقْطعْها وألْقِهَا عنكَ، فلأَن يَهلِكَ عضوٌ من أعضائِكَ خيرٌ لكَ من أن يذهبَ جَسدُكَ كُلُّه في جهَنَّم.

"وقد قِيلَ: "مَن طَلّقَ امرأتَه، فَلْيُعْطِها كتابَ طلاق". أمَّا أنا فأقولُ لكُم: مَن طَلّقَ امرأتَه إلاَّ في حالة الفحشاء عرّضها للزِّنى، ومَن يَتزوّجُ مُطلّقةً فقد زنى.

"سَمِعتُم أيضاً أنّه قِيلَ للأوّلين: "لا تحنَثْ، بل أَوْفِ لِلرَّبِّ بأيمانك"، أمَّا أنــا فأقولُ لكُم: لا تحلِفوا أبداً، لا بالسَّماءِ فهي عرشُ الله، ولا بالأرضِ فهي مَوْطِئُ قدَمَيْه، ولا بأُورُشَلِيمَ فهي مدينةُ المَلكِ العظيمِ. ولا تحلِفْ برأسِــكَ، فأنــتَ لا تقْدِرُ أن تَجعلَ شَعرَةً واحدةً منه بَيضاءَ أو سَوداءَ. فليكُنْ كلامُكُم: نَعَم نَعَــم، ولا لا. فما زادَ على ذلِكَ كان مِنَ الشِّرِّير.

"سمِعتُم أنّهُ قِيلَ: "العَينُ بالعَينِ وَالسِّنُّ بالسِّنّ". أمَّا أنا فَأقولُ لكم: لا تُقاوِموا الشِّرّير، بَل مَن لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأيمَنِ، فاعرضْ له الآخَــرَ. ومَــن أرادَ أن يحاكمَكَ ليأخذَ قميصَك، فاترُكْ له رِدَاءَك أيضاً. ومَن سَخَّرَكَ معه مِيلاً واحِداً، فسِرْ مَعه ميلَيْن. مَن سَألَكَ فأَعْطِه، ومَن استقرَضَك فلا تُعرِضْ عنه.

"سمِعتُمْ أنّه قِيلَ: "أحبِبْ قَرِيبَكَ وأبغِضْ عدوَّكَ". أمَّا أَنَا فَأقولُ لكم: أحِبُّــوا أعدَاءَكم. وصلّوا من أجلِ مضطهديكم، لتصــيروا أبنــاءَ أبــيكم الــذي في السَّمواتِ، لأنّه يُشرِقُ شمسَه على الأشرَارِ والأخيار، ويُنــزِلُ المطر على الأبرَارِ والفُجَّار. فإِن أحبَبتُم من يُحِبُّكم، فأيُّ أجرٍ لكم؟ أَوَلَيسَ العَشّــارُونَ يَفعَلــونَ ذلِكَ؟ وَإِن سَلَّمتُم على إخوَانِكم وحدَهم، فَأيَّ فضلٍ فعلتُم؟ أَوَلَيسَ الوثنيّــون يَفعَلونَ ذلك؟ فَكونوا أنتم كَامِلِينَ، كمَا أنَّ أباكم السَّماوي كامِلٌ.

"إيّاكم أن تعملوا بِرَّكم بمرأى من النَّاسِ لِكي يَنظروا إليكم، فلا يكونَ لكم أَجرٌ عِندَ أَبيكم الذي في السَّمواتِ. فإذا تصدَّقتَ فلا يُنفَخْ أمامَك في البُــوقِ، كمَا يَفعَلُ المُرَاؤونَ في المجَامِعِ والشوارع ليعظِّمَ الناسُ شأنَهم. الحقَّ أَقولُ لكــم إنَّهم أخذوا أجرَهم. أمَّا أنتَ، فإذا تصدَّقتَ، فَلا تعلمْ شِمَالُكَ ما تَفعَلُ يمينُكَ، لِتَكونَ صَدَقَتُكَ في الخُفية، وأبوكَ الذي يَرَى في الخُفية هُو يُجازِيك.

"وإذا صلَّيتم، فَلا تكونوا كالمرائين، فإنَّهم يحبّون الصلاة قائمينَ في المجَــامعِ وملتقى الشَّوارعِ، ليراهم الناس. الحقَّ أَقولُ لكم إِنَّهم أخذوا أَجرهم. أمَّا أنتَ،

فإذا صَلَّيتَ، فَادخُلْ حجرتَك وأَغلِقْ عليك بابَها وصَلِّ إلى أَبيــكَ الــذي في الخُفية، وأبوكَ الذي يَرَى في الخُفية يُجازيكَ. وإذا صَلَّيتم فلا تُكرِّروا الكــلامَ عبثاً مثل الوثنيّين، فهم يظنُّونَ أَنَّهم إذا أكثروا الكلامَ يُســتَجَابُ لهــم. فَــلا تَتَشَبَّهوا بِهِم، لأنَّ أباكم يَعلمُ ما تحتَاجونَ إليه قبلَ أن تَسألوه.

فَصَلُّوا أَنتم هذه الصلاة:

أبانَا الذي في السَّمَوَات

لِيَتَقَدَّسْ اسْمُك

لِيَأْتِ مَلَكُوتُك

ليكنْ ما تشاء

في الأرض كما في السماء

أُرزُقنا اليومَ خُبزَ يَومنا

وأَعْفِنا مما علينا

فقد أعفَيْنا نحنُ أيضاً مَن لنا علَيه

ولا تُعرِّضْنا للتجربة

بل نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّير.

فَإِن تغفروا لِلنَّاسِ زلاّتِهِم، يغفرْ لكم أبوكم السَّماوِيُّ زلاّتِكم، وإِن لم تَغفِروا للنَّاسِ زلاّتِهِم، لا يَغفِرْ لكم أبوكم زلاّتِكم.

وإذا صُمتمْ فَلا تعبِّسوا كالمُرَائِينَ، فَإِنَّهم يكلِّحون وُجوهَهم، لِيَظهرَ للنَّــاسِ أَنهم صَائِمونَ. الحقَّ أَقولُ لكم إِنَّهم أخذوا أجرَهم. أمَّا أنتَ، فــإذا صُــمتَ، فَادهُنْ رأسَكَ واغسلْ وَجهَكَ، لِكيلا يَظهرَ للناسِ أنكَ صائمٌ، بَل لأَبيكَ الذي في الخُفية. وأبوكَ الذي يَرى في الخُفية يُجَازِيك.

"لا تَكنِزوا لكم كُنوزاً في الأرضِ، حيثُ يُفسِدُ السُّـــوسُ والعُـــثّ، ويَنقُـــبُ السَّارِقُونَ فيسرِقونَ. بَلِ اكنِزُوا لأنفسكم كُنوزاً في السَّـــماء، حيـــثُ لا يُفســـدُ السُّوس والعثُّ، ولا يَنقُبُ السَّارِقُونَ فيسرِقون. فحيثُ يكونُ كنزُكَ يَكونُ قَلبُكَ.

سِراجُ الجَسَدِ هو العَينُ، فَإن كانتْ عينُك سليمةً، كان جسدُك كُلُّهُ نيِّـــراً. وإنْ كانت عينُك مريضةً، كان جسَدُكَ كُلُّهُ مُظلِماً، فإنْ كانَ النُّورُ الذي فيكَ ظلاماً، فيا له من ظلام!

"ما من أحدٍ يستطيعُ أن يعمَلَ لسيِّدَيْن، لأنَّه إمَّا أن يُبغِضَ أحـــدَهما ويُحِـــبَّ الآخرَ، وإمّا أن يلزَمَ أحدَهما ويزدَري الآخَرَ. لا تستطيعونَ أنْ تعملوا لله وللمال.

لذلِكَ أقولُ لكم: لا يُهمَّكم للعيشِ ما تأكُلونَ ولا للجسدِ مـــا تَلبَســـونَ. أَلَيسَتِ الحيَاةُ أعظمَ مِنَ الطَّعَامِ، والجَسَدُ أعظمَ مِن اللِّباسِ؟ اُنظُروا إلى طُيـــورِ السَّماءِ كيف لا تَزرعُ ولا تحصُدُ ولا تخزُنُ في الأهـــراء، وأبـــوكُم السَّـــماويُّ يَرزُقُها. أفلَستُم أنتم أثمَنَ منهَا كثيراً؟ ومَن منكم، إذا اهتَمَّ، يستطيعُ أن يُضيفَ إلى حياته مقدارَ ذِرَاعٍ وَاحدَة؟

"ولماذا يهمُّكم اللِّبَاس؟ إعتبِروا بزَنابقِ الحقلِ كيفَ تَنمو، فـــلا تجهَـــدُ ولا تَغزِلُ. أقولُ لكم إنَّ سُليمَانَ نفسَه في أبهى مَجدِهِ، لم يَلبَسْ مثلَ واحدَةٍ منـــهَا. فإذا كانَ عُشبُ الحقلِ، وهو يُوجدُ اليومَ ويُطرَحُ غداً في التَّنُّـــورِ، يُلبِسُـــه اللهُ هكذا، فما أحراه بأن يُلبِسَكُم، يا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟

"فلا تَهتَمُّوا فتقولوا: ماذا نأكلُ؟ أو ماذا نشرَبُ؟ أو ماذا نلبسُ؟ فهذا كلُّـــه يسعى إليه الوثنيّون، وأبوكُم السَّماوِيُّ يَعلمُ أنَّكم تحتَـــاجونَ إلى هـــذا كُلِّـــه. فاطلُبوا أَوَّلاً مَلَكوتَ اللهِ وبِرَّه، تُزَادوا هذا كلَّه. لا يُهمّكم أمرُ الغَدِ، فالغَدُ يهتَمُّ بنَفسِهِ. ولكلِّ يومٍ من العناءِ ما يكفيه.

"لا تَدِينوا لئلاّ تُدَانوا، فكما تَدِينونَ تُدانونَ، ويُكالُ لكم بما تَكِيلونَ. لمــاذا تَنظرُ إلى القَذَى الذي في عَينِ أَخِيكَ؟، والخَشَبَةُ التِي في عَينِكَ أفَلا تأبه لَهَا؟ بــل كيفَ تَقولُ لأخِيكَ: "دَعْني أُخرِج القَذَى مِن عَينِكَ"، فهَا هي ذي الخَشَــبَةُ في عَينِكَ؟ أيّها المُرَائي، أَخرِج الخَشَبَةَ مِن عَينِكَ أوَّلاً، وعندئِذٍ تُبصِرُ فتُخرِجُ القَذَى مِن عَينِ أخِيكَ.

"لا تُعطُوا الكِلاب ما هو مقدَّس، ولا تُلقوا لؤلؤَكم إلى الخَنَازيرِ، لِئَلاَّ تَدوسَه بأرجُلِهَا، ثمَّ ترتدَّ إليكم فَتُمَزِّقكم.

"اِسألوا تُعطَوا. اُطلُبوا تجدوا، اِقْرَعوا يُفتَحْ لكم. لأنَّ كلَّ من يَسألُ ينــال، ومَنْ يَطلبُ يَجِدُ، ومَن يَقْرَعُ يُفتَحُ لَه. من منكم إذا سَألَه ابنُه رغيفــاً أعطــاه حَجراً، أو سَألَه سَمَكَةً، أعطاه حيَّةً؟ فإذا كُنتم أنتم الأشرَار تَعرِفونَ أن تُعطــوا العطايا الصالحة لأبنائكم، فما أولى أباكُم الذي في السَّمَواتِ، بأن يُعطي ما هو صالحٌ للذين يَسألونه؟

فَكلُّ مَا أردتم أن يفعلَ الناسُ لكم، اِفعلوه أنتم لهم: هــذه هــي الشــريعةُ وَالأنبِيَاءُ.

أُدخلُوا مِن الباب الضَّيِّقِ، فإنّ البابَ رَحبٌ والطَّرِيقَ المــؤَدِّي إلى الهَــلاكِ واسع، والذين يسلكونه كثيرون. ما أَضيَقَ البَابَ وأحرجَ الطَّرِيقَ المــؤدّي إلى الحيَاةِ، والذينَ يهتدون إليه قَلِيلونَ.

إيّاكم والأنبيَاءِ الكذّابين، فإنّهم يأتونَكم في لباس النّعاج، وهــم في باطنــهم ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ. مِنْ ثمَارِهِم تَعرفونَهم. أيُجنى مِنَ الشَّوكِ عِنَبٌ، أو مِنَ العُلَّيْق تِــين؟ كذلك كلُّ شَجَرَةٍ طيِّبةٍ تُثمِرُ ثماراً طيِّبة، والشَّجَرَةُ الخبيثة تُثمرُ ثماراً خبيثة، فليس للشجَرَة الطيِّبة أن تثمرَ ثماراً خبيثة، ولا للشّجرة الخبيثة أن تُثمرَ ثماراً طيِّبة. وكلُّ شَجرَةٍ لا تُثمرُ ثَمَراً طيِّباً تُقطعُ وتُلقَى في النَّارِ. فمِن ثِمَارِهِم تَعرِفونَهم.

لَيسَ مَن يَقولُ لي "يَا رَبُّ، يَا رَبُّ"، يَدْخلُ مَلَكوتَ السَّمَوَاتِ، بَل من يعملُ بمشيئة أَبي الذي في السَّمَواتِ. فسوف يقولُ لي كثِيرونَ من النـــاسِ في ذلـــكَ اليَومِ: "يا رَبُّ، يا رَبُّ، أما باسمِكَ تَنَبَّأنا؟ وباسمِكَ طردنا الشّيَاطِينَ؟ وباسمِكَ أتَينا بالمعجزات الكثِيرَة؟" "فأقولُ لهم علانيةً: ما عرفتُكم قطّ. إليكم عنّي يـــا أيّهـــا الفاسقون!" فمَثَلُ مَن يسمعُ كلامي هذا فيعملُ به، كمَثَلِ رجلٍ عاقلٍ بنى بَيتَـــهُ على الصَّخرِ. فَنَزلَ المطرُ، وسالت الأوديةُ وعصفتِ الرِّياحُ، فثارت على ذلِكَ البيتِ فلم يَسقُطْ، لأنَّ أساسَه على الصَّخرِ. ومَثَلُ مَن سمع كلامي هذا، فلـــم يَعمَلْ به، كمَثلِ رَجُلٍ جاهِلٍ، بَنَى بَيتَهُ على الرَّملِ. فَنَزلَ المطرُ، وسالتِ الأوديةُ، وعصفتِ الرِّياحُ، فضربت ذلكَ البيتَ فَسقَطَ، وكانَ سُقوطُه شديداً".

ولَمّا أتمّ يَسوعُ هذا الكلام، دَهِشَ الجُموعُ لتَعلِيمِهِ، لأنَّه كانَ يُعَلِّمُهم كَمَنْ له سُلطانٌ، لا مثلَ كَتَبَتِهم. »

المصادر الثانوية

ما الذي نعرفه عن يسوع المسيح، خارج ما جاء عنه في الأناجيل القانونية؟

ثمة وثائق كثيرة. منها ما هو يهودي، ومنها ما هو وثني، ومنها ما هو مسيحي، بل ومسلم. وفيها كلّها إشارات إلى المسيح، لم يرد ذكرها في الأناجيل. فهل يسعنا أن نجد فيها أقلّه بعض الملامح أو التفاصيل، التي تخصّ يسوع في تاريخيّته، لا في ما حيك حوله من أساطير؟

السؤال معقّد وواسع، فلا بدّ من تحديد ميدان الإجابة عليه، كي تأتي واضحةً ومختصرةً في آن. وإنّ أوّل هذه التحديدات هو استبعاد النصوص التي ليس لها من القِدم ما يؤهّلها لتمثيل التقليد الأصيل.

ولكن ما نعني بالقدم؟

يُجمع الباحثون على أنّ النصوص التي تتخطّى مجمع نيقيا (325) ليست جديرة بالبحث. ذلك هو المعيار الثابت، ولن يُستثنى منه إلا النصوص التي لا يزال تاريخ وضعها مدار أخذ وردّ، أو التي قد تكون تنقل تقليداً سابقاً.

لذلك لن نتوقّف البتّة عند ما ينسبه المؤلّفون المسلمون من "أقوال" إلى يسوع، ولا عند معظم الأناجيل المنحولة، ولا عند ما يسمّى بـ"وصية سيدنا يسوع المسيح".

أما النصوص التي ستستوقفنا، فإننا سنعالجها بإيجاز، وسنذكر منها أهم المقاطع، وسنشير إلى نتائج الباحثين كما أجمعوا عليها. إلا أن النصوص التي لا تزال ذات قيمة ما، وتثير جدلاً دائماً، فستنال قسطها من التوضيح.

لعل هذه المحاولة، على إيجازها، تساعدنا في اكتشاف ميدان واسع وهام، لم يتم بعد استكشافه.

أولاً: المصادر اليهودية

يتوقّع أي إنسان أن يجد لدى الكتّاب أو المؤرّخين اليهود، الذين عاصروا يسوع، أو عاصروا القرون المسيحية الأولى، مادةً غزيرةً بشأن يسوع والمسيحيّين.

العكس هو الصحيح.

فالمعروف أنّ الفيلسوف اليهودي الاسكندري، "فيلون" (20؟ ق.م. - 45؟ ب.م.) وضع مؤلّفاتٍ كثيرةً، لم يأتِ في أيّ منها على أي ذكر ليسوع.

ثمّة مؤلّف يهودي هو "يوستوس" من طبريّا، يقول عنه البطريرك "فوتيوس" إنه وضع تاريخاً لليهود يمتدّ من موسى إلى الملك "اغريبا الثاني" (حوالي 100 ب.م.)، لم يذكر فيه مرة واحدة يسوع المسيح.

هذا الصمت مفهوم، على غرابته. بوسعنا أن نشير إلى بعض أسبابه:

أولاً: لم يكن يسوع أوّل يهودي يدّعي أنه المسيح، فبات واحداً من كثيرين، وكلّهم جلبوا الكوارث على اليهود.

ثانياً: التاريخ القديم كان على العموم تاريخ الملوك والقادة، وكل ما سواهم لم يكن جديراً بالذكر. وهذا المفهوم لكتابة التاريخ لم يتلاشَ إلا في القرن الثامن عشر، ومنذ الثورة الفرنسية تحديداً. ويسوع واحد من المشاغبين.

ثالثاً: ثمّة سبب هام جداً، وقد يكون أكثر حسماً من سابقيه: ما جاء به يسوع كان نقضاً حقيقياً لليهودية، فلم يكن من السهل على أي يهودي أن يأتي على ذكره، لا بخير ولا بشرّ، وصمت المؤرّخين هو في الغالب خير وسائل الاغتيال...

إذن ليس أمامنا سوى ما جاء لدى المؤرّخ يوسيفوس، وفي التلمود.

1- فلافيوس يوسيفوس:

عاش من عام 37 ب.م. إلى عام 100.

1. سيرته:

وُلد في القدس من أسرة كهنوتيّة، وظلّ في القدس حتى السادسة عشرة

من عمره. بيئته إذن بيئة دينيّة، وما من شك أنه سمع بيسوع وبالمسيحيّين، وغادر القدس سنوات قليلة، ثم عاد إليها عام 56 حتى عام 63، في الفترة التي يُظنّ أنّ القديس بولس اعتُقل فيها، إثر ثورة شعبيّة حدثت في الهيكل. ونراه في روما عام 64، إبّان اضطهاد نيرون للمسيحيين، وكان كلّ يهودي آنذاك، حريصاً على إظهار ما بين المسيحيين واليهود من اختلاف جوهري. ومن المعروف أنه كان على علاقة وثيقة بتلك المسمّاة "بوبيا"، زوجة نيرون، أو عشيقته، وهي يهودية، التي يُعتقد أنها هي التي أثارت نيرون على المسيحيين. وكان إبان الثورة اليهودية الكبرى (66-70) يقاتل مع أبناء دينه، ثم انضم إلى الصفوف الرومانيّة، وأصبح من كبار القادة الرومانيين ضد أبناء دينه، حتى بات مقرّباً جداً للقائد تيطس. وفي عام 70 عاد إلى روما حيث كان يلتقي كثيراً "اغريبا الثاني" اليهودي، الذي يقول سفر أعمال الرسل (26) إنه كان من قضاة القديس بولس.

من أبرز مؤلّفاته: "الحرب اليهودية"، التي صدرت عام 77-78، و"العاديات اليهودية" التي صدرت عام 93-94. وهما أهمّ ما كُتب عن اليهود في تلك المرحلة.

فماذا تُراه قال عن المسيح أو المسيحيين؟

2. **كتاب "العاديات اليهودية":**

في هذا الكتاب يشير يوسيفوس إلى بعض الشخصيات، التي ورد ذكرها في الأناجيل:

في حديثه عن الملك "هيرودس انتيباس"، الذي تزوّج زوجة أخيه فيلبّس، هيروديا، يتكلّم يوسيفوس على تبشير يوحنا المعمدان وقتله. وهو الذي يذكر اسم ابنة هيروديا، التي رقصت وطلبت منه رأس يوحنا: إنها "صالومة". وليس من النقاد أو المؤرّخين من يشكّك في صحة هذا النص.

في حديثه عن الملك "هيرودس اغريبا الثاني"، يتكلّم يوسيفوس عن استشهاد القديس يعقوب الصغير فيقول:

« "إن رئيس الكهنة حنّان استغل الفرصة الســانحة وعقــد مجمعــاً "مــع السنهدريم (المحفل الأكبر)، وجعله يحاكم أخ يسوع الملقب بالمسيح (وكان اسمه يعقوب) وآخرين، متّهماً إيّاهم باللاشرعية، وحكم عليهم بالموت رجماً. ولم يُطِق هذا الأمر أكثر سكان المدينة نزاهةً واحتراماً للقانون. »

إذن لم يكن يوسيفوس يجهل أسباب مقتل يعقوب، وهو يذكره بوصفه "أخ يسوع الملقب بالمسيح"... فهو إذن على علم ببعض تفاصيل هامة... صحيح أن هذا النص لم يحظَ بإجماع النقاد لأسباب لا داعي لذكرها الآن، إلاّ أن منهم مَن يتمسّك به ويعتبره أساسيّاً في متن النص...

ثمّ إنّ إشارته "العابرة" إلى يسوع، في حديثه عن "يعقوب"، توحي بأن يسوع ليس بغريب البتة عليه... وإنه ليذكره في نص ثالث...

في حديثه عن بيلاطس وحكمه، يتكلّم يوسيفوس على يسوع في نص أثار - وما يزال - جدلاً كثيراً. حسبُنا أن نذكرَه بكامله، مشيرين بخط إلى المقاطع الخلافية، وذاكرين باختصار كبير، أهم نتائج الباحثين:

❖ النص:

« "في تلك الفترة، ظهر يسوع، وهو إنسان حكيم، إن صــحّ أن نســمّيه إنساناً. لأنّه كان يقوم بأعمال مدهشة، ويعلّم الناس الذين يحبّون معرفة الحقيقة. فاجتذب إليه عدداً كبيراً من اليهود، وكذلك عدداً كبيراً من اليونانيين. ولمــا وشى به زعماء أمّتنا إلى بيلاطس، حكم عليه بالموت صلباً. وإنّ الذين أحبّــوه بادئ الأمر، ظلّوا أوفياء له. وظهر لهم مجدّداً، بعد ثلاثة أيام، وهو حيّ، كمــا كان الأنبياء الإلهيّون قد تنبّأوا بذلك، وقد كانوا تنبّأوا أيضــاً بــأمور كــثيرة وخارقة بشأنه. وإلى اليوم ما تزال جماعة المسيحيّين قائمة، وقد سُمِّيت كــذلك نسبةً إليه. »

❖ **قيمة هذا النص:**

من غرائب هذا النص أنه جَمعَ في مواقف متناقضة جداً، مؤرّخين وباحثين يُفترض فيهم ألا يجتمعوا... فبعضهم، مثل "هرناك" البروتستانتي الليبرالي المتطرف، يقول بصحة هذا النص صحةً كاملة... وبعضهم مثل الأسقف الكاثوليكي "باتيفول"، يرفضه جملةً وتفصيلاً... وهناك مَن يأخذ به مع تحفّظات حول إقحامات محتملة أجراها بعض النَّقَلة، بحيث زجّوا في هذا النص التاريخي الصرف، بُعداً إيمانياً لا يتّفق ويهودية يوسيفوس. وليس بمستبعد أن تكون النصوص المقحمة، هي تلك التي أشرت إليها بخط... أو بعضها... وقد يكون هذا هو الرأي الأرجح... ويكون بذلك "الناقل" قد حوّل شهادة يوسيفوس حول المسيح، إلى شهادة لصالح المسيح...

2- التلمود:

1. **مضمونه:**

هي صورة قذرة ليسوع وأمّه، رسمتها أيدٍ حاقدة ليس إلاّ:

« يسوع، واسمه ابن بنديرا، ولدته أمّه ميريام من ضابط روماني اسمه بنديرا، مع أنها متزوجة لرجل يهودي اسمه "بافوس بن يهوذا". كانت أمّه من سلالة ملكيّة، ولكنها شذّت... أما يسوع "الناصري"، فقد أقام في مصر حيث تعلّم السحر، وعاد إلى فلسطين فاجتذب إليه الجموع اليهودية بفضل ألعابه السحرية. وكان يسخر من تعليم حكماء اليهود ويدفع بالشعب إلى الخطيئة. وكان أن ادّعى أخيراً الألوهة، فحُرم وأُوقف وحُوكم في "لدّة"، وقُتل رجماً يوم الجمعة عشية عيد الفصح، ثم شُنق أو صُلب، وهو في الثالثة والثلاثين. وقد أُلقي في جهنّم في قِدرٍ من البراز المغلي... »

2. **قيمته:**

هل من حاجة لمناقشة مثل هذه القذارات التي وصفها "رينان" نفسه بـ"أسطورة مخزية وفاجرة"؟

ثانياً: المصادر الوثنية

1. المؤلّفون اللاتينيّون:

1- "أعمال بيلاطس"

هل من أثر، في المحفوظات الإمبراطورية في روما، لما قد يكون تقريراً أرسله بيلاطس، والي اليهودية، للإمبراطور، حول محاكمة يسوع ومقتله؟

الأمر ليس بمستبعد، ولكن ليس ثمّة أيّ إثبات له.

مع ذلك، فإنّ القديس "يوستينوس النابلسي"، وهو فيلسوف اعتنق المسيحية في منتصف القرن الثاني الميلادي، ووضع دفاعين عن المسيحية، وقد ذكر في الأول منهما "أعمال بيلاطس"، فأسند إليها ثبوت معجزات المسيح وآلامه وموته.

ومثله، كتب مفكّر مسيحي آخر، في أواخر القرن الثاني الميلادي، هو "ترتليانوس"، يشير إلى رسالة كتبها بيلاطس إلى الإمبراطور طيباريوس حول أيام يسوع الأخيرة...

هذا كل ما في الأمر بشأن ما يُزعم حول "أعمال بيلاطس"...

2- بلينوس الصغير:

ما كتبه هذا الكاتب هو أقدم نص لاتيني ثابت حول المسيحية.

كان بلينوس الصغير ممثّل الإمبراطور على مقاطعة بيتينيا. وكان الإمبراطور "ترايانوس" صديقه، فكتب إليه عام 112 تقريراً مفصّلاً بشأن موقفه من المسيحيّين.

تحتوي هذه الرسالة فقرةً تضم ثلاثة أسئلة يوجّهها بلينوس للإمبراطور، ويسأله الإجابة عليها. ثمّ هي تضمّ محضراً مفصّلاً بشأن الإجراءات المتخذة بحق المسيحيين. ومنهم المتصلّبون في إيمانهم، ومنهم الجاحدون الذين كفروا به أو يكفرون به، ومنهم المنكرون، أي الذين لم يعتنقوا يوماً هذه العقيدة.

وهو يصف المسيحيّين بقوله:

« "إنّك لا تجد مدينةً أو بلدةً أو قريةً حقيرةً، لم يدخلها هذا المذهب. ومن عادهم أن يجتمعوا في أيام معينة، قُبيل الفجر، لينشدوا بينهم الأناشيد للمسيح كإلى إله، ويتعّهدون بقسَمٍ ألاّ يسرقوا، ولا يكذبوا، ولا يتعاطوا شيئاً من ضروب الفحشاء... »

لا يهمّنا من كلّ ما كتب بلينوس، على أهميّته، وعلى اقتصارنا على فقرة واحدة منه، لا يهمّنا سوى قوله "ليُنشدوا بينهم أناشيد للمسيح كإلى إله"... تلك هي أقدم شهادة لغير مسيحي حول إيمان المسيحيّين بالمسيح إلهاً. وتلك شهادة لا يُستهان بها.

3- تاكيتوس:

هو أحد أعظم المؤرّخين الرّومان.

كتب في "حوليّاته" حوالي عام 115-117، يصف حريق روما زمان نيرون، قال:

« لكي يزيل الإمبراطور ما شاع (من أمر اتهامه بحريق روما)، افترض مُذنبين، فأنزل أشدّ العذابات بأولئك الذين جلبت لهم فظائعهم الكراهية، والذين كانت العامة تسمّيهم "مسيحيّين". وقد جاءهم هذا الاسم من "المسيح"، الذي كان الوالي بيلاطس البنطي قد سلّمه للموت في زمان طيباريوس. وهذه الشعوذة المقيتة التي كُبحت في حينها، عادت تبرز من جديد، لا في اليهودية، حيث ظهر هذا الشرّ وحسب، بل في روما أيضاً، حيث ينصبّ كل ما هو مقيت ومخزٍ ويجد له أتباعاً. فانبرى الحكام يعاقبون كلّ مَن يجاهر بمسيحيّته، فحكموا على جمّ غفير منهم، لا لأنهم أحرقوا روما، بل لأنهم يبغضون الجنس البشري. » (الحوليات 15/3 و44).

هذا النص ليس مَن يشكّ في صحته.

وهو مرجع تاريخي ذو أهمية قصوى، ليس بالنسبة إلى تواجد المسيحيين في روما واتهامهم المزعوم بإحراق روما في عهد نيرون وحسب، بل أيضاً وخصوصاً بالنسبة إلى تاريخيّة ظهور المسيح في زمان ومكان

محدّدين، والحكم عليه بالموت. والطريف المهمّ في هذه الوثيقة، أنها جاءت عَرَضاً في باب الحديث عن نيرون، وهي في ذاتها لا تشكّل اتّهاماً للمسيحيّين، ولا دفاعاً عنهم...

4- سويتونوس:

هو أيضاً مؤرّخ روماني، وله مؤلّف بعنوان "حياة القياصرة الاثني عشر"، وقد وضعه حوالي عام 120، وهو إذن معاصر للمؤرّخ تاكيتوس.

في حديثه عن الإمبراطور "نيرون" (الفصل 16) يذكر عَرَضاً المسيحيّين ويذكر خصوصاً - وهذا بيت القصيد:

"شعوذهم الجديدة والشريرة".

وفي حديثه عن الإمبراطور "كلوديوس" (الفصل 25/ فقرة 4)، يذكر أنه أمرَ:

« بطرد اليهود من روما، لأنهم أمسَوا بتأثير "خريستوس" (المسيح) "علّة قلق متواصل. »

قد يبدو للبعض أن النص يعني غلياناً ما في الوسط اليهودي الضيّق في روما، بتأثير أحدهم وهو "المسيح"... إلاّ أنّ الأحداث التاريخيّة لا تذكر ظهور "مسيح ما" في روما... ثم إنّ الصيغة التي جاءت فيها العبارة، توحي بأن "المسيح" المذكور ليس نكرة في أوساط روما...

والمهم أيضاً في هذا النص هو إشارته إلى أمرين:

الأول: أنّ اليهودية والمسيحية في عهد الإمبراطور "كلوديوس"، كانتا لا تزالان بالنسبة إلى الكثيرين تبدوان شيئاً واحداً، وهذا واقع يقرّه التاريخ.

الثاني: أنّ أصل "البدعة اليهودية" التي اسمها المسيحية - وقد وصلت إلى روما في عهد مبكّر، هو عهد "كلوديوس" - يعود إلى ذاك المسمّى "المسيح" (خريستوس).

قد يقول بعضهم إن ذلك قليل جداً...

ولكنّ هذا القليل يتوافق مع الحقيقة التاريخية الصرف. ذلك لأنّ

الرومان كانوا ينظرون إلى كل ما هو يهودي بتحسّب، بل أحياناً باحتقار، كما بدا واضحاً في هذه النصوص. فاليهود كانوا يثيرون عليهم أشدّ القلاقل، وأكثرها دمويّة، وبصورة شبه متواصلة. فما كانت أخبارهم لتهمّهم، إلا بقدر ما كانت الإجراءات المتّخذة ضدّهم، في عهد هذا الإمبراطور أو ذاك، تلزمهم بذلك. فمن أين كان لهم أن يهتمّوا بمسيح جديد، أيّاً كان، طالما أن "مُسَحاء" كثيرين ظهروا في فلسطين على نحو متلاحق، وكان ظهورهم سبباً لمتاعب جمّة؟...

حسبنا من كل ذلك إذن هذه الإشارات العابرة، مستَنَداً تاريخيّاً حاسماً وغير مسيحي، وغير هادف البتة، في وجه مَن يُنكرون وجود يسوع التاريخي.

2. الفلاسفة:

كلمة فلاسفة لا تعني بالضرورة أصحاب المدارس الفلسفية، بل هذا أو ذاك من القائلين بهذه أو تلك من الفلسفات، والذين وصلنا بعض مؤلّفاتهم، وفيها لهم ذكر ما للمسيح أو المسيحيين.

وهي تعني أيضاً بعض مَن كان لهم تأثير، ضيّق أو واسع، على الرأي العام حيال المسيحيّين، يتساوى في ذلك مَن تصدّى للمسيحيّة مهاجماً، ومَن ذكرها عَرَضاً.

والثابت لدى الفلاسفة الوثنيّين، أنّ المسيح والمسيحيّين لم يعودوا نكرةً بالنسبة إليهم، وإن كان ما يعرفونه عنهم قليلاً جداً، بل مشوّهاً في الغالب.

1- مارا:

من دعاة الفلسفة الرواقيّة. جاءت له رسالة في نص سرياني قديم جداً، كتبها لابنه "سيرابيون"، حوالي عام 200. يتحدّث فيها عن المسيح دون أن يذكره باسمه. إلاّ أنه قارنه بسقراط وبيثاغوروس، ووصفه بأنه "ملك حكيم"، حكم الشعب اليهودي بضع سنوات، ولكنه حكم عليه شعبُه بالموت. فانتقم الله له "إذ أنزل الخراب بشعبه وشتّته ونفاه في شتى أنحاء الأرض". إنه مزيج من خيال وتاريخ، ولكنه لا يخلو من احترام وإعجاب لمؤسّس المسيحية.

2- لوقيانوس الساميساطي:

خطيب وفيلسوف سفسطائي معروف. أمطر المسيحيّين تهكّماً، وقلّما أشار إلى يسوع. من هذه الإشارات الثابتة، ما كتبه حوالي عام 170 في مؤلّف له بعنوان "موت بيريغرينس". يقول عن المسيحيّين:

« "إنّ أوّل مشرّع لهم أقنعهم بأنهم جميعهم إخوة، بعضهم للبعض الآخر، شريطة أن يتخلّوا عن آلهة اليونان ويكفروا بها، ويعبدوا فيلسوفهم السفسطائي المصلوب، ويعيشوا بحسب شرائعه. (الفصل 11) »

3- قلسيوس:

مؤلَّفه "الخطاب الحقيقي" الذي وضعه حوالي عام 178، ترك تأثيراً قويّاً، بحيث إنّ الكثيرين من المفكرين المسيحيّين الأوائل رأوا لزاماً عليهم أن يردّوا عليه، وكان من أبرزهم "اوريجانيس"، الذي خصّه بمؤلّف كبير أسماه باسمه وهو "ضد قلسيوس"، وله الفضل في وصول ما وَصَلَنا من قلسيوس...

كان على اطلاع نسبي على الأناجيل. فحاول أن يستغل بعض الفوارق في نصوصها، ليلوّح بها كمتناقضات جوهرية... إلا أنه، مع ذلك، ابتعد كثيراً عن صورة يسوع وأعماله. فأبرزه كساحر تمرّس على السحر في مصر، وهو إلى ذلك ذو منشأ حقير، فردّد اتهامات التلمود بهذا الشأن. فهو لا يستحقّ أن يتبعه ما يزيد على بضعة صيّادين وعشارين، خدع الناس وتطاول حتى ادّعاء الألوهة، فمات على صليبٍ كلصّ، ومع ذلك، فإنّ ما دعا إليه من أخلاق، لا يخلو من سموّ، وإن كان يخلو من الأصالة.

4- بروفيووس:

كان فيلسوفاً من أتباع الأفلاطونية الحديثة. وقد كتب مؤلّفاً بعنوان "ضدّ المسيحيين" حوالي عام 270.

لم يصل من هذا المؤلف إلا مقاطع قليلة، ولكنها تكفي لاستخلاص ما رمى إليه من روح نقدية حيال النصوص الإنجيلية، فتعامل معها بروح

بعيدة عن العدوانية. كما أنّ موقفه من يسوع اتّسم باحترام كثير. ولكنه لا يتورّع عن اتّهام تلاميذه بالشعوذة، فهم في نهاية المطاف، المسؤولون عن انتشار هذه الشعوذة...

5- **هييروكليس:**

كان موظّفاً مشهوراً في عهد الإمبراطور المضطهِد "ديوكليسيانوس". وقد خصّ المسيحيّين بمؤلّف بعنوان "صديق الحقيقة"، وذلك حوالي عام 303. لم يتبقّ منه سوى مقاطع متناثرة لا تستحقّ كبير أهميّة، لولا مقطع منها يتحدّث فيه المؤلف عن إحدى أغرب الأساطير التي حيكت حول يسوع في الأوساط الوثنية. وفيها:

« "إن يسوع، بعد أن طرده اليهود، جمع حوله تسعمائة رجل قادهم في حملات لصوصية". »

ذكر هذه المقاطع المؤلّف المسيحي "لكتانسيوس" في مؤلّفه "المؤسسة الإلهية"، وقد عاصر "هييروكليس"، ومات شهيداً عام 304.

ثالثاً: المصادر المسيحية

إن ندرة المعلومات التي صادفتنا حتى الآن عن المسيح والمسيحية، تقابلها وفرة تفرض على الباحث فرزاً دقيقاً لمختلف المعطيات المتوفرة.

1. مؤلفات الهراطقة:

من الواضح أنّ ما جاء في مثل هذه المؤلفات يرمي إلى تغطية أخطائها بسلطة يسوع. ومع ذلك فما دعا إليه قديماً القديس "ايرونيموس"، يصلح لأن يُتّخذ قاعدةً لمثل هذا البحث: البحث ضروري حتى في الوحل، فقد نعثر فيه على بعض الذهب. وإلا، فحسبنا عزاءً أننا نكون قد بحثنا.

1- **"حكمة الإيمان":**

هو مؤلَّف لا يُعرف واضعُه، ويعود إلى القرن الرابع أو أواخر الثالث، ينطوي على مفاهيم غنوصية واضحة، بقدر ما هي تتعارض مع المسيحيّة.

وليس فيها من تعاليم يسوع وسيرته ما يمتّ إليهما بأيّ صلة. ولذا فكلّ توقّف عندها... مضيعة للوقت...

2- أقوال يسوع في الأناجيل المنحولة:

الأناجيل المنحولة كثيرة، وليست كلّها بالضرورة ذات نزعة واضحة الهرطقة. إلا أنّ ما كان منها هرطوقيّاً في الصميم، لم يصل منها إلاّ شذرات نادرة، غالباً ما تكون "أقوالاً" نُسبت ليسوع، ولم ترد في الأناجيل القانونية. وكلّها وردت في مؤلّفات بعض آباء الكنيسة، في معرض ردّهم عليها. من ذلك أنّ القديس "ابيفانيوس" أورد "قولاً" ليسوع من "الإنجيل بحسب فيليبس"، والقديس "هيبوليتوس" أورد "قولاً" آخر من "الإنجيل بحسب توما"، وكلا القولين غنوصي.

ثمّة "أقوال" ليسوع أوردها بعض "آباء الكنيسة" في معرض ردّهم على الهراطقة، قد لا تبدو لأوّل وهلة "عكرة"، ولكنها تخفي بلباقة ما تريد قوله. وقد أورد القديس "اكليمنضوس الاسكندري" "قولين" يُبطِنان الغنوصية بحذر ودراية، مثل هذا القول:

"ولذلك يقول المخلّص: خلّص ذاتك وخلص نفسها أيضاً"...

2. مؤلفات منحولة:

1- المؤلفات المنحولة الشعبية:

إنّ العديد من هذه المؤلفات القديمة، وإن كانت لا تنطوي على منحى هرطوقي واضح، لا تخلو من بعض الانحراف حيال المعتقد السليم. ذلك لأنها وضعت في أوساط فئوية أو في أوساط شعبية، تخضع بسهولة أكبر لشيء من الانحراف العقائدي. ولهذا السبب، يُستبعد أن تكون وثيقةَ الصلة بما يَنقُل إليها شيئاً عن سيرة يسوع ممّا لم يذكر في الأناجيل... والنصوص تشهد على ذلك. منها "كتاب الرسل" و"إنجيل بطرس" و"إنجيل الأبيونيين" و"إنجيل المصريّين" و"إنجيل العبرانيّين".

- "كتاب الرسل":

هو مؤلّف يُنسب إلى مجموع الرسل، وفيه ما هو أقرب إلى الثرثرة منه إلى الإنجيل. حسبنا هذا النموذج، على الرغم من طوله، لنَخبَر قيمة المؤلَّف بكامله:

« "إليكم ما كشف لنا ربّنا، كما قاله لنا. عندما آتي من عند الآب الكلّي القدرة، إذ أخترق السماوات، وإذ أكون لابساً حكمة الآب وقوته، وإذ أكون متّشحاً بقوته الخاصة، أكون شبيهاً بالكائنات السماويّة، بالملائكة ورؤساء الملائكة. وإذ أخترق السماوات في هيئتهم، أكون مثل واحد منهم. أخترق "التنظيمات" و"القوات" و"السيادات"، في حين أني أملك كما حكمة الآب الذي أرسلني. وتبعني رؤساء الملائكة "ميخائيل" و"جبرائيل" و"أورييل" و"روفائيل" حتى السماء الخامسة، لأنني أشبه أيّاً منهم، وذلك لأنّ مثل هذه القدرة أعطانيها الآب... هل كنتم تعرفون أنّ الملاك جبرائيل أتى وأنّه بشّر مريم؟ – قلنا له: نعم يا رب. – فأجابنا وقال لنا: ألا تذكرون أني كنت قد قلت لكم سابقاً أنني بالنسبة إلى الملائكة، أنا مثل ملاك؟ فقلنا له: نعم يا رب – فقال لنا: عندها، تحت هيئة الملاك جبرائيل، ظهرت أنا نفسي للعذراء مريم وتحدّثت معها، ولانَ قلبُها وآمنت وضحكت. وأنا الكلمة، دخلت فيها وصرت بشراً. وهكذا أصبحت أنا نفسي خادماً لنفسي، وقد فعلت ذلك تحت هيئة ملاك. بعد ذلك، مضيت نحو أبي". »

- أناجيل منحولة مشبوهة:

- "إنجيل بطرس":

لم يبقَ منه إلا ستّون آية، وفيها بعض التفاصيل الجديدة حول موت وقيامة يسوع. من ذلك أنّ هيرودس هو الذي حكم عليه بالموت، فاقتاده الجلادون وهم يركضون، وقدّموا له وهو على الصليب، شراباً يسرّع في موته. ثم إنّ يوسف الرامي غسل جسد يسوع قبل دفنه. وحراس القبر كانوا خليطاً من اليهود والجنود الوثنيّين. أما القيامة فقد ترافقت بأعظم الخوارق...

- "إنجيل الأبيونيّين":

لم يتبقّ منه إلا نثرات غاية في الصغر، ولكنها تكفي بما جاء فيها لتشير إلى نزعة أصحابه النباتية:

« "فقال له تلاميذه: أين تريد أن نعدّ لك لتأكل الفصح؟ "فأجـــابهم: هـــل يمكنكم أن تفكّروا بأني اشتهيت أن آكل لحم "الفصح معكم؟" »

وقد أورد هذا الحوار القديس "ابيفانيوس" في مؤلّفه "الهرطقات".

- "إنجيل المصريين":

لم يتبقّ منه إلا ما أورده "اكليمنمضوس الاسكندري"، وهو هذا الحوار ذو النزعة "الانقراطية أو النباتية" الواضحة:

« أجاب يسوع صالومة التي كانت تسأله: "إلى متى سيظل الموت سائداً؟"، طالما أنكنّ أنتنّ النساء تلدن... لأني أتيت لأدمّر أعمال المـــرأة. ولّمـــا ظلـــت صالومة تسأله: "إذن لقد فعلت حسناً، لأني لم أنجب أولاداً"، ردّ عليها قـــائلاً: "كُلي من كل الأعشاب، ولكن لا تأكلي من تلك العشبة المرّة. »

- "إنجيل العبرانيين":

في هذا الإنجيل نزعة فئوية محلية واضحة، تمجّد نزعة التمسّك بعادات اليهود حتى بعد اعتناق المسيحية، لدى يعقوب الرسول، وقد جاء فيه:

« إنّ الرب، بعد قيامته، أعطى كفَنَه لخادم الكاهن، ومضى نحو يعقوب وظهر له، ثم قال: هاتوا الطاولة والخبز. ثم أمسك الخبز وباركه وكسره، ثم أعطـــاه ليعقـــوب الصدّيق قائلاً له: يا أخي، كل خبزك لأنّ ابن البشر قام من بين الأموات... »

وفيه أيضاً طرح لاهوتي خاطئ، ووصف حادثة نراهما في كتاب معروف:

« "قال المخلّص: للتوّ كانت أمّي، التي هي الروح القدس، تحملُني من شعرة في رأسي، وتنقلني إلى جبل ثابور الكبير". »

وقد ورد هذا النص ليشير إلى حرص الكاتب على تجنيب يسوع أيّ اتصال بينه وبين الشيطان إبان التجربة.

لا يخلو "إنجيل العبرانيين" من لمسات إنسانية، عندما يتحدث مثلاً عن الشاب الغني الذي دعاه يسوع (متى 16/19–26). ولكنه إلى ذلك يرتكب بحق يسوع مبالغاتٍ غير مقبولة. من ذلك مثلاً قولان ينسبهما إلى يسوع. الأول: "قال الرب لتلاميذه: لا تعرفوا الفرح البتة، إلا عندما تجدون أخاكم في محبة". والثاني: "إنّ الذي يُحزن روح أخيه، مذنب بإحدى أعظم الجرائم".

2- **المؤلفات المنحولة الروائية:**

هناك مجموعات من الكتب المنحولة، التي يسودها الجو الروائي الصرف. صحيح أنها وُضعت لإشباع فضول المؤمنين، الذين يودّون معرفة الجوانب التي ظلّت مجهولةً من سيرة الرب. ولكنها لم تأتِ إلاّ بالأساطير، فضلاً عن أنها تكشف عن خيالٍ هزيل. فليس فيها ما يستحقّ الاهتمام أكثر من سابقاتها. وهي كثيرة:

- "إنجيل يعقوب":

من الواضح أنه وُضع ليجتذب اهتمام القارئ بخوارق تتعلّق بأشخاص كثيرين ما عدا... المسيح. وكلّها خوارق صبيانية، تبرز صرامة الإنجيل القانوني ورصانته...

- "أعمال بيلاطس":

هو حشد لخوارق من عالم الخيال، يحدث بعضها لنسور، وبعضها ليوسف الرامي، يبرز مرة أخرى إيجاز الإنجيل القانوني واقتضابه البالغ الرصانة.

- "أعمال بطرس":

في هذا المؤلّف ثرثرةٌ كثيرةٌ لا علاقة لها بيسوع وتلاميذه. حسبنا هذا النموذج في فصله 38:

« وبهذا الصدد، قال الرب بطريقة المثل: إن لم تجعلوا ما هو مستقيم مثل ما هو معوجّ، وما هو معوجّ مثل ما هو مستقيم، وما هو فوق مثل ما هو تحت، وما هو في الخلف مثل ما هو في الأمام، فلن تعرفوا الملكوت"... »

- "رؤيا بطرس":

في هذا المؤلّف يكشف يسوع لتلاميذه بالتفصيل عن العذابات التي ستحلّ بكل فئة من المحكومين في الجحيم: الخدّاعين والزناة والقتلة، ومَن يمارس الإجهاض، والأغنياء الأشرار... وكلّ ذلك أقرب إلى الخيال الجامح منه إلى أي شيء آخر. وسيرة يسوع بالتأكيد بغنى عنه كليّاً.

3- مؤلفات مجهولة المؤلف:

(1) تختلف وثائق هذه الفئة عن سابقاتها، وإن كان بعضها يتّخذ من أحد الأسماء المعروفة، غطاءً كاذباً له. من ذلك مثلاً كتاب "تعليم الرسل الاثني عشر"، و"القوانين الكنسيّة للرسل القدّيسين"، التي لا تعدو كونها مجموعة القواعد التنظيمية السائدة في الجماعات المسيحية الأولى. ومن الواضح أنّ مؤلّفيها الحقيقيّين لا يرمون منها إلى نشر ما هو خارج عن العقيدة أو الممارسات الكنسية. وهي، إلى ذلك، شحيحة جداً بالنسبة إلى المعلومات المتعلّقة بيسوع.

لذا ينبغي أن يتحلّى الناقد والباحث بأقصى قدر من الدقة، كلّما صادفته إشارة إلى سيرة يسوع.

(2) من الحديث المنسوب إلى يسوع:

ثمة قسمان من هذا "الحديث"، إذ هناك قسم "يعدّل" نصوصاً معروفة، وقسم يثير الشبهة.

القسم الأول: ليس فيه ما هو كبير أهمية. وما يُنسب منه إلى يسوع قد يكون مجرّد استعادة لكلمة ليسوع مع شيء من التبديل، أو قد يكون خطأً في ذكر الحديث، أو في سرده بصورة بعيدة عن التقيّد الحرفي. وقد نكتشف خطأً مقصوداً في رواية الحديث. ولكن ليس في هذه الأحاديث ما قد يُعتبر حديثاً أصيلاً. من هذه الأمثلة:

- من جملتين للقديس بولس، (وردتا في أفسس 26/4 و30، وتسالونيكي الأولى 19/5)، هذان التعديلان لهما:

« "قال الرب: لا تغرب الشمس على حنقكم".

"والرب يحذّرنا بهذه العبارات: لا تُحزنوا الروح القدس الذي فيكم، ولا تُطفئوا النور الذي يتألّق فيكم". »

- ومن كلمات ليسوع في الإنجيل، هذان التعديلان كما وردا في "تعليم الرسل الاثني عشر" بحسب النسخة السريانية:

« "يقول ربّنا أيضاً: يا أبت، إنهم لا يعرفون لا ما يعملون ولا ما يقولون. اغفر لهم، إن كان هذا ممكناً. » (فصل 25)

ولقد كتب في الإنجيل: "صلّوا لأجل أعدائكم، وطوبى لمن يبكون على ضياع الكفرة" (راجع لوقا 34/23 و متى 5/5).

القسم الثاني: من هذه الأقوال ما قد يثير الانتباه، أو الريبة... وإن كان فيها أحاديث مثيرة للدهشة بصيغتها وفكرتها... منها مثلاً:

« قال الرب أيضاً: الويل لأولئك الذين يملكون ويأخذون بالاحتيال، وللذين يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم، ويريدون أن يأخذوا العون من الآخرين: فجميعهم سيؤدّون حساباً عن ذلك في الدينونة. »

هذا النص ورد في "القوانين الرسولية" (3/4)، وهو يرمي بصورة واضحة إلى منع استغلال المساعدات التي كانت الجماعات المسيحية الأولى تنظّمها لفقرائها...

كما ورد في "تعليم الرسل الاثني عشر" (6/1) بشأن الصدقة، هذا القول:

« ولقد قيل أيضاً بهذا الشأن، دَعْ حسنتك تنضح عرقاً في يدك، حتى تعرف مَن الذي يتلقّاها منك... »

وهو قولٌ أقربُ إلى البخل والحرص اليهوديَّين منه إلى روح يسوع...

- بعض التفاصيل الخالية من أيّ أساس تاريخي حول سيرة يسوع:

إنّ مجموع هذه المؤلّفات لا تأتي بأيّ جديد من هذا القبيل، لا بالنسبة إلى

تعليم يسوع، ولا بالنسبة إلى سيرته. وهي دون أدنى شك، وليدة مراجع تخلو من المتانة والصحة، بل وتفور بالغرابة والغموض. وقد يكون بعضها نتيجة محاولات لتثبيت التنظيم الداخلي للجماعات المسيحية الأولى. وإنّ خير مثالين على ذلك ما جاء في "تعليم الرسل الاثني عشر" بحسب الصيغة السريانية، حول (1) تسلسل أحداث أسبوع الآلام (الفصل 21)، وحول (2) الصيام، وقد جاءت التعليمات بشأنه على لسان يسوع منذ ظهوره الأول بعد قيامته...

4- مكتشفات حديثة من ورق البردي:

منذ مطلع القرن العشرين، كشفت رمال مصر في منطقة تعرف اليوم باسم "بهنسة"، عن كمية كبيرة من قطع البردي التي تحتوي أقوالاً وأحداثاً تُنسب إلى يسوع. والكثير منها بلغ تشوّهاً يصعب معه استعادة النص بوضوح. إلا أنها كلّها تشكو من تفاهة وسطحية تضعانها في مقارنة باهتة جداً، مع عمق وجدّة النصوص الإنجيلية القانونية، وإن كان بعضها يتستّر باسم أحد الرسل... وقد اتّضح أنها تعود إلى القرنين الثاني والثالث، وقد يكون بعضها جزءاً من نصوص إنجيليّة منحولة تلاشى معظمها... فإنّ مثل هذه الوثائق تهمّ الباحث في الأدب المسيحي في بداياته، ولكنها لا تضيف شيئاً البتّة على يسوع، سيرةً وتعليماً.

5- مؤلّفات لبعض آباء الكنيسة:

قد نتوقّع من أقدم آباء الكنيسة وأقربهم إلى تلاميذ يسوع، أن يمدّونا ببعض ما نسعى وراءه ممّا لم يُذكر في الإنجيل... ولكن الواقع إيّاه تقريباً يصادفنا، سواء من حيث "أحاديث يسوع" أو من حيث سيرته.

أ. "أحاديث" وردت لدى بعض الآباء:

- من القديس اقليمنضوص:

« لنتذكّر خصوصاً الكلمات التي قالها لنا الربّ ليعلّمنا العدل ورحابة الصدر. فلقد قال في الواقع: سوف تُقابَلون بالرحمة "نفسها التي تمارسونها" »

- من القديس جوستينوس:

« أوَلَم يقل يسوع: لقد أتيت لأدعو إلى التوبة الخطأة، لا الصدّيقين، لأن الآب السماوي يفضل التوبة على معاقبة الخاطئ... »

- من أوريجانيس:

« لقد قال المخلّص نفسه: مَن كان بالقرب مني، هو قريب من النار، ومن كان بعيداً عني، هو بعيد عن الملكوت.

قال يسوع أيضاً: بسبب الضعفاء، كنت ضعيفاً، وبسبب العطاش، "كنت عطشاناً". »

- من أَفراءات السوري:

« قال الرب: صلّوا ولا تتعبوا من الصلاة.

وقد قال لهم أيضاً: لا تفقدوا الثقة أبداً، لئلا تغرقوا في العالم، كما أن سمعان بدأ يغرق في البحر، عندما راوده الشك. »

ب. تفاصيل عن سيرة يسوع:

قليلة جداً هي المعلومات التي أضافها الآباء على الإنجيل من حيث السيرة. إلاّ أن أهم ما جاء منها، كان لدى القديس "جوستينوس النابلسي"، وإن كانت ضعيفة القيمة. من ذلك مثلاً:

- إنّ العذراء ولدت يسوع ووضعته في مذود...
- إنّ يسوع، قبل حياته العلنية، كان نجّاراً ويصنع المحراث والنير...
- إنّ يسوع إبّان عماده، اشتعلت نيران فوق الأردن، وسُمع صوت يقول: أنت ابني وأنا ولدتك اليوم.
- إنّ يسوع قبل دخوله أورشليم، أمرَ بجلب حمار صغير له، كان مربوطاً بساق كرمة.
- إنّ يسوع أثناء تعذيب الجنود له، قد أُجلِس على عرش وقيل له: "حاكمنا".

من الواضح أنّ الموقف المطلوب حيال مثل هذه "النصوص"، يجب أن يكون الحرص والحيطة. فلا تسرّع ولا تضخيم، لأن النصوص كلّها في نتيجة الأمر، تبدو بالمقارنة مع أخواتها القانونيات - أي النصوص القانونية الإنجيلية - باهتة جداً، ولا تحمل جديداً يُذكر. فضلاً عن أنّ معظمها، كما تبيّن، لا يعدو كونَه سرداً لنصوص سبق ووردت في الإنجيل أو العهد القديم، ولكنّه سردٌ تكتنفه أحياناً دوافع، بعضها مدسوس، يجب كشفها.

6- **متغيرات المخطوطات الإنجيلية:**

المقصود بهذه الكلمة، "الاختلافات" التي تصادفنا في بعض المخطوطات حول الحادث نفسه أو الكلمة نفسها. وبعضها ليس سوى خطأ ارتكبه الناقل دون قصد منه. والبعض ينطوي على مقاصد فيها رغبة الناقل في تصحيحٍ ما. والأمور عادةً لا تعدو كونها محاولاتٍ لتصحيح أخطاء صرفية أو مصاعب لغويّة، بحيث تُستبدَل كلمة بأخرى، وفي حالاتٍ قصوى بعضها يرمي إلى إحداث توازٍ بين نصّين أو أكثر.

إلا أنّ من هذه الإضافات ما يحمل بعض الجديد في سيرة يسوع، ويجدر بنا التوقّف عندها على ندرتها.

أ. "أحاديث" بعض المخطوطات:

- هناك حديث شهير ورد في "مخطوط بيزا" في إنجيل لوقا 4/6:

« في هذا اليوم عينه، إذ رأى يسوع إنساناً يعمل يوم السبت، قال له: يا رجل، إن كنت تعرف ما أنت فاعل، فإنك سعيد، ولكن إن كنت تجهله، فأنت ملعون ومخالف للشريعة. »

- في المخطوط نفسه، وردت "أحاديث" لا تتمتّع بشهرة الحديث السابق، ولكن يجدر بنا التعرّف إليها:

- في متى 23/10:

"ولكن عندما يطردونكم من مدينة، اهربوا إلى أخرى"

والإضافة: "وإن طردوكم من هذه، فاهربوا إلى أخرى"

- وفي متى 28/20، يقول:

"وهكذا فإنّ ابن البشر لم يأت ليُخدَم، بل ليَخدم ويبذل نفسه فداء عن كثيرين"

والإضافة:

« أما أنتم (والكلام لتلاميذه) فإنكم تسعون، وأنتم صغار، لأن تصبحوا كباراً، ولكن في الواقع فإنكم تصبحون أصغر، بعد أن كنتم أكبر. »

ب. أحداث من حياة يسوع في بعض المخطوطات:

- أحد المخطوطات يضيف على متى 3/13-17:

« وبعد أن نال العماد، خرج نور قوي من الماء وأخذ يتألّق في الناحية كلّها بحيث امتلأ جميع الحاضرين خشية. »

- من المخطوطات ما أورد هذه الإضافة على لوقا 23/48:

« وإنّ جميع المتواجدين مصادفةً في هذا المكان، شاهدوا ما جرى، وقرعوا صدورهم وهم يقولون: الويل لنا! ما الذي جرى لنا؟ الويل لنا بسبب خطايانا!... فإنّ خراب أورشليم قريب. »

ج. ما قيمة هذه الإضافات وسواها؟

الحقيقة أن مجموع هذه "الإضافات" موضوع شبهة. فبعضه جاء على نحو واضح نتيجة "تصحيح" أراده ناسخ المخطوط، أو نتيجة سعي لخلق توازن في العبارة أو جمالية موسيقية ما، وبعضه لا يخلو من شبهة التضخيم... والنقاد إلى اليوم لا يجدون فيها كبير فائدة، إلا أنها لا تزال خاضعة للدراسة.

7- أسفار العهد الجديد باستثناء الأناجيل:

في نهاية هذه الجولة الهزيلة، يتوقّع المرء نتاجاً أفضل في سائر أسفار العهد الجديد، ما خلا الأناجيل الأربعة، ونعني بها أعمال الرسل ورسائل القديس بولس وسائر الرسائل وسفر الرؤيا. ولهذا التوقّع تبريره القوي، ذلك

لأن الذين كتبوا هذه الأسفار هم من التلاميذ الأوائل، وبعضهم كَتب قبل وضع الأناجيل أو بعضها، والبعض بعد وضع بعض الأناجيل بفترة وجيزة...

مرةً أخرى ليس من وراء هذا التوقّع أيّ جديد.

فإنّ المصادر المسيحية الأولى والقانونية لم تهمل شيئاً من سيرة يسوع يجب ذكره إلاّ وذكرَته.

أما أحاديث يسوع، فقد اتّبع مؤلّفو الأناجيل أيضاً القاعدة نفسها: أن يذكروا من أقوال يسوع الضروري والجوهري... إلاّ أنّ هناك أحاديث نادرة جداً وردت هنا وهناك، وهي على درجة من القربى مع الأناجيل القانونية، بحيث إنّ أحداً لا يشك في صحتها. منها ما ورد في صيغتها الصريحة، ومنها ما ورد بصورة غير مباشرة. من الفئة الأولى قول بولس في خطبته لأهالي مدينة "ميلِه"، كما ورد في "أعمال الرسل" (35/20)، إذ يقول:

« يجب أن نتذكّر أقوال الرب الذي قال بنفسه: إنّ العطاء أعظم غبطةً من الأخذ. »

ومن الفئة الثانية، قول بولس الرسول أيضاً في رسالته إلى أهل تسالونيكي الأولى (15/4)، وهو قول ينسبه إلى يسوع، وقد يكون عرفه في وحي خاص به:

« إنّا لنعلن لكم، بناءً على قول الرب:

إنّا نحن الأحياء، الباقين إلى مجيء الرب، لن نسبق الراقدين. »

ومن الأحاديث أيضاً ما يُنسب مباشرةً إلى يسوع، كما في أعمال الرسل (4/1-8) ورسالة بولس الأولى إلى الكورنثيّين (23/11-27).

تلك هي الأحاديث كلّها المنسوبة إلى يسوع، والتي لم ترد في الأناجيل الأربعة.

وإنه لواضح أنّ قيمتها كبيرة جداً، وهي بقيمة ناقليها أو بالأحرى ناقلها، وهو بولس "الإناء المصطفى"... وما تتّسم به من تآلفٍ مع الأناجيل، ومن سلامةٍ في العقيدة والتوجيه الروحي، يضفي عليها قيمةً لا تقل عن قيمة الأقوال الإنجيلية.

بالطبع هناك سؤال يبرزه النقاد العقلانيّون، وَمَن نسج على منوالهم: أَيُعقل أن يكون يسوع لم يفعل سوى ما ذُكر، ولم يقل سوى ما نُقل؟... وينتقل هؤلاء النقاد من هذا السؤال إلى الاستنتاج التالي: هذا غير معقول، وإذن يسوع "اختلاق فكري وأدبي، وليس له أيّ صحة تاريخية!"

ما الجواب؟

نلخّصه بنقطتين:

<u>الأولى</u> تخص الأناجيل القانونية كلّها: التلاميذ لم يكتبوا سيرة يسوع بصورة منهجيّة ووفق خطة مسبقة... بل كانوا يتصوّرون أن العالم على وشك الانتهاء، فلا داعي لكتابة أيّ شيء... وشيئاً فشيئاً اتّضح لهم أنّ الزمان قد يطول أكثر ممّا كانوا يتوقّعون، وأنّ المؤمنين بحاجة إلى ما يذكّرهم بما سمعوا وعرفوا من سيرة يسوع وتعاليمه. فكتبوا - وكلٌّ منهم في مكان وبيئة مختلفين - ما يتّسم بالمذكّرات أكثر منه بأي شيء آخر. إلا أنهم وضعوا فيها الأساسي والجوهري، دون ثرثرة أو تضخيم، حتى إنهم اقتصروا بعض الأحداث وبعض الخطب ليسوع، على ما يبدو مختصرات ليس إلا... وأغفلوا للسبب نفسه كلّ ما ليس له علاقة هامة بالرسالة التي ائتُمنوا عليها... فلم يذكروا من سيرة القديس يوسف مثلاً، والعذراء مريم - على الرغم من عظمة الدور الذي لعباه - إلا ما هو أقل من القليل... ولم يذكروا كذلك حتى من حياة يسوع، إلا ما له علاقة بالرسالة، فأغفلوا كليّاً فترةً طويلةً من حياته، وهي تلك التي سبقت تبشيره، ممّا أثار شكوكاً لدى بعض "العقلانيين"، سرعان ما حوّلوها إلى يقينيّات مضحكة...

<u>الثانية</u>، تخصّ أسفار العهد الجديد كلّها، ما عدا الأناجيل الأربعة. وهذه النقطة تخصّ تأليفها، وقد جاءت كلّها كالأناجيل، وليدة مناسبات اضطرت التلاميذ للكتابة في هذا الأمر أو ذاك، ممّا يخصّ حياة المسيحيّين الأوائل... فكان على واضعيها أن يهتموا بالمسائل المطروحة للنقاش أو للتنظيم أو للتوجيه... علماً بأنهم كانوا يكتبون لأناس عرف

بعضُهم يسوع بالذات معرفةً شخصيةً، أو لأناس أُشبعوا بالمعلومات التي يفترض بالبديهة أنّ التلاميذ غمروهم بها، فما عادوا بحاجة إلى سماعها في رسائل، أو كتابات ظرفية، لا حدودها وضروراتها... وهذا ينطبق بالدرجة الأولى على مجموع رسائل القديس بولس، التي تأتي جزءاً لا يتجزأ من شخصيته الفذة والقوية، التي استطاعت أن تحمل العبء الأكبر من تأسيس الكنائس في مختلف الأقطار، والتي كانت تسارع إلى الإجابة على حاجاتها، بل واعتراضات البعض...

ويرى البعض أنّ ما جاء في أسفار العهد الجديد، خارج الأناجيل الأربعة، ممّا يخصّ يسوع، يوافق موافقة تامة ما جاء بشأنه في الأناجيل الأربعة. فلنوجز:

يسوع ولد من امرأة (روما 15/5 و 1 كور 21/15).

كان يهودياً (غلا 16/4) من قبيلة يهوذا (عبرا 14/7) ومن عشيرة داود (روما 3/1)

خضع للشريعة اليهودية (غلا 4/4)

كان له "أخوة" (1 كور 5/9)، ومنهم يعقوب (غلا 19/1)

تميّز بفقره (2 كور 9/8) ووَداعته (2 كور 1/10) وقداسته (2 كور 21/5)

نال العماد من "السابق" (أعمال 22/1)

أحاط نفسه ببعض التلاميذ، منهم بطرس ويوحنا (1 كور 5/9 و 7/15و9 وغلا 9/11).

أجرى العديد من المعجزات (أعمال 22/2)

تجلّى أمام التلاميذ (2 بطرس 16/1-18)

أسّس سرّ القربان المقدس (1 كور 33/11-25)

عرف النزاع والآلام المبرحة وذاق الموت (عبرا 7/5)، وخيانة يهوذا (أعمال 16/1 وما يليه، و1 كور 23/1)، والإهانات في آلامه (روما 3/15

وأعمال 3/13-14)، **والصلب** (**غلا** 1/3 و13 **وأعمال** 23/2) **بين لصّين** (**كولو** 14/2)، **خارج أسوار أورشليم** (**عبرا** 12/13)، **والدفن** (1 **كور** 4/15 **وأعمال** 19/2)، **والقيامة في اليوم الثالث** (**روما** 11/8 **وأعمال** 24/2)

ظهر مرات كثيرة (1 **كور** 5/15-8)

صعد إلى السماء بمرأى من تلاميذه (**روما** 34/8 **وأعمال** 34/2).

والجدير بالذكر أنّ الألقاب التي أطلقَتها على يسوع أسفار العهد الجديد خارج الأناجيل الأربعة، تأتي منطقية ومتماسكة مع الأناجيل الأربعة:

إنه المسيح وآدم الجديد (**روما** 12/5)

إنه الراعي الصالح (**بطرس الأولى** 25/2)

إنه مخلّص العالم (**أعمال** 12/9)

إنه ابن الله (**روما** 3/1-4 **وأعمال** 20/9)

فضلاً عن ذلك، فهناك أيضاً تلميحات واضحة وصريحة إلى تعاليم يسوع حول:

الزواج (**كور الأولى** 10/7)

حق المبشرين بالحصول على ما يكفيهم في حياتهم المادية (**كور الأولى** 14/9، و1 **تسالو** 8/4، **وغلا** 17/4 و2/6، و 1 **كور** 12/4-13، و4/5 و2/13 و3 - 2 **كور** 1/10، **وروما** 14/14)

ثمة كلمة شهيرة لأحد أكثر النقاد تطرّفاً وهو الفرنسي "أرنست رينان"، يقول فيها بالحرف الواحد:

« بوسع المرء أن يؤلّف سيرة صغيرة ليسوع بواسطة رسائل بولس إلى روما والكورنثيين والغلاطيين والرسالة إلى العبرانيين، وهي ليست لبولس، ولكنها **قديمة جداً.** »

هذا الموجز يوضح بما لا يدع أيّ شك بأن التلاميذ الأوائل

عرفوا يسوع بشرياً ولاهوتياً، معرفة شخصية، وقد مهروها بدمائهم. فهو ليس وليد خيال، بل حقيقة تاريخيّة لا يمكن أن ينالها أيّ شك أو تشكيك.

ثمّة أمر أساسي يجب الانتباه إليه، وهو أنّ جميع ما ورد في الفقرة السابقة، يدين بكلّيّته للقديس بولس وحدَه تقريباً. والحال أنّ بولس كان أوّل مَن كتب شيئاً عن المعتقد المسيحي، وذلك دون أن يكون عرف، كما هو معروف وواضح، أيّاً من الأناجيل، لا سيما وأن ثلاثة من الأربعة وُضعت بعد استشهاده. من هنا أهميّة هذا التشابه المذهل بين ما جاء في رسائله عن يسوع، وما جاء في الأناجيل. فهل من شك بعد في قيمة التقليد الإنجيلي، أي قيمة ما وصلنا، شفهياً أولاً ثم كتابةً، عن يسوع في الأناجيل التي وضعها التلاميذ الأولون؟... فهي وحدَها تحتوي السيرة الوحيدة التي يمكن وضعها، كما قال أحد أكثر العارفين، وهو الباحث الفرنسي، الأب " ألبير لاغرانغ" (1855-1938).

الفصل الثالث

يسوع في بداياته

<u>يسوع قائداً</u>

<u>أولاً: يسوع قائداً في شخصه</u>

مقدمة:

1) **القائد هو من يرى حلماً مستقبلياً حقيقةً واقعة، دون سواه.**

2) **القائد الحقّ يتمتّع بيقين راسخ رسوخ الجبال، حتى في وجه الدنيا.**

3) **القائد الحقّ يشرك في مشروعه أناساً آخرين، فيهم بعض رسوخه ويقينه...**

(1) <u>يسوع ويقينه الذاتي:</u>

1) **في طفولته، في الهيكل: "ألم تعلما أنه ينبغي لي أن أكون في ما هو لأبي؟"**

2) **حتى الثلاثين: صمت مطبق واستعداد في عمل عادي يكسب منه قوته.**

3) **يوم العماد: "هذا هو ابني الحبيب... هكذا يحسنُ بنا أن نتمّ كلّ برّ".**

4) **أثناء التجربة: "ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان".**

"لا تجرّب الربّ إلهك..."

"للربّ إلهِك تسجد، وإيّاه وحدَه تعبد..."

5) **بلاغه الأول: "توبوا، فقد اقترب ملكوت السموات" (متى 17/4)**

(2) يسوع قائداً راسخاً كالطود في مختلف مراحل حياته:

1) **إزاء الله الآب: "طعامي أن أعمل إرادة مَن أرسلني"**

"لا مشيئتي، بل مشيئتك"

2) **إزاء السلطات الزمنية:**

+) **قيصر والضريبة: "أعطِ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (لوقا 25/20)**

+) **هيرودس: "اذهبوا قولوا لهذا الثعلب..."**

3) **إزاء السلطات الدينية:**

+) **الأحزاب الدينية: فرّيسيّون وصدوقيّون: حوار وإحراج متواصلان...**

+) **الكهنة ورؤساء الكهنة:**

×) **حوار غير مباشر ومتواصل...**

×) **حب غاضب... (الفصل 23 من إنجيل القديس متى)**

×) **إبان المحكمة: صمت واعتراف من جهته، وتحامل أعمى من جهة حكامه**

4) **إزاء الشعب:**

+) **علّمه دون كلل: قلب المفاهيم رأساً على عقب: ملكوت الله، لا الأرض.**

+) **هرب منهم عندما أرادوا تنصيبه ملكاً زمنياً ومسيحاً أرضياً عليهم...**

5) **إزاء أبناء بلدته:**

+) **لم يُخفِ هويّته عليهم (لوقا 14/4)**

+) **لاقى مقاومة شرسة وسخرية (لوقا 14/28-30)**

6) **إزاء تلاميذه: المواقف كثيرة، أقتصر منها على بعضها:**

+) **يوم أراد التلاميذ أن يمنعوا عنه بعض الناس: عميان وأطفال (لوقا 18/15-17)، (لوقا 18/35-43)**

+) **يوم تطاول بطرس وأراد أن يفرض على يسوع تصوّراً مسيحياً آخر... متى (16/22-23)**

+) في بستان الزيتون ينادي يهوذا بلهجة عتاب في غاية الحنان. (لوقا 22/47-48)

+) في العشاء الأخير تنبّأ لتلاميذه بخيانتهم له وغفر لهم مسبقاً. (لوقا 22/31-34)

7) إزاء الموت: موت أي إنسان نسخة مكبّرة عن حياته:

+) اتحاد رائع بالله الآب... (لوقا 23/46)

+) وغفران رائع لجلاديه. (لوقا 23/34)

ثانياً: يسوع قائداً في تلاميذه

مقدمة:

1) القائد الحقّ يشرك معه أتباعاً أحراراً...

2) القائد الحقّ يشترك في حياة أتباعه ويشركهم حياته...

3) القائد الحقّ لا يخفي شيئاً عن أتباعه، ويحمّلهم الأمانة كاملة...

4) القائد الحقّ يجيد تقييم إمكانات أتباعه، وقدرتهم على الالتزام بالأمانة... ولا يتأثر بنظرتهم إلى أنفسهم، أو بتقييم الآخرين لهم.

(1) يسوع يختار له رجالاً يرافقونه:

1) في الاختيار سرّ: "أنا اخترتكم، لستم أنتم اخترتموني"...

+) هو يدعو: "تعال اتبعني"...

"اتبعاني، فأجعلكما صيادَي بشر"...

+) وهو يرفض أيضاً:

"دع الموتى يدفنون موتاهم"...

"اذهب وحدّث بما صنع الله إليك"...

2) السر الأكبر في اختيار يهوذا...

(2) يسوع يفرض شروطاً واضحة وقاسية:

1) ألاّ يكون الإنسان المختار منتفخاً بذاته:

"أشكرك يا أبت لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء، وكشفتها للأطفال"...

2) أن يكون متحرّراً من متاع الدنيا:

"بِع كل ما لك وتعال اتبعني: فأهون أن يدخل جمل في ثقب إبرة، من أن يدخل غني ملكوت الله"

3) ألا يكون متذبذباً منشطراً:

"ما من أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء، يستحقّ ملكوت الله"...

"دَعِ الموتى يدفنون موتاهم"...

4) أن يكون في كل شيء جديراً بالمعلم: أي بيسوع:

"ما من تلميذ أفضل من معلمه..."

"من أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه، ويحمل صليبه ويتبعني"...

(3) يسوع يشاركهم في حياته في استشرافات مستقبلية:

1) دعوة اندراوس والآخر: أين تقيم؟... تعاليا وانظرا...

2) دعوة بطرس (يوحنا بن يونا: "أنت ستدعى كيفا... وعلى هذا الصخر...")

3) دعوة فيليبس ونثنائيل: "أَمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟... "سترون السماء مفتوحة وملائكة الله..."

4) يعقوب ويوحنا أخوه: يدعوهما فيتركان الشباك وأباهما ويتبعانه (متى 4/21-22)

5) اندراوس وبطرس: اتبعاني فأجعلكما صيادَي بشر. (متى 4/19)

6) دعوة متى العشار: يدعوه في بيت الجباية، فيقوم ويتبعه (متى 9/19)

7) مجموع الاثني عشر: يصفهم بأنهم "أخي وأختي وأمي" (متى 12/46)

(4) يسوع يشاركهم في جوانب من حياتهم:

1) **يزور بيت بطرس ويشفي حماته (مرقس 29/1)**

2) **يزور بيت متى فيتعرض للانتقاد (متى 9/9)**

3) **يصطاد معهم: "لم نُصبْ شيئاً طوال الليل، ولكن بكلمتك ألقي الشبكة" (لوقا 5/5)**

4) **يرافقونه في مناسبات: عرس قانا**

5) **يقلع السنبل معهم يوم السبت نتيجة الجوع (لوقا 6)**

6) **يركب السفينة معهم على ما به من تعب، ولا يتخلى عنهم (لوقا 22/8)**

(5) يسوع يعلّمهم

1) **بسيرته أولاً وخصوصاً**

2) **بمعجزاته...**

3) **بالتعليم العام الذي يعطيه للناس**

4) **بالتعليم الخاص بهم:**

+) **ينفرد بهم ويعلمهم: "أنتم أُعطِيتم أسرار ملكوت الله" (متى 13)**

+) **يتجلى أمام نخبة منهم**

+) **يحيي ابنة يائيروس أمام النخبة ذاتها**

+) **يعاني النزاع أمام النخبة إياها...**

5) **يثبّت إيمانهم به:**

+) **يوبّخهم لقلة إيمانهم...**

+) **يدعوهم للثبات في محبّته (يوحنا 15)**

+) **يرسّخ إيمانهم به حياً بعد قيامته**

+) **يعلّمهم الصلاة (لوقا 1/12)**

+) **يهبهم الروح القدس: خذوا الروح القدس... امكثوا في أورشليم...**

+) **يعدهم بقوة الروح القدس**

+) **يسلّمهم الأمانة الكبرى: بشّروا كل الأمم...**

6) يصارعهم كي يثبّت إيمانهم به، على مستويات أساسية ثلاثة:

+) مستوى الناس: يرفض زعامة يمارسونها على حسابه وعلى الرغم منه...

- يمنعون البعض من الوصول إليه: أطفال/ عميان/ كنعانية...
- يمنعون البعض من طرد الشياطين "من ليس عليكم فهو معكم"

+) مستوى المنظور اليهودي للمسيح المنتظر:

- هم يخضعون، ككل يهودي، إلى رؤية عامة وشعور عام يقاومهما يسوع كل لحظة
- يتبدّى ذلك في مواقف معينة، منها:

×) موقف يعقوب ويوحنا في السامرة: "أَنَطلبُ ناراً من السماء" (لوقا 51/9)

×) موقف البعض قبل اعتقاله: ههنا سيفان... يكفي (بلا علك!...)

×) موقف البعض قبيل الصعود: متى تردّ الملك لإسرائيل (أعمال الرسل 6/1)

+) مستوى التلاميذ الشخصي:

- بطرس يريد أن يملي على يسوع منظوره الخاص حول المسيح: "حاشا، لن يكون هذا"... "اذهب خلفي يا شيطان"
- يهوذا: مال... سلطة... خيبة أمل في المسيح اليهودي المنتظر
- التلاميذ فيما بينهم:

×) في الطريق إلى القدس والموت: "هبنا أن يجلس أحدنا عن يمينك، والآخر عن يسارك في مجدك" (مرقس 37/10)

×) في العشاء الأخير بالذات: "وقع بينهم جدال في من يعدّ الأعظم بينهم" (لوقا 24/22)

- في عمق الطبيعة البشرية:

×) الازدواجية: الرئاء (خمير الفريسيّين... وربما التعدّدية...)

×) السلطوية: غسل الأرجل... وتوجيهات في ممارسة السلطة كخدمة ليس إلا...

×) المال: "لا تعبدوا ربّين: الله والمال" (متى 24/6)

خاتمة:

قال بولس: "من كان في المسيح، فهو خليقة جديدة" (2 كور 17/5)

ويسوع خلق حقاً من التلاميذ بشراً جدداً (مَثَل الخمرة الجديدة والزقاق القديمة) بل خلق منهم - على علاّتهم... ولم تكن قليلة ولا بسيطة - خلق منهم مسحاء جدداً...

التلاميذ قادة في خطى يسوع

يتضح جلياً من سفر أعمال الرسل أن الرسالة التي حملها التلاميذ، تنقسم في أدائها إلى مرحلتين: الأولى سبقت اختيار الرب لشاول (بولس)، والثانية أعقبت هذا الاختيار المدهش...

1) قبل اختيار شاول

(1) حدث جماعي متعدّد الوجوه:

+) تجمّع التلاميذ مع العذراء في بيت واحد: يصلّون بقلب واحد (أعمال 1/12-14)

+) بروز الجماعة الأولى بقيادة بطرس:

×) إحساس جماعي واضح بضرورة الشهادة لقيامة يسوع ليس إلاّ.

×) إحساس جماعي أيضاً بضرورة اكتمال عدد (12) للشهادة للقيامة (أعمال 15/9)

(2) حدث روحي خلاق وحاسم: حلول الروح القدس

+) هو حدث محسوس: صوت كالرعد... وصورة ألسنة نارية فوق رؤوسهم.

+) نتيجة الحدث الفورية:

×) انطلاق التلاميذ بشجاعة، فيشهدون لقيامة يسوع بلغة "صادمة"

×) البشرى بقيامة يسوع تمّت بمسمع من الكثيرين بلغات مختلفة...

×) توبة ثلاثة آلاف يهودي وعمادهم الفوري...

+) نتائج لاحقة وحاسمة أيضاً:

×) مواصلة الصلاة الجماعية الخاصة بالتلاميذ...

×) مواصلة حضورهم إلى الهيكل: للتبشير بقيامة الرب: التحدّي غير معقول...

×) إنجاز خارق وعفوي في حياة الجماعة الأولى: الاشتراكية والتطبيق الحرّ لها

×) تمتّع التلاميذ بقوة الشفاء، ونقمة رؤساء اليهود عليهم...

×) فرح التلاميذ لتعرّضهم للاعتقال والضرب من أجل يسوع...

×) التحدي الأكبر: الله أحقّ بالطاعة من الناس: استعداد للموت...

×) تحرّر الرسل من مزالق الخدمة المادية، وانصرافهم إلى الصلاة والوعظ فقط

×) حدوث الاستشهاد الأول بإشراف "شاول"

×) انتشار المؤمنين في اليهودية والسامرة، ما عدا الرسل (أعمال 1/8) وانتشار البشرى معهم.

×) تدخّل الروح القدس بصورة خارقة في نقل البشرى (أعمال 26/8–40 و13/1–3)

2) منذ اختيار شاول- بولس.

هذا الاختيار المدهش، أحدث مواجهة شاملة، فكان منعطفاً حاسماً في

المسيحية... بحيث اتهم بعضهم بولس بأنه هو مُنشئ المسيحية التي نعرفها اليوم، دون أن يكون ليسوع يد فيها... فلنستعرض هذه المواجهة:

(1) مواجهة بولس مع ذاته:

بولس يهودي وفريسي ومُضطهِد (النصوص كثيرة، أبرزها رسالته الثانية إلى الكورنثيين، وخصوصاً المقطع (11/21-22)

(2) مواجهة بولس مع اليهودية:

- سيعالج الموضوع مطولاً نسبياً في فقرات لاحقة...
- حسبنا أن نشير اليوم إلى أمر واحد فقط: عقد أول مجمع كنسي في القدس، حسماً للخلافات القائمة آنذاك بين المتمسكين بالشريعة الموسوية من المسيحيين الجدد والرسل، والداعين إلى التحرّر منها باسم حرية المسيح...

(3) مواجهة بولس مع بعض أبرز الرسل:

+) مع بطرس بالذات (غلاطية 2/11-14)

+) برنابا شريكه في الخدمة (أعمال 3/13 و12/13 و26/15-41)

(4) مواجهة بولس مع الرومان

+) هو مواطن روماني يعرف كيف ومتى يطالب بحقّه وكرامته

+) عرف كيف يستخدم مواطنيّته للحفاظ على كرامته ولخدمة رسالته

(5) مواجهة بولس مع تلاميذه وبعض المسيحيين

تلك كانت مواجهة بولس الكبرى، وقد سبّبت له ألماً لا يوصف، ولكنها أغنته فكرياً وروحياً على نحو مذهل...

+) بشأن تساوي الناس جميعاً في المسيح (غلاطية 3/26-28)

+) بشأن الوحدة المسيحية (1 كور 1/10-12 و3/3-9) و(أفسس 4/1-6)

+) بشأن قداسة الإنسان وتقديسه (1كور 2/16-17 و6/9-11) وبنوّته لله (غلاطية 1/1-10)

+) بشأن البتولية والزواج، وأولوية الرسالة، وخطر المال، وسقوط "الشعب المختار...

×) قدسية الزواج (أفسس 5/21-33)

×) وحدة الرابطة الزوجية (1 كور 7 بكامله)

×) بشأن حرية الرسول وممارسته العمل للعيش (2 كور 9/15-18)

×) بشأن المال: هو أصل الشرور (1 تيمو 10/6)، هو وسيلة مشاركة بين المؤمنين (روما 15/25-29)، وهو خطر على الأسقف (1 تيمو 3/2) وعلى الأغنياء (1 تيمو 6/17-19)

+) بشأن اختيار الشعب اليهودي وسقوطه (روما 10-11)

+) بشأن ضعفه الشخصي وقوة الرب فيه: جبروت وافتقار إلى الصداقة (2 كور 2/12-13) شوكة في الجسد (2 كور 12/7-10) - يأس وحضور الرب (أعمال 18/9-11).

الفصل الرابع

نشوء المسيحية

عشيّة موته، قال يسوع لتلاميذه: "ثِقوا: فقد غلبتُ العالم".

قالها، وكل شيء كان ينهار من حوله، وفي اليوم التالي "انهار" هو أيضاً...

وبعد أيام قليلة، بدا واضحاً لقلة قليلة أنه "غلب العالم"...

وبعد سنوات قليلة أيضاً، بدا للكثيرين أنه "غلب" العالم...

مع "أنه" واجه "عالَمَين" ارتفعا كجدارين صخريّين في وجهه...

سنحاول بإيجاز بالغ أن نوضح ملامح هذين العالمين: العالم الروماني والعالم اليهودي.

أولاً: العالم الروماني

ما إن بزغت المسيحية، حتى انتشرت خارج حوض المتوسط... ولكن العالم الروماني كان "موطنها" الأول، وكان في الوقت نفسه عقبة كبرى في وجهها. يتضح ذلك إذا ما استعرضنا، بإشارات خاطفة، خصائص الإمبراطورية الرومانية، من اتساع وتماسك وحضارة وفكر. ففيها كلها تربة مزدوجة بالنسبة إلى المسيحية: تربة مقاوِمة وتربة مرحِّبة...

(1) قوة الإمبراطورية

- المساحة: ثلاثة ملايين كيلومتر مربع: من اسبانيا إلى أرمينيا غرباً وشرقاً، ومن انكلترا إلى مصر شمالاً وجنوباً.

- عدد السكان: قرابة ستين مليون.

- السيطرة: كاملة. وقد بلغت قوة السلطة حداًّ لم يتخلخل معه الحكم، حتى في عهود أباطرة مجانين أو معتوهين، مثل "كلوديوس" ونيرون وكاليغولا.

- اللغة السائدة: اليونانية، ثم اللاتينية.

- الديانات: جميع الديانات القديمة، وما كانت "تفرّخه" من إبداعات جديدة...

إنه عالم ضخم جداً، بحيث بدت المسيحية إزاءه، بالمعيار البشري، في منتهى الضعف والعجز...

(2) **الجو الديني والأخلاقي**

- انفتاح كامل على جميع الديانات والتيارات الدينية... بكل ما فيها من "ممارسات وعادات وأخلاق"...

- تأليه للإمبراطور يجسّد أقصى ما يُطلَب من "المواطن"، وفاء للسلطة التي صنعت الإمبراطورية.

- كثرة المعابد وانتشارها يزيد من تقيّد الناس بالطقوس الدينية، وإن كان لا يعرب في الحقيقة عن تديّن عميق.

- الجنود الرومانيون والتجار يجلبون المزيد من الديانات والآلهة، من شتى أنحاء المعمورة، وروما بلغت من الثقة والقوة ما يؤهلها لاستيعاب كل ذلك دون "عسر هضم"...

- بعض هذه الديانات، ولا سيما الديانات "ذات الأسرار"، تُشبِع قليلاً ما يعتمل في أعماق النفوس من قلق صوفيّ وحنين إلى المطلق، ورغبة في الاتحاد بالألوهة...

- ولكن في هذا البناء الديني الضخم والمتنوع، تصدّعات واضحة انعكست على الصعيد الأخلاقي:

- السلطة أفسدت الممسكين بها ومَن حولهم...

- الثروات الفاحشة أفسدت النخبة المثقفة...

- الشعب المعتمِد في "العمل" على العبيد وحدهم، بات لا ينتظر من الدولة والحياة سوى "الخبز واللعِب".

- الأسرة كانت البوتقة التي انعكست فيها جميع هذه الأعراض السلبية، فضلاً عن الطلاق الذي كان سائداً على نحو شائع جداً حتى بات هو القاعدة...

(3) العناصر الداعمة للمسيحية أو المؤاتية

- الإمبراطورية تعني العالم المتحضّر، وهي تتقبّل كلّ جديد من عِرق ودين وفكر... وفي هذا استعداد واضح لانتشار المسيحية.

- السلام منتشر في كل البقاع، على الرغم من مخاطر السفر الحقيقية...

- المواصلات برّاً وبحراً، كثيرة وآمنة عموماً.

- انتشار اللغتين: اليونانية واللاتينية، يساعد حَمَلة البشرى الجديدة...

- الحضارة بوجهيها الإغريقي واللاتيني، والاختمار الفكري يشحذان العقول.

- الديانات ذات الأسرار تفتح القلوب على كل جديد، حيث تَعِد الناس بالجواب المنتظر أو الأجوبة المنتظرة...

(4) العناصر المقاومة للمسيحية

- أن تكون السلطة الزمنية "إلهاً"، أمر مرفوض قطعاً بالنسبة إلى المسيحي... فالمطلوب من المسيحي أن يصلّي من أجل الإمبراطور، لا أن يصلي له... وكان في هذا الموقف "ظاهر" تمرّد على السلطة الإمبراطورية، التي هي مركز كل شيء...

- ما بين الديانات الكثيرة والمسيحية، تعارض جوهري كما بين التعددية الإلهية والوحدانية المطلقة... بحيث بدا المسيحيون "ملحدين عنيدين"، يجب ترويضهم وبالتالي اضطهادهم...

- الأخلاقية المسيحية و"الأخلاقيات" الوثنية على طرفَي نقيض: وقد اتُّهم المسيحيون بأنواع بالغة القذارة من التّهم، جلبت عليهم حقداً شعبياً غذّى مقاومة السلطة لهم...

ثانياً: العالم اليهودي

تحدّثنا بشيء من التفصيل عنه، ولكن لا بدّ من إشارات تبرز أهم ملامحه:

(1) اليهود داخل فلسطين

- قرابة مليون يبذلون كل ما لديهم، ليدافعوا عن وجودهم ودينهم، بحيث إنهم لم يعرفوا سنة واحدة، طوال القرن الأول المسيحي، لم تتخللها حركات تمرّد دموية، حتى انتهت إلى دمار القدس عام 70 ب.م.

- شعب يدّعي الاختيار الرباني، وبالتالي يتصرّف باستعلاء فظّ حيال كل ما عداه، ويعتبره نجساً وملعوناً...

- المسؤولون الدينيون من فرّيسيّين وكهنة وكتبة، يغذّون باستمرار هذا التعصّب وهذا التعالي القاتل...

- كان الشعب ينتظر "المسيح"، ولكنه ألبَسَه حلّة سياسية، هي حلّة المحرّر الذي سيطرد المحتلّ الروماني، ويفرض سيطرة اليهود على العالم أجمع. ولم يكن ثمّة سوى قلّة قليلة جداً تنتظر المسيح، "أمير السلام" الذي بشّر به الأنبياء منذ القديم...

(2) اليهود في الشتات

- كانوا قرابة مليون ونصف المليون في مختلف أنحاء العالم، حيث أقاموا إما بصفة عبيد، أو منفيّين أو تجّار... وكانوا يتّسمون بسمات ثلاث أساسية:

+) تضامنهم مع يهود فلسطين، إذ ظلّت القدس قبلة قلوبهم وأنظارهم، يرسلون إليها ضريبة الهيكل، ويتوجهون إليها في الصلاة، ويحلمون بالحج إليها، ويردّدون الصلوات بهذا الشأن... وكان يحدو الجميع حلم المسيح الآتي...

+) قدرتهم على التكيف على كل صعيد، ما عدا الصعيد الديني... فقد تقبّلوا أفكار سواهم، فبَصَمت بعض أسفارهم... كما أنهم ترجموا الكتاب المقدّس إلى اليونانية... وكانوا في معظمهم ميّالين إلى الأخذ بالحضارة الهيلينية، التي كان يهود فلسطين عموماً يرفضونها...

+) نزعتهم إلى التبشير، بخلاف يهود فلسطين الذين كانوا منطوين على أنفسهم إلى أبعد الحدود... وقد جمعوا حول كل جماعة لهم، جماعة من الذين "يخشون الله"، كما أطلقت عليهم التسمية، من وثنيّين يتعاطفون مع الوحدانية اليهودية، وانتظار المسيح الآتي...

(3) العوامل المؤاتية للمسيحية

- انتظار المسيح الآتي...
- حلم عدالة تنبع من وصايا الله... ومن معاناة طويلة وعميقة...
- صلابة في الإيمان تمرّست في الاضطهادات وحركات التمرّد زماناً طويلاً...
- انفتاح ذوي النزعة الهيلينية نحو "الآخرين"، ورغبتهم في تبشيرهم...

(4) العوامل المناوئة للمسيحية

- توقع المسيح المنتظر تحوّل إلى تصلّب سياسي صرف حتى التطرف الأعمى...
- التمسك بالشريعة الموسوية تحوّل إلى "شكلية دينية مطلقة"، أنستهم الجوهر والمرجو...
- يقين الاختيار الإلهي أنساهم المسؤولية المترتبة عليه حيال الأمم كلها، وغذّى لديهم شعوراً بالتعالي مَرَضياً ومميتاً، دفعهم إلى مقاومة الله نفسه، كما قال لهم أول شهداء المسيحية القديس "استفانوس"، عندما قادوه أمام المحفل ليحاكمه: (أعمال الرسل 7/51-53)

« يا قساة الرقاب، إنكم في كل حين تقاومون الروح القدس.

كما كان آباؤكم، كذلك أنتم.

فأيّ نبيّ من الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟

ولقد قتلوا الذين أنبؤوا بمجيء الصدّيق، ذاك الذي قد أسلمتموه الآن، وصرتم له قتلة،

أنتم الذين تَسَلّموا الشريعة على يد الملائكة، ولم يحفظوها... »

ثالثاً: الخميرة المسيحية المتناهية في الصغر

(1) الحدث التاريخي الأساسي: موت يسوع

- الوثيقة المسيحية: المسيحية كلها بجميع كتّابها الأوائل، تؤكد أن يسوع مات صلباً في عهد بيلاطس البنطي، الذي كان يحكم باسم روما، اليهودية والسامرة: فقد قال عن نفسه إنه "ابن الله". كان من الناصرة، وقد علّقت في أعلى الصليب عبارة تقول: "يسوع الناصري ملك اليهود"...

- الوثيقة الوثنية: أبرزها ما جاء في "حوليات" المؤرخ الروماني "تاكيتوس" الذي كتب يقول حوالي عام 116 عن المسيحيين "إن اسم المسيحيين جاءهم من المسيح الذي حُكِم عليه بالموت في عهد الإمبراطور طيباريوس، من قبل الوالي بيلاطس البنطي"...

(2) الحدث الأكبر الحاسم: قيامة يسوع

- الواقع أن التلاميذ، كما جاء في الأناجيل كلها، كانوا قد انهاروا بعد موت يسوع...

- ولكن نبأً عجيباً فاجأهم صبيحة اليوم الثالث لوفاته: إنه حي، وهو تراءى ويتراءى لعدد من التلاميذ...

- تسلسل أحداث ترائي يسوع للتلاميذ، استمر مدة أربعين يوماً، بحيث رسّخ لديهم يقين "المستحيل"، أي أنه حيّ وقد قام من القبر، وكلّفهم بنقل هذه البشرى الغريبة إلى العالم أجمع، بثقة لا تتزعزع...

- الواقع الآخر الحاسم أن التلاميذ، على قلّة عدد مذهلة، وبعد أن كان الخوف يكبّلهم، انطلقوا يعلنون النبأ الأكبر: المسيح قام: تلك كانت المهمة الوحيدة التي كلّفوا بها، كما جاء على لسان زعيمهم بطرس في سفر أعمال الرسل (21/1).

رابعاً: أهمية حدث القيامة ومرماه

يترتب على حقيقة القيامة، حقيقتان أخريان لا تُفهم المسيحية من دونهما:

(1) القيامة هي قلب التاريخ.

على الصعيدين، الشخصي والعام، إقرار القيامة أو إنكارها، يستتبعه موقفان لا يمكن اتخاذ الحياد حيالهما: فإما هناك معنى للتاريخ البشري، وإما أن المسيحية تنطوي على دجل هو أخطر ما تكون البشرية قد عرفته... وعلى هذا وذاك يترتب موقف أخلاقي شامل وحاسم يوجّه الحياة كلها...

(2) حضور الرب الدائم في التاريخ.

فقد أكد لتلاميذه أنه أبداً معهم حتى انقضاء العالم...

وتَغيُّرهم السريع كان الدليل الأكبر والأعظم على هذا الحضور...

وظهور القديسين منذ ألفي عام إلى اليوم، دليل آخر قاطع على هذا الحضور الفريد والحي...

كما وأن حدوث "خوارق" بين حين وآخر، في هذا المكان أو ذاك، يعجز العلم عن تفسيرها، وتترافق بخوارق أخرى من أشفية وانسكاب زيت مثلاً الخ... كل ذلك دليل آخر قاطع لمن يريد أن يرى ويفهم، أن الرب حي إلى الأبد ويُحيِي من يؤمن به...

من هنا كانت "فُتُوّة" الكنيسة، على دنوّها من الألفي عام...

ومن هنا أيضاً كانت "قيامة" المؤمنين، بعد ضياع أو سقوط أو حتى "موت"...

خامساً: الكنيسة الأولى

يتصور الكثيرون أن المسيحيين الأوائل كانوا أناساً استثنائيين، أولاً لأنهم أقرب، من حيث الزمان، إلى الرب يسوع، ثانياً لأن الوصف الذي جاء عنهم في سفر الأعمال، يبرز لديهم جوانب مشرقة. يجدر بنا أن نستعرض ملامحهم الميدانية في لمسات سريعة، كي نستشفّ من خلالها وجه ذاك الذي كان الاستثناء الأكبر في تاريخ البشرية، يسوع الناصري.

(1) هوية المسيحيين الأوائل

1. وضعهم المدني:

من حيث العمل، كانوا يمارسون جميع أنواع العمل: فمنهم الصيادون (يوحنا وبطرس ويعقوب) ومنهم الفلاحون (سمعان القيرواني)، وبعضهم على درجة ما من الثقافة (متى العشار)، وآخرون من الكتبة (نيقوديموس) أو أطبّاء (لوقا). وبعضهم غني (يوسف الرامي)، وبعضهم صاحب أراض (برنابا القبرصي). إلا أن غالبيتهم الساحقة كانت من الفقراء أو المتوسطي الحال.

من حيث الانتماء، كانوا بادئ الأمر يهوداً من فلسطين، لا يتجاوزون المائة والعشرين، وقد انتقى منهم يسوع اثني عشر تلميذاً خصّهم بحضور مميز. ثم جاء يهود من الشتات، بعد العنصرة، من جميع أنحاء العالم (أعمال الرسل 2/5–11)، وقد نال ثلاثة آلاف منهم العماد في ذاك اليوم. وما من شك في أنهم عادوا إلى بلادهم يحملون معهم البشرى الجديدة، ليقيموا بها جماعات من المؤمنين جديدة، سوف تنمو بدورها... وما من شك أيضاً أن كثيرين، بعد انطلاقة الحماس الأولى، تراخوا وعادوا إلى حياتهم السابقة، دون أن يكون العماد مع "الثلاثة آلاف" قد ترك فيهم أثراً يذكر!

2. سمات هذه الجماعة الأولى:

جاء خير وصف لها في ما كتبه القديس لوقا في أعمال الرسل (2/42-47):

« كانوا مواظبين على تعليم الرسل، والشركة، وكسر الخبز والصلوات. ووقع الخوف على كلّ نفس، لأن عجائبَ وآياتٍ كثيرةً قد جرت على أيدي الرسل. وكان جميع المؤمنين يعيشون معاً، وكان كلُّ شيءٍ مشتركاً فيما بينهم. وكانوا يبيعون أملاكَهم ومقتنياتِهم، ويوزّعون أثمانَها على الجميع بحسب حاجة كلٍّ منهم.

وكانوا كلَّ يومٍ يلازمون الهيكل بنفسٍ واحدة، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعامَ بابتهاجٍ وسلامةِ قلب. ويسبّحون الله، نائلين حظوةً عند جميع الشعب. وكان الربّ، كلَّ يومٍ، يزيد عددَ المخلَّصين. »

بوسعنا أن نرى في هذا المناخ المفعم بالفرح والثقة والاندفاع، نتيجة منطقية لمشاعر ثلاثة رئيسية سيطرت على المسيحيين الأوائل، هي:

1- محبّتهم الشاملة: فالنفَس الاشتراكي واضح وشامل. مَن يملكون شيئاً ما، يبيعونه طوعاً ليغذّوا به صندوقاً جماعياً للتعاون، ولصالح الأخوة الأكثر فقراً. وسرعان ما نظمت خدمة عامة، اضطرّ معها التلاميذ لاختيار "شمامسة"، يكلون إليهم مهمة الخدمة المادية هذه (أعمال الرسل 6/1-7)، كي ينصرفوا هم إلى "الصلاة وخدمة الكلمة" (أعمال 6/4). ويؤكد لوقا أنه "لم يكن بينهم محتاج" (أعمال 4/24). فحقّقوا بذلك ما يبدو أنه اشتراك كامل في المحبّة والإيمان والممتلكات.

2- وحدتهم في المسيح: هذه الوحدة تجلّت في طقوس كثيرة، أبرزها: الصلاة المشتركة سواء في البيوت أو في الهيكل، والعماد الذي ينتمون فيه إلى المسيح قلباً وقالباً، فرداً وجماعة، والذبيحة الإلهية أو "عشاء الرب"، أو ما يسمى أيضاً بكسر الخبز، الذي يُحيون به ذكرى موت الربّ وقيامته، ويعمّقون به اتحادهم الوجودي الكامل بالمسيح. كما كان حضور التلاميذ الأولين فيما بينهم، امتداداً حقيقياً لحضور الرب نفسه، وصدى لتعاليمه...

3- انتظارهم لعودة المسيح الوشيكة: ففي يوم الصعود، رأى التلاميذ، "وهم يشخصون بأبصارهم إلى السماء"، "رجلين عليهما لباس أبيض،... يقولان لهم: "ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا، كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء" (أعمال 1/9-11). ويأتي ذكر هذا التوقّع مراراً، في رسائل التلاميذ إلى المسيحيين الأوائل. وقد ختم القدّيس يوحنا رؤياه بهذه العبارة: "فالشاهد بهذه الأشياء يقول "نعم، إني آتٍ عن قريب، آمين. تعال أيها الرب يسوع" (رؤيا 22/20)

3. توزيع المسؤوليات في الكنيسة الأولى:

كان ثمة مسؤولون في الكنيسة الأولى، وكان ثمة ترتيب بين التلاميذ أنفسهم. ذلك ما أراده يسوع نفسه. فقد اختار اثني عشر من بين الآلاف... وأعطاهم سلطة واضحة حيث قال لهم، فيما قال: "مَن سمع منكم، فقد سمع منّي" (لوقا 16/80). وخوّلهم صلاحيّات غريبة: ففي أمور التوبة، قال لهم: "خذوا الروح القدس، مَن غفرتم خطاياهم، تُغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم، تُمسك لهم" (يوحنا 32/20). وفي أمر الذبيحة، قال: "اصنعوا هذا لذكري" (لوقا 22/19). وحمّلهم قُبيل صعوده إلى السماء، مهمة ضخمة: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتُكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (متى 27/18-20).

لم يكتفِ بذلك. بل عمَد ضمن الاثني عشر، إلى تعيين مسؤول عنهم هو بطرس، حيث قال له: "وأنا أقول لك: أنت صخر، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي، وقوى الجحيم لن تقوى عليها. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكلّ ما تربطه على الأرض، يكون مربوطاً في السماوات، وكلّ ما تحلّه على الأرض، يكون محلولاً في السماوات". (متى 16/18-19). وقد مارس بطرس، بموافقة من الجميع لا جدال فيها، هذه "الأولوية". وهو هو

الشخصية الأولى في المسيحية، من يوم العنصرة وما قبله، لدى اختيار خلف ليهوذا (أعمال 15/1 تابع)، إلى ظهور بولس الذي قصد القدس ليقيم لدى بطرس خمسة عشر يوماً (غلاطية 18/1). وقد ذُكر بطرس في الأناجيل (118) مرة، بينما لم يذكر يوحنا مثلاً، مع أنه يوصف بأنه التلميذ الذي "كان يسوع يحبّه"، إلا (38) مرة...

(2) الصدام المبكر بين "المسيحية" واليهودية

سرعان ما واجه "المسيحيون" وضعاً قاسياً ودقيقاً جداً: ما الموقف الذي يتوجب عليهم أن يتّخذوه من اليهودية، وقد جاؤوا كلهم منها بادئ ذي بدء؟ فهم ما زالوا مرتبطين باليهودية، ويصلّون في الهيكل أو المجامع (الكُنُس)، ولكنهم يريدون الولاء الكامل للرب يسوع... فكانت المواجهة المحتومة، يفجّرها اليهود في كل مكان بدءاً من القدس، ولكل حجّة حتى لو كانت مختلقة، كما فعلوا مع المسيح نفسه... ومما زاد الصدام تأجّجاً، إقبال غير اليهود على اعتناق المسيحية... وقد ترتّب على ذلك موقف اتخذ شكلين واضحين ومتكاملين:

<u>الأول</u>: كان انفصالاً عنيفاً عن اليهودية: بدأ زعماء اليهود بملاحقة التلاميذ، إذ بلغهم أنهم يبشّرون بيسوع "حيّاً". فعمد الرؤساء إلى شتى الطرق من تهديد وضرب واعتقال. وكان جواب التلاميذ دوماً مواصلة التبشير دون اكتراث بما يوجه إليهم اليهود من اضطهاد وتهديد... وقد لخّص بطرس كل ذلك بكلمتين: "لا نستطيع إلا أن نقول بما رأينا وسمعنا... إن الله أحقّ بالطاعة من الناس..." (أعمال 4-5). وبرز من صفوف المسيحيين المتأغرقين، وجه جديد على جانب كبير من الشجاعة والاندفاع، هو استفانوس. (أعمال 6-7). فقد أدرك جدة المسيحية وأولوية المسيح على موسى. فقال بذلك علناً، ودعا إلى التخلي عن اليهودية، فحاكمه زعماء اليهود إياهم الذين حاكموا يسوع قبله بفترة وجيزة. وأمروا برجمه، وهكذا كان. فرأى المسيحيون الجدد، ما عدا الرسل، أن

يهربوا من القدس... وكان ذلك إيذاناً بتطور جديد كُتب له أن يحرّر المسيحية من اليهودية، ويطلقها في جوهر شموليتها.

الثاني: كان تطوراً داخلياً نبع من الظروف الجديدة التي أحاطت بالمسيحية. فقد طرح السؤال، أول ما طرح، في أنطاكية: ما يترتب على المسيحيين أن يعملوا في وجه اليهود والأمم معاً؟ أيبقون على العادات اليهودية بعد أن اعتنقوا الإيمان الجديد، أم يتخلّون عنها، ولا يرهقون المتنصّرين الجدد بعادات وطقوس مرهقة، لا تمتّ إلى المسيح بصلة؟ وقد جاء الجواب على مراحل: جاء أولاً في رؤيا عاشها بطرس زعيم الرسل. تلك هي حادثة عماد الضابط الروماني الوثني كورنيليوس وأسرته، كما رُويت في أعمال الرسل (10)... وجاء ثانياً في مجمع عُقد في القدس - وكان أول مجامع الكنيسة - تقرّر في نهايته أن تُترك للمتنصّرين الجدد حرية كاملة إزاء العادات والطقوس اليهودية... ومع ذلك، فالأزمة لم تنته، بل ظلّت قائمة لفترة، حتى قام ذات يوم، صدام عنيف بين بولس وبطرس، في أنطاكية عينها... وأخيراً أُخذ بما يدعو إليه بولس حيث يقول ويردد (كولوسي 11/3): "ليس ثمة يوناني ولا يهودي، لا ختان ولا قلف، لا أعجمي ولا اسكوتي، لا عبد ولا حرّ، بل المسيح، الذي هو كل شيء، وفي كل شيء"... المسيح إذن هو الوحدة التي فيها ينصهر وجود المؤمن، فرداً وجماعة...

(3) الكنيسة بين بنائها الخارجي ووحدتها الداخلية:

هل ثمة توافق بين كنيسة الأمس وكنيسة اليوم؟ أي بين جوهر المسيحية وظاهرها؟ وهل، بالتالي، الكنيسة اليوم هي هي كنيسة الأمس القريب، والأمس البعيد؟

(1) البناء الخارجي: للوهلة الأولى يبدو أن كنيسة الأمس ليست بكنيسة اليوم... ففي الكنيسة الأولى جانب عظيم من العفوية والبساطة والمشاركة العامة، بينما اليوم تواجهنا مؤسسة مثقلة بمؤسسات نمت طوال ألفي عام... ولكن حذار أن ننسى أن هذه الكنيسة الأولى كانت هي

أيضاً تعاني مما تعانيه كل مؤسسة بشرية: فهناك من يقاوم النزعة المسكونية الكاملة، ومن يحتال على التلاميذ ليحتفظ بقسم من الأموال التي باع بها ممتلكاته، وهناك علاقات ومشادّات كثيرة، وفضائح أخلاقية (راجع رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيين الفصول: 1 و5 و11). والحقيقة أن هذه الكنيسة - التي تبدو لنا للوهلة الأولى مثالية - تعاني من كل ما يعاني منه بشر... ثم إن "حبّة الخردل" قد نمت، فجاءت طيور كثيرة لتستظل بها وفيها، فكان منطقياً وطبيعياً أن تتعدّد الآراء ومعها المواقف...

(2) الحقيقة الجوهرية: هي المسيح: حضوره وفعله في الكنيسة وتعليمه... وما عدا ذلك فكل شيء طارئ وعابر... فاللغة واللباس والطقوس والتنظيم الإداري والإطار الاجتماعي، كل ذلك أمور طارئة، قد تستمر فترة وتنتهي، أو تتبدل بعد فترة... أما الذي لا يتبدّل ولا يُلغى بأولى حجة، إنما هو المسيح والاتحاد به عبر الكنيسة، في طقوس وأسرار أرادها هو، وليس البشر... ولكنها طقوس تحتاج بين حين وآخر، إلى إعادة نظر، لئلا تُنسينا الجوهر، كما ينسينا الثوبُ الإنسانَ الذي يرتديه وقيمتَه الذاتية. فالمواجهة بين المظهر والجوهر، قائمة منذ اللحظة الأولى وستستمرّ إلى الأبد...

سادساً: التأسيس

(1) منطق التاريخ وعلم الاجتماع

1) إن منطق التاريخ وعلم الاجتماع يؤكّدان أن ما من مؤسسة دامت فترة من الزمن، إلا وأفرزت مؤسسات تابعة لها، أملتها الحاجة أو الضرورة...

2) وإن التاريخ المسيحي، ما بين القرن الأول ونهاية الثالث، ليثبت بالوقائع صحة هذا القانون.

3) ولقد كانت أول مؤسسة أملتها ضرورة الرسالة، رتبة تسمّى إلى اليوم، رتبة "الشموسية" (والكلمة سريانية تعني الخدمة)، وهي هنا تعني الخدمة الزمنية المساندة للخدمة الروحية. وقد روى سفر أعمال الرسل ظروف نشوء هذه الرتبة (الفصل 6).

4) وسينطبق الأمر نفسه على أمور كثيرة، نبتت في تربة المسيحية بصورة طبيعية... منها ما يتعلق بالصلاة والطقوس والأعياد، ومنها ما يتعلق بالإدارة والتنظيم، ومنها ما يتعلق بالتعليم والتبشير والكتاب المقدس...

5) نستعرض الآن أهمّها، مما بدا ثابتاً في أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع.

(2) الأحداث البارزة في تأسيس المسيحية

1) الحدث الأول: تثبيت أسفار العهد الجديد.

(1) كيف ثُبِّتت؟

1- لم يكن هناك موقف مسبق ومعلن.

2- إنما الحياة المسيحية، صلاةً وتأملاً وتفكيراً، أي التعامل مع التعليم الخاص بيسوع، والكتابات المتعلقة به، هو الذي أملى القرار بمرور الزمن، وفي مختلف أمكنة تواجد المسيحيين...

3- تبين أن هذا القرار التلقائي استند إلى مقياسين رئيسيين، أجمع عليهما المسيحيون دون أي اتفاق مسبق، لا سرّي ولا علني:

+) قبول هذا التعليم وهذه الكتابات في جميع الكنائس، بوصفها منسجمة مع العقيدة المُعاشة والمُعلنة...

+) إسناد هذا التعليم وهذه الكتابات بصورة ثابتة، إلى أحد رسل المسيح، إما بصورة مباشرة (مثل متى ويوحنا)، وإما بصورة غير مباشرة (مثل مرقس ولوقا).

(2) متى ثُبِّتت أسفار العهد الجديد؟

1- ثمة وثيقة تعود إلى القرن الثاني، تضم قائمة بأسفار العهد الجديد، تماماً كما نعرفها اليوم، باستثناء رسالتَي بطرس ورسالة يعقوب. والوثيقة كتبت في روما. وهي تُعرَف باسم "قانون موراتوري". وموراتوري هو حارس مكتبة ميلانو الشهيرة، وقد عثر على هذه الوثيقة في هذه المكتبة ونشرها عام 1740.

2- كما عُثر على نسخ من "قانون موراتوري"، تعود إلى ما بين 359-400، في إفريقيا وآسيا الصغرى ومصر وروما.

3- وفي عام 297، أقرّ مجمع قرطاجة اللائحة النهائية لأسفار العهد الجديد، كما نعرفها اليوم، بأسفارها السبعة والعشرين. ولم يطرأ عليها أي تغيير منذ ذلك الحين.

(3) ثمة سؤال حول مضمون الأسفار: هل كل ما ورد فيها، يضم كل ما قال الرب وما كتب التلاميذ؟

1- بالتأكيد لا. وذلك لأسباب كثيرة سبق أن أشرنا إليها...

2- إنما الجوهر موجود، وإلا ضاعت الحقيقة...

3- والكنيسة أبقت بحرص بالغ على ما كُتِب، واحترمت أسلوب كل كاتب، وذلك حفاظاً على صحة الرسالة... مع أنه قامت منذ منتصف القرن الثاني، محاولات توحيد لنص الأناجيل، كما فعل كل من "مرقيون" و"تاتيانوس".

(4) ألا يشكل الفارق الزمني بين حياة يسوع، وأولى المخطوطات المعروفة لأسفار العهد الجديد، شائبة على صحتها وأمانتها؟

1- صحيح أن الفارق الزمني المطروح يبلغ قرابة (300) عام...

2- ولكن الفارق الزمني المعروف، كما أشرت إلى ذلك سابقاً، بين عيون الأدب العالمي القديم، من إغريقي ولاتيني وعربي، يفوق هذا الفارق بما لا يقاس، ومع ذلك فالنصوص المنسوبة إلى كبار الكتاب والفلاسفة والشعراء، تُقبل دون نقاش يُذكر، بل أحياناً دون أي نقاش...

3- ثم إن بعض هذه الفوارق الزمنية، تبلغ مثلاً بالنسبة إلى بعض كبار الكتاب الإغريق، مثل "اسخيلوس" و"سوفوكليس" و"اريستوفانيس" و"توسيديدوس"، (1400) سنة... أما الفارق الزمني الذي يخص "أوريبيدس" مثلاً، فيبلغ (1600) سنة...

4- فما الذي يحول في مثل هذه الحال، دون قبول نصوص العهد الجديد، علماً بأن ما يميز نصوص الإنجيل عن سواها، كان كلاماً عاشه

الناس وماتوا في سبيله، حتى قبل أن تُكتَب كلمة واحدة منه؟... فهل تُراهم يفرّطون به، أم تراهم يتناقلونه بحرص يفوق حرصهم على حياتهم بالذات؟

2) الحدث الثاني: تثبيت قانون الإيمان.

تم ذلك على مراحل بتأثيرات مختلفة من هنا وهناك، بدءاً ببعض نصوص وردت في رسائل التلاميذ والرسل، ولا سيما القديس بولس وأعمال الرسل (مثلاً: 1 كور 15/3-5 و6/8 وأعمال 22/2-38 و13/3-38 و13/3-19 و25/13-38 ومرقس 14/1-15). ثم تداول الناس أقوالاً وردت لدى بعض آباء الكنيسة، مثل القديس أغناطيوس الأنطاكي (+117) والقديس ايريناوس (202).

1- ظهرت أول صيغة معروفة لقانون الإيمان في القرن الثاني، وهي تحمل اسم "قانون الرسل". وهي بالطبع ليست من وضع الرسل، ولكنها تكثّف الإيمان وتقدّمه في صيغة جامعة. وقد وردت في هذه الصيغة:

« أؤمن بالله،

الآب الكلي القدرة، خالق السماء والأرض.

وبيسوع المسيح، ابنه الوحيد، سيّدِنا، الذي حُبل به من الروح القدس، ووُلد من العذراء مريم، وتألم في عهد بيلاطس البنطي، وصُلب ومات وقُبر ونزل إلى الجحيم، وفي اليوم الثالث قام من بين الأموات، وصعد إلى السماوات، وجلس عن يمين الآب الكلي القدرة، حيث سيأتي ليدين الأحياء والأموات.

وأؤمن بالروح القدس

وبالكنيسة المقدّسة الكاثوليكية (والكلمة أصلاً تعني الشمول)

وبشركة القديسين

وبمغفرة الخطايا

وبقيامة الجسد

وبالحياة الأبدية، آمين. »

2- وظهرت بعد ذلك صيغة هي المعروفة والمتداولة إلى اليوم... وقد استندت إلى الصيغة القديمة... واستلهمت توضيحات المجامع المسكونية في مقاومة بعض الهراطقة:

+) مثل آريوس، حول ألوهية الابن، وذلك في مجمع نيقيا (عام 325)

+) ومثل أبوليناريوس حول ألوهية الروح القدس، في مجمع القسطنطينية (عام 381).

وقد استُعيدت هذه الصيغة، وثُبّتت بصورة نهائية إلى اليوم، في مجمع مسكوني هو مجمع "خلقيدونيا" (عام 451). أما صيغته، فهي هي كما نتلوها اليوم، بفارق كلمة واحدة يجب أن تحذف، وكان لإضافتها في ما مضى، تأثير سيئ جداً على العلاقات بين الكنيسة في الغرب والكنيسة في الشرق. والكلمة التي يجب حذفها هي "والابن" في الجملة: المنبثق من الآب...".

3) الحدث الثالث: ظهور الطقوس الكنسية ودورة الأعياد.

1- كانت الصلاة المسيحية الأولى مستوحاة من صلاة اليهود في الكنس، ومرتكزة أساساً على تلاوة المزامير...

2- شيئاً فشيئاً، نبتت هنا وهناك مبادرات في طريقة الصلاة ومضمونها، لا سيما في ما يخص الذبيحة الإلهية، عُرفت في المراكز المسيحية الكبرى، مثل أنطاكية والاسكندرية وبيزنطة والقدس. وقد تميّزت على سواها بجمالها وترتيبها ومضمونها، فانتشرت شيئاً فشيئاً، حتى إنها حلّت محلّ صلوات سابقة، لم يبقَ منها إلا اليسير.

3- وبات للطقوس، بتأثير هذه الصلوات المسيطرة، نماذج ثابتة من حيث الترتيب والمضمون، فرضت نفسها إلى اليوم في خطوطها، لا الكبرى وحسب، بل التفصيلية أيضاً.

4- وقد تمّ كل ذلك ضمن دورة من الأعياد والأصوام، ترافق الأحداث الكبرى من حياة يسوع والعذراء، وتذكّر بها. كما أن الحدث الأكبر في حياة القديسين، كان حدث موتهم أو استشهادهم، فتحوّل بالنسبة إلى بعضهم

إلى عيد يُضاف إلى سواه من الأعياد، وتُصاغ له الصلوات الخاصة، كما صيغت صلوات خاصة بأعياد الرب يسوع والعذراء. ولسوف أفرد لكل ما يتعلّق بالقداس والصلاة والأعياد فقرات خاصة في حينها.

4) الحدث الرابع: التنظيم الكنسي.

1- أسبابه:

(1) كل عمل جماعي يحتاج بالضرورة إلى تنظيم... هذا بديهي.

(2) انتشار المسيحية وتزايد عدد المؤمنين والمسؤولين...

(3) ضرورة الأمانة التامة للمؤسس، وبالتالي ضرورة المبادرات الفردية واحتوائها من جهة ثانية، واستبعاد المبادرات السلبية، بعد فشل تقويمها من جهة ثالثة.

2- البيئة التنظيمية

(1) ظهرت طبقة الإكليروس (الكلمة يونانية، وتعني مَن اختار اللهَ نصيباً له) ضمن مراتب عديدة ومتنوعة، كانت ثمانية: الأسقف والكاهن والشماس الإنجيلي، والشماس الرسائلي، والمعاون، والقارئ، والمعزّم، والبوّاب (أما رتبة البطاركة فقد ظهرت فيما بعد).

(2) تحدّدت مناطق نفوذ السلطات الكنسية، وفق أهمية المراكز المدنية، فكان لكل جماعة أسقف. فالجماعات الواسعة في المدن، والتجمعات الصغرى لها أسقف ذو نفوذ محدود. والتجمعات الكبيرة والمدن الكبرى، لها أسقف يتمتّع بنفوذ أوسع، وأطلق عليه اسم "رئيس أساقفة".

(3) وتطابق هذا التقسيم المدني والجغرافي، مع التقسيم الكنسي، من ولاية، وإقليم، ومدن كبيرة، إلى مدن صغيرة، أو تجمع قرى، إلى رعايا تؤلف الوحدة الأساسية الصغيرة، لهذا التجمع الكنسي الكبير...

(4) وفي مطلع القرن الرابع (أي بدءاً من مجمع نيقيا عام 325)، أعلن رسمياً أن أسقف العاصمة له الأولوية على جميع أساقفة الولاية.

3- بعض نتائج هذه البنية التنظيمية.

(1) برزت طبقة الكهنوت بمختلف مراتبها، وبالمعنى الاجتماعي والسلطوي.

(2) اتسع نفوذ البعض، بقدر ما كانوا يضطلعون بمهام كثيرة توسع من صلاحياتهم، أو ربما تدرّ عليهم أموالاً طائلة، قد لا تستخدم دوماً للصالح العام...

(3) حدثت عدوى حقيقية بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، لم تكن دوماً لصالح السلطة الروحية، منها: التشبّه بالسلطة الزمنية بلباسها وسكنها ونمط علاقاتها...

(4) برز دور الأسقف على نحو مثير، فكان:

+) من حسناته، أن تحوّل الأسقف إلى رمز قوي وثابت تلتفّ حوله المؤسسة الكنسية كلها، بل أحياناً المؤسسة الاجتماعية كلها، عندما كان كل شيء على وشك الانهيار، وقد تألق هذا الدور إبان غزوات البرابرة لأوروبا...

+) من مساوئه، أنه تضخّم دور الأسقف واستأثر بالسلطة، وانفرد بها دون مجلس الكهنة، الذي تلاشى شيئاً فشيئاً...

5) الحدث الخامس: التبتّل أو الزواج بالنسبة إلى رجال الكنيسة.

1- لم يقم في البدء أي إلزام بكلا الحالتين. وكان تلاميذ يسوع بمعظمهم متزوجين، كما عُرِف لقرون عدد من الأساقفة الكبار المتزوجين، مثل القديس غريغوريوس النيصَصي...

2- ولكن شيئاً فشيئاً، ظهرت نزعة متنامية تطالب المسؤولين الأعلين بالتبتّل...

3- وفي عام (300) قرّر مجمع "ألفيرا" في إسبانيا، مبدأ التبتّل على النحو التالي:

« يحظّر على الأساقفة والكهنة والشمامسة، أي على جميع أفراد الإكليروس، الذين يقومون بخدمة المذبح، أن يواصلوا علاقاتهم الحميمة مع نسائهم، وينجبوا أطفالاً. وكل من يخالف ذلك الحظر، يجرّد من الكهنوت. »

6) الحدث السادس: توافر الشروط المادية لوجود المؤسسة الكنسية.

1- ظهر ذلك أولاً عن طريق تبرّع بعض المؤمنين بالمقابر أو البيوت، لتقام فيها الصلاة...

2- في نهاية القرن الثاني، أي في عهد البابا "زفيريانوس"، نشأت ممتلكات تعاونية خاصة بالكنيسة، دون أن يُعرَف لها زمناً طويلاً سبيل قانوني.

3- كان موقف الدولة الرومانية من هذا التملّك، موقفاً متذبذباً ومتناقضاً، فانتهزت الجماعات المسيحية هذا التذبذب، لتواصل التملّك، حتى كانت ممتلكات الكنيسة في نهاية القرن الثالث، أمراً واقعاً، له صفة قانونية، أقله بحكم التقادم...

7) الحدث السابع: بروز الكنيسة كقوة تاريخية جديدة.

1- اتضح ذلك في الشرق والغرب على السواء:

(1) ففي الشرق، أدرك الإمبراطور قسطنطين أن التاريخ يسير لصالح الدين الجديد، فركب الموجة، حرصاً منه أولاً على وحدة إمبراطوريته، وربما ثانياً بدافع ديني ما...

(2) وفي الغرب، كان كل شيء، ما عدا الكنيسة، ينهار تحت ضربات الخلافات الداخلية، والغزوات البربرية الخارجية...

2- اتخذت معالم هذه القوة الجديدة، مظاهر عديدة، من أبرزها:

(1) انتشار عادة عقد المجامع الكنسية، وهي تُسمّى السينودس، وذلك بمبادرة من الأسقف المحلي أو الإقليمي، سواء في حالات عادية، أو حالات استثنائية.

(2) بروز دور روما وأسقفها، في بلورة وحدة الكنيسة ومركزيتها:

+) مورس هذا الدور بصورة تلقائية، خلال القرون الثلاثة الأولى

×) إما بمبادرة من أسقف روما نفسه (قضية كورنتس والبابا اقليمنضوس)

×) وإما بمبادرة من إحدى الكنائس المحلية، إبان أزمة ما.

+) وقد واجه هذا الدور بعض المصاعب، كما حدث في:

×) قضية تحديد عيد الفصح...

×) قضية فصل عيد الميلاد عن عيد الظهور.

×) قضية قبول توبة "الساقطين"، إبان الاضطهادات، وموقف القديس "هيبوليتس" الشهيد.

×) قضية الخلاف حول سيامة اوريجانيس كاهناً في قيصرية...

+) إلا أن المعروف أن القرار النهائي كان دوماً قرار روما.

وقد اعترف الجميع لأسقف روما بهذه الأولوية:

×) حتى الهراطقة، مثل ترتليانوس الذي كتب يصف البابا في منشور له يهاجمه فيه، بأنه "الحبر الأعظم وأسقف الأساقفة".

×) وبعض الأباطرة، مثل اوريليانوس، الذي حلّ نزاعاً بين أسقفين مرشحين على كرسي أنطاكية، أحدهما كاثوليكي والآخر هرطوقي، وفقاً لهذا المبدأ:

"إن الأسقف الوحيد الصالح، هو ذاك الذي يرتبط بالشركة مع روما".

8) الحدث الثامن: ظهور الفكر المسيحي والمدارس المسيحية.

1- على الصعيد الفردي:

(1) ظهر في صفوف الأساقفة والكهنة والعلمانيين، مفكرون وخطباء وكتّاب، تناولوا الإيمان المسيحي في مواجهة العالم، وإيمان المسيحيين في مختلف البلدان، في مواجهة قضاياهم...

(2) هؤلاء دُعوا "آباء الكنيسة"، لأنهم صاغوا إيمان الكنيسة بما يغذّي فكر المؤمنين وحياتهم، فكانوا بمثابة آباء بالفكر والروح لهؤلاء المؤمنين وللأجيال التالية. ولسوف أفرد للآباء فصلاً خاصاً، لاحقاً.

9) الحدث التاسع: ظهور الفن المسيحي.

إن قضية الفن المسيحي تُعالَج دوماً بالنسبة إلى الفترة التي سبقت والتي تلت الإمبراطور قسطنطين.

1- قبل قسطنطين:

(1) قيل إن القديس الإنجيلي لوقا رسم صورة للعذراء، وكان أول الرسامين في المسيحية. ولكن ليس من يستطيع إثبات هذا الزعم بدليل فني ما...

(2) خضع الفن المسيحي لظروف صعبة إبان الاضطهادات:

+) وقد عُثر في بعض الدياميس على رسوم رمزية، يُقصَد منها تعليم المؤمنين، منها صورة الراعي الصالح...

+) هناك أيضاً أبنية وكنائس عديدة، أو بقايا كنائس تعود إلى تلك الفترة، وهي تحتوي فناً بسيطاً ومتواضعاً، بعيداً جداً عن تصنّع الفن الروماني وزخرفته.

2- منذ قسطنطين:

حسبنا إشارة واحدة إلى مناخ الحرية، الذي تسنّى للكنيسة منذ ذلك الحين، لنُدرك مدى الازدهار والتنوع الذي سيعرفه الفن المسيحي آنذاك وفيما بعد، كما سنأتي على ذكره في حينه.

10) <u>الحدث العاشر: إقرار الإمبراطور قسطنطين بشرعية الديانة المسيحية عام 313.</u>

كان هذا الحدث حدثاً مفصلياً خطير النتائج، إيجاباً وسلباً، على التاريخ المسيحي كله. سوف نذكره في حينه.

سابعاً: الانتشار المسيحي

(1) القوى الثلاث المتقابلة والمتفاوتة:

1. القوة الرومانية

1- السلطة فيها: مطلقة وإلهية، ومنتشرة في كل مكان ضمن تنظيم دقيق.

2- المساحة الجغرافية: شاسعة ومنتشرة حول البحر المتوسط

3- ظاهرة الدين: أشبه شيء ببحر يبتلع كل شيء، ويفرز كل شيء... ما من شيء يثبت على حاله فيه إلا... الدين اليهودي!...

2. القوة اليهودية

1- السلطة فيها

- الزمنية: منعدمة ومقهورة، وفي حنين إلى استعادتها...

- الدينية: بيد السنهدريم وتشمل جميع يهود الإمبراطورية

2- المساحة - مركزها فلسطين، وهيكلها في القدس

- تمتد حتى حاشية الأباطرة ومقرّبيهم...

3- الدين - يعود إلى قرابة ألفي عام، ويستند إلى "اختيار إلهي"

- يرفض جذرياً كل ما عداه، باستعلاء واحتقار لا حدّ لهما

3. القوة المسيحية: "حبة خردل":

- 12 رجلاً + العذراء مريم + الروح القدس

- ليس لها من العمر إلا أيام معدودة.

- سندها الوحيد: "ملعون" صُلبَ، يؤكّد أتباعه أنه حي ومُحيي.

كل مقارنة بين هذه القوى الثلاث، بشرياً، تبدو أكثر من مضحكة...

(2) الانتشار ما بين نقطتين رئيسيتين، نقطة الانطلاق وأواخر القرن الثالث

1. من حيث الاتساع.

1- نقطة الانطلاق:

- يسوع

- 11 تلميذاً

- يوم الصعود: 11 تلميذاً + العذراء + بعض النسوة (أعمال 14/1)

- ما بين الصعود والعنصرة: (120)+(3000) معمَّد جديد (أعمال 41/2)

2- أواخر القرن الثالث:

(أ) - داخل الإمبراطورية:

+) بدءاً من ولاية سورية:

- القدس (أعمال 1-9) وفلسطين

- دمشق (أعمال 9) وسورية الجنوبية

- أنطاكية (أعمال 11/19-26) وسورية الشمالية.

+) إلى أقاصي الإمبراطورية:

- انكلترا (يورك): أقصى الشمال

- قرطبة (إسبانيا): أقصى الغرب

- صعيد مصر (أقصى الجنوب)

- مناطق الدانوب (قلب أوروبا)

+) شيء من التفصيل:

- آسيا الصغرى: معظم المدن والأرياف

- اليونان: السواحل وتراكيا ومكدونيا

- أرمينيا: حوالي عام 200: أول بلد تبنّى المسيحية

- إيطاليا: - عام (190): 3 أساقفة: روما وميلانو ورافينا

- عام (251): عقد مجمع في روما ضمّ 60 أسقفاً

- بلاد الغال (فرنسا الحالية):

- بدءاً من عام 177، ينشر أسقف مدينة ليون، ايريناوس، المسيحية في كل مكان.

- في القرن الثالث: كان في ليون وحدها (12) أسقفاً، بدلاً من أسقف واحد.

- إسبانيا: (35) أسقفاً

- أفريقيا الشمالية: (90) أسقفاً.

(ب) - خارج الإمبراطورية: انتشرت بسرعة في:

- ما بين النهرين

- بلاد فارس والبرتيين

- الهند

- الحبشة

- داخل الجزائر الحالية (المسماة نوميديا)

- مقاطعة بريتانيا الفرنسية (أقصى غرب فرنسا)
- مقاطعة الكلتيين في بريطانيا
- القبائل الجرمانية والغوطية.

2. من حيث الانتماء الاجتماعي: ينتمي المسيحيون إلى مختلف الطبقات:

1- **من "أدناها": ويشهد بذلك كبار المثقفين من مؤمنين ومعادين، منهم:**

- **قلسيوس: فولتير القرون الأولى (منتصف القرن الثاني) يقول ساخراً:**

"إن كان هناك جاهل وأحمق وعديم الوجود، فليأتِ إلينا بكل ثقة".

- **ترتليانوس: المحامي المعادي والمهتدي (القرن الثاني والثالث):**

« إني أتوجّه إليك، أنت الساذج الذي لا يعلَم شيئاً، خارج ما تعلّمه الإنسان في الطرقات والدكاكين. »

- **أوريجانيس، المعلم الأكبر (2-3): كتب يقول إن معظم المؤمنين "نسّاجون، حدّادون، إسكافيون".**

- **ايريناوس: (آخر القرن الثاني) يقول:**

"إن المسيحيين ينتمون إلى الطبقة المحتقرة الواسعة".

2- **إلى "أعلاها": نعني بها تلك التي تملك السلطة أو المال أو الثقافة أو الثلاثة معاً... من هؤلاء:**

- **أطباء في الحاشية الإمبراطورية: طبيب الإمبراطور "سبتيموس ساويروس" (193-211): واسمه "توروباشيو" (Torpacio)**

- **مربي الإمبراطور "كراكلا"، واسمه "ايفودوس" (Evhodus)**

- **أحد القناصلة في عهد الإمبراطور فيليبس العربي (204-249) واسمه "ايميليانوس" (Emilianus).**

- **محامون لامعون، مثل:**

+) **ترتليانوس (200)**

+) القديس غريغوريوس العجائبي (+270)

+) القديس الأسقف "كبريانوس القرطاجي" (+258)، كتب يقول:

« كنت تائهاً في الظلمات كالأعمى، تتقاذفني أمواج بحر هائج. كنت في جهل مطبق بكل ما يخصّ حياتي، ولكن ماء العماد المُحيي غسلني، فانسكب عليّ النور السماوي، وحلّ اليقين في أعماقي محلّ الشك على نحو مدهش. »

+) فلاسفة كبار مثل "يوستينوس" النابلسي الشهيد (حوالي 100–165)

+) نساء نبيلات كالقديسة الشابة الشهيدة "دائمة" (Perpetua)، وقد استشهدت في قرطاجة، وهي في سن (22).

+) مجموعة من كبار ضباط الجيش الروماني: جاورجيوس وديمتريوس وسرجيوس، والشهداء الأربعون من الحرس الإمبراطوري الخاص.

+) مجموعة من كبار الموظفين، الذين هيّؤوا الأجواء لإدارة مسيحية نظيفة، حلّت محل الإدارة الرومانية الفاسدة.

3. من حيث العدد:

1- سؤال: هل بالإمكان تقديم رقم تقريبي لعدد المسيحيين في أواخر القرن الثالث؟

2- جواب: ثمة معلومات ذكرها بعض المعاصرين، يمكن استخلاص أرقام تقريبية منها:

أ- في روما:

+) ذكر البابا "كورناي" (منتصف القرن الثالث) في رسالة له: "46 كاهناً، 7 شمامسة إنجيليين، 7 شمامسة رسائليين، 42 مساعداً للشمامسة، 52 شخصاً ما بين معزّم وقارئ وبواب، 1500 أرملة وفقير".

+) استنتج بعض المؤرخين وجود ما بين (40.000–50.000) مسيحي

ب- في قرطاجة والاسكندرية: أرقام مماثلة.

جـ- في آسيا الصغرى: الكثافة المسيحية أكبر بكثير:

+) في بعض الأماكن تشكل غالبية السكان.

+) في غيرها تشكل مجموع السكان.

3- شهادة معاصرة:

من أجمل ما قيل بهذا الشأن، ما كتبه ترتليانوس، المحامي الوثني الذي درس المسيحية ليهاجمها، فآمن بها وبات يدافع عنها. جاءت شهادته في مؤلف له بعنوان "خطاب إلى الوثنيين" (عام 200):

« لو شئنا أن نتصرّف بوحي من عداء مكشوف، وليس بوحي من انتقام سرّي، هل تتصوّرون أن الرجال ستنقصنا؟... فنحن من الأمس فقط، وها قد ملأنا الأرض. كل ما هو لكم، لنا فيه حضور: المدن والجزر والبلديات والقلاع والقرى وحتى المعسكرات والقبائل والإدارات ومجلس الشيوخ والساحات العامة. إننا لم ندع لكم إلاّ معابدكم. »

ثامناً: المواجهة بين الكنيسة و"العالم"

أطلق يسوع تلاميذه في العالم كله... وانطلقوا...

قال لبطرس: "أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي..."

وعشية صلبه، تجرأّ وقال لهم: "ثقوا فقد غلبت العالم..."

ولكن العالم لم يكن لقمة سائغة... وكانت المواجهة قاسية بين المسيحية والعالم، على أصعدة كثيرة، نخص بالذكر منها ثلاثة:

(1) على صعيد المواجهة مع "العالم"

الانحلال الأخلاقي في تعارض كلي مع النقاء الإنجيلي... روما قلب العالم القديم، بؤرة الفساد، وقد وصفها أبرز مؤرّخيها (تاكيتوس) بأنها "مصبّ تنصبّ فيه جميع قاذورات العالم"... وكورنثس في اليونان مفسدة بذاتها... والبلاد كلها تنوء إما بثروات فاحشة، وإما بعبودية ترهق ثلثي سكان الإمبراطورية... وآمال الشعب العادي: "الخبز واللعب" في المدرجات الرومانية الضخمة... الموبقات بشتى أنواعها

تتنافس في هذا المجتمع في طول البلاد وعرضها... فكيف للنقاء المسيحي أن يجد له متّسعاً أو ظلّ قبول؟

(2) على صعيد المواجهة مع سلطة الإمبراطور

الولاء للإمبراطور هو معيار الولاء للإمبراطورية... ومع أن القديس بولس دعا إلى "الخضوع للسلطات القائمة، لأن ما من سلطة إلا من لدن الله" (روما 1/13)، فقد اتُّهم المسيحيّون بالخروج على الولاء لسلطة الإمبراطور، وتعددت مع الزمن التهم، حتى قال ترتليانوس قوله الشهير من أنه ما من أمر يحدث إلا والمسيحيّون مسؤولون عنه: سواء أكان انحباس مطر، أو انحسار فيضان النيل، أو شبوب حريق، أو انتشار وباء... ثم إن النظام القديم نظام رقّ، بينما المسيحية تدعو الإنسان للحفاظ بحرص مطلق على الحرية الداخلية، أياً كان النظام الاجتماعي الذي يخضع له... أخيراً بدا أن المسيحيين يفصلون بالكلية بين الدين والدولة: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله... في حين أن الديانة، في مفهومها القديم، تعتبر صيغة من الانتماء السياسي والاجتماعي. من هنا كان رفضُ المسيحيين الخضوعَ لآلهة الوثن وللإله الإمبراطور بالذات، أشبه شيء بالكفر والخروج على الدين... وهل نغفل سبباً عميقاً جداً: غالبية الناس في جميع العصور ترفض أن يخرج إنسان ما على عاداتها وتقاليدها... والمسيحيون، دون أن ينفصلوا عن حياة الناس، لا يعيشون مثل سائر الناس. فبدا سلوكهم أشبه شيء بتوبيخ صامت لما يمارسه الآخرون... فانتشرت التهم المختلقة وتنوّعت، حتى إنهم اتهموا بممارسة الفحش في اجتماعاتهم، وبالتعبّد لرأس حمار، وبأكل اللحم البشري! فقامت هبّات شعبية، ترجمت شيئاً فشيئاً إلى عادات رسخت في قوانين بررّت الاضطهادات الرسمية، تنظمها الدولة بين حين وآخر... وتناوب الأباطرة في سَنّ القوانين الجائرة وفي تطبيقها، طوال ثلاثة قرون، عرفت محطتين رئيسيتين: الأولى من عام 64-192، حيث كان المسيحي يُعتقل ويُعذّب

بموجب وشاية ليس إلا... والثانية من عام 192 إلى عام 313، حيث كان المسيحي ملاحقاً قانونياً... وكثر الشهداء وتفاوتت الأعمار... وانتشروا في جميع أنحاء الإمبراطورية، واتخذ المؤمنون المسيحيون من بقاياهم ذخائر يكرمونها، وأقاموا لهم أعياداً يوم استشهادهم... وحدث من جراء ذلك تطور في بعض المفاهيم اللاهوتية، خصوصاً في أمر التوبة وقبول "الساقطين"، أي الذين أنكروا الإيمان ثم تابوا... إلا أن الاضطهادات زادتهم قوة وانتشاراً، وقد لخص ترتليانوس نفسه كل ذلك بكلمة رائعة يقول فيها: "دم الشهداء بذار مسيحيين". وقد قال أيضاً في رسالة مفتوحة إلى المثقفين الوثنيين: "نحن من أمس ليس إلا، ولكننا نملأ مدنكم... ولو انسحبنا منها، لأفزعتكم عزلتكم"... وفي عام 313 صدر مرسوم ميلانو الشهير، الذي يعترف فيه الإمبراطور قسطنطين للمسيحيين بحق العيش بحرية... وكان هو أول إمبراطور روماني نال سر العماد، وإن كان ذلك على سرير الموت.

(3) على صعيد المواجهة مع الكنيس اليهودي

عرفت هذه المواجهة أشكالاً عدة:

الشكل العدائي المباشر: ملاحقة اليهود للمسيحيين، ولا سيما لتلاميذ المسيح، أينما وجدوا. وسفر الأعمال صارخ بهذا الشأن، والأحداث التاريخية اللاحقة، خصوصاً في أعقاب حرب 66-70 ضد روما، تزخر بالحقد اليهودي ضد المسيحيين.

الشكل العدائي غير المباشر، وقد عرف صيغتين:

- صيغة تحريض السلطات الرومانية على المسيحيين، لا سيما وأن بعض اليهود في روما، كانوا ذوي نفوذ وتأثير، بمالهم أو ببعض نسائهم، وخير مثال على ذلك "بوبيا" عشيقة أو زوجة نيرون.

- صيغة ابتداع نظريات جديدة تندسّ في المسيحية، فتشقّها بفعل هذه العقائد الجديدة.

(4) على صعيد المواجهة مع البدع الجديدة في المسيحية

اكتسبت المسيحية بسرعة فئة من المثقفين، وكان من الطبيعي أن يحاولوا فهم عقائدها أو شرحها لمن حولهم توضيحاً ودفاعاً. وبذلك "نمت" الحركة اللاهوتية. وكانت الرّيبيّة هي النزعة السائدة آنذاك. وقد كان بعضهم ما يزال متأثراً بها. كما أن بعضهم كان يفتقر إلى التواضع الذي يفترضه المعتقد المسيحي، للتسليم بما تقول به الكنيسة الرسمية في كتاباتها وتقاليدها. فكان أن "اختار" بعضهم من العقائد ما يطيب له ورفض سواها - من هنا كانت كلمة "هرطقة" اليونانية، التي تعني اختيار الشيء دون سواه، أو اختيار جزء منه دون الكل - ونشأت هرطقات كثيرة، كانت أهمها:

1- في القرن الأول: "المتشبّهة" أو المظهرية: أي البدعة التي تقول بأن المسيح لم يتجسد حقاً، بل خيّل للناس أنه تجسّد أو "شُبّه لهم" ذلك...

2- في القرن الثاني: "الغنوصية" أي فلسفة العرفان التي تريد في نتيجة الأمر، أن تُحلّ الفلسفة محل الدين، والعقل محل الإيمان...

3- في القرن الثالث: المونتانتية، التي رأت في الزواج الثاني، بعد موت أحد الزوجين، دنساً، ومنع غفران الخطايا بعد العماد!

4- في القرن الرابع: بدعة "اريوس" المصري، الذي بلغ من تأكيده على إنسانية المسيح، ما جعله ينكر ألوهيته، وينكر بالتالي المعتقد المسيحي كله: الثالوث والفداء الخ... وقد اجتاحت هرطقته الشرق كله، وغزت البرابرة أنفسهم، وعلى رأسهم "أتيلا" وقبائله... وقد عُقد مجمع "نيقيا" الأول (عام 325)، لدحض هذه الهرطقة، فصاغ قانون الإيمان الذي ما يزال يتلى إلى اليوم في كل العالم...

5- في القرن الخامس: أعلن بطريرك القسطنطينية "نسطوريوس" أن في المسيح شخصين متلازمين ومنفصلين في آن واحد: الإنسان والله.

فترتب على ذلك هرطقة جديدة، بحيث قال إن الذي مات هو الإنسان المسيح، وإن مريم العذراء هي أم المسيح الإنسان، ولا يجوز أن تُدعى "أم الله". فعقد مجمع أفسس عام 431، وحرم نسطوريوس وأعلن وحدة شخصية المسيح، كما أعلن أن العذراء مريم هي بحق "والدة الإله". وأعقب هذا أمور نجم عنها "بدع" جديدة، استدعت عقد مجمع آخر في "خلقيدونيا" (عام 451). ومنذ ذلك الحين انقسم المسيحيون في الشرق إلى "مَلَكيين"، أي الذين يقولون بما يقول به "الملك" أي الإمبراطور، أو "الخلقيدونيين"، ومعارضي قرارات هذا المجمع أي "اللاخلقيدونيين"، وهم مجموع الكنائس المحلية والقومية، التي كرس نشوؤها واستقلالها الصراع القديم والعنيد بين القسطنطينية والأقاليم الخاضعة لها في سورية وأرمينيا ومصر، فكانت الكنائس السريانية والأرمنية والقبطية.

6- ثمة هرطقة امتطت القرنين الثامن والتاسع، هي هرطقة محطّمي الأيقونات... لها أسباب كثيرة، آخرها ديني، وأولها حضاري، وأهمها سلطوي: كان الإمبراطور الذي أشعل فتيل هذا الصراع، وهو لاون الاويزوري (717-741) يحرص على الحفاظ على ما تبقى له - وهو إقليم آسيا الصغرى، بعد أن فقدت الإمبراطورية سورية ومصر وفلسطين - قوياً متيناً بمنأى من أي تصدع حتى عقائدي. وكان يعرف أن تكريم الأيقونات يثير الكثير من الجدل في آسيا الصغرى، بتأثير اليهود والجيران المسلمين... بدأت المشاكل عام 726، ولم تنتهِ إلا عام 843، وقد تخلل هذين التاريخين أحداث، تأجج فيها الصراع بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، وبين القسطنطينية وروما، وبين العنف السلطوي الدامي، والمدافعين العزّل عن الأيقونات وهم الرهبان، وقد مورس بحقّهم عنف لا يمكن أن يخطر ببال...

(5) على صعيد المواجهة الدائمة

ثمة أشكال أخرى من الصراع عرفتها الكنيسة، وستعرفها عبر مسيرتها الطويلة...

1- على المستوى الأخلاقي... مع ذاتها ومع الآخرين...
2- على المستوى المالي... مع ذاتها ومع الآخرين...
3- على المستوى السلطوي... مع ذاتها ومع الآخرين...
4- على مستوى حقوق الإنسان... مع ذاتها ومع الآخرين...
5- على مستوى نقل البشرى... إلى ذاتها وإلى الآخرين...

ولئن كان المسيح قد قال: "ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر"، فإن كلامه هذا يعني في الحد الأدنى أن نعرف المسيح الذي معنا، ألا ندع أقنعتنا الكثيرة "تكفّنه" أو "تحنّطه"، بل إنه يعني أيضاً أن ندعَه يمزّق الكذب الذي يغلّف حياتنا "المسيحية" في الكنيسة المؤسّسة وخارجها، ليظهر المسيح الحقّ منتصباً حيّاً قويّاً والسوط بيده، يجلدنا كلما حاولنا أن نحوّل بيتَه وبيتَ أبيه "إلى مغارة لصوص"...

واليقين أنه لو قُيّض للكنيسة أن تفعل ذلك بين حين وآخر، لكانت انهارت في وجهها معظم "المواجهات"، بل كانت تحوّلت إلى مغناطيس يجتذب إليه الجميع، كما حدث ليسوع "يوم رُفع على الصليب".

الفصل الخامس

يسوع في كنيسته

القداس في القرون الأولى

إن أقدم النصوص المسيحية، والاكتشافات الأثرية ورسوم الدياميس، تمكّننا من تشكيل فكرة لا بأس بها عما كان القداس في نهاية القرن الثاني الميلادي مثلاً، أو في مطلع القرن الثالث.

السؤال الأول: أين كان يعقد الاجتماع الخاص بالقداس؟

لا بد من التصريح مرة أخرى بأن إقامة القداس في الدياميس، كانت تحدث بصورة استثنائية جداً، إما احتفالاً بذكرى شهيد ما، أو إبان الاضطهادات العنيفة... إلا أن القداس كان يقام في الأحوال العادية بصورة علنية. فكان أحد المتنصرين الأثرياء يضع بيته لهذه المناسبة، تحت تصرف جماعة المؤمنين. وكان بعضهم يقدّم بيته على نحو دائم، لتقام فيه الصلوات. وإن العديد من كنائس روما تحتفظ إلى اليوم بأسماء هؤلاء الأثرياء الذين قدموا بيوتهم للرب... ولقد وجدت تحت أساسات الكنائس الكبيرة، أسس هذه البيوت. كما عثر في سورية، في منطقة دورا اوربوس على الفرات، على إحدى هذه الكنائس - البيوت. وكان تقسيم هذه البيوت الرومانية الثرية الواسعة، يلائم تماماً إقامة هذه الصلوات: فهناك المدخل الذي يتسع للموعوظين والضيوف، ثم الباحة الكبرى التي تتّسع لجمهور

المؤمنين، ثم يأتي ممر واسع يصل الساحة بالغرف الخاصة، فكان مكان تجمع الكهنة، ومن الغرف الخاصة غرفة الطعام، التي كانت تقام فيها مراسم القداس...

إلا أن البيوت- الكنائس لم تكن لتكفي، وقد فكر المسيحيون منذ نهاية القرن الأول، في بناء "بيت للكنيسة" خاص، نظراً لتزايد عدد المؤمنين... فظهرت في روما، خلال القرن الثاني، كما في الرّها وأفاميا، وأنطاكية والاسكندرية، أمكنة للصلاة هي ما سمّي فيما بعد الكنائس. ولقد ظهرت الكنائس في سورية وفلسطين، قبل الإمبراطور قسطنطين بزمان. وما من شك في أنها تكاثرت جداً، لأن الأباطرة الرومانيين الذين اضطهدوا الكنيسة، سنّوا قوانين بين حين وآخر، طوال القرن الثالث، لتدمير الكنائس.

والسؤال الثاني هو: متى كان يقام القداس؟

كان يقام يوم الأحد إحياء لذكرى قيامة الرب، وانتظاراً لمجيئه... وقد حلّ محلّ يوم السبت... وكان يُهيّأ له بصلوات تقام طوال الليل السابق، تتخللها تلاوة المزامير، وإلقاء المواعظ، وارتجال الصلوات الملائمة... وكان الاحتفال الرسمي يبدأ في منتصف الليل، كي يستقبل المؤمنون الفجر بالصلاة، إحياء لذكرى قيامة الرب. ولقد كتب القديس "هيبوليتوس" (الثلث الأول من القرن الثالث) يقول:

« إنهض في الساعة التي يصيح فيها الديك، وصلِّ. إنها الساعة التي أنكر فيها بنو إسرائيل المسيح، والتي آمنّا فيها، ونحن نحدّق برجاء كبير في مَقدم النور الأبدي. »

كان الحضور ينعم بمساواة تامة، أياً كان منشأهم أو مستواهم أو مركزهم. وكانوا يتبادلون التحية باسم المسيح، ويتبادلون قبلة السلام.

أما القداس، فكان يتألف من قسمين واضحين، الأول عام يمكن للموعوظين أن يشاركوا فيه، والثاني هو الخاص بالذبيحة حصراً، فكان يُسمح للمعمّدين فقط بالاشتراك فيه. وكان المتقدّم في المصلين – وهو الأسقف عموماً – يقف ووجهه متجه نحو الشعب، ويُعينه في توجيه

الصلاة شماس إنجيلي يحرّض الناس، عبر طلبات خاصة وعامة، على الاشتراك في الصلاة.

كان القسم الأول أشبه شيء بتمهيد للاشتراك في الذبيحة، فكان عبارة عن صلوات تحريضية وتوجيهات، يردّ الشعب الحاضر عليها بكلمة "رحماك يا رب". وقد جاء وصف كل ذلك في الكتب القديمة، ومن أهمها "القوانين الرسولية" التي تعود إلى القرن الرابع، ولكنها تجمع نصوصاً قديمة، وتشير إلى أمور قديمة على أنها تقليد في الكنيسة. وكان يعقب ذلك قراءة من منبر عالٍ، لنصوص قديمة من أسفار العهد القديم والعهد الجديد، أو من كتابات "الآباء". وكان كل ذلك يتم والحضور وقوفاً. ثم تُلقى العظة إما من قبل الأسقف، أو من قبل من يكلّفه الأسقف بذلك. وإنه لمن الواضح أن هذا القسم من القداس، يتتبّع مراحل الصلاة كما كانت تقام في الكنس اليهودية. ثم كان المتقدم في المصلين يدعو الموعوظين والتائبين وحتى الوثنيين المتعاطفين، إلى الخروج من الكنيسة، إيذاناً ببدء الذبيحة.

كان القسم الثاني من القداس يبدأ بتقدمة مؤلفة من أمرين، كانا يعتبران شيئاً واحداً متكاملاً: تقدمة مواد القرابين من خبز وخمر، وتقدمة العطايا للفقراء والمعوزين. وكان الشمامسة يفرزون الخبز والخمر، ليضعوه على الهيكل، ويحملون التقادم الأخرى إلى حيث تُوزّع بعد الصلاة على المحتاجين. وفي انتهاء عملية الفرز هذه، يتلو المتقدّم صلاة مرتجلة، يسأل فيها الله أن يمنح شعبه عطاياه السماوية، مقابل عطاياهم الأرضية. ثم يدعو الحضور للتحرر من كل همّ زمني، والارتفاع بقلوبهم وأفكارهم إلى العلاء، ومن ثم تبدأ صلوات تقديس الخبز والخمر. وكانت في البدء مرتجلة، ثم تجمّدت لأسباب كثيرة، وانتهت إلينا من القرون الأولى. وكان محور هذه الصلوات التقديسية، يستلهم كلمات يسوع في عشائه الأخير مع تلاميذه، ويسأله موهبة الروح القدس التي وعد بها التلاميذ في العشاء

نفسه. ثم كان يحين وقت التناول، أي الاشتراك في الذبيحة: يتقدم المؤمنون، بعد دعوة المتقدم، بعد أن يتبادلوا قبلة السلام، وهم يبسطون اليد اليمنى، ليضع فيها المتقدم قطعة من القربان، وهو يقول: جسد المسيح، فيأتي جواب المتناول: "آمين". ثم يشرب المؤمن من الكاس التي يقف بها الشماس أو الكاهن المساعد، وهو يقول: "دم المسيح، كأس الحياة". ثم كانت توضع جانباً أقسام من القربان، خاصة بالسجناء والمرضى، لترسَل إليهم مع الحضور إلى سجونهم أو منازلهم، حيث يتناولون منها وفق الحاجة. وينتهي كل ذلك بصلاة شكر جماعية، يرتجلها المتقدم، ثم يباركهم باسم المسيح. وينطلق كلٌّ إلى بيته أو عمله، مع الفجر.

الصلاة في القرون الأولى

كتب أحد "آباء الكنيسة" - وهو "اريستيدس"، وقد عاش في منتصف القرن الثاني - يقول:

« في كل صباح وفي كل ساعة، يترنّم المسيحيّون بالله، ويمجّدونه لعطفه عليهم. "وهم يرفعون له آياتِ الشكر لطعامهم وشرابهم ».

وكتب "الأب" "اكليمنضوس الاسكندري"، في أواخر القرن الثاني، يقول:

« نحن نجعل من حياتنا كلّها عيداً، لأننا مقتنعون أنّ الله حاضر في كل مكان وبشتى الطرق. وإنّا لَننشِد له الأناشيد سواء كنّا في الحقل نحرث الأرض، أو في البحر. صلاتنا، إن جاز لي التعبير، حديث مع الله. وحتى لو كنّا نتوجّه إليه في صمت، أو في حركة من الشفاه خفيفة، فإننا نصلي في أعماقنا. ذلك بأننا نظل، ونحن مرفوعو الرأس وباسطو الأيدي نحو السماء، حتى بعد انتهاء صلاتنا المسموعة، نظل مشدودين في ارتعاشة الروح، نحو الكون الروحي. فإن المؤمن يصلي، سواء أكان يتنَزّه، أو يتحدّث، أو يرتاح، أو يعمل، أو يقرأ. وهو إذ يتأمل وحيداً في صومعة روحه، يبتهل إلى الآب السماوي بأنّات لا توصف، والله الآب قريب ممّن يبتهلون إليه على هذا النحو ».

ألِف المسيحيون الأوائل أن يصلّوا متوجهين نحو الشرق، لأن الشرق يرمز إلى المسيح، "نور العالم"، وهو يرمز أيضاً إلى الفردوس الأرضي، وإلى المدينة المقدسة...

أما مواعيد الصلاة، فكانت كثيرة: تبدأ بصلاة الفجر مع صياح الديك، وتتواصل مع مواعيد الصلاة التي ألِفها اليهود: في الساعة الأولى (السادسة) والثالثة (التاسعة) والسادسة (الظهر) والتاسعة (الثالثة بعد الظهر)، ثم ساعة الغروب. ويضاف إليها صلاة نصف الليل، والصلوات الكثيرة التي تتلى عبر النهار، أوقات العمل وقبل الأكل وبعده... بذلك يكون الله رفيق المؤمن في كل لحظة...

أما الصلوات نفسها، فلم يصلنا منها كل ما يُتلى أو يُرتجل... لأن كل شيء بدأ بالارتجال، فضلاً عن الصلاة الربّية (أبانا)، وصلاة المزامير... وبعض المقاطع من الكتاب المقدس، ولكن ضمن منظور "مسيحي"، كما فعلت العذراء في صلاتها لدى زيارتها لاليصابات (لوقا 1/46–56). فالمسيح كان غاية العهد القديم كله، ومبرّر انتظار "اسرائيل" الأوحد. (وعلى هذا النحو فَهِمَ "آباء الكنيسة"، ولا سيما "آباء" القرن الثاني، العهد القديم كله، وقد سيطر هذا المنظور على اللاهوت المسيحي كله حتى القرون الوسطى ضمناً).

وقد وصلنا القليل من هذه الصلوات، وبعضها في "محاضر الشهداء"، وهي تعبّر عن أقصى ما يمكن أن يبلغه الإنسان من إيمان ورجاء وقوة في مواجهة الموت الوشيك. من هذه الصلوات صلاة القديس "بوليكربس" الشهيد، وهو أسقف إزمير، الذي أُحرق عام 117، وهو في الثانية والثمانين. يقول:

« أيها الربّ الإله، الكلي القدرة، أبو يسوع المسيح، ابنك الحبيب والمبارك، الذي علّمنا أن نعرفَك. يا إله الملائكة وقوات الخليقة كلها، والصدّيقين الذين يحيَون في حضرتك. أباركك، لأنك جعلتني أهلاً لهذا النهار وهذه الساعة، وجعلتني أهلاً لأن أشتركَ وسط الشهداء، في كأس مسيحك، لأقوم للحياة

الأبدية، حياة الروح والجسد، في عدم الفساد، الذي يهبه الروح القدس. ليتني أُقبَل اليوم معهم في حضرتك، ضحية مقبولة. فإن المصير الذي أريتني إياه من قبل، أنت تمنحني إياه اليوم، أيها الإله الذي لا يكذب. يا إله الحق، من أجل هذه النعمة، ومن أجل كل شيء، أعظّمك وأباركك وأمجّدك بواسطة الكاهن الأعظم، الإلهي والسماوي، يسوع المسيح. فالمجد لك فيه، معه ومع الروح القدس، الآن وإلى دهر الدهور، آمين. »

يتضح مما وصلنا من هذه الصلوات، أن الروح التي أوحتها كانت بعيدة جداً عما يخامر المصلي اليوم من فكرة الفعالية التي يخص بها الصلاة... كانت صلاتهم آنذاك أقرب إلى التسبيح والتمجيد والشكر، منها إلى أي شيء آخر... وإن ذلك ليبرز كثيراً في مؤلفات العديد من "آباء الكنيسة"، لا سيما القديس كيرللس الأورشليمي، و"ديونيسيوس الأريوباغي" و"مكسيموس المعترف"...

الأعياد المسيحية على مدار السنة

ما قلناه عن الصلاة، نقوله مجدداً عن الوقت: كانت غاية المسيحيين الأوائل تكريس الوقت لله بدوراته المختلفة. ذلك بأن تحديد مراحل عبر الأسبوع والشهر والسنة، تربط المؤمن بالله، يعني الانتقال به تدريجياً من الزمان إلى الأبدية، ويعني أيضاً إقامة رابط دوري ومتواصل، بين الحياة الأرضية العابرة، والحياة الأبدية الدائمة. فلا بد من تقديس الزمان، كما أنه لا بد من تقديس الحياة كلها.

كان عيد الفصح - عيد قيامة الرب - المحور الرئيسي الذي دارت حوله السنة والأعياد كلها. فهو أقدم الأعياد وأعظمها - ونحن لا نزال في الشرق نطلق عليه تسمية "العيد الكبير". وقد نشبت بسببه خلافات منذ منتصف القرن الثاني، بين كنيسة روما وكنائس آسيا الصغرى، في عهد البابا "انيكيتوس" (Anicetus) (157-168)، حول تاريخ الاحتفال به. ثم احتدم الخلاف في عهد البابا "فيكتور" (189-198)، وانتهى باتفاق حُدّد العيد

بموجبه في الأحد الذي يلي 14 نيسان، وكان هو التاريخ الذي تمسكت به كنيسة روما. وقد تم ذلك بفضل تدخّل أسقف ليون "القديس ايريناوس"، وسيطاً بين كنائس آسيا وبابا روما. وباتت الكنائس كلها تحتفل به في التاريخ الذي اتفق عليه، بدءاً من مطلع القرن الثالث. وكان الجميع يستعدّون له بصيام طويل يعود إلى القرن الأول، ولم يكن قد حُدّدت فترته بعد، إلا أنّ مجمع نيقيا (عام 325)، يشير إلى أن مدّته كانت أربعين يوماً، تشبّهاً بالصوم الأربعيني الذي صامه الرب يسوع. وكان التشديد على الصيام أكثر صرامةً خلال أسبوع الآلام. وكان الفرح بالعيد، عيد القيامة، يستمرّ حتى يوم العنصرة، وهو أيضاً عيد كبير، إذ يُحيي ذكرى حلول الروح القدس على التلاميذ في اليوم الخمسين بعد الفصح، وكان بداية انطلاق الكنيسة إلى العالم.

ويأتي عيد ميلاد يسوع. لا يُعرف بالتحديد زمان بدايته. إلاّ أنّ هناك إشارات لدى بعض "الآباء"، مثل "اكليمنضوس الاسكندري" و"هيبوليتس"، إلاّ أنّ تاريخه ومعناه يختلفان باختلاف الكنائس. ففي الغرب سيطر تاريخ 25 كانون الأول، إذ اختير لإلغاء تاريخ وثني هو عيد "الشمس التي لا تقهر"، وقد اختير هذا التاريخ بمبادرة من أحد البابوات، ومن بعده عمّ شيئاً فشيئاً في الغرب. أما في الشرق، فكان التاريخ السائد هو 6 كانون الثاني. إلا أن الغرب كان يؤكد على "ميلاد" يسوع، في حين كان الشرق يؤكد على "ظهوره"، فكان يُطلَق على هذا العيد اسم عيد الظهور، وكان الظهور مثلّثاً: ظهور يسوع للعالم: الميلاد، وظهور يسوع للوثن: زيارة المجوس، وظهور يسوع لليهود: عماد يسوع أو الغطاس. ويبدو أن التاريخين انتشرا وباتا متداولين منذ مطلع القرن الرابع. ومنذ ذلك التاريخ عُرِفت أعياد أخرى في بعض الكنائس، ومنها عمّت على سواها: عيد الصعود - اليوم الأربعين بعد عيد الفصح - وعيد اكتشاف الصليب، يوم 14 أيلول، الذي كان يُحتفل به في القدس بالذات طوال أسبوع كامل.

ولا يفتنا أن نذكر أعياد الشهداء التي انتشرت سريعاً في الكنيسة الأولى. وكانت العادة قد درجت منذ أواخر القرن الأول، على إحياء ذكرى الشهداء في يوم استشهادهم، الذي اعتُبر يوم دخولهم في الحياة الحقيقية. ثم درجت العادة على تكريم الذين عُذّبوا في سبيل الإيمان دون أن يُستشهَدوا، ثم الوجوه الكبيرة من أساقفة ومؤمنين لمعوا بسيرتهم وتعاليمهم، حتى اعتُبروا قدوةً تحتذى. وقد كتب المؤرخ "افسابيوس" يقول: "ألِفنا أن نجتمع حول قبورهم، وأن نقيم الصلوات عندها، وأن نكرّم أرواحهم المطوّبة".

ووُضعت مؤلّفات تروي سِيرَهم، وتقدّمها قدوةً للمؤمنين. كما درجت العادة على إعطاء أسمائهم للأطفال يوم عمادهم. وانتشرت شيئاً فشيئاً رسوم في الدياميس وسواها من أمكنة العبادة، على نحو بدائي أولاً.

وقد برز بين هؤلاء الوجوه، وجه العذراء مريم. صحيح أنها لم تحظَ بمراسيم طقوسية خاصة خلال القرون الثلاثة الأولى، ولكن ما حظيت به فيما بعد، جاء نتيجةً حتميّةً للتطوّر اللاهوتي الذي رافق الفكر المسيحي خلال القرون الأولى. فقد ظهرت هنا وهناك هرطقات، اضطرّت معها الكنيسة إلى التأكيد على جانب من اللاهوت، برز فيه دور العذراء مريم بصورة تلقائية. من ذلك ردّها على المتشبّهة في أواخر القرن الأول: يقول القديس "اغناطيوس الأنطاكي" (القرن الأول ومطلع الثاني): "صُمّوا آذان كلّ من يحدّثكم دون أن يعترف بأنّ يسوع المسيح قد وُلد من مريم العذراء". ويؤكّد في رسالته إلى أهل أفسس القول نفسه بصورة أخرى، إذ يقول: "إن أمير هذا العالم يجهل بتوليّة مريم، وولادتها ليسوع وموت الرب: تلك أسرار ثلاثة عظيمة تمّت في صمت الله". ولسوف تظهر "ملامحها" شيئاً فشيئاً، على جدران الدياميس، وينتشر تكريمها شرقاً وغرباً بدءاً من أواخر القرن الرابع. ولا يفتنا أن نذكر أن أعظم احتفال شعبي وعفوي أقيم لها، كان إثر مجمع أفسس (431)، حيث خرج الأساقفة والمؤمنون الذين كانوا ينتظرون ختام النقاش المجمعي حول أمومة

العذراء الإلهية، في تطواف ضخم طاف شوارع المدينة على صوت: "تحيا والدة الإله". وكان بعض "آباء الكنيسة"، منذ منتصف القرن الثالث، قد تكلموا عنها "كعن نموذج لجميع الفضائل". وتواصلت الأقوال بشأنها، تستنتج ما كان متضمّناً في العقيدة الأساسية، حتى جاء تدشين الكنائس باسمها خلال القرن الخامس أمراً طبيعياً. وكان أحد أعظم من تغنّى بها القديس أفرام السوري، الذي وصفها وصفاً لا يُضاهى، معتبراً إياها: "شفيعتنا ووسيطتنا، ملجأ وحماية البشر، السيدة الفائقة القداسة، والدة الإله، وملكة العالم بعد الثالوث".

ولا بد أخيراً من الإشارة إلى تكريم الملائكة. فإن القديس "يوستينوس" النابلسي (منتصف القرن الثاني)، يشير إليه. والقديس "امبروسيوس" من جهته (القرن الرابع) يحضّ عليه المؤمنين. ويشار إليهم على أنهم حماة البشر. ومنذ القرن الخامس، شُيِّدت كنائس على اسم الملائكة، وخصوصاً الملاكين ميخائيل وجبرائيل.

الحياة المسيحية في الترنيم

انبثقت المسيحية من رحم اليهودية وانطلقت.

إلا أنها لم تبدع لها نمطاً جديداً في الترنيم، كالذي عرفته في ما بعد، على امتداد العالم، بل التزمت في صلواتها، حيثما نشأت، كلمةً وأداءً، تلاوة المزامير، كما كانت مألوفة في الكنس اليهودية. ويومها كان أحد المصلين يأخذ على نفسه تلاوة المزامير بصوت منفرد، ولكن قوي، رتيب وموزون، منعاً لأي تفرّد في النغم، قد يشتّت المصلين. وكان جمهور المصلين، في ختام كل مزمور، أو في ختام المقطع المطلوب تلاوته من المزمور، يقول بصوت واحد، قوي ومديد، إما كلمة "آمين"، ومعناها "ليكن كذلك"، وإما كلمة "هللويا"، ومعناها "هللوا لله"!

وإلى ذلك، فقد ارتأت الكنائس هنا وهناك، بمبادرة من بعض الأساقفة، وتبعاً لبعض الظروف الدينية، ولا سيما إبان انتشار الهرطقات،

أن تضيف في ختام تلاوة المزمور، ابتهالات وجيزة، كثيفة، تتلى بصوت عالٍ في وجه هرطقة أو بدعة ما... من ذلك مثلاً، أنها إبان انتشار الهرطقة الأريوسية في مطلع القرن الرابع، أخذت تستبدل كلمة "آمين"، أو كلمة "هللويا"، بعبارة "المجد للأب والابن والروح القدس"، تأكيداً على إيمانها بعقيدة الوحدانية الإلهية، في تجلياتها الثالوثية...

وما كان هذا النمط الرتيب، والمتعارف عليه، من الصلاة في الكنائس، ليمنع هنا وهناك أيضاً، بعض النزعات التجديدية الطبيعية... من ذلك أن راهبين من سورية، عاشا في مطلع القرن الرابع، وعُرِفا فقط باسم كل من "ديُودُوروس" و"فْلافيانُوس"، أخذا يعلّمان المصلّين في كنائسهما، أن يقوموا كلهم بتلاوة المزامير، وكأنهم جوقتان تتناوبان هذا "الترنيم"، على هذا النحو الرتيب، ولكن القوي والمؤثر. ولقد وجد هذا "التجديد" الطفيف ترحيباً واسعاً في مختلف كنائس سورية، وانطلق منها إلى أنطاكية، حيث تبنّاه الخطيب الشهير فيها، يوحنا الملقب بالذهبي الفم، ومن ثم إلى قيصرية كبادوكيا في تركيا الحالية، حيث تبنّاه أيضاً أسقف عظيم يُدعى "باسيليوس".

إلا أن من استخدمه وأغناه، كان أسقف عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ميلانو، وكان أسقفها يومها يدعى "أمبروسيوس". إلا أن ذلك حدث في ظروف استثنائية، بالغة التوتر والقسوة. لا بد من ذكر جانب منها، ولكن باقتضاب.

كان أمبروسيوس هذا نائباً للإمبراطور، وحاكماً لمدينة ميلانو. وكان قد اشتُهر بحكمته ونزاهته وقربه من الناس جميعاً، ولا سيما الفقراء، ولم يكن بعد قد نال العماد. وفي عام 374، توفّي أسقف ميلانو... وحدث في صلاة الدفن أن تصاعدت الأصوات مطالبةً بانتخاب "أمبروسيوس" أسقفاً، وكانت تلك الطريقة القديمة في انتخاب الأساقفة... ورضخ "أمبروسيوس" لمطلب المؤمنين، فعُمّد وسيم كاهناً، ثم أسقفاً في أسبوع واحد. وتبيّن أن الاختيار كان في غاية التوفيق على كل صعيد، حتى وفاته عام 397.

وفي شهر آب من عام 390، حدث في مدينة تسالونيكي، في اليونان، شغب شعبي، قتل خلاله قائد الحامية في المدينة. فأمر الإمبراطور بالاقتصاص من سكان المدينة جميعاً. فهبّ الأسقف أمبروسيوس في وجهه، معترضاً بحزم، ومهدّداً إياه بالحرم الكنسي إن هو فعل، على ما بينهما من صداقة معروفة. وكان أن التفّ الناس في العاصمة حول أسقفهم، واعتصموا في الكنيسة ليلاً ونهاراً، يمضون الوقت مع أسقفهم، بين صلاة لا تنقطع ووعظ... وصمت... فأملت تلك الفترة العصيبة على الأسقف مبادرات جديدة، فوضع أناشيد من وحي تلك الأزمة، كلمة ولحناً، بلغ بعضها من العمق والتأثير ما جعل الأجيال اللاحقة تتناقلها على اسمه... وهي تُنشَد اليوم في كنائس الغرب كلها...

ثمّة مبادرة أخرى، خارقة على صعيد الترنيم، حدثت، ولكن في أقصى الشرق من الإمبراطورية، في مدينة الرُّها السورية أيضاً، وقد أتت على يد راهب يدعى أفرام، كان يتمتّع بإيمان ناري، وموهبة شعرية فذّة، وروح إبداعية متدفّقة، فوضع نمطاً جديداً من الشعر الديني صاغ فيه إيمانه ببساطة ورقي في آن واحد، وسكبه في ألحان أخاذة من وحي التراث الموسيقي المحلّي، ولقّنه الناس في كنائس الرها. فما كان من المؤمنين إلا أن حملوه في قلوبهم وحناجرهم في مدينة الرها، إلى بيوتهم وأماكن عملهم وحتى الأسواق والمرافئ... وانتقل هذا الإنشاد لاحقاً إلى مدن أخرى، وقد عمّ الكنائس كلها... فلُقّب أفرام (306-374) بقيثارة الروح.

الحياة الرهبانية في المسيحية

في هذا الشأن، تجدر الملاحظة بأن الحياة الرهبانية ليست وقفاً على المسيحية. فللّه في خلقه شؤون، وللناس في استجابتهم له أيضاً شؤون. فليست الرهبانية بدخيلة على الحياة الإنسانية.

من ذلك، أن الهندوسية والبوذية كلتيهما، عرفتاها قديماً وحديثاً.

ومن ذلك أيضاً أن اليهودية عرفتها قبيل ظهور السيد المسيح بمائة

عام، في جماعة عرفت باسم "الأسينيّين"، وقد ضمّت المئات من الرجال أولاً، ثم من النساء، ولكن على نحو منفصل. واتخذت لها مقرّاً خاصاً، في منطقة موحشة، تقع في الشمال الغربي من البحر الميت في سورية القديمة. وقد اندثرت إثر الحرب التي انتهت بتدمير مدينة القدس وهيكلها، عام 70 للميلاد.

أما في المسيحية، فليس في سيرة يسوع وتعاليمه، ولا في حياة رسله الأوّلين وخلفائهم، ما يوحي، لا من قريب ولا من بعيد، بما يؤسّس لحياة رهبانية نظامية، تسلخ رجالاً ونساءً، عن حياة الناس العاديين، لتصرِفَهم إلى الله، صلاةً وتأمّلاً وتقشّفاً.

ولكن مطلع النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، عرف واقعة جديدة في حياة المسيحيين. فقد اتضح في تلك الفترة أن بعض الناس أخذت تنتابهم حالات مختلفة من الانزعاج، بل من الاستياء مما بدأت أحوال المؤمنين تؤول إليه، من أشكال الاسترخاء والبدعة والترف، بفعل تباعد الاضطهادات، وانتشار إغواءات المجتمع الوثني الكثيرة. وشيئاً فشيئاً، نزع بعضهم تلقائياً، وبمبادرة ذاتية صرف، إلى اعتزال الناس في صحراء مصر الشاسعة، بحثاً عن الله، راضياً بالقليل القليل من المأكل والمشرب والأمان!

إلا أن أحدهم كان له تأثير كبير في هذا النمط الجديد من الحياة المسيحية. ذاك كان من عُرف في ما بعد، بالقديس "انطونيوس"، الملقب بالكبير، لأنه كان بحق أول من أبدع نمطاً جديداً من الحياة الرهبانية، التي عمّت، شيئاً فشيئاً، الشرق ثم الغرب! وكان قد ولد في الاسكندرية عام (251)، من أسرة بالغة الثراء. فقرّر في الثامنة عشرة من عمره، اعتزال العالم ضمن النمط النسكي الانفرادي، الشائع آنذاك. ولكنه ما إن بلغ الخامسة والثلاثين، حتى قرّر التوغل وحيداً في صحراء مصر الشاسعة، بعيداً عن سائر النسّاك. وكان له ما أراد سنوات طويلة. غير أنّ صِيته والمعجزات التي كانت تجري على يده، للكثيرين من قاصديه، جلبا إليه،

شيئاً فشيئاً، الآلاف من المؤمنين، وقد التحق الكثيرون منهم به، واتخذوه معلّماً ومرشداً لهم. فكان أن نشأت بذلك حياة رهبانية جماعية ونظامية، لها قوانينها وأديرتها ومواعيد صلواتها، في مساحات واسعة من صحراء مصر. وقد بلغ من تأثيرها أنها حرّكت الكثيرين من المؤمنين في جنوب سورية، في ما يعرف اليوم بفلسطين، ثم في شمال سورية، ومن ثم في آسيا الصغرى. فانتشرت في جميع هذه الأصقاع، أديرة ضمّت آلاف الرهبان، الذين كان لبعضهم، في فترات لاحقة، دور كبير في تاريخ المسيحية والمنطقة.

تلك كانت بدايات الحياة الرهبانية في الشرق.

أما في الغرب، فقد حدث الأمر عينه، ولكن بفارق زمني يتجاوز المائتي عام. ذلك بأن ما كان يجتاح الغرب منذ مطلع القرن الرابع، من غزوات بربرية خلخلت المجتمعات كلها، دفع بعض المؤمنين أيضاً إلى اعتزال هذه المجتمعات، بحثاً عن الله! وكان ذلك في ما هي اليوم إيطاليا، على يد شاب، اختار الحياة النسكية، بمحض إرادته، وبمعزل عن كل إنسان، في منطقة جبلية موحشة، بعد أن كان قد أنهى دروسه في روما. والمعروف أنه ولد في شمال إيطاليا عام 480. وكان اسمه "مبارك" (بندكتوس). إلا أن الحياة النسكية التي ساقها، وما كان الناس يلمسون لديه من فرح وحرية وسلام، دفع الكثيرين من الشبّان للالتفاف حوله، وإذ بالأديرة تتكاثر وتنتشر في العديد من المناطق الإيطالية.

وفي هذه الأثناء، كانت أخته، واسمها "سكولاستيكا"، التي كانت قد أُخِذت بما رأت لدى أخيها، من حياة روحية أخاذة، قد قرّرت أن تسوق حياة رهبانية شبيهة بحياة أخيها، على أن تكون خاصة بالفتيات والسيدات. وكان لها ما أرادت، مستعينة دائماً بتوجيهات أخيها. وبذلك، كان "مبارك" (بندكتوس) وأخته "سكولاستيكا" رائدَي الحياة الرهبانية في الغرب كله، بقسميها الرجالي والنسائي.

بالطبع، هناك صيغ أخرى كثيرة من الحياة الرهبانية في الشرق والغرب،

قد نبتت بمرور الزمن والظروف. وإنه ليطول التوقف عندها، كما أن الحديث عنها قد يتشابه قليلاً. ولكن ثمة جمعيّتان تستحقّان وقفةً مستفيضةً قليلاً، لأنهما ظهرتا على يد شخصيّتَين استثنائيّتين باعتراف الجميع، في زمنين متباعدين، كانا زاخرين بالأحداث والتمزق الاجتماعي والديني.

تلك كانت أولاً حال جمعية الرهبان التي تحمل اسم مؤسّسها، القديس "فرنسيس الأسيزي" (1182–1226)، والتي أطلقها في إيطاليا، في الربع الأول من القرن الثالث عشر، وتلك كانت ثانياً حال جمعية الآباء اليسوعيّين، التي أسّسها في إسبانيا، الضابط السابق، "اينياسيو ده لوايولا" (1491–1556)، في ثلاثينيات القرن السادس عشر. وقد كان لكلا الجمعيتين دور حاسم في زمانهما. الأولى في وجه البذخ والترف اللذين كانا يستبدّان برجالات الكنيسة ومؤسّساتها في الغرب عموماً، وفي إيطاليا خصوصاً، والثانية في وجه التمزق الديني والفكري والاجتماعي الهائل، الذي سبّبته حركة الإصلاح في أوروبا كلها من جهة، وفي لملمة الجراح ومعالجتها التي حاولت جمعية اليسوعيين، التصدي لها، ضمن الحركة الكاثوليكية المضادّة لحركة الإصلاح، من جهة ثانية.

ولقد تواصلت الحركة الرهبانية، تطوّراً وانتشاراً، على اختلاف أوطانها وأشكالها، تبعاً لانتشار المسيحية من أوروبا إلى البلدان السلافية، ومن ثم إلى الشرق الأوسط، فالقارة الأميركية والشرق الأقصى. ولكم تنوّعت صيغ الحياة فيها، بين تأمّلية، وتبشيرية، واجتماعية وثقافية، بل وموسيقية وفنية. كما أن بعضها قام على الاعتكاف الكلي على الصلاة والصمت وشتى أعمال البحث العلمي، من لاهوتية، وتاريخية، ولغوية، ومعرفية. فأغنى كل ذلك المسيحية والحضارة الإنسانية كلها في آن واحد.

ولئن كان لي أن أخصّ بعضاً منها بالذكر، فإني لا أتردّد في ذكر تلك التي أُنشئت هنا وهناك، في قلب الغرب، في وجه المدّ المادي الشرس، الذي يجتاح الغرب كله في انتظام مدروس، والذي يجتاح سائر العالم في وحشية

مدروسة أيضاً. ولقد أنشئت بقصد الصلاة فقط، أجل الصلاة تسبيحاً لله، وتكفيراً عن البشر، واسترحاماً بالبشر. وذلك في عزلة مطلقة عن العالم، وفي صمت مطبق، لا يقطعه إلا صوت الرهبان إذ يصلّون أو يرتّلون في الكنيسة. والجدير بالذكر أن تلك الصيغة الصارمة تلقى في الغرب نفسه، إقبالاً مدهشاً، لا سيما من أوساط المتعلّمين والمثقّفين، في الوقت الذي يُعرِضون فيه عن الصيغ المألوفة في الكهنوت التقليدي في الكنائس الغربية كلها. وفي هذه الفئة، تندرج رهبانيّات كثيرة، يطيب لي أن أذكر منها رهبانية للرجال، يطلق عليها اسم "الصامتين"، وبالفرنسية (Trappistes)، وأخرى للنساء، ويطلق عليها اسم "كرمليات"، وبالفرنسية (Carmélites).

وأما في العصر الحديث، فيطيب لي أن أذكر رهبانيّتين نسائيّتين، يعود تأسيسهما في القرن العشرين، إلى راهبتين خارقتين، هما الأم الشهيرة "تيريزا" (1910–1997)، مؤسسة "جمعية راهبات المحبة" من ألبانيا، والأم مادلين (1898–1989)، مؤسسة "راهبات يسوع الصغيرات"، من فرنسا. وقد عرفت كلتاهما أن تعلّم راهباتها، في وجه قسوة عالم اليوم، واستفحال ماديّته، أن يتقنَّ الجمع الطبيعي بين الكثافة الروحية، والخدمة الاجتماعية والإنسانية، في ابتسامة دائمة، وفرح صادق، واتّضاع لا يُضاهى!

ولا بد لي، قبل أن أطوي موضوع الحياة الرهبانية في المسيحية، من أن أشير إلى أمر في غاية الأهمية، كان للرهبان في الشرق والغرب، الدور الحاسم فيه.

ففي الغرب، يؤكد جميع الباحثين أن أديرة الرهبان، هي التي صانت في قلب الأزمات والحروب التي عصفت به، قسماً هاماً من التراث الحضاري العالمي، من مخطوطات وآثار ووثائق. والمعروف أن الأديرة كانت دائماً تضمّ مكتبات ضخمة احتوت مخطوطات ومؤلفات هامّة ونادرة، تعود لمختلف الحضارات والثقافات. كما أن هذه الأديرة كانت تعتبر من المهام الدينية المفروضة على الرهبان، نسخ ما لدى هذه الأديرة من آثار ومخطوطات لا

تحصى، وقد تواصل ذلك المجهود الجبار. وكان له الفضل الأكبر في حفظ قسم كبير من التراث الإنساني العام.

أما في الشرق العربي، فليس من يجهل أن أديرة الرهبان، لا سيما في لبنان، كانت أول من جلب المطابع العربية، وأكثر المؤسسات الدينية حرصاً على الحفاظ على ما وصلها وما استطاعت جمعه، من مخطوطات ومؤلفات وآثار ووثائق، تعود كلها للتراث الإنساني العريق والمشترك. وهل هناك من لا يعرف أن الأديرة كانت أكثر من حافظ على اللغة العربية، وعلّمها لأبناء الضاد، يوم كان الحكم العثماني، طوال أربعمئة عام، يحاول قمع العقل والفكر والروح، وإلغاء اللغة العربية؟

جوهر الإيمان المسيحي

ثمة سؤال هام، طرحه الكثيرون قديماً، ويطرحه اليوم أيضاً كثيرون حول إيمان المسيحيين بالله. وإني لأوجز جوابي بالنقاط التالية:

1- ليس من يجهل أن المسيحية نبتت من صلب اليهودية التي كانت أولى الديانات التوحيدية. وقد جاء في طليعة الوصايا العشر المنسوبة إلى النبي موسى، هذا القول القاطع:

"أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيري". (تثنية الاشتراع 6-7)

ولقد كان اليهود من التشدد بشأن وحدانية الله، بحيث كانوا لا يسمحون قط بالتلفظ باسمه الكريم، ويستعيضون عن ذكره، ببعضٍ من صفاته، ومنها: "القوي"، "المتعالي"، "الجبار"...

2- يتضح أيضاً لمن يطالع الإنجيل المقدس بجميع أسفاره، أن مواقف السيد المسيح وتعاليمه أثارت تساؤلات كثيرة ومحيّرة لدى اليهود، ولا سيما لدى رؤسائهم، حول كنه شخصيته وتعاليمه ورسالته. ولما طرحوا عليه السؤال حول "أعظم الوصايا في الشريعة"، كان جوابه واحداً، وإني لأذكره بحرفيته، كما جاء في إنجيل القديس متّى (الفصل 22/37-38)، حيث قال:

"أحبب الله ربك بكل قلبك وكل نفسك، وكل ذهنك. تلك هي الوصية الكبرى والأولى". فالسيد المسيح هو أيضاً دعا للإيمان بالإله الواحد.

3- إلا أن السيد المسيح أتى أيضاً، بشأن الله الواحد الأحد، بما هو كشفٌ جديدٌ عنه، دون الخروج عن وحدانيته المطلقة. فعلّم تلاميذه والناس، أن الله ذو طبيعة تفوق بغناها كل ما يسع الإنسان أن يستخلصه بعقله، أو يدركه بقلبه أو يتصوّره بخياله. وجَهد في أن يلقّن الناس وتلاميذه، أن الله، على وحدانيته المطلقة، ثلاثي الوجوه أو التجليات. فهو قد تجلّى أباً في خلقه الكائنات جميعاً من العدم، وتجلّى مخلّصاً من الشر، بواسطة السيد المسيح، كلمته المتجسد، وتجلّى مقدّساً الإنسان بروحه الإلهي القدوس، الذي يبعثه في الإنسان ليخلق منه إنساناً جديداً يحب البشر جميعاً في الله.

4- وهذا التعليم القديم الجديد، عن الله، لم يستخدم السيد المسيح، في تلقينه، أسلوباً مدرسياً ونظرياً، ولا منهجية فلسفية أو لاهوتية. بل هو استخدم كلمات بسيطة، يتداولها عامة الناس، وأمثالاً معبرة وشفافة، يفهمها الإنسان العادي والمثقف. وكان دوماً يدعمها بمبادرات له، تثبّت صحة أقواله، كأن يقول مثلاً: "أنا نور العالم"، ويفتح عين رجلٍ وُلد أعمى، وكأن يقول: "أنا القيامة والحياة"، ويعيد إلى الحياة مَن كان محمولاً إلى القبر، أو مَن كان مدفوناً فيه منذ أربعة أيام. وكان إلى ذلك يعيش ما يقول بكل أمانة ودقة، حتى بات الناس، بدءاً من تلاميذه، يتساءلون فيما بينهم: "من تُرى هذا؟"

5- ثبت علمياً أن أول من كتب في المسيحية، كان من تزعّم استئصالها في القدس، ثم في دمشق. كان اسمه شاول، وقد اتخذ له اسماً جديداً هو بولس، بعد اهتدائه إلى المسيحية ببضع سنوات. وكان أن ساعد التلاميذ أنفسهم على الانعتاق من قيود يهوديتهم، وانطلق يبشّر بالمسيح في العالم القديم، حيثما دفعه الروح وحط به الرحال.

فنشأت على يده جماعات مسيحية كثيرة، هنا وهناك، وتابع أحوالها بالسفر إليها، والكتابة لها. فكانت لنا منه رسائل توجيهية وتنظيمية، سبقت كتابة الأناجيل بسنوات كثيرة. وكان يشرح فيها ما حملته المسيحية من مفاهيم وتوجهات وأخلاق جديدة. وكان أيضاً يجيب فيها أحياناً على العديد من التساؤلات، التي كانت الحياة تطرحها على المؤمنين الجدد. فهناك، من جهة أولى، المجتمع اليهودي وتشريعاته القاسية وملاحقاته العنيفة للتلاميذ وللمسيحيين. وهناك أيضاً، من جهة ثانية، المجتمع الوثني الروماني، المهيمن على كل مرافق الحياة، بأخلاقه المتراخية والمتساهلة. وهناك أخيراً، من جهة ثالثة، نمط الحياة الجديدة، الذي يفرضه على المؤمنين، إيمانهم الجديد.

وكانت هذه الرسائل من الغنى الإنساني والعمق اللاهوتي والواقعية العملية والحرارة اللغوية، ما دفع الكنيسة المسيحية الأولى إلى اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من العهد الجديد، أي من الإنجيل، لدى جميع المسيحيين على اختلاف كنائسهم، وعبر العصور كلها. وهي تكاد تُقرأ كل يوم على مدار السنة، حيثما يُقرأ الإنجيل، في كل كنيسة وفي كل احتفال. وإن هذه الرسائل لتشكل مع الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، على صعيد الحقائق اللاهوتية والأخلاق والتوجيه، المرجع المسيحي الأساسي الأول، الذي لا يمكن الاستغناء عنه، بأي حال، لمعرفة المسيحية، منذ انطلاقتها الأولى في فلسطين.

6- من هذه الحقائق الرئيسة، التي تلقّنها شاول يهودياً، ولُقّنها على يد المسيح نفسه في دمشق، ثم نشرها في أرجاء العالم القديم كله، حقيقة وحدانية الله، الواحد في الجوهر، والثلاثي الوجوه أو التجليات. وقد استخدم في كتاباته كلها، من حيث تشديده على إبراز هاتين الحقيقتين الأساسيتين، عبارات كثيرة، في غاية القوة والتنوع والوضوح، يطيب لي أن أذكر بعضها، وليس كلها:

• **يقول في رسالته الأولى إلى مسيحيي مدينة كورنثس في اليونان (8/4-5):**

« نحن نعلم أن الوثن ليس بشيء في العالم، وأن لا إله إلا الله الأحد. وقد يكون في السماء أو في الأرض، ما يُزعَم أنهم آلهة، بل هناك كثير من الآلهة وكثير من الأرباب، وأما عندنا نحن، فليس إلا إله واحد وهو الآب، منه كل شيء، وإليه نحن راجعون، ورب واحد هو يسوع المسيح، به كان كل شيء، وبه نحن قائمون ».

• **ويقول في رسالته الأولى إلى مسيحيي مدينة تسالونيكيا في اليونان (1/8-10):**

« من عندكم تردّد كلام الله، لا في مقدونية وآخائية فحسب، بل انتشر إيمانكم بالله في جميع الأماكن، ولم يبق بنا حاجة إلى الكلام عليه. فهم يخبرون كيف جئنا إليكم، وكيف اهتديتم إلى الله وتركتم الأوثان، لتعبدوا الله الحي الحق، منتظرين أن يأتي من السماوات ابنه الذي أقامه من بين الأموات، ألا وهو يسوع المسيح الذي ينجينا من الغضب الآتي ».

• **ويقول في رسالته إلى مسيحيي مدينة روما (1/18-23):**

« فقد ظهر غضب الله من أعلى السماء، غضب الله على كفر الناس وظلمهم، يجعلون الحق أسيراً للظلم، لأن ما يُعرَف عن الله بُيِّنَ لهم، فقد أبانه الله لهم. فمنذ خلق العالم لا تزال صفاته الخفية، أي قدرته الأزلية وألوهته، ظاهرة للبصائر في مخلوقاته. فلا عذر لهم إذن، لأنهم عرفوا الله ولم يمجّدوه ولا شكروه كما ينبغي لله، بل تاهوا في آرائهم الباطلة، فأظلمت قلوبهم الغبية. زعموا أنهم حكماء، فإذا هم حمقى، قد استبدلوا بمجد الله الخالد، صوراً تمثّل الإنسان الزائل والطير وذوات الأربع والزحافات ».

• **ويقول في رسالته الأولى إلى تلميذه طيموثاوس (6/13-16):**

« وأوصيك في حضرة الله الذي يُحيي كل شيء، وفي حضرة المسيح يسوع

الذي شهد أحسن شهادة بمحضر من بيلاطس البنطي، أن تحفظ هذه الوصية بريئة من العيب واللوم، إلى أن يظهر ربنا يسوع المسيح. فسيظهره في وقته،

"ذاك السعيد القدير وحده،
ملك الملوك ورب الأرباب،
له وحده الخلود،
ومسكنه نور لا يُقترب منه،
وهو الذي لم يره إنسان، ولا يستطيع أن يراه،
له الإكرام والعزة الأبدية، آمين ».

- ويقول أيضاً في رسالته الأولى إلى مسيحيي مدينة كورنتس (1/1-9):

« من بولس الذي شاء الله أن يدعوه ليكون رسول المسيح يسوع، إلى كنيسة الله في كورنتس، إلى الذين قُدّسوا في المسيح يسوع، ودُعُوا ليكونوا قديسين... عليكم النعمة والسلام من لدن الله أبينا ومن لدن الرب يسوع المسيح.

إني أحمد الله إليكم أبداً على ما أوتيتم من نعمة الله في المسيح يسوع... هو الله صادق، دعاكم إلى مشاركة ابنه، ربنا يسوع المسيح ».

- ويقول أيضاً في رسالته الثانية إلى مسيحيي مدينة كورنتس (1/3-4):

« تبارك إله ربّنا يسوع المسيح وأبوه، أبو الحنان وإله كل عزاء، فهو الذي يعزّينا في جميع شدائدنا، لنستطيع، بما تلقّينا نحن من عزاء من الله، أن نعزّي سوانا في أية شدة كانت... ».

- ويقول أيضاً في رسالته الأولى إلى مسيحيي مدينة تسالونيكيا (5/23-24):

« قدّسكم إله السلام نفسه تقديساً تاماً، وحفظكم منزّهين عن اللوم، سالمين روحاً ونفساً وجسداً، يوم مجيء ربنا يسوع المسيح! إن الذي دعاكم صادق، ينجز وعده ».

• **ويقول أخيراً - وليس آخراً - في رسالته الثانية إلى مسيحيي مدينة تسالونيكيا** (2/16-17):

« نسأل ربنا يسوع المسيح نفسه، والله أبانا الذي أحبنا وأنعم علينا بعزاء أبديّ حسن، أن يعزّيا قلوبكم ويؤيّداها في كلّ صالحٍ من عمل وقول... ».

7- **ترسخت إذن العقيدة المسيحية منذ نشأتها، على وحدانية مطلقة تترجم ذاتها في وجوه أو تجلّيات ثلاثة، اتخذت لها تسميات هي الآب والابن الكلمة والروح القدس، وهي لا تَفصِل فيها البتة، بل تميّز بين تجليات الذات الإلهية الواحدة.**

8- **وكان أن ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، في خضم التفاعل الفكري واللاهوتي، من عبّر عن هذه العقيدة بطريقة خاطئة، وكان المدعو "ماركيون" أحد الذين ادعوا الفصل التام بين كل من الآب والابن والروح القدس، فأفضى بعقيدة الثالوث إلى اعتبارها إيماناً بثلاثة آلهة: فتصدّت له الكنيسة في تعليمها الرسمي وفي مجامعها الكنسية المحلية، وحرمته. وقد جاء في أحد النصوص الرسمية، العائد إلى عام** 262، **في كتاب "الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها — الصفحة** (41-42)، **ما يلي:**

"إن عقيدة "ماركيون" الأحمق، بتقطيع الوحدة وتقسيمها إلى ثلاثة مبادئ، هي تعليم شيطاني، وليست تعليم تلاميذ المسيح الحقيقيين... فهؤلاء يعلمون جيداً أن الكتاب الإلهي يتكلم عن الثالوث، ولكن لا العهد القديم، ولا العهد الجديد يتكلمان عن ثلاثة آلهة... فمن الواجب إذن ألاّ تُقسّم الوحدة الدائمة والإلهية إلى ثلاث ألوهيّات، وألاّ يُساء إلى كرامة الله وعظمة جلاله".

9- **وفي خضم المحاولات اللاهوتية المتتابعة، ظهر في مصر في مطلع القرن الرابع الميلادي، راهب مسيحي يدعى "أريوس"، ودعا إلى التمييز التام في الثالوث المسيحي، بين الآب بوصفه واجب الوجود وحده، الخالق الأوحد، وكلمته بوصفه أولى مخلوقاته وأعظمها، فيما انتفى الروح**

القدس. فتصدّت له الكنيسة جمعاء في مجمع عُقد في مدينة نيقيا، بالقرب من القسطنطينية، عام 325، وثبّتت الإيمان بالوحدة الجوهرية في الطبيعة الإلهية الواحدة، القائمة بين الآب والابن والروح القدس، منذ الأزل وإلى الأبد. وفي هذا المجمع، صاغت الكنيسة أول "قانون إيمان" رسمي لها، أي أول نص رسمي تعلن فيه الكنيسة بإجماع مطلق، الأسس الثابتة والواحدة لإيمانها. وقد أكّدت وتؤكد فيه حتى اليوم، على اختلاف تسميات هذه الكنيسة، من كاثوليكية وأرثوذكسية وبروتستانتية، إيمانها المطلق بوحدانية الله في وجوهه أو تجلّياته الثلاثية.

إن هذا النص الرسمي هو ما يسمى "قانون الإيمان". وهو يتلى في كل قداس، في جميع الكنائس وفي معظم الطقوس الكنسية، وفي الكثير من الصلوات الجماعية والفردية، العادية والرسمية. وهو في متناول أي إنسان عادي أو باحث، كما هي شؤون المسيحية كلها في جميع مؤسساتها الكبرى والصغرى، على نطاق العالم.

10- يتضح للمتتبع أو المراقب الموضوعي أن المسيحيين جميعاً ألِفوا عبر عصورهم كلها، أن يفتتحوا جلّ صلواتهم، ببسملة أو بمجدلة، يعلن فيها المؤمن عن إيمانه الراسخ بما هو قطبا الإيمان المسيحي، الصريحان والثابتان: الوحدانية المطلقة والثالوث الأقدس. أما البسملة أو المجدلة، فكلتاهما مجموع من ثماني كلمات يتلوها الكبير والصغير، والعالم والجاهل، بمنتهى البساطة، فيقول:

"باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد، آمين"،

"المجد للآب والابن والروح القدس، الإله الواحد، آمين".

فثمة وحدانية صريحة في المسيحية، وهي الأساس والبداية، وثمة ثالوث، وهو التعبير اللاحق، والنابع من الغنى الجوهري لهذه الوحدانية الإلهية المطلقة.

الفصل السادس

الفكر المسيحي في نشأته ووجوهه

آباء الكنيسة

أُطلق لقب "أب" في الكنيسة الأولى على الأسقف أولاً، بصفته المسؤول فيها عن السلطة الإدارية والعقائدية (والأسقف كلمة يونانية تعني "المناظر" أو "المشرف").

وأُطلقت تسمية "آباء الكنيسة"، منذ القرن الرابع، على أشخاص لم يكونوا بالضرورة أساقفة، ولكنهم كانوا يتمتّعون بنفوذ على صعيد العقيدة. واشتُرِط في أبرزهم أن يكون سليم العقيدة، مستقيم السيرة، حائزاً على تأييد الكنيسة، قديم العهد.

إلا أن مفهوم "الأبوّة الروحية" هذه، لم يظلّ وقفاً على هؤلاء، بل شمل أيضاً العديد من الكتّاب الذين تناولوا مواضيع يضمّ طيفُها عظات وتفاسيرَ لاهوتيّة، وشروحاً كتابيّة وترتيبات طقسيّة، ومراسلات وأخباراً وسِيَراً، وأبحاثاً عقائديّة، وردوداً دفاعيّة، وأناشيد كنسيّة.

بذلك انضم إلى "الآباء" عدد من رجال الكنيسة على اختلاف رتبهم، ومن العلمانيين على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والمهنية. فكان منهم البابوات والبطاركة، والأساقفة ورؤساء الأديار والرهبان والكهنة، ورجال القانون والفلاسفة، والرحالة والنُسّاك والشعراء!

وقد كتبوا باللغات السائدة آنذاك: اليونانية أولاً، ثم اللاتينية، فالسريانية، فالقبطية، فالأرمنية، فالعربية.

وإن ما كتبوه ليشكّل إلى اليوم القسم الأكبر من آداب بلدان المتوسط والدول الأوروبية. وهي آداب تمتدّ في الزمان من آخر تلاميذ المسيح، أي من أواخر القرن الأول، حتى آخر القرن السابع بالنسبة إلى الغرب، وحتى منتصف القرن التاسع بالنسبة إلى الشرق. وهي تتسع في المكان لتشمل "العالم القديم" كله، أي بلدان ما بين النهرين شرقاً، إلى إسبانيا غرباً، وإيرلندا شمالاً، وإلى مصر والحبشة جنوباً.

وتبرز طوال هذه الحقبة تواريخ كانت مفاصل فيها، يسعنا أن نقسّمها بموجبها، إلى ثلاثة أقسام: الأول من أواخر القرن الأول إلى مطلع القرن الرابع، والثاني من بدء القرن الرابع إلى وفاة القديس اوغسطينوس عام 430، والثالث من عام 430 حتى منتصف القرن التاسع. ولكل من هذه الأقسام، بالطبع، سمات نشير إلى أهمها، وقد برزت فيها أسماء يغني ذكرها عن ذكر المئات الثانويين.

أولاً- "آباء" أواخر القرن الأول حتى إعلان ميلانو عام 313

تقسّم تلك الفترة بدورها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يمتدّ حتى الثلث الأول من القرن الثاني، ويطلق على كتّابه اسم "الآباء الرسوليّين"، لأنهم كانوا آخر من عرفوا رُسُل المسيح.

الثاني: يمتدّ إلى أواخر القرن الثاني، ويطلق على كتّابه اسم "الآباء المدافعين".

والثالث: يمتدّ حتى "إعلان ميلانو" عام 313، ويطلق على كتّابه اسم "الآباء المعلّمين".

(1) الآباء الرسوليّون.

تميّزت مرحلتهم بأمور ثلاثة:

أولها، واقع التواصل بين أقطابها وآخر رسل المسيح.

ثانيها، تصويرها، بأمانة وعفوية، حياة المسيحيين، إن من حيث المعتقدات، وإن من حيث علاقة الكنائس بعضها بالبعض الآخر، وإن من حيث الطقوس، لا سيما طقوس العماد والتوبة والذبيحة أو القربان، وإن من حيث التأكيد على مركزية السلطة والإيمان في شخص الأسقف، وخصوصاً أسقف روما.

ثالثها، انسلاخها الصريح عن اليهودية.

لم ينتهِ إلينا من كتابات "الآباء الرسوليّين" الشيء الكثير. ولكن قيمتَه كبيرة بوصفه الشاهد الأول على المسيحية الأولى.

من هذه المؤلفات ثلاثة لا يُعرف واضعوها، هي: "تعليم الرسل الاثني عشر" و"رسالة برنابا" و"الراعي".

ومن المؤلفين المعروفين، ثلاثة أساقفة هم: "اقليميس" و"أغناطيوس" و"بابياس".

1- المؤلفات الثلاثة:

أ- "تعليم الرسل الاثني عشر"

هو كتيّب قد يعود إلى الفترة الواقعة بين عامي 90 و120. وهو أشبه شيء بموجز يستخدمه المؤمن، ويضمّ، في أسلوب مبسّط ومتتابع، أهم نقاط الأخلاق المسيحية، وقواعد العلاقات بين المسؤولين الكنسيين، ونظام الأعياد وترتيب الصلوات الخاصة بسرّي العماد والذبيحة. وقد عرف قديماً انتشاراً مذهلاً.

ب- "رسالة برنابا"

هي رسالة نُسبت إلى برنابا، رفيق القدّيس بولس. وهي تشبه بمتانة سكبها وأفكارها، بل وغايتها، "الرسالة إلى العبرانيّين" المنسوبة إلى بولس. وما ترمي إليه واضح: هو تحذير للمسيحيّين الأوائل من تسلّل التأثيرات اليهودية إليهم. وقد بلغ من نفوذ هذا المؤلَّف أنه عُثر عليه في بعض أقدم مخطوطات الكتاب المقدس. ويرجَّح أنه كُتب في الاسكندرية في أوائل القرن الثاني.

جـ- "الراعي"

يستهدف الكتاب، في أسلوب رمزي، حالة من الهبوط الروحي، طرأت على كنيسة روما، وتسبّبت في حدوث بعض التجاوزات. فيحضّ على العودة إلى الله الساهر على كنيسته، في توبة صادقة، قبل أن تحلّ النهاية. ولا يُعرف عن المؤلّف سوى اسمه: "هرماس".

2- المؤلفون الثلاثة.

أ- القديس أقليميس.

هو أحد خلفاء القدّيس بطرس في روما. وقد شغل كرسيها على الأرجح من عام 92 إلى عام 101، فدفعته بلبلة حدثت في كنيسة كورنثس باليونان، ثار على إثرها بعض المؤمنين على بعض كهنتهم، إلى التدخل ليضع حدّاً لهذا التمرّد، وليدعو المؤمنين للالتفاف حول رعاتهم الشرعيين. وقد لاقت هذه الرسالة قبولاً واسعاً، في القديم، حتى إنها أُلحقت، في بعض المخطوطات البالغة القدم للكتاب المقدّس، برسائل الرسل الأولين.

ب- القديس "اغناطيوس"

كان أسقفاً على أنطاكية سورية. واقتيد، في عهد الإمبراطور "ترايانوس"، إلى روما، لتفترسه الوحوش. وفي الطريق إليها، كانت جموع المسيحيين تستقبله بمحبّة بالغة. فكان يخصّها، بعد رحيله، برسالة شكر وتوجيه. وانتهى إلينا سبعٌ من هذه الرسائل. وكلّها تحذّر من الانزلاقات العقائدية، وتدعو إلى التمسك بالإيمان الراسخ بحقيقة تجسّد المسيح وصلبه وموته وقيامته، كما تدعو إلى تحمّل العذاب والموت تشبّهاً به، وإلى الالتفاف حول الرئيس الكنسي الشرعي، مثل التفاف الرسل حول المسيح نفسه. وقد استُشهد اغناطيوس في روما عام 107.

جـ- بابياس

كان أسقفاً على مدينة "هيرابوليس" في مقاطعة فريجيا، في النصف الأول من القرن الثاني. وقد كتب حوالي عام 130، بحثاً بعنوان "تفاسير

أقوال الرب"، لم ينتهِ إلينا منه إلا مقاطع صغيرة. ولكن مضمونها كبير، لأنها تظهر أن هذا العمل كان أول محاولة لتفسير الإنجيل. كما أن المؤلِّف يدلي فيها بشهادة له هامة، استناداً إلى شهادة الرسول يوحنا نفسه، حول تواتر النقل (التقليد) الشفهي في الكنيسة، وحول كتابة الإنجيلَيْن بحسب كلّ من متى ومرقس.

(2) الآباء المدافعون.

كانت فترتهم صراعاً، واجهوا فيه مقاومة داخلية وخارجية.

تبدّت الخارجية أولاً في اضطهاد الإمبراطورية الرومانية للمسيحية، أيام الأباطرة "ترايانوس" (98–117) و"انطونيوس التقي" (138–161)، و"مرقس اوريليوس" (161–180)، و"سبتيموس ساويروس" (193–211).

واتخذ الاضطهاد شكلين: الأول، قانوني ومنظّم وشامل، قامت به الدولة. والثاني انفعالي وعابر، تقوم به الجماهير المحرَّضة. وكان كلا الاضطهادين دموياً. وقد ثبت أنه كان لليهود أحياناً يد فيهما كليهما.

تبدّت المقاومة الخارجية ثانياً، في هجوم فكري شنّه بعض كبار المثقفين الرومانيين. وكان من أبرزهم "فرونتونوس البرتاوي" – الذي كان صديقاً للإمبراطور "انطونينوس التقي"، ومربّي ابنه "مرقس اوريليوس" – و"لوقيانوس الساموساتي"، وخصوصاً "قلسيوس" الذي كان أشدّهم خطراً، لأنه كان أكثرهم اطلاعاً على المسيحية وكتاباتها، فاستغلّ ظاهر التناقض في بعض آياتها.

وكانت هذه المقاومة الخارجية تبرّر هجومها بتهم، منها أن المسيحيين ينكرون الولاء للإمبراطورية، ويتداولون خرافات، ويمارسون، في اجتماعاتهم، الفحش وأكل اللحم البشري.

وأما المقاومة الداخلية، فقد اتخذت أربعة أشكال رئيسية، هي: النزعة "اليهودية- المسيحية"، و"الحركة الغنوصية"، وبدعتان هما: "المونتانية" و"الألفية".

كانت "اليهودية- المسيحية"، بطرفيها المتصلّب والمعتدل معاً، ترمي إلى احتواء المسيحية في اليهودية، والإبقاء على هيكل أورشليم مركزاً أوحد لها. وكان لِدُعاتها

إنجيلهم الخاص المسمى "الإنجيل بحسب العبرانيين" أو "إنجيل الناصريين"، وهو صياغة جديدة للإنجيل بحسب متى، طلعوا بها حوالي عام (100).

وكانت "الغنوصية" و(الكلمة يونانية، تعني المعرفة) قد أتت وليدة لقاء بين الاهتمام الديني والقلق الفلسفي من جهة، والوحدانية اليهودية والدعوة المسيحية من جهة أخرى. فاستقطبت نزعات فكرية وروحية مختلفة، حاولت أن توفّق بين معطيات التعليم التقليدي في الكنيسة، والعديد من الفلسفات القديمة، ولا سيما الشرقية. فكانت أشبه شيء بمحاولة تحويل المسيحية إلى فلسفة دينية، تحلّ فيها المعرفة محل الإيمان.

أما بدعة "المونتانية"، فقد ادعى مؤسّسها "مونتانوس" - وهو من مقاطعة فريجيا - أنه ممثّل الروح القدس، وأنه ائتُمن على وحي ثالث يكمل الوحيين السابقين، اليهودي والمسيحي. وقد تشدّد جداً في أمور الأخلاق والزواج والتوبة، فضاعف الصيام ومنع الزواج الثاني - بعد موت أحد الزوجين - وحرّم غفران الخطايا التي تُرتكب بعد العماد.

وكانت البدعة الثانية "الألفية" تستوحي ادّعاءً يهودياً بحكم زمني يقيمه المسيح المنتظر مدة ألف عام، تعقبه القيامة العامة، فحلول الملكوت السماوي إلى الأبد.

وقد قابل "الآباء المدافعون"، كلٌّ على حدة، هذا الواقع، بما أوتي من معرفة وإيمان وحسّ بالمسؤولية. فواجهوا السلطات والمفكرين، بحقيقة المسيحية والمسيحيين، وطالبوا باحترامهم أسوة بسائر المواطنين. وبسطوا الحقائق في نقاطها الهامة، أي تلك التي تتعلّق بالعقيدة والأخلاق، والطقوس الدينية. واستخدموا أسلوباً يضع ذلك في متناول الوثنيين، لعلهم ينتزعون به احترام المثقّفين منهم، وربما تأييدهم. وكانوا كثراً. ولكن جميع ما وصلنا منهم لا يتجاوز مؤلَّفاً لا يُعرف واضعه، وهو بعنوان "رسالة إلى ديوغنيتس"، ومؤلفات لثلاثة" آباء" هم: "يوستينوس" و"أثيناغوراس" و"ايريناوس"، ومقتطفات لرابع هو "ثاوفيلوس الأنطاكي".

1- "رسالة إلى ديوغنيتس"

تعتبر رائعة أدب "الآباء المدافعين"، وإن كان لا يُعرف واضعها ولا تاريخ وضعها. وهي تصف بلغة متوهّجة وفكر نيّر ونبرة وديّة، تفوّق المسيحية على الوثنيّة، في عقيدتها وأخلاقها. ولا تقسو في الحكم إلاّ على اليهودية.

2- القديس يوستينوس.

وُلد في نابلس بفلسطين، في مطلع القرن الثاني، من أسرة وثنية. واعتنق المسيحية بعد بحث طويل ودؤوب عن الحقيقة، تنقّل خلاله بين مختلف المدارس الفلسفية. فوضع في خدمة معتقده الجديد كل ما أوتي من معرفة ومقدرة. ودافع عن المسيحية ضدّ الوثنيين، وضدّ اليهود وضدّ البدع الجديدة. وانتهى به المطاف إلى روما حيث أنشأ مدرسة لتعليم الفلسفة والحقيقة. وقاده نجاحه فيها مع العديد من تلاميذه إلى ساحة الاستشهاد عام 165. وقد كتب كثيراً. ولكن لم ينتهِ إلينا، مما نُسِب إليه بصورة ثابتة إلا ثلاثة نصوص، اثنان منهما "دفاعان" خصّ بهما المجتمع الروماني الوثني، و"محاورة" خصّ بها اليهود. فقد وجّه "الدفاع" الأول عام 152، إلى الإمبراطور "انطونيوس التقي" وابنه "مرقس اوريليوس" و"مجلس الشيوخ"، ووجه الثاني، حوالي عام 164، "إلى الإمبراطور مرقس اوريليوس الفيلسوف". وهو يبسط لهم حقيقة المسيحية، ويحتجّ على المظالم التي تحلّ بأتباعها، في أسلوب واضح، جريء ونبيل. وأما "المحاورة مع تريفون"، فقد خصّ بها اليهود - وتريفون أحد حاخاماتهم - وهو يدعوهم إلى الالتزام بأقوال أنبيائهم والإيمان بيسوع الناصري، بوصفه المسيح المنتظر.

3- "أثيناغوراس"

لا يُعرف عنه سوى أنه ولد في أثينا من أسرة وثنية، وأنه درس الفلسفة وطالع الكتاب المقدس بقصد دحضه، فانقلب مؤمناً به. ويُنسب إليه، بصورة ثابتة، نصّان. أولهما خصّ به الإمبراطورين "مرقس اوريليوس" و"كومموديوس" حوالي عام 177-178، ويحمل عنوان "التماس من

أجل المسيحيين"، وثانيهما بعنوان "في قيامة الأجساد". يتسم مؤلَّفا "اثنياغوراس" بمحاولة التوفيق بين العقل ومعطيات الإيمان. وهو يُخضِع لها حتى عقيدة قيامة الموتى. أما مؤلَّفه "التماس من أجل المسيحيين"، فقد اعتُبر آية في أسلوبه ومنطقه ووضوحه، وهو يضم "أول برهنة عقلية على وحدانية الله، عرفها الأدب المسيحي القديم".

4- القديس ايريناوس.

ولد في "ازمير"، حوالي عام 140، ونشأ في كنف الأسقف "بوليكربوس"، تلميذ يوحنا الرسول نفسه. وأصبح أسقفاً بُعيد عام 177، على مدينة "ليون"، محلّ القديس الشهيد "بوتينوس". وبدأ عندها مقاومته للغنوصية وسائر الهرطقات. وقد بلغ من نفوذه الكنسي أنه جعل من "ليون" عاصمة بلاد غاليا الدينية. ويُرجّح أنه استُشهد إبان المذابح الجماعية التي نُظّمت ضدّ المسيحيين، عامي 202-203، في عهد الإمبراطور "سبتيموس ساويروس". وقد كتب "ايريناوس" كثيراً. ووصلنا منه بحثان كاملان بعنوان "برهان التبشير الرسولي" و"ضدّ الهرطقات"، يبسط فيهما موجزاً للعقيدة المسيحية، يتميّز بالوضوح والموضوعية والاحترام، ويشدّد فيه على ضرورة التمسك بقاعدة الإيمان، التي هي الكنيسة في شخص رعاتها، ولا سيما شخص الراعي الأول، أسقف روما.

5- القديس "ثاوفيلوس"

ولد على ضفاف الفرات، وتلقّى تربية يونانية وثنية، ثم اهتدى إلى المسيحية، وأصبح عام 169 أسقفاً على مدينة أنطاكية. من أهم كتاباته "ثلاثة خطب"، خصّ بها إنساناً يدعى "اوتوليكوس"، تطاول في سخرية على الإيمان بوجود الله وبقيامة الموتى. فطوى خطابه الأول على أهمية الشروط الذاتية في السعي إلى الإيمان، من صفاء نيّة ونقاء سيرة. وكان في خطابه الثاني، أول من استخدم كلمة "ثالوث" باليونانية، في حديثه عن الآب والابن والروح القدس.

(3) الآباء المعلمون.

عرف القرن الثالث انطلاقة في أدب "الآباء"، تُفهم في ضوء الظروف الجديدة التي باتت تحيط بالمسيحيين.

أولها، أن الكنيسة بلغت من الانتشار ما حوّلها إلى قوة لم يُغفل حجمها معظم الأباطرة. فسنّ الإمبراطور "سبتيموس ساويروس"، عام 202، قانوناً يجيز ملاحقة المسيحيين. فكان الاضطهاد مرتبطاً بقرارات من السلطة العليا وحدها. فتقلّبت الأحوال بين اضطهاد عنيف وشامل، كما في عهود "ساويروس" و"مكسيميانوس" (235–238) و"داكيوس" (248–251) و"فاليريانوس" (249–260)، ومهادنة أتاحت للكنيسة مزيداً من الانتشار والتنظيم. فكان نتاج "الآباء" أقرب إلى التنظير الشامل والمنتظم، منه إلى الدفاع العاجل.

ثانيها، نهضة وثنية واضحة، اتخذت لها أشكالاً ثلاثة هي: الديانات الشرقية، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، ومذهب المانوية.

ثالثها، ظهور نزعات عقائدية في المسيحية، بدا بعضها، على جرأته، منسجماً معها، فيما تطرّف غيره. وكانت، في معظمها، تدور كلها حول مسألة الثالوث. وكان من أبرز دعاتها، أسقف أنطاكية "بولس الساموساطي".

رابعها، بروز خلافات تنظيمية داخل الكنيسة، بشأن أمور هي: توبة الخاطئين، وعودة "الساقطين" - أي الذين أنكروا الإيمان بفعل الاضطهاد ثم تابوا - ومنح العماد للهراطقة.

كان "آباء" هذا القرن كثراً، وقد تناثروا في أرجاء الإمبراطورية. إلا أن أبرزهم كانوا في المدن الكبرى: أنطاكية والاسكندرية، وقيصرية وروما وقرطاجة.

وقد كتبوا كلّهم باليونانية، ما عدا الأفارقة الذين كانوا أول من كتب باللاتينية. واستطاعوا أن يشيّدوا بناء فكرياً على جانب من التكامل،

شاؤوا له أن يجاري بمتانته ما قدّمت الفلسفات القديمة من نتاج. فكانوا بذلك حقاً مؤسّسي اللاهوت المسيحي.

أبرز هؤلاء "الآباء" خمسة:

اثنان من الاسكندرية، هما "اقليميس" و"اوريجانيس"، وقد قدما إلى مدرستهما الشهيرة، هذا من مصر ومن أسرة مسيحية، وذاك من أثينا ومن بيئة وثنية. فكان الأول مديرها، والثاني تلميذه. وأصبح كلاهما كاهناً، وعانى كلاهما من الاضطهاد، فقضى اوريجانيس إثر التعذيب عام 253، وكان ذلك، في آسيا الصغرى ما بين 211 و216. وقد ألّفا كثيراً، إلا أن "أوريجانيس" كان أغزر "الآباء" الشرقيين. ومن أهم ما كتب اقليميس، ثلاثية بعنوان: "تنبيه إلى اليونانيين"، و"المربّي"، و"البساط"، وهو يرمي منها إلى اقتياد الوثنيين بالمنطق إلى المسيحية، ثم إلى سيرة مستقيمة، وأخيراً إلى ملء المعرفة في الإنجيل. وأما "اوريجانيس"، فيذكر له مما ألّف، خصوصاً "التحريض على الاستشهاد"، وفيه عصارة إيمانه، و"ضد قلسيوس" الذي فاق به كل ما كتب "الآباء" قبله وبعده، من دفاع عن المسيحية، و"في المبادئ" الذي جاء بناءً فكرياً شاملاً للعقيدة المسيحية، و"في الصلاة" الذي يعتبر آية أعماله. كما وأنه قدّم في "السداسية" دراسة علمية ولغوية للكتاب المقدس، لم يسبقه إليها أحد، وباتت نموذجاً يُحتذى للكثيرين من بعده.

وفي أنطاكية، أسس "لوقيانوس" الملقب بالساموساطي، عام 260، مدرسة كان لها شأن كبير، خصّها لدراسة الكتاب المقدس. وقد جنّبته ثقافته الفلسفية الأرسطية، مخاطر التأويل الرمزي، وشدّته إلى المعنى الحرفي. إلا أنّ آراءه وتفاسيره مهّدت السبيل أمام نزعات مشبوهة تتعلّق بعقيدة الثالوث، كانت أكثرها تطرّفاً بدعة "آريوس".

وفي قرطاجة، يطلّ علينا وجهان متقاربان ومتباعدان معاً، هما "ترتليانوس" (155-240) و"كبريانوس" (200-258). فكلاهما من أسرة وثنية،

وكلاهما شغف بسموّ المسيحية، فسخّر كل ما أوتي في سبيل الدفاع عنها والتعريف بها. إلا أن "ترتليانوس" تطرّف في تشدّده حيال الخطأة، فخرج على الكنيسة، فيما "كبريانوس" أصبح أسقفاً، واحتضن "الساقطين"، ومات شهيداً. وما كتباه ترك بصمته في اللاهوت والتنظيم الكنسيين.

يُذكر لترتليانوس خصوصاً "رسالة إلى الأمم الوثنية"، و"رسالة الدفاع"، و"الردّ على اليهود". وقد اعتبر "أول منظّري الكنيسة الكاثوليكية"، وأحد أبرز من أعلن أولوية كنيسة روما.

ثانياً- عصر "الآباء" الذهبي

يمتدّ من إعلان ميلانو عام 313 إلى وفاة القديس اغسطينوس عام 430. وقد تخلّلته أحداث عامة وكنسية، كان لها أثر كبير على الصعيد المسيحي.

على صعيد الإدارة العامة، حدث تغييران أساسيان في مطلع القرن الرابع: فالإمبراطور "ديوكليسيانوس" قسّم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية. ثم كان أن أعلن "قسطنطين" في ميلانو، حقّ المسيحية في الوجود، وكان هو أول الأباطرة المسيحيين.

وترتب على كلا الحدثين نتائج جذرية:

أولها، أن الشرق والغرب مضيا تدرّجاً في اتجاهين متباعدين، وتعاظم اندفاعهما تحت ضغط الغزوات البربرية في الغرب خصوصاً، وبفعل طموحات القسطنطينية السياسية، مما هدّد لا الوحدة السياسية وحسب، بل الكنسية أيضاً.

ثانيهما، أن السلطة الزمنية بدأت مداخلاتها، المفرطة أحياناً، في شؤون الكنيسة. وقد تفاقم الأمر، بعد أن أعلن الإمبراطور "تيودوسيوس" عام 392، المسيحية ديناً للدولة. فعاد ذلك على الكنيسة بمكاسب كبيرة، منها: ازدياد رجال الكنيسة وانصرافهم بطمأنينة إلى التبشير، وانحسار الوثنية شيئاً فشيئاً، وتعاظم دور الأساقفة، وتكاثر المجامع الكنسية. إلاّ أنّ ذلك عاد

عليها أيضاً بمساوئ جسيمة منها: تفاقم تدخل السلطة الزمنية في شؤون الكنيسة، حتى الانحياز أحياناً للخارجين عليها، وتبعية رجال الكنيسة ذوي الرتب العالية لها، وبالتالي تساهلهم أحياناً بشأن العقيدة والأخلاق.

إلا أن كل ذلك لم يمنع المجتمع المسيحي من التحلّي بإيمان يزداد عمقاً وصلابة. وقد تجلّى على الصعيد العام في بروز مدرستين، في الاسكندرية وأنطاكية، كان لهما شأن لاهوتي كبير. وقد كان لكل منهما اتجاه كتابي ولاهوتي وممثّلون. فالاسكندرية أخذت بالتفسير الروحي والرمزي للكتاب المقدس، وبنزعة لاهوتية صوفية، استندت إلى الفلسفة الأفلاطونية، فأبرزت الجانب الإلهي في شخص المسيح. وكان من ألمع دعاتها "اثناسيوس" و"الكبادوكيون" الثلاثة. أما المدرسة الأنطاكية، فعُرفت بتمسّكها الحرفِي في تفسير الكتاب المقدس، وجنحت في لاهوتها إلى واقعية غذّتها فلسفة أرسطو، فدفعت ممثّليها إلى إبراز الجانب الإنساني في المسيح، وكان أعظمهم القديس يوحنا الذهبي الفم.

أما على الصعيد الخاص، فقد تجلّى هذا الإيمان في سعي الناس، مثقّفين وعاديّين، إلى الاهتمام حتى بأعقد الأمور اللاهوتية. ومع أن تمرّسهم بالآداب والفلسفات القديمة، كان حافزاً لهم على تعميق إيمانهم، فقد كان أيضاً منزلقاً جرّ العديد إلى آراء ومواقف هزّت أركان المسيحية. فظهرت آنئذٍ هرطقات مسّت في معظمها الثالوث وألوهية المسيح وحرية الإنسان. فهرطقة "اريوس" أنكرت ألوهية المسيح، وهرطقة "ماكيدونيوس" أنكرت ألوهية الروح القدس، وهرطقة "سابيليوس" اعتبرت الثالوث اسماً شكلياً ليس إلاّ لجوهر واحد، وهرطقة "اوتيخس" قالت بوجود طبيعة واحدة في المسيح، وهرطقة "نسطوريوس" قالت بوجود شخصين مستقلين فيه، وهرطقة "سرجيوس" بوجود إرادة واحدة فيه، وهرطقة "ماني" بتواجد مبدأين أزليين متناقضين هما الخير والشر، فيما "بيلاجيوس" يقول بأولوية إرادة الإنسان على النعمة الإلهية في اختيار الخير دون الشر.

وقد ترافق كل ذلك مع استمرار عادات وممارسات وثنية، طالت أعلى المسؤولين في الدولة والكنيسة.

وقد واجه "الآباء" جميع هذه المتغيرات بمواقف اتسمت أحياناً بشجاعة فائقة، كما حدث مع "أمبروسيوس"، و"أثناسيوس"، و"باسيليوس"، و"يوحنا الذهبي الفم"، و"هيلاريون" أسقف "بواتييه". وواجهوها أيضاً بنتاج فكري تميّز بسمات ثلاث، هي: الأسلوب الكلاسيكي في بسط حقيقة المسيحية، خطابةً وكتابةً، والمتانة في المنطق الفلسفي المعتمد، والشمولية في المواضيع المعالَجة.

ولم يكن كل ذلك ليأتي بحكم المصادفة. فثمة أسباب رئيسية دفعت في اتجاه هذه القفزة الجديدة، نذكر منها: اعتناق الطبقة المثقّفة للمسيحية، وأهمية المسائل المطروحة والمتفرّعة عنها، واتساع الحياة النسكية ونموّها المدهش. فجلب ذلك للكنيسة رجالاً على قدر كبير من الثقافة والبلاغة، وقد صقلوهما سنوات طويلة في صمت الأديرة، تأملاً وصلاة.

ولئن كان "آباء" هذه الفترة يستحقّون دراسة مستقلّة، فحسبنا الإشارة إلى أهم ما جاؤوا به أو أضافوه.

<u>في الشرق أولاً.</u>

<u>في فلسطين</u>، كان "أفسابيوس"، أسقف قيصرية، وقد ولد فيها عام 265، وتوفّي فيها عام 325. كان حقاً رائداً في التاريخ الكنسي، في كتاب يحمل هذا العنوان، ويعتبر مرجعاً أساسياً في أصول المسيحية.

<u>وفي القدس</u>، أسقفها "كيرلّس"، الذي ولد فيها عام 313، وتوفي فيها عام 386. وقد قاوم الأريوسية وتعرض للنفي مراراً. وكان واعظاً يحرص في أسلوب تعليمي، أن يوفّر لسامعيه، من مسيحيين وطالبي المسيحية، بُنية فكرية متينة، وفهماً عميقاً لما يمارسونه من طقوس. وفي عظاته معلومات ثمينة بشأن التطور الذي طرأ على الطقوس الكنسية، ولا سيما القداس، التي تبدّت في أقسامها الرئيسية، من خلال وصفه، كما تمارس اليوم تقريباً.

ومن سورية، يطل القديس "أفرام" من نصيبين حيث ولد عام 306، وقد توفّي في الرها عام 373. جاء من بيئة وثنية، فاعتنق المسيحية وأصبح راهباً، يترجم عشقه لله في أناشيد بلغت من السموّ، ما جعلها تندرج في كتب الصلوات الكنسية. وقد ترجمت سريعاً إلى اليونانية، فكان لها تأثير لاحق على ظهور الشعر الإيقاعي في الكنيسة البيزنطية. وقد اعتبر أفرام أوّل وأعظم من كتب بالسريانية.

وفي سورية أيضاً، أعظم خطباء "آباء" الكنيسة على الإطلاق: يوحنا الملقب بالذهبي الفم. ولد في أنطاكية حوالي عام 344، وتنسّك في شبابه، بعد أن مارس المحاماة، ثم أصبح كاهناً. وكُلّف بالوعظ في أكبر كنائس المدينة، فاشتهر بوعظه ومؤلّفاته على السواء. ثم اختير بحيلةٍ رئيس أساقفة على القسطنطينية، حيث واصل جهاده ضدّ مفاسدِ البلاط والأساقفة المحيطين به، حتى قضى في منفاه بأرمينيا عام 407. فكان مع "أوريجانيس" أغزر الآباء الشرقيين. وقد تصدّى لمعالجات كثيرة وشائكة. إلا أن محور تفكيره كان يدور حول أولوية الله على كل شيء وكل سلطة، وحول استقلالية الكنيسة ووحدتها وشموليتها. كما دعا بصراحة إلى قيام نظام عادل يُلغي الفوارق الطبقية والمظالم الاجتماعية.

وفي مصر، ظهر قدّيسان من الاسكندرية أصبحا بطريركين عليها، هما "اثناسيوس" (295-373)، و"كيرلس" الذي توفّي عام 444. هذا واجه بدعة "نسطوريوس"، وذاك بدعة "أريوس". وساهم كلاهما في توضيح العديد من المفاهيم اللاهوتية الملتبسة، فكان موقفهما حاسماً، "اثناسيوس" في مجمع نيقيا (325)، و"كيرلس" في مجمع "أفسس (431). وقد قيل أن "اثناسيوس" جسّد بمفرده روح المقاومة واستقلال السلطة الروحية. كما قيل أن كيرلس كان على قدر من الثقافة الفلسفية واللاهوتية، جعل منه، لسنوات طويلة، حكَم الكنيسة الشرقية دون منازع، وقد سمّي "لاهوتي التجسّد"، لأنه كان أحد أهم من أرسى المفاهيم الأساسية التي اعتمدتها الكنيسة نهائياً، حول التجسّد وشخصية المسيح.

أما "الكبادوكيون" الثلاثة، "باسيليوس" (330–379) وأخوه "غريغوريوس" أسقف "نيصص" (335–394)، وصديقهما "غريغوريوس" أسقف "نَزايَنزا" (330–390) - فقد تلقّى كل منهم علومه وثقافته في قيصرية والقسطنطينية وأثينا. وتنقّل كل منهم في أنحاء "كبادوكيا"، وما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر، سعياً وراء الله. ومارسوا الحياة النسكية قبل أن يصبحوا أساقفة. وظلّوا على اتصال فيما بينهم، على بعد المسافة واختلاف المهام الخاصة بكل منهم. وقد وعظوا كثيراً وكتبوا يشرحون العقيدة ويقاومون الهرطقات. فتعرضوا كلهم لضغوط سياسية وكنسية، قاسية، واجهوها بشجاعة وتجرد، خصوصاً "باسيليوس". وما تركوه من مؤلفات، غني ومتنوع، يبرز منها: "قواعد النسك" لباسيليوس"، الذي كان له تأثير بالغ على الحياة الرهبانية شرقاً وغرباً إلى اليوم، و"الخطاب اللاهوتي" لغريغوريوس النيصصي، وهو أشبه شيء بموجز لاهوتي يعتمد العقل، ويأتي في مرتبة مؤلف "اوريجانيس"، "في المبادئ"، وكتاب يوحنا الدمشقي العتيد "منبع الإيمان القويم". أما أسقف "نزاينزا"، فنشير إلى واحد فقط من مؤلفاته الكثيرة، ألا وهو "الكهنوت"، الذي حذا حذوه، في ما بعد، اثنان من كبار "الآباء"، هما يوحنا الذهبي الفم في مؤلّفه "الكهنوت"، والبابا "غريغوريوس الكبير" في كتابه "الخدمة الرعوية".

في الغرب ثانياً.

كوكبة من "الآباء" يستوقفنا منهم أربعة، وباقتضاب:

في بلاد "غاليا" أسقف "بواتييه" القديس "هيلاريون"، وقد ولد فيها عام 315، وتوفّي فيها عام 367. قدم إلى المسيحية من أسرة وثنية ثرية. وأصبح أسقفاً عام 354. وكانت الأريوسية، بدعم من الإمبراطور "قونستانس"، تجتاح الغرب. فقاوم، فنفي إلى آسيا الصغرى حيث قضى أربع سنوات يطالع اللاهوت الشرقي، وينقله للغربيين، فبنى جسراً فكرياً بين الشرق والغرب. ولم يتورّع، إثر عودته إلى مركزه، من كتابة رسالة بعنوان "ضد

الإمبراطور"، يندد فيها بمداخلات الإمبراطور في الشؤون الدينية. وقد لقب بـ "أثناسيوس الغرب" نظراً لصلابته في المقاومة. إلا أن الذي جعله رائداً في الغرب، هو أنه استطاع، على الصعيد الفكري واللاهوتي، أن يوفّق بين تيّارين كانا حتى ذلك الحين، متباينين نسبياً، وهما التيار اللاتيني، ممثّلاً بـ "ترتليانوس" و"كبريانوس"، والتيار اليوناني الذي كان أوفر ثراءً وتنظيراً، والذي كان يدين بالدرجة الأولى لـ "أوريجانيس".

وفي "إيطاليا"، أسقف ميلانو القديس "أمبروسيوس" (333-397). كان نائب الإمبراطور وحاكم ولاية "إيطاليا"، عندما اختير أسقفاً عليها، فنال في غضون أسبوع واحد العماد والكهنوت والأسقفية، ولم يغادر ميلانو قط، فاتحاً بابه وقلبه لكل طارق، نداً وناصحاً للأباطرة، وأباً لجميع المواطنين. وكان ينشر الفكر والكلمة في الوعظ والكتابة. ونظم شعراً كنسياً يُنشَد بعضه إلى اليوم، وكان به حقاً مبدع الترنيم الكنسي في الغرب. يُذكر له مما ألّف خصوصاً نشيد "في حالة العذراء مريم"، الذي ساهم كثيراً في تكريم العذراء في الغرب، و"في مهام رجال الكنيسة" الذي ينمّ عن حسّ مطلق بالمسؤولية الأسقفية، وقد رسم فيه الدور الكبير الذي يُطلب من الأسقف المسيحي تأديته في عالم مضطرب ومتقلّب. وقد كان هو نفسه، في المواقف البالغة الجرأة التي اتخذها في وجه بعض الأباطرة، النموذج الحي لأساقفة الغرب في القرون اللاحقة، ولا سيما إبان الغزوات البربرية. إلا أن أعظم إنجاز له قد يكون مدى تأثيره على اهتداء أعظم "آباء" الكنيسة: "اغسطينوس".

وفي فلسطين، القديس "ايرونيموس" (347-419) الذي قدمها من يوغسلافيا الحالية، بعد العديد من الجولات في العالم، والإقامات هنا وهناك، إن في جوار البابا في روما، وإن في صوامع الأديرة، حاملاً من أصوله ثقافة لاتينية ويونانية، شاملة ومتينة، ومُحمَّلاً بما اكتسبه من لغات جديدة، منها العبرية، ومن مطالعات واتصالات لا حصر لها، حتى استقر به المقام، كاهناً متنسّكاً، بجوار بيت لحم، يصلّي ويكتب ويهاجم

ويدافع، ويعظ ويراسل. وقد كان عجيباً بغزارة إنتاجه وجَلَده وعنفه. فألّف في شتى المواضيع، وخصوصاً الكتابية منها. وكان أعظم إنجاز له، ترجمته للكتاب المقدس إلى اللاتينية، بناء على طلب البابا "دامازيوس"، ليضع حداً للنصوص اللاتينية المتداولة، ويمكّن الكنيسة من تبنّي نص رسمي وموحّد، وقد أطلق عليها اسم "الفولغاتا" أي "العامة"، وأقرّها المجمع التريدانتيني فيما بعد عام 1564. ويُذكر له أنه كان سبّاقاً في تأسيس ما يمكن أن يُسمّى بتاريخ الأدب المسيحي، في مؤلّف أسماه "المشاهير"، رصد فيه أعمال (135) كاتباً مسيحياً، بدءاً من القديس بطرس وانتهاء به.

أما القديس "اغسطينوس" (354–430)، فقد ولد في سوق أخراس في الجزائر الحالية. وقدم إلى المسيحية، بعد تجوال طويل في ثقافات العصر ومتعه المختلفة. ثم اعتزل الدنيا وانصرف إلى الصلاة ودراسة علم الله، حتى اختير أسقفاً عام 395. فلم يغيّر المنصب شيئاً من نمط حياته وزهده، بل ضاعف من خدمته الاجتماعية، وكثّف إشعاعه الفكري واللاهوتي، محلياً وعالمياً، إلى حدّ مدهش، حتى بات مرجعاً كنسياً لا يُستغنى عنه. ووضع مؤلّفات أمضى سنوات في صياغة بعضها، تقدّمت به إلى طليعة "الآباء" غزارةً ونوعيةً. وقد تجاوزت بمضمونها ومرماها، الخلافات اللاهوتية الآنية، حتى بلغ بعضها حجم عمارات فلسفية ولاهوتية، قُيّض لها أن توجّه اللاهوت المسيحي كله من بعده، ولا سيما في الغرب. من هذه الأعمال نخص بالذكر "الاعترافات" (عام 400)، وهي إن صح التعبير، سفر خروجه من عالمه إلى دنيا الله، و"المحاورات الفلسفية"، التي رسم فيها سَيره الحثيث نحو الله عبر مجهود عقلي ذاتي. و"الحوارات الذاتية"، التي تصف تطلّعه الدؤوب إلى بلوغ الله بالمعرفة. وفي نطاق اللاهوت، كان أعمق وأوسع ما كتب "مقالة في الثالوث". أما مؤلَّفه "مدينة الله"، فهو تأمل في فلسفة التاريخ، يدور حول الصراع بين الخير والشر، حتى انتصار ملكوت الله. وقد اعتبره بعضهم أعظم الملاحم التي صاغتها

العبقرية البشرية. كما أن تأثير "اغسطينوس" في الثقافة الإنسانية بلغ حداً، اعتُبِر معه أحد بناة الحضارة الإنسانية.

ثالثاً- آخر عصر "الآباء"

هذه الفترة طويلة، فلا بدّ من إبراز سماتها الرئيسية.

الجديد فيها، أولاً، تقسيم الإمبراطورية، بصورة نهائية منذ أواخر القرن الرابع، إلى قسمين شرقي وغربي. فمنذ ذلك الحين، بدا الشرق متماسكاً، فيما الغرب تجتاحه موجات البرابرة. إلا أن الشرق أيضاً كان، في حقيقة الأمر، يواجه واقعتين حاسمتين: ففي شماله الغربي، بدأت القبائل الغوطية والسلافية والبلغارية، تضغط من ضفاف نهر الدانوب. وفي الجنوب الشرقي، اتضح أن ولايات برمّتها، كمصر وسورية وما بين النهرين وأرمينيا، ما زالت بغالبية سكانها الريفيين، غريبة عن الحضارة الهيلينية، لغة وثقافة. فما أن اهتزت أركان الإمبراطورية، حتى أخذت هذه الشعوب تتطلّع إلى التحرّر من هذه التبعية، مستخدمة وسائل غير مباشرة، تجسّدت خلال فترات متلاحقة، في بدع لاهوتية مثل "المونوفيزية" و"النسطورية" و"المونوتيلية"، تماماً كما استخدمت الاريوسية، لغرض مماثل، القبائل البربرية في الغرب: البُرغوندية والغوطية والفاندالية. وكانت طموحاتها الوطنية تتستّر وراء هذه الحركات الفكرية. وقد لاقت تشجيعاً مستمراً من الإمبراطورية الفارسية طوال القرن الخامس والسادس. ونشأت منذ ذلك الحين كنائس وطنية مستقلة، لا سيما في أرمينيا وسورية ومصر، كان لها أيضاً "آباؤها". كما أن كل ذلك هيأ الأجواء في القرن الثامن، لتحالف هذه الكنائس الوطنية مع القبائل الإسلامية الزاحفة من الجنوب، إبان الفتح العربي ضد سيطرة القسطنطينية. وكان أن تحولت الإمبراطورية الشرقية الواسعة، ذات الألوان الثقافية المتنوعة، إلى إمبراطورية بيزنطية متقلصة، ذات لون ثقافي واحد، هو اللون الهيليني.

وفي ظل هذه الإمبراطورية، كانت المسيحية لا تزال تملأ كل شيء، ولكن

في تبعية متزايدة للدولة. فبات الإمبراطور، شيئاً فشيئاً، يجمع بين يديه، بصورة عملية، شؤون الدنيا والدين معاً. وكان "يوستنيانوس" (527–565) أبرز مثال على ذلك. وبات المسؤولون الكنسيون، من بطاركة وأساقفة، تابعين للدولة في عاداتهم وعلاقاتهم، بل وفي ألبستهم، وأحياناً كثيرة في مواقفهم اللاهوتية، حتى ظهر ما سمّي بلاهوت البلاط. وقد اتضح ذلك، على أسوأ نحو، إبان مقاومة الإمبراطورية البيزنطية للبدع المذكورة، وإبان بدعة تحطيم الأيقونات، في خنوع مجمل المسؤولين الكنسيين من جهة، وفي عنف دموي أحياناً، مارسه الأباطرة "المستقيمو العقيدة" ضد مقاوميهم. ولم يوجد من يقاوم هذا الاتجاه، باستثناء قلّة ضئيلة جداً من المسؤولين الكنسيين، سوى الرهبان، الذين كانوا بحق روّاد تحرير الكنيسة من السلطة الزمنية، فكانوا ضحايا دعوتهم تلك. وقد برز منهم الكثيرون. إلا أننا نخص بالذكر "الآباء" مكسيموس المعترف، ويوحنا الدمشقي، و"تاودوروس الاستودي".

كان هناك إذن، على الرغم من تأكيد الجميع على وحدة الكنيسة، تهديد مسلط على هذه الوحدة. وكان يتكثف في عاصمتي الإمبراطوريتين: القسطنطينية وروما، اللتين كانتا تخضعان لانزلاق سياسي حوّل العلاقة بينهما إلى نزاع على النفوذ.

وظهر جديد كثير على الساحة الكنسية في الشرق والغرب. ففي الشرق بيزنطة، ثم الكنائس الوطنية. وفي الغرب روما، ثم الكنائس الدائرة في فلكها.

في بيزنطة ودائرتها، برز في القرنين الخامس والسادس، أسماء "آباء"، من أهمهم: "تاودوروس الحراني" (393–455) الذي كان آخر ممثلي مدرسة أنطاكية، و"كيرلس الاسكندري" (380–444) الذي كان آخر ممثلي الاسكندرية. كما برز اسم الإمبراطور "يوستنيانوس"، واللاهوتي "لاونس البيزنطي" الذي توفّي عام 542. وقد كان لكل منهم تأثير كبير، إن بمواقفهم أو بمؤلّفاتهم، وخصوصاً "لاونس البيزنطي"، الذي لعب دوراً

حاسماً في توجيه القديس يوحنا الدمشقي الفلسفي، إذ قد اعتمد بدوره فلسفة أرسطو ومنهجيّته، فاعتبره الفلاسفة الاسكولاستيكيون في القرون الوسطى، رائدهم الأول.

وفي بيزنطة أيضاً ظهر كاتب يرجح أنه سوري الأصل، وعاش في أواخر القرن الخامس حتى منتصف السادس، هو "ديونيسيوس الأريوباغي". وقد أثيرت حوله نقاشات كثيرة لّما تنته. وهو صوفيّ اعتمد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وكان أول من نظّر للصوفية المسيحية. وقد قُيّض لتنظيره هذا أن يترك أبلغ الأثر في مفكّري المسيحية كلها، من معاصريه إلى اليوم، مروراً بالقديس توما الاكويني الذي خصّ بتعليقات إضافية، أربعة من كتبه، هي "في أسماء الله" و"اللاهوت الصوفِي" و"في المراتب السماوية" و"في المراتب الكنسية".

وفي القرن السابع، برز في بيزنطة، اثنان من "الآباء"، هما "مكسيموس" الملقب بالمعترف - والمعترف اصطلاح يُطلق على كل من يموت نتيجة التعذيب، إبان الاضطهاد، وليس تحت التعذيب - (580-662)، و"صفرونيوس الأورشليمي" (550-638). وكانا متباعدين من حيث الأصل والمنشأ والمركز. فهذا من دمشق ومن أسرة متواضعة، وذاك من القسطنطينية ومن الأسر الدائرة في فلك البلاط. وكلاهما تنسّك، إلا أن "مكسيموس" ظل راهباً عادياً، بينما "صفرونيوس" أصبح بطريركاً على القدس، وهو هو الذي فاوض الخليفة عمر على فتح المدينة. إلا أن الاثنين قاوما بدعة "الإرادة الواحدة"، ومَن وراءها من بطاركة وأباطرة، وكتبا في ذلك. وقد قضى "مكسيموس" نتيجة العذاب الذي أنزل به في السجن. من أهم ما كتب "صفرونيوس"، "الحديقة الروحية" الذي ألّفه مع الراهب والناسك الدمشقي "موسخس". أما "مكسيموس"، فإلى جانب تجسيده البطولي لفكرة استقلال السلطة الروحية عن السلطة الزمنية، فقد ترك مؤلّفات لاهوتية وروحية عديدة، من أبرزها "الشهيد واللاهوتي"،

و"الناسك والمتصوف"، و"كتاب النسك". وكان له دور كبير في إدخال فلسفة أرسطو إلى حرم اللاهوت المسيحي، كما ساهم بالمقدمات التي كتبها حول مؤلفات "ديونيسيوس الأريوباغي"، في إدخال الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، مجدداً، إلى الأوساط المسيحية العليا.

ومن مطلع القرن الثامن حتى منتصف التاسع، واجهت الكنيسة البيزنطية حدثين خطيرين هما بدعة تحطيم الأيقونات والفتح العربي. وقد جاءت البدعة الجديدة ثمرة ضغوط شتى، من يهودية ومانوية وإسلامية، دفعت الإمبراطور الأرمني "لاون الايزوري" (717-740) إلى إعادة تنظيم الإمبراطورية من الناحية الدينية، كما كان قد نجح في تنظيمها سياسياً وإدارياً. وكان يتهم الرهبان بتفريغ الأرياف. وتواصل الصدام مدة (120) عاماً (725-842). وقد عرف، فضلاً عن الصراع الفكري، قمعاً دموياً بشعاً، مورس ضدّ الرهبان بصورة خاصة، إذ كانوا هم الذين جسّدوا المقاومة. وقد شاركهم فيها عدد قليل جداً من المسؤولين الكنسيين، نخص بالذكر منهم ثلاثة "آباء" من بطاركة القسطنطينية، هم "جرمانوس" (635-733) و"تاراسيوس" (توفّي عام 806) و"نيكيفورس" (توفّي عام 815). أما "الآباء" من الرهبان، فحسبنا أن نذكر اثنين منهم، هما "يوحنا الدمشقي" (675-749) و"تاودورس الاستودي" (759-821). وكان الاثنان، على فارق الزمن بينهما، متشابهين في أمور كثيرة. فقد كان كلاهما من أسرة ثريّة جداً، ومقرّبة من السلطة الزمنية العليا: يوحنا في دمشق الأموية، وتاودورس في بيزنطة المسيحية. وكلاهما تخلّى عن أمجاد العالم وتنسّك، يوحنا في دير القديس "سابا" بجوار القدس، وتاودورس في دير "الاستوديون" بجوار القسطنطينية. وكان كلاهما موسوعي الثقافة، فلسفي المنهج، حرّ التفكير، فكتبا وعاشا ما كتبا. إلا أن "تاودورس" كان في حالة مواجهة مباشرة مع الأباطرة، وكان يرئس ديراً يضمّ ألف راهب، فتعرّض للضغط والنفي. وما كتباه ترك تأثيراً عظيماً في الكنيسة شرقاً وغرباً.

فمن أهم ما ألّف يوحنا "نبع الإيمان القويم" الذي كثّف فيه لاهوت الشرق كله، وأبرز فيه نقاط الاختلاف مع الغربيين، من حيث العلم الإلهي وحرية الإنسان والخطيئة الأصلية وتنظيم الكنيسة، فاعتُبر مؤلّفه هذا نموذجاً فريداً، احتذى به القدّيس توما الاكويني في مؤلفه الشهير "موجز اللاهوت"، وجميع لاهوتيي المدرسة الاسكولاستيكية من بعده. وكان "يوحنا"، إلى ذلك، أول من حاور الإسلام، ولكن باللغة اليونانية.

أما "تاودورس"، فقد تنوّعت مؤلفاته، ما بين لاهوتية ونسكية وسجالية وخطابية. إلا أن ما وصلنا من رسائله، التي بلغت (278) رسالة، يكثّف على أكمل وجه، أبرز ما ناضل من أجله: حرية الفكر، وحرية الكنيسة، وتحرر المؤمن المطلق من كل ضغط زمني. وقد كتب كلاهما شعراً كنسياً مرموقاً، أُدخِل إلى كتب الصلاة، على مدار السنة، فأغنى الطقوس إلى اليوم.

ومن أواخر "آباء" تلك الحقبة، تلميذ بعيد ليوحنا الدمشقي، هو "تاودورس" أسقف حران في سورية، الذي عاش ما بين عامي 740-820. وقد ولد على الأرجح في مدينة الرها، وترهّب في دير القديس سابا بجوار القدس، وكُلِّف بمهمات كنسية عديدة. وكان يتقن السريانية والعربية واليونانية. وأصبح أسقفاً على حران. إلا أنه عاد فاعتكف في دير القديس سابا، يكتب أو ينطلق منه في مهمّات يكلّفه بها بطريرك القدس. وقد استفاد من الانفتاح الفكري في عهد الخليفتين هارون الرشيد والمأمون، فكتب للمسيحيين والمسلمين واليهود على السواء. إلا أن ما كتب لم يقصد به، على نحو مباشر الإسلام، وإنما كانت كتاباته توضيحاً دفاعياً للإيمان المسيحي، خصّ به المثقفين المسلمين. وقد كتب بالعربية واليونانية والسريانية. ومن أهم مؤلفاته بالعربية: "مقالة في وجود الخالق والدين القويم".

قبل أن نغادر بيزنطة ودائرتها، لا بد من إشارات مقتضبة إلى النشاط الذي طرأ بالطبع على مختلف جوانب الحياة المسيحية:

في القرن الخامس ظهر فيها شعر إيقاعي لم تعرفه الآداب القديمة ولا

المسيحية حتى ذلك الحين. وقد يكون جاء ثمرة تأثر الشعراء المسيحيين بالشعر السرياني، ولا سيما شعر القديس أفرام، الذي كانت أعماله قد ترجمت إلى اليونانية منذ أواخر القرن الرابع. وفي الفترة الواقعة بين القرن السادس والتاسع، ظهر "آباء"، في مجال الشعر الديني والطقسي، أغنوا كثيراً التراث الكنسي، نخص بالذكر منهم، فضلاً عن يوحنا الدمشقي و"تاودورس الاستودي"، "اندراوس الدمشقي"، أسقف جزيرة كريت (660-740). إلا أن أعظمهم، شعراً وتأثيراً، كان "رومانوس الحمصي"، الذي عاش في القرن السادس. وفي أواخر تلك المرحلة، كانت مختلف الكتب الطقسية قد اكتملت، كما نعرفها اليوم، على تنوّع الصلوات وتعدّدها، على مدار السنة والأعياد.

وفي نطاق الخطابة، لمع "آباء" كثيرون، إلا أن أحداً منهم لم يبلغ شأو سابقيه من أمثال "يوحنا الذهبي الفم"، و"باسيليوس". حسبنا أن نذكر منهم "باسيليوس السلوقي" (توفّي عام 456)، و"جناديوس القسطنطيني "(عاش في القرن الخامس)، و"انتيبابر" أسقف بصرى (القرن الخامس)، و"كريسيبوس الأورشليمي" (القرن الخامس)، و"يوحنا الدمشقي"، و"تاودورس الاستودي"، و"ميتوديوس الأورشليمي" (توفّي عام 634)، و"صفرونيوس" بطريرك القدس.

وفي نطاق التاريخ والأخبار، لا بد من ذكر بعض "الآباء" الذين تابعوا درب "افسابيوس القيصري"، أو شقّوا دروباً جديدة. و"سقراط القسطنطيني" (القرن الخامس) و"سوزومينوس الفلسطيني" (القرن الخامس) من هؤلاء. وأما الراهب "يوحنا مسخوس" الدمشقي (550-619)، فقد وضع مع "صفرونيوس الأورشليمي" كتاباً إخبارياً عن الرهبان والنسّاك، كان له، وما زال، تأثير بالغ، وهو "الحديقة الروحية". كما أن "كيرلس الفلسطيني" (القرن السادس) يعتبر أكثر من كتب سِيَر القديسين، دقّةً وأمانة.

وفي نطاق الحياة الروحية، يُذكر من "الآباء" اثنان وضعا مؤلّفين، يُعتبران إلى اليوم من أثمن الكتب الروحية التي خلّفها الأقدمون. إنهما "ديادوكوس"، أسقف مدينة "فوتيكي" باليونان، الذي عاش في القرن الخامس، وكتب "مائة فصل في الكمال الروحي"، و"يوحنا السلّمي"، وقد أُطلق عليه هذا الاسم بسبب عنوان كتابه "سلّم الفضائل". وكلا الكتابين حصيلة خبرة روحية شخصية.

ولا بد لنا أيضاً من وقفة، ولو عاجلة، مع الكنائس الشرقية غير البيزنطية، ونخص بالذكر الأرمنية والسريانية.

كانت الكنيسة الأرمنية تدور في فلك بيزنطة حتى مطلع القرن السادس. وكانت لغتها آنذاك السريانية أو اليونانية، تبعاً للمناطق. ومن "آباء" تلك الحقبة، الأسقف "غريغوريوس المستنير" (توفّي عام 322)، الذي حمل لها الإيمان المسيحي، وخلفه "نرسيس الكبير"، الذي حباها في فترة أسقفيّته الوجيزة (364-373) بمؤسّسات تربوية وتعليمية، ورهبانية ومجمعية، وبقوانين تنظيمية، أتاحت لها نهضة عظيمة. ومنهم أيضاً "البطريرك ساهاك الثالث" (من 390 إلى 440)، الذي كان من أعظم إنجازاته، بعثه اللغة الأرمنية القديمة، بفضل معاونه الراهب العبقري "مزروب"، وقد أنجزا معاً ترجمة الكتاب المقدس عام 410، من اللغة اليونانية إلى الأرمنية. وثمة "آباء" آخرون، يُعتبرون تلاميذ لـ "مزروب"، حسبنا ذكر أسمائهم: من الأساقفة "ازنيك"، أسقف "باكريفانت"، و"غوريون" أسقف جورجيا، ومن المترجمين "الآباء": "كوزوفيك" و"أنانياس" و"داود الأرمني"، وكان من أبرز ما ترجموا: أعمال أرسطو وأفلاطون، ومؤلّفان لـ "فيلون"، و"أخبار" "أفسابيوس القيصري"، و"دفاع" "أرستيدس"، ومواعظ للقديس أفرام، و"كتاب الأيام الستة" للقديس باسيليوس، ومختارات ليوحنا الذهبي الفم. ومن المؤرخين: "أغاتنغس" و"موسى الخوريني"، اللذان تعتبر مؤلّفاتهما مرجعاً أساسياً بالنسبة إلى تاريخ الأرمن.

أما الكنيسة السريانية، فقد كانت واقعة بين ضغطين: بيزنطة وفارس. وقبيل منتصف القرن الخامس، انتشرت فيها النسطورية، واتخذت لها مركز إشعاع رئيسي، مدرسة نصيبين، التي خلفت مدرسة الرها، والتي أسّسها أعظم "آباء" السريان آنذاك: "برصوما" (توفّي عام 490)، و"نرسيس" (توفّي عام 507). وقد حمل الأول المسيحية إلى الشرق الأقصى حتى الصين، بينما ترك فيها الثاني مؤلّفات لاهوتية وأخلاقية وشعرية وطقسية وكتابية، استحقت له لقب "قيثارة الروح القدس". وقد تألق من "آباء" الكنيسة السريانية، من اللاهوتيين: "فيلوكسينوس"، أسقف منبج الذي استشهد عام 522، و"ساويروس" بطريرك أنطاكية (459–538)، و"شمعون" أسقف "أرشيم" على نهر دجلة (توفّي عام 540)، و"يعقوب البرادعي" (توفّي عام 578) الذي كان لنشاطه ومؤلّفاته من التأثير ما ألصق اسمه بكنيسته، فبات بعضهم يعرفها باسم "الكنيسة اليعقوبية". ومن الفلاسفة "سرجيوس الراسعيني" (توفّي عام 536)، والأسقف الشهيد "مار احوادمه" (عام 575)، ومن الشعراء "يعقوب السروجي" (415–521) الملقب بأمير الشعراء السريان، و"شمعون الفخاري" (توفّي عام 514)، ومن المؤرخين، الأسقف الشهيد "يوحنا الأفسسي" (507–587) و"زكريا الغزاوي" (توفّي عام 536).

هذا عن الشرق في المرحلة الأخيرة من عصر الآباء.

أما في الغرب، فقد ظهرت معطيات أخرى، مغايرة إلى حدّ بعيد.

كان انهيار الإمبراطورية، تحت ضربات البرابرة، عامّاً. فسقط بذلك إمكان هيمنة السلطة الزمنية على السلطة الروحية، وتحديداً على أسقف روما. بل كان أن ظهرت الكنيسة وسط هذا الانهيار العام، على أنها القوة الوحيدة الثابتة. وأدرك الأساقفة أن الشعوب الجديدة طاقات بكر يجب احترامها وتوجيهها. وهكذا فعلوا. وكان البابوات قدوة في ذلك، لا سيما البابا "غريغوريوس" الملقب بالكبير (540–604). واعترفت الكنيسة للشعوب

بمكانتها، وهذه بدورها أقرّت للكنيسة بزعامة روحية. وقد أقدم الأساقفة على ذلك بوحي من إيمانهم ومن الأحداث، وبالتالي في استقلال تام عن السلطات الزمنية، قديمة كانت أم جديدة.

وكان هاجس المسؤولين في الكنيسة الغربية، "تربية" هذه الشعوب وتثقيفها، وكان أيضاً درء خطر البدع عنها، القديمة والجديدة على حدّ سواء. وتدفّقت حيوية الكنيسة في شتى المجالات الفكرية والروحية، فعرفت تلك المرحلة الأخيرة من تاريخ "آباء" الكنيسة في الغرب، نشاطاً متواصلاً، غاية في التنوع، شمل البلاد كلها. وبرزت فيها أسماء كثيرة. إلا أن أعظم من برز كان "اغسطينوس"، وقد بات "المعلم" دون منازع. وساهم البابا "غريغوريوس الكبير" إلى حدّ بعيد، في نشر أفكاره ونظرياته الأساسية، ومن خلالها الفلسفة الأفلاطونية. ولسوف يحتفظ بهيمنته تلك حتى ظهور لاهوتيي المدرسة الاسكولاستيكية في القرون الوسطى. وكان من نتيجة تأثيره أن الخلافات اللاهوتية في الغرب، تكاد لا تعدو موضوع العلاقة بين حرية الإنسان والنعمة الإلهية، كما طرحه اغسطينوس، وستستمر بين مدٍّ وجزر حتى القرن السابع عشر.

في المقاطعات "الإيطالية"، ظهر عدد من "الآباء"، لم يكونوا جميعاً من رجال الكنيسة. إنهم أولاً بعض البابوات الذين أولوا الوحدة المسيحية، إدارياً ولاهوتياً، اهتمامهم الأول. منهم رائدهم البابا "لاون الكبير" (390-461)، الذي قُيّض له أن يحافظ بمواقفه وكتاباته على الوحدة المسيحية، في الوقت الذي انهار فيه الغرب والشرق معاً، دون أن يُهمل لذلك القضايا المطروحة في سائر أنحاء الغرب. وهناك أيضاً البابا "جيلاسيوس" (492-496)، والبابا "هونوراتوس" (514-523). أما البابا "غريغوريوس الكبير"، فقد وُفّق في شتى المجالات، إذ أولى البرابرة اهتماماً ناجحاً في كل من إيطاليا وصقلية وكُرسيكا وسردينيا، وفي بلاد غاليا وإسبانيا وانكلترا. واهتم بإعداد الكهنة وتنظيم الطقوس، وأنشأ في فرنسا "مدرسة المرنّمين"،

التي كان لها من التأثير على الموسيقى الكنسية، لقرون طويلة، ما ألصق باسمه قسماً متميزاً منها. ومن مآثره، الرعاية التي خصّ بها رهبانية القديس "مبارك" (بندكتوس)، فأكسبته جيشاً من الأعوان الأوفياء. أما "مبارك" هذا (480-543)، فيعتبر "أب الرهبانيات في الغرب كله"، وذلك بفضل التشريع الذي أرسى عليه جماعته، عام 529، والذي بلغ من تأثيره أنه حلّ محلّ التشريعات السابقة، التي كانت تدين لـ "اغسطينوس" و"كاسيانوس" و"هونوراتوس" و"سيزاريوس".

ومن "الآباء" أيضاً، اثنان كانا رجلَي دولة، أولهما "بويسيوس" (470-525) و"كاسيودوروس". شغل "بويسيوس" منصباً عالياً في عهد الإمبراطور الاريوسي "تيودوريكوس" في روما، ثم قضى دفاعاً عن العقيدة والحق، تحت التعذيب في السجن، حيث ألّف كتابه الشهير "في تعزية الفلسفة"، وقد اعتبر رائد اللاهوتيين الاسكولاستيكيين، كما يُعتبر آخر ممثلي الفلسفة في الغرب حتى القرون الوسطى. وكان "كاسيودوروس" (477-570) زميل "بويسيوس" في حكومة "تيودوريكوس". إلا أنه ترهّب في الستين من عمره، فأدخل معه إلى نظام الرهبانيات عنصراً جديداً رئيسياً، هو عنصر الحياة الفكرية. فكان بذلك من بناة الحضارة الإنسانية كلها. ويُذكر له على الأخص مؤلَّف بعنوان "مؤسّسات القراءات الإلهية والدنيوية"، يعلن فيه وحدة المعرفة المقدّسة والعلم الدنيوي، من أجل تعليم متكامل حقاً. وقد استُخدم هذا الكتاب بوصفه مصدراً رئيسياً في سبيل إرساء نظام الجامعات في الغرب.

وفي بلاد غاليا، تألّق "آباء" كثيرون. حسبنا ذكر أبرزهم: هو أولاً الراهب "هونوراتوس" الذي أنشأ في مطلع القرن الخامس، ديراً في جزيرة "ليرينا"، في الساحل الجنوبي الشرقي، تحول إلى مركز إشعاع فكري، وكان له تأثير كبير على كنيسة غاليا كلها. وكان القدّيس "فانسان الليريني" الذي توفّي عام 450، منظّره الرئيسي في موضوع لاهوتي دقيق، هو تطور

العقيدة، وذلك في مؤلّفه الشهير "التنبيه". ولمع أيضاً في مطلع القرن السادس اسم آخر، هو "افيتوس" الذي كان رجل دولة ذا نفوذ، ثم أصبح أسقفاً على "فيينا" في وسط البلاد. وقد قام بدور كبير في هداية ملوك عصره إلى الكاثوليكية. ويذكر له من مؤلّفاته، ملحمته الشعرية الطويلة "أصول البشرية"، التي تبوأ بها زعامة الشعراء المسيحيين من القرن السادس إلى نهاية الثامن. وقد استوحاها الشاعر الانكليزي "ملتون" في "الفردوس المفقود". ولا بد أخيراً من إشارة إلى أسقفين كان لهما في القرن السادس شأن كبير، أولهما "غريغوريوس"، أسقف "طور"، الذي اعتبر بفضل شخصيّته وعلاقاته ومؤلّفاته، "أحد صانعي فرنسا"، وقد توفّي عام 534، وثانيهما أسقف مدينة "آرل"، "سيزاريوس" (470-543)، الذي بلغ تأثيره حداً اعتُبر معه "أحد مؤسّسي كنيسة فرنسا".

أما إسبانيا، فقد اكتسحها البرابرة منذ عام 409. فاحتلّت فيها البرتغال الحالي قبائل "السويفيين"، واحتلت إسبانيا الحالية القبائل "الفيزيقوطية". وانقلب السويفيّون من الكثلكة إلى الأريوسية حوالي عام 466. ولكن وفّق "الآباء"، بعد جهاد تواصل مائة عام، إلى استعادتهم إلى الكثلكة. وكان من أبرزهم "مارتينوس" أسقف "براغا". أما القبائل الفيزيقوطية، فقد دافعت بشراسة عن الأريوسية، واضطهدت الكاثوليك طوال القرنين الخامس والسادس، حتى استطاع أسقف إشبيليا "لياندروس"، أن يهدي الأسرة الحاكمة شيئاً فشيئاً إلى الكثلكة. وقد وضع العديد من المؤلفات اللاهوتية والقانونية والروحية. إلا أن أعظم "آباء" إسبانيا، كان "ايسيدورس" (560-636) أسقف إشبيليا، وشقيق "لياندروس". كان أبرز شخصيات الكنيسة في إسبانيا، ورئس الكثير من مجامعها، ولا سيما مجمع طليطلة الرابع الذي عقد عام 633، والذي اتُّخذت فيه قرارات، كان لها تأثير حاسم ودائم في إسبانيا على أصعدة ثلاثة هامة. فعلى الصعيد الديني، أُعلن قانون إيمان موحّد، كما وُحّدت الطقوس

الكنسية كلها، وفُرض التبتّل على الكهنة، وحُرّر رجال الكنيسة من التبعية للدولة. وعلى صعيد العلاقات مع اليهود: استُنكر إكراههم على اعتناق المسيحية، ولكن حُظّرت عليهم أية وظيفة تخوّلهم الحق على إصدار حكم ما على المسيحيين، وحُظّر عليهم اقتناء عبيد مسيحيين، كما قُرّر الاستيلاء على ممتلكات أي يهودي متنصّر يُنكر الإيمان. وعلى صعيد العلاقة مع الدولة: أُقرّ لرجال الكنيسة بحقّ التدخّل في شؤون الدولة. وعلى صعيد التعليم، تقرّر إحداث مدرسة لإعداد الكهنة في كل أبرشية. وقد كتب "ايسيدوروس" كثيراً، وبلغ من تأثيره أنه اعتُبر "أحد مربّي القرون الوسطى".

وفي شمال إفريقيا، انتشرت القبائل "الفاندالية" الأريوسية منذ عام 430، وعملت على تدمير الكنيسة الكاثوليكية. فنهض العديد من "الآباء" وكتبوا باللغة اللاتينية، مدافعين وشارحين، ومنهم "افجانيوس" أسقف قرطاجة من عام 480 إلى عام 505. إلا أن أبرز هؤلاء الآباء، كان "فولجنس" القرطاجي (468–533)، الذي ذاق عذاب النفي مراراً، وقاوم، وعظاً وكتابة، الأريوسية وبدعة بيلاجيوس. وقد دفع بنظريات القديس اغسطينوس بشأن النعمة والحرية، إلى أقصى مدى لها. واعتُبر "أعظم لاهوتيي العصر".

أخيراً في إنكلترا، كانت المسيحية قد دخلتها بدءاً من عام 600، على يد أسقفين شغلا كرسي "كنتربري"، هما "اغسطينوس" و"تاودورس". وقد ظهر فيها راهب كاهن شاب، قُدّر له أن يصبح أعظم "آباء" انكلترا، وهو القديس "بينس" (672-735). فقد ترهّب في دير بالقرب من بلدة "بارو"، وانصرف بالكلية إلى الصلاة والدراسة والكتابة حتى وفاته، دون أن يغادر ديره. وقد سعى في جميع ما كتب إلى تعريف مسيحيي انكلترا على التراث المسيحي السابق. وتناول مختلف القضايا المطروحة، من كتابية ولاهوتية وروحية وقانونية وتاريخية. ومن أهم ما وضع "تاريخ الأمة الانكليزية الكنسي"، فكان بذلك أب التاريخ الانكليزي. وكان في عصره مرجعاً يقصده

الحكام والمثقّفون والأساقفة على حد سواء، فلُقّب، وهو حيّ، بالمكرَّم. وقد قارن بعضهم الدور الذي قام به في انكلترا، بالدور عينه الذي قام به "كاسيودوروس" في إيطاليا، و"ايسيدوروس الاشبيلي" في إسبانيا، و"غريغوريوس الطوري" في غاليا.

الخاتمة:

في نهاية عصر "الآباء" شرقاً وغرباً، كان صرح البنية الأساسية في الكنيسة قد اكتمل، كما كانت معالم علاقاتها بمن حولها قد اتضحت إلى حدّ بعيد.

ففي تلك الحقبة الطويلة، كان الكل ينادي بالكنيسة الواحدة، على الرغم من الخلافات بالرأي أو الانقسامات الفعلية. وكانت كنيسة روما، في الغالب، تحتلّ مركز المرجع اللاهوتي والحَكَم الفاصل في الأمور الخلافية.

ومن مظاهر تلك الوحدة، كثرة الاتصالات وتواترها بين "الآباء"، على صعوبتها، أياً كانت الوسائل المستخدمة. ومن مظاهرها أيضاً، تواجد الآباء في مختلف أنحاء الإمبراطوريتين، دون اعتبار لمنشأ أو لأصل أو لانتماء طبقي أو اجتماعي.

وكان من نتائج تلك الوحدة، البناء المسيحي المتكامل والمتنوع معاً، الذي نما على كل صعيد وفي كل مكان: فثمة مؤسسة اسمها الكنيسة، لها كتبها ومسؤولوها. ولها التنظيم الخاص بها، محلياً وعالمياً، وهو تنظيم هرمي ومتشابه، يستند إلى قانون معلن، خاص وعام. ولها لاهوتها الشامل والمتخصّص، وهو لاهوت نظري وكتابي وعملي وصوفي. ولها طقوسها وتقاليدها ولغاتها. ولها "آباؤها" أيضاً. كل ذلك تم في القرون التسعة الأولى، وقد جاء وليد تطور طبيعي، نما في يقين جميع "الآباء"، من الجوهر الأول: يسوع الناصري.

أمـا معـالم علاقـات هـذه الكنيسـة بمـن حولهـا، وقـد اتضـحت كـثيراً، فحسبنا أن نشير إلى أبرزها:

علاقتـها بالسـلطة الزمنيـة أولاً، مضـت في الشـرق والغـرب في اتجـاهين متعاكسين تقريباً: ففـي الشـرق، خضـوع عـام للسـلطة الزمنيـة، وفي الغـرب محاولـة إخضـاع السـلطة الزمنيـة لهـا. وقـد ترتّـب علـى هـذين الاتجـاهين واقعان متغايران، كان لهما تأثير كبير في المرحلة اللاحقة.

علاقتها باليهودية ثانياً، مضـت في انفصـال تـدريجي عنـها، تـزامن مـع اضطهاد اليهود للمسيحيين أولاً، واضطهاد المسيحيين لليهود ثانياً، وترافق مـع تـنظير لاهـوتي اسـتند إلى أقـوال القـدّيس بـولس، واكتمـل في نظريـة القدّيس "اغسطينوس" حول "الشعب- الشـاهد"، أي الـذي يشـهد بتشـرّده على حلول غضب الله عليه، نتيجة قتله المسيح.

علاقتها بالإسلام ثالثاً، كانـت في الغـرب صـداماً دمويـاً، تواصـل قرونـاً طويلـة، وفي الشـرق تعايشـاً يبحـث عـن حضـور مشـترك وحـوار، كـان أبـرز ممثّليه "الأب" "ثاودوروس" أسقف حران.

<u>من أدب الآباء:</u>

<u>"الرسالة إلى ديوغنيتس"</u>

« 1. المسيحيون في العالم.

ليس ما يميّز المسيحيين عن سواهم من البشر، لا في البلد، ولا في اللغة، ولا في العادات. فهم لا يقطنون مدناً خاصة بهم، ولا يستخدمون لغة مـا خارقـة، وليس في نمط حياتهم ما يفصلهم عن الآخرين. وليست عقيدتُهم وليدةَ الخيال أو أحلامَ نفوسٍ قلقة. وهم لا يدّعون، كما يفعل الكثيرون، أنهـم روّادُ عقيـدة بشرية المنشأ.

إنهم يقطنون المدنَ الإغريقية والمدن البربرية، تبعاً لقَدَر كلٍّ منهم. وهم يتآلفون مع التقاليد المحلية، بشأن اللباس، والغذاء وأسباب الوجود. في حين أنهم يُبرزون القوانين الاستثنائية والصادمة، التي تقوم عليها طريقةُ عيشِهم. وإنّ كلاًّ منهم يقيم في وطنه الخاص، وكأني بهم غرباءُ فيه. وهم ينجزون جميعَ واجباتهِم الوطنية، ويتحمّلون جميعَ الأعباء، وكأني بهم غرباء. فكل أرضٍ غريبةٍ هي وطنُهم، وكل وطنٍ هو بالنسبة إليهم، أرضٌ غريبة. إنهم يتزوّجون كسائر الناس، ولهم أولاد، ولكنّهم لا يتخلّون عن أطفالهم. وهم يجلسون إلى مائدةٍ مشتركة، ولكنّها ليست مائدةً عادية.

إنهم في الجسد، ولكنّهم لا يعيشون بحسب الجسد. هم يقضون العمر على الأرض، ولكنهم مواطنو السماء. هم يخضعون للقوانين النافذة، وطريقة عيشهم أرقى من القوانين. هم يحبّون جميعَ الناس، والجميع يضطهدونهم. ليسوا بمعروفين، ولكنّ القضاءَ يلاحقهم. هم يُقتَلون، فيجدون الحياة في ذلك. إنهم فقراء، ويُغنون الكثيرين. هم يفتقرون إلى كلّ شيء، ويملكون كلَّ شيءٍ بوفرة. إنهم يُحتقرون، وهم يجدون في هذا الاحتقار، مجدَهم. يُفترَى عليهم، وهم يجدون في هذا الافتراء، براءَتَهم. هم يُشتَمون، فيبارِكون... ويُهانون، فيكرِّمون. وهم يُعاقَبون كمسيئين، في حين أنهم يفعلون الخير. وهم، إذ يُعاقَبون، يبتهجون كما لو كانوا يُولدون للحياة.

واليهود يشنّون الحربَ عليهم، كما لو كانوا غرباء، فيما الأغارقة يضطهدونهم. والذين يكرهونهم، عاجزون عن الإفصاح عن سبب عداوتهم.

في كلمة واحدة، ما هي الروحُ في الجسد، كذلك هم المسيحيّون في العالم. فالروحُ منتشرةٌ في جميع أنحاء الجسد، كما هم المسيحيّون في مدن العالم. والروحُ تسكن الجسد، مع أنها ليست ملكاً له، مثلما أنّ المسيحيين يقطنون

الأرض، ولكن العالم لا يتملّكُهم. فإنّ الروحَ الخفيّة أسيرةُ الجسد المرئي، كذلك هم المسيحيّون: نراهم يعيشون في العالم، ولكن العبادة التي يخصّــون بهــا الله، ليست بمرئيّة. إنّ الجسدَ يكرهُ الروحَ، ويناصبُها العداءَ، دون أن تكــونَ قــد أساءتْ إليه، إلا أنها تمنعُه من الاستسلام للمتع. كــذلك هــو العــالم يكــره المسيحيّين، دون أن يكونوا قد أساؤوا إليه، ولكنّهم يقاومون متعَه.

إنّ الروحَ تحبّ الجسد الذي يكرهها، وهي تحبّ أعضــاءه، كــذلك هــم المسيحيون، إذ يحبّون مَن يكرهُهم. إنّ الروحَ سجينةُ الجسد، ولكنها هي الــتي تحفظُه. والمسيحيون يشبهون المعتقَلين في سجن العالم. ولكنهم هم يحفظون العالم. إنّ الروحَ الخالدة تسكن في خيمةٍ مائتة: كذلك هم المسيحيون الذين يسكنون في العالم الفاني، في انتظار الخلود في السماء. والروحُ ترتقي بتحمّلِهــا الجــوع والعطش. والمسيحيّون المضطهَدون يتضاعفون يوماً بعد يوم. إنّ الموقعَ الــذي حدّده الله لهم، هو من الجمال بحيث لا يُؤذَنُ لهم بهجرِه.

...

2. المحبة.

إنما الله قد أحبّ البشرَ. ولهم، قد خلق العالم. وأخضعَ لهم كلَّ مــا علــى الأرض. منحَهم العقلَ والفكر. ولقد خصّهم وحــدَهم بــالنظر إلى الســماء. وأبدعَهم على صورتِه. وأرسل لهم ابنَه الوحيد، ووعَدهم بملكوت السماوات، الذي سيمنحُه لمن يمنحونَه حبَّهم.

تأمّل، عندما سيُتاح لك أن تعرفَه، يا لَلفرح الذي ســيملأ قلبَــك. لكَــم ستحبُّ ذاك الذي كان أوّلَ من أحبَّك! وعندما تحبُّه، ستكونُ مقتدياً بصلاحِه، ولا تُفاجَأ إذا ما أُعطي الإنسانُ أن يقتفيَ الله: إنّ ذلك في مُكنتِه، إذا شاء الله له ذلك. إنّ الاستبدادَ بالقريب، والسعي للسيطرة على الضعفاء، وإنّ تكــديسَ

الثروات، واستخدامَ العنف حيالَ من هم دونَك، كلُّ ذلك لـــيس بســـعادة، وليست هذه هي طريقةَ التشبّه بالله. وعلى العكس من ذلك، فإنّ جميعَ هـــذه الأعمال غريبةٌ عن الجلالةِ الإلهيّة.

ولكن مَن يحمل على كاهلِه، أثقالَ قريبِه، ومَن كان يتمتّعُ بتفـــوّقٍ مـــا في ميدانٍ ما، وأراد أن يُغني به مَن هو دونَه حظّاً، ومَن يُعطي المحتاجين، في سخاء، الخيراتِ التي يملكُها، على أنه تلقّاها من الله، فيصبح بذلك إلهاً في نظـــر مـــن يتلقّونها، هذا هو مَن يتشبّه بالله. »

الفصل السابع

يسوع في التاريخ

ملمح عام للمسيحية

ولا سيما منذ إعلان ميلانو حتى مطلع القرن الحادي والعشرين

أولاً: نشأتها

1- **حياة المسيح: ولد في السنة 7 أو 5 قبل التاريخ الرسمي لمولده، وعاش حتى 30 في فلسطين، خصوصاً ما بين بيت لحم والناصرة والقدس.**

في الفترة نفسها عرفت اليهودية حياة دينية كثيفة، كان يحركها حزبان رئيسيان هما الفريسيون والصدوقيون. وكان من أبرز مظاهرها ظهور جماعة الأسينيين المتنسّكين إلى الشمال الغربي من ضفاف البحر الميت، في قمران.

2- **تلخّص العقيدة المسيحية بالنقاط التالية:**

1. **تأكيد المسيح على ألوهته، وإدانته لهذا السبب.**
2. **التأكيد على وحدانية الله، في تواصل مع اليهودية.**
3. **خلود الروح وبعث الأجساد.**
4. **التأكيد على محبّة الله للإنسان، واعتبار هذه المحبة مقياساً أوحد لمحبة الإنسان للإنسان.**
5. **الخلاص متاح لكل إنسان، وليس لليهود وحدهم.**

ثانياً: المسيحية في الإمبراطورية الرومانية الوثنية، 30-313

(إعلان ميلانو)

+) انتشار المسيحية:

1- في القدس:

1. **ظهور جماعة، بعد موت المسيح، تدّعي الإيمان به حيّاً، وتدعو إلى الإيمان به إلهاً مُحيياً.**

2. **مقاومة السلطات اليهودية لهم، وقتل أحد التلاميذ: يعقوب.**

3. **انتخاب مساعدين للتلاميذ، واستشهاد أحدهم: استفانوس.**

2- في دمشق:

1. **تصميم اليهود على القضاء على جماعة مماثلة فيها، وتكليف المدعو شاول بذلك.**

2. **اهتداء شاول في دمشق وتبشيره بالمسيح فيها، وملاحقة اليهود له.**

3- في أنطاكية:

1. **لأول مرة يُطلق فيها على "هذه الجماعة" اسم "مسيحيّين".**

2. **يشتدّ فيها السؤال المطروح سابقاً: هل يجب إخضاع الوثنيين المتنصّرين للشريعة اليهودية؟ ومجمع القدس يجيب بالنفي.**

4- في الإمبراطورية:

ينتشر الرسل مبشّرين، ويؤسّسون "كنائس صغيرة"، وأبرز هؤلاء الرسل، آخرهم دعوة: بولس، "شاول" سابقاً.

5- في روما العاصمة:

1. **ظهور جماعة قوية من المسيحيين، من أعضائها بعض أفراد العائلة الحاكمة.**

2. **بروز بطرس وتمحور الجماعة حوله.**

3. **استشهاد الكثيرين منهم في عهد نيرون، ومنهم بطرس.**

+) تدوين أهم أسفار العهد الجديد:

1- رسائل بولس: ما بين عام 51 وعام 64

2- الأناجيل: متى: في الستينات - مرقس: في السبعينات

لوقا: في الثمانينات - يوحنا: في أواخر القرن الأول

+) **ظاهرة الاضطهاد:**

1- اليهود: يلاحقون التلاميذ في كل مكان، ويصدرون منذ عام 85 تحريماً لأتباع المسيح، يُعتبر ملزماً لكل يهودي يتلوه كل يوم في الصلاة.

2- الرومان: يضطهدون المسيحيين لأسباب كثيرة، أهمّها رفضهم عبادة الإمبراطور، وبالتالي تهديد وحدة الإمبراطورية... وقد بدأت الاضطهادات في عهد نيرون (64)، وتتابعت في عهد "دوميسيانوس" (95)، و"تراجانوس" (112)، و"ماركوس اوريليوس" (177)، و"داسيوس" (250)، و"فاليريانوس" (257)، و"ديوكليسيانوس" (303)، و"ليسينيوس" (312).

+) **الهرطقات:**

1- الغنوصية: ترمي إلى "عقلنة المسيحية"، وتقول، في نتيجة المطاف، بوجود إلهين: إله الخير وإله الشر.

2- الماركيونية: ترمي إلى الفصل بين إله العهد الجديد الطيب، المحب، وإله العهد القديم القبلي والشرير.

3- المونتانية: تقول بعودة المسيح القريبة، وبتفوق "الأنبياء" على الأساقفة، وبأخلاقية صارمة ترفض الزواج الثاني.

4- المونارخية: تنفي الثالوث، وتقول بالابن والروح القدس، شكلين من أشكال تجلّي الله الآب الواحد.

+) **أهم الإنجازات المسيحية: فكرياً وإدارياً ولاهوتياً:**

1- بشأن العهد الجديد: بداية تثبيت أسفاره، في وجه الأسفار المنحولة، ولا سيما ذات المنشأ الغنوصي.

2- بروز التنظيم داخل الكنائس، وفيما بينها، مع التركيز على الأصالة الرسولية في منشأ الكنائس وأولويتها.

3- بشأن الحياة الفكرية: بروز أسماء من اللاهوتيين مثل "جوستينوس"

النابلسي، و"اكليمنضوس" الاسكندري، و"كبريانوس" القرطاجي... هم وسواهم أسهموا في توضيح مفاهيم لاهوتية هامة: الثالوث، ألوهة المسيح، دور الكنيسة، الردّ على اليهودية والوثنية والهرطقات...

+) **الحدث الفاصل: إعلان ميلانو عام 313:**

1- **اهتداء الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية.**

2- **إعلانه الإمبراطوري في 313، معترفاً فيه رسمياً بشرعية المسيحية.**

ثالثاً: المسيحية في الإمبراطورية الرومانية المتنصّرة: 313-632: استمرار وتجديد

+) **الاستمرار:**

1- **انتشار المسيحية، بعد إعلان ميلانو، ودعم الإمبراطور قسطنطين لها.**

2- **ظهور أسماء بارزة من آباء الكنيسة شرقاً وغرباً: "إيلاريون"، و"امبروسيوس" و"باسيليوس" و"غريغوريوس النيصصي، و"يوحنا الذهبي الفم"، و"أفرام"، و"اوغسطينوس"، و"ايرونيموس": يعلّمون ويدافعون ويبشرون...**

+) **التجديد:**

1- **تأسيس قسطنطين للعاصمة الجديدة: القسطنطينية (عام 324)، وإنشاء مركز بطريركي فيها، سوف يصبح، بعد قليل، منافساً لروما.**

2- **إعلان الإمبراطور تيودوسيوس الأول عام 393، المسيحية الدين الرسمي للدولة.**

3- **تدخل الأباطرة في شؤون الكنيسة، ولا سيما في نطاق المجامع المسكونية، التي كانت ترمي في نظر الكنيسة إلى وحدة العقيدة، وفي نظر الأباطرة إلى وحدة الإمبراطورية:**

1. **مجمع نيقيا: عام 325: أدان الآريوسية، وصاغ قانون الإيمان في وجه اريوس الذي نفى ألوهية المسيح.**

2. **مجمع القسطنطينية: عام 381: الذي ثبّت نيقيا في وجه انتشار الأريوسية.**

3. **مجمع أفسس: عام 431: الذي أدان نسطوريوس القائل بوجود شخصين في المسيح، وأدان بيلاجيوس الذي كان يقول بقدرة الإنسان على تحقيق خلاصه بقواه الذاتية.**

4. **مجمع خلقيدونيا: عام 451: الذي أدان القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، هي الطبيعة الإلهية.**

5. **مجمع القسطنطينية الثاني: عام 533 الذي أدان مجدّداً النسطورية.**

4- **ظهور الحياة النسكية وبروز دور الرهبان في حياة الكنيسة:**

1. **في مصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى: أنطونيوس الملقب بالكبير، وباخوميوس وسمعان العمودي وباسيليوس وسابا...**

2. **في الغرب: متأخرة عن الشرق: "مبارك" (بنيدكتوس)، (أواخر القرن الخامس - منتصف القرن السادس) هو رائد الحياة النسكية فيه.**

5- **ظهور البرابرة واجتياحهم للغرب وتدجين الكنيسة لهم:**

1. **انهيار جميع القوى، حتى العسكرية، في وجههم، باستثناء الكنيسة.**

2. **بروز اسمين عظيمين على كرسي البابوية، مارسا في نطاق الكنيسة جمعاء سلطتهما كمسؤولين رئيسيّين عنها: البابا لاون الملقب بالكبير (400-461)، والبابا غريغوريوس الأول الملقب أيضاً بالكبير (540-604).**

رابعاً: المسيحية في الشرق والغرب حتى الانقسام الكبير، 632-1054

1- **في الشرق: تواجهنا ظاهرتان حاسمتان:**

1. **تنامي دور القسطنطينية**

+) **داخلياً: - فرض العقيدة الخلقيدونية على مقاوميها، حتى الاضطهاد...**

- **تطاول الأباطرة على الكنيسة في تكريمها للأيقونات، واضطهاد مكرِّميها.**

+) خارجياً: - استفحال التنافس بين القسطنطينية وروما على زعامة العالم المسيحي.

- ظهور بوادر الانقسامات التي قادت إلى انقسام عام (1054)

2. بروز الإسلام وسقوط مناطق واسعة من الشرق المسيحي تحت سيطرته: سورية... مصر...

2- في الغرب: بوسعنا أن نلخصها بالنقاط التالية:

1. تنامي سلطة الكنيسة في اتجاهين: داخلي وخارجي، كقوة زمنية...

2. نشوء اللاسامية، وانتشارها على نطاق واسع...

3. نشوء الدولة البابوية.

4. تدخل السلطة الزمنية في شؤون الكنيسة، وتصاعد الصراع بينهما...

5. فقدان قطاع واسع من الغرب لسقوطه بيد الإسلام: شمال إفريقيا وإسبانيا والبرتغال...

6. استفحال الروح العائلية وسيطرة المال في الكنيسة، يتسبّبان في انحطاط مزمن...

7. بروز أسرة الكارولنجيين، ومحاولة إعادة الوحدة السياسية والدينية للإمبراطورية الرومانية الجرمانية...

8. جهود بعض البابوات للنهوض بالكنيسة ومقاومة الانحطاط: من أبرزهم البابا نقولاوس الأول (توفّي عام 867)، والبابا لاون التاسع (توفّي عام 1054)

9. تواصل انتشار المسيحية بين قبائل اللومبارد (653)، والشعوب السلافية على يد الأخوين "كيرللس" و"ميتوديوس" (عام 862-884) - روسيا (عام 960-992) - المجر (عام 1000)- الشعوب الاسكندنافية (أواخر القرن العاشر، ومطلع القرن الحادي عشر).

10. تفاقم التوتر بين روما والقسطنطينية حتى الانقسام الكبير عام 1054.

خامساً: الانشقاق الكبير في الكنيسة المسيحية

مقدمة:

اصطلح الباحثون على تحديد تاريخ الانشقاق الكبير في المسيحية بعام 1054م.

ولكن المعروف أن أحداث التاريخ لم تكن يوماً وليدة صدفة، ولا نتيجة حدث محدد بالزمان والمكان. فالتاريخ سلسلة تترابط حلقاتها وتتوالد، وهذا يصحّ في شؤون الدين والدنيا.

فالشرخ الذي ظهر في المسيحية بين الشرق والغرب معاً، امتدّ عبر قرون، وتقاسما فيها المسؤولية.

من هنا كانت فقرات بحثنا ثلاثاً:

- الأسباب البعيدة
- الأسباب القريبة
- الأسباب الآنية

1- الأسباب البعيدة:

نشأت المسيحية في جنوب سورية، في ما هي فلسطين، في بيئة يهودية خاضعة لسيطرة الإمبراطورية الرومانية. ومنها انتشرت إلى كامل الأراضي السورية، فآسيا الصغرى، فمصر، فإلى أرجاء الإمبراطورية كلها.

وقد عَرَفت من جراء مجابهتها للدين اليهودي أولاً، وانتشارها ثانياً، ورفضها للوثنية الدينية ثالثاً، وتأثرها بالثقافة الهيلينية رابعاً، عرفت مخاضاً ذاتياً على الصعيدين الديني والفكري.

كما عرفت نتيجة ذلك أزمات عقائدية وتنظيمية في شرق الإمبراطورية وغربها، تسبّبت أحياناً كثيرة في نشوء انقسامات، بعضها طارئ وبعضها عميق.

وقد حدثت أهم التوترات والانقسامات في كل من القرن الرابع والخامس والسادس، فظهرت بدع جديدة في روما وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى، فيما برزت إلى الوجود كيانات كنسية مستقلة، في كل من سورية ومصر والحبشة وأرمينيا.

فاتضح للمؤرخين أن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ظهور هذه الانقسامات، أقرب إلى التباين الحضاري والثقافي والعرقي والسياسي، منه إلى الديني.

إلا أن هذه التوترات، بل الانقسامات لم تلغِ السمات المشتركة بين معظم هذه الكنائس من حيث أمور ثلاثة أساسية:

1. **الاعتراف بأهم العقائد المسيحية.**
2. **قيام اتصالات دائمة فيما بينها، ولا سيما إبان الأزمات الكبرى.**
3. **الحفاظ على روح تبشيرية قوية، داخل الإمبراطورية وخارجها إلى أقصى العالم المعروف.**

لا شك أن العامل الديني في الإنسان، من العمق والقوة بحيث يمكّنه أحياناً من تخطّي كل تباين حضاري وثقافِي وعرقي، وقد يمكّنه من استخدامه لمزيد من غنى فكري وروحي واجتماعي. وكان من الممكن أن يحدث الأمر نفسه في المسيحية، وقد حدث.

إلا أن إجراءً إدارياً هاماً اتُّخذ على صعيد الإمبراطورية كلها، في أواخر القرن الثالث، أعقبته إجراءات إدارية أخرى جذّرت مفعوله، فكان في رأي العديد من المؤرخين، السبب الحاسم في شطر الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية.

إنه الإجراء الذي اتخذه الإمبراطور الروماني "ديوكليسيانوس" عام 285 للميلاد، حيث قسّم الإمبراطورية إلى قسمين - شرقي وغربي - متحدين من حيث المبدأ في كيان واحد. منذ ذلك الحين بدأت تبرز في الشرق والغرب على نحو متزايد، ملامح سابقة، جليّة التباين على صعيد اللغة والعقلية والتقاليد والسلطة.

وفي عام 312م، حاول الإمبراطور "قسطنطين" العودة بالإدارة الإمبراطورية إلى وحدتها السابقة، فبدأ بتوحيدها دينياً، مما اضطره

لمحاربة شريكه في الحكم الإمبراطور "مكسانس"، الذي كان يناصب المسيحية العداء، وقتله في معركة شهيرة عام 312م، وأصدر بعدها "إعلان ميلانو" الذي يقر فيه بشرعية المسيحية وحقها في الوجود.

وفي عام 330م، وحّد الإمبراطورية كلها، وأقام لها عاصمة واحدة هي بيزنطة، وأطلق عليها اسم القسطنطينية.

وكان في سعيه السابق لتوحيد البلاد، قد واجه بدعة "آريوس" التي كانت قد قسمت البلاد مدنياً ودينياً بين مؤيد ومعارض، فأمر بعقد مجمع مسكوني (أي يضمّ أساقفة المسكونة المعروفة آنذاك)، عام 325م، ترأسه مناصفة مع مبعوثي بابا روما. ومنذ ذلك الحين، نشأت لدى الأباطرة البيزنطيين قناعة بأنهم يقتسمون مع رجال الكنيسة مسؤولية اقتياد الناس والشعوب إلى الله، وقد قادتهم هذه القناعة إلى مداخلات ومبادرات لا حصر لها، في شؤون الكنيسة والمسيحية.

إلا أن الإمبراطور "تيودوسيوس" رأى عام 395م، أن يقسّم الإمبراطورية من جديد إلى - شرقية وغربية - بين ابنيه "هونوريوس" و"أركاديوس"، وفيما أُعلِنت مدينة "رافينا" بإيطاليا عاصمة للقسم الغربي، ظلت القسطنطينية عاصمة القسم الشرقي.

ولما انهارت الإمبراطورية الغربية تحت ضربات البرابرة عام 476، برزت القسطنطينية مجدداً كعاصمة قوية استطاعت أن تصمد في وجه البرابرة. وقد نجم عن هذا الحدث السياسي الكبير أمران، كان لهما تأثير واضح وحاسم على العلاقات بين الشرق والغرب.

- الأمر الأول: نمو الشعور لدى المسؤولين الزمنيين والكنسيين في الشرق، بالقوة والثقة وبالتعالي على الغرب. والحقيقة أن الغربيين قابلوا ذلك بإعجاب مُكره، حيال تلك الإمبراطورية التي نجحت في تثبيت سلطتها الزمنية والدينية حيث أخفقوا هم.

• **الأمر الثاني: بروز دور روما والكنيسة الغربية، على ما في ذلك من مفارقة، بوصفها السلطة الوحيدة القادرة على أن تحل محل الإمبراطورية الغربية المنهارة. وكان ذلك يعود للطريقة التي تعاملت بها الكنيسة الغربية، وعلى رأسها البابا "لاوون الأول" الملقب بالكبير (440-461م)، مع جحافل القبائل البربرية من أجل احتوائها وتحضيرها.**

ومما ساعد في إبراز دور روما هذا، أن بيزنطة فشلت في تقديم الحماية لشعوب إيطاليا في مواجهة البرابرة، مع أنها استطاعت مجدداً، في عهد الإمبراطور "يوستنيانوس" (527-565م)، أن تبسط نفوذها على شمال أفريقيا.

هذا الواقع السياسي الجديد والخطير، اضطر البابا "استفانوس الثاني" إزاء خطر "اللومبارديين" الغزاة، لأن يقيم تحالفاً مع ملك فرنسا "بيبان القصير" عام 745م. بل كان منه أن قَدِم إلى فرنسا ليتوّجه ملكاً.

وكان "بيبان القصير" هو مؤسس "الأسرة الكارولنجية"، التي قيّض لها أن تحكم الغرب ردحاً طويلاً.

وفي العام نفسه، قام الملك "بيبان القصير" بالزحف على رأس جيشه لإنقاذ روما من الغزاة "اللومبارديين"، الذين ضربوا الحصار حولها، وقد طاردهم حتى انتزع منهم منطقة "رافينا"، التي كانت ما تزال تابعة للإمبراطورية البيزنطية اسمياً، وألحقها بالممتلكات البابوية.

وقد بلغ هذا التحالف بين البابوية و"الأسرة الكارولنجية" ذروته، عندما توّج البابا "لاوون الثالث" عام 800م. "شارل الكبير" في عاصمته "آخن"، إمبراطوراً على الغرب كله. فأغضب بذلك بيزنطة، فازدادت الهوة اتساعاً بين روما وبيزنطة، أي بين الكنيسة في الغرب والكنيسة في الشرق.

2- الأسباب القريبة:

في هذه الأجواء الممتدة مدى قرون، والمتلبدة بالصراع والخوف والريبة، تبرز أسباب أُلبِست لَبوساً لاهوتياً وتنظيمياً، وهي أقرب ما تكون في حقيقتها إلى امتداد للخلافات الحضارية والسياسية والثقافية.

وأمـا الخلافـات اللاهوتيـة بـين الشـرق والغـرب، فقـد حـدثت نتيجـة حتمية، في معظمها وأهمها، للخلاف العميق القائم بين سلطتين وحسب، وقد تنوعت كثيراً أسباب الخلاف بينهما، بدءاً من القرن الخامس وانتهاءً بالقرن التاسع.

إلا أن هناك قضيتين برزتا أكثر من سواهما، احتلّتا ساحة الخلافات بين الشرق والغرب:

1. قضية انبثاق الروح القدس 2. قضية أولوية البابا

أوجزهما في الخطوط الكبرى

1. ماذا عن انبثاق الروح القدس:

- **عـام 325م، اعـترف المجمـع المسـكوني المنعقـد في "نيقيـا" بجـوار القسطنطينية، بألوهية السيد المسيح.**

- **وفي عام 381م، انعقد في القسطنطينية مجمع مسكوني أقرّ بألوهية الروح القدس، وأضاف هذا المجمع إلى قانون الإيمان الذي أُعلن في مجمـع "نيقيـا"، عبـارة تؤكـد مسـاواة الـروح القـدس بـالآب والابـن، والعبارة هي "المنبثق". وقد اجتمعت الكنيسة كلها شرقاً وغرباً على الإيمان بالثالوث الأقدس في وحدانية الطبيعة الإلهية.**

- **ومـع ظهـور البدعـة "الآريوسـية" في إسـبانيا خـلال القـرن السـادس، وهـي بدعـة تنكـر ألوهيـة السـيد المسـيح، ارتـأى بعضـهم أن تضـاف عبـارة "المنبثـق مـن الآب <u>والابـن</u>"، للتأكيـد مـن جديـد علـى المسـاواة الكاملة في الطبيعة الإلهية الواحدة بين الآب والابن والروح القدس.**

- **ولما أصبح "شارل الكبير" الملقب بـ "شارلمان"، إمبراطوراً على الغرب كله، وفشل في انتـزاع اعـتراف بيزنطـة بـه، اتهمهـا بالهرطقـة آخـذاً عليها مآخذين:**

- تكريمها للأيقونات.
- رفضها للعبارة الجديدة "المنبثق من الآب والابن".

وكان "شارل الكبير" قد فرض هذه العبارة على كنيسة الغرب، وكان العديد من المسؤولين الكنسيين قد سايروا الإرادة الإمبراطورية، وأخذوا بهذه العبارة "المنبثق من الآب والابن"، في تلاوة قانون الإيمان وبعض الصلوات.

- إلا أن البابا "لاوون الثالث" (795-816م)، كان من أبرز من رفض هذا المصطلح الجديد، واعتبره اختلاقاً لاهوتياً غير مقبول.
- وأما بيزنطة، فقد قابلت هذا الطموح "اللاهوتي"، الذي كان يخفي طموحاً سياسياً واضحاً، باستعلاء. وبذلك اتسعت هوة التباعد بين الشرق والغرب. وقد ذهب أحد الأباطرة البيزنطيين، وهو "ميخائيل الثالث"، إلى وصف لغة الغرب، وهي لاتينية، بأنها لغة البرابرة العاجزة عن ولوج عالم اللاهوت.

2. ماذا عن قضية أولوية السلطة؟

كان من الواضح، منذ زمن بعيد، أن خلافاً سياسياً بين الشرق والغرب يدور حول تصوّر متباين لمفهوم السلطة وممارستها. فالشرق يرى السلطة في إجماع لاهوتي وإداري وتنظيمي يضم البطاركة، وبابا روما أحدهم (وهو بطريرك الغرب، وإن كان يعتبر الأول بين متساوين)، والأساقفة جميعاً. فيما الغرب ينطلق في فهمه للسلطة، من ممارسة روما وإحساسها بأنها السلطة الوحيدة والقوية، القادرة على مواجهة الأحداث والبتّ بالخلافات القائمة، أو الآتية، بين السلطات الروحية. ومستند الغرب اللاهوتي في هذا الفهم، هو كون البابا خليفة القديس بطرس، الذي اعتبره المسيح "الصخرة - الأساس" لكنيسته كلها، كما جاء في الإنجيل المقدس (الإنجيل بحسب متى 16/17-20).

هذا التفاوت الصارخ في مفهوم السلطة فجّر العديد من الخلافات، ونقتصر منها على اثنين، نوردهما في خطوطهما الكبرى:

- **الأول هو قضية البطريرك "فوتيوس":**

- **عام 858م، أُقيل بطريرك القسطنطينية "أغناطيوس"، واختير محله رجل لم يكن من رجالات الكنيسة، إلا أنه كان عالماً ولاهوتياً وسياسياً معروفاً، وهو "فوتيوس".**
- **فكتب البطريرك الجديد، كما درجت العادة منذ القديم، إلى سائر البطاركة، ومنهم بابا روما، رسالة يعلمهم فيها بانتخابه وبوحدة الإيمان المشترك فيما بينهم.**
- **فأرسل البابا "نقولاوس الأول" (858-867م) وفداً إلى القسطنطينية، يحمل بطاقة شخصية إلى البطريرك الجديد، على درجة كبيرة من التحفظ، ورسالة مطولة إلى الإمبراطور، فيها إشارات واضحة إلى حق البابوية بممارسة السلطة العليا على الكنيسة جمعاء، وإلى الإجراءات المشبوهة في اختيار البطريرك الجديد، وإلى حقوق البابوية على الأراضي التي استولى عليها منذ أكثر من مائة سنة، الإمبراطور البيزنطي "لاوون الثالث الايزوري" (717-740م).**
- **وكان أن عُقد في القسطنطينية عام 861م، مجمع كنسي بحضور الوفد البابوي، أُقرّ فيه انتخاب البطريرك "فوتيوس" من جهة، كما أُدين فيه البطريرك السابق "أغناطيوس" من جهة ثانية.**
- **فعقد البابا إثر ذلك مجمعاً كنسياً في روما عام 863م، أعلن فيه بطلان انتخاب البطريرك "فوتيوس".**
- **ثم ذهب البابا إلى أبعد من ذلك، وأراد أن يستغل الأزمة الناشئة بين "فوتيوس" و"أغناطيوس"، فطمح في بسط تنظيم موحد على الكنيسة جمعاء شرقاً وغرباً، وذلك بكسر العقبة الكبرى في وجه**

سلطته، أي كسر سلطة بطريرك القسطنطينية. فتجاوز مقررات "مجمع القسطنطينية" الأخير، المنعقد عام 863م، واستدعى إلى روما كلاً من البطريركين "فوتيوس" و"أغناطيوس"، لينظر في قضيتهما، كما كان قد فعل، حيال أسقفين كبيرين من أساقفة الغرب، هما أسقفا مدينتي "كولن" و"ماينز" بألمانيا. فجوبه من قبل البطريركين - المختار والمخلوع - بالصمت التام.

- **الثاني هو قضية اهتداء الشعوب السلافية إلى المسيحية:**

- **في مطلع القرن التاسع، كانت المسيحية قد بلغت بلغاريا والمجر وسلوفاكيا.**
- **وفي عام 846م، اعتلى عرش المجر الملك "كاتسلاف"، بدعم من الإمبراطور الجرماني "لودفيك".**
- **وسعى الملك "كاتسلاف" إلى التحرر من التأثير الجرماني الضاغط، فتوجه بالطلب إلى روما، سائلاً البابا أن يرسل إلى بلاده مبشرين يتقنون اللغة السلافية المحكية، فتعذّرت الاستجابة لطلبه.**
- **وفي عام 862م، أرسل وفداً إلى القسطنطينية يطلب مبشّرين بيزنطيين، يلقّنون الشعب الطقوس البيزنطية. فرحب البطريرك "فوتيوس" بهذه المبادرة، ورأى في الاستجابة لها انتصاراً على سلطة البابا في روما. وأقنع الإمبراطور البيزنطي بالإجابة إلى طلب ملك المجر.**
- **وكُلِّف الأخَوان "كيرلس" و"ميتوديوس"، وهما من مواليد مدينة "تسالونيكي" باليونان، بالقيام بهذه المهمة.**
- **نهض المبشّران البيزنطيان بهذه المهمة على شكل مدهش، على الرغم من المقاومة التي جابههما بها المرسلون الجرمان.**
- **ومن إنجازاتهما العظيمة في هذا المجال، إن "كيرلس" استطاع أن يبدع للشعوب السلافية لغة جديدة باتت لغتهم**

القومية، وقد استلهم أهم عناصرها من اللغات اليونانية والعبرية والقبطية، وقد اقتبس الروس فيما بعد لغتهم القومية من هذه اللغة السلافية.

- وفي عام 865م، سعى ملك بلغاريا "بوريس"، إلى تحرير كنيسة بلاده من نفوذ بيزنطة. فطلب من الإمبراطور البيزنطي الموافقة على تنصيب بطريرك على بلغاريا، فقوبل بالرفض.
- فتوجه الملك "بوريس" صوب روما، حيث قوبل بوعود مغرية جداً، منها تعيين رئيس أساقفة، وليس بطريركاً على بلاده، شريطة أن يكون خاضعاً لروما. وكان للبابا "نقولاوس الأول" ما أراد، وطرد الملك "بوريس" المرسلين البيزنطيين...
- وحده المرسل البيزنطي "ميتوديوس" - وكان شقيقه "كيرلس" قد توفّي - ظل في بلغاريا يتابع نشاطه، مع قلة من تلاميذه، دون أن يزعجه أحد، نظراً لما كان يتمتع به في طول البلاد وعرضها، من نفوذ وتأييد.
- وبذلك خطت روما خطوة واضحة في توسيع الهوة بينها وبين بيزنطة. ومما زاد الطين بلّة، أنها سمحت للكنيسة السلافية بإضافة عبارة و"الابن المشبوهة"، إلى قانون الإيمان.

3- الأسباب الآنيّة:

تواصل تردّي الوضع بين روما والقسطنطينية، طوال القرن العاشر وحتى منتصف القرن الحادي عشر.

عندها بدت المرجعية الكنسية العليا وكأنها فُقِدت، ولا سيما وأن خضوع روما لسلطة الإمبراطور الجرمانية - وهي في نظر بيزنطة، عنوان البربرية - بلغ بها حد السماح للجرمان، في عهد الإمبراطور "هنري الثاني" (1003-1024م) باستخدام طقس خاص بهم، وفيه عبارة "والابن" الشهيرة.

وفي هذه الأثناء، اعتلى الكرسي البطريركي في القسطنطينية رجل قوي الشكيمة، اسمه "ميخائيل كيرلاريوس". وقد طرأ في عهده (1043-1058م) تطور على العلاقات بين روما والقسطنطينية، حسم الصراع بينهما إلى القطيعة.

فقد أراد البطريرك "كيرلاريوس"، ضمن الإصلاحات التي ارتآها، أن يُخضع حتى الكنائس الغربية القائمة داخل ولايته وعاصمته، لإصلاحات في الصلوات والطقوس، وبعض عادات رجال الكنيسة من لباس ومظهر، اعتُبرت بمثابة التطاول على سلطة البابا.

وجرى تبادل رسائل بين البابا والبطريرك، بلغت لهجة بعضها من الحدّة ما دفع البطريرك إلى إصدار الأمر بإغلاق الكنائس اللاتينية القائمة في القسطنطينية.

عندها أرسل البابا "لاوون التاسع"، في مطلع عام 1054، وفداً برئاسة الكردينال الألماني "هومبرت" إلى القسطنطينية، وطالت إقامة الوفد البابوي في القسطنطينية، وجرت خلاله أحاديث كثيرة، تحولت مع الوقت إلى مساجلات عنيفة، تدور حول توافه، ضاعت في خضمّها المشاكل الكبرى المطروحة.

في هذه الأثناء، كان البابا "لاوون التاسع" قد توفّي في 19 /نيسان/ 1054، دون أن يكون نبأ وفاته قد بلغ القسطنطينية.

وفي 16 /تموز/ 1054، أُقيم احتفال كبير في كبرى كنائس القسطنطينية، وهي "آجيا صوفيا" (أي الحكمة المقدسة)، وكان يحضره كبار رجالات الكنيسة والدولة، وعلى رأسهم الإمبراطور البيزنطي. فدخل الوفد البابوي الكنيسة، وألقى الكردينال "هومبرت" خطاباً ندّد فيه بتمرّد البطريرك على سلطة البابا، ثم وضع على الهيكل الكبير صك الحرمان الخاص بالبطريرك، وانسحب.

بعد أيام قليلة، عقد البطريرك "كيرلاريوس" مجمعاً كنسياً في القسطنطينية، صدر عنه صك حرمان يطال فيه الغربيين جميعاً، وعلى رأسهم بابا روما.

خاتمة:

بدت القطيعة لفترة ما وكأنها نهائية.

إلا أنها لم تكن كاملة، لا بين القسطنطينية وروما من جهة، ولا بين روما وسائر العالم البيزنطي من جهة ثانية.

ولقد كان من بطاركة القسطنطينية الذين خلفوا "كيرلاريوس"، مَن عاود الاتصال بروما.

كما جرت محاولات جادة وعامة، فيما بعد، لإعادة الوحدة، أو أقله الحوار، إلى أفضل مما كان عليه الحال.

إلا أن الشرخ النفسي والثقافي من جهة، والصراع السياسي من جهة ثانية، كانا أمنع من جميع المحاولات.

ويوم جاءت رابعة الحملات المسمّاة صليبية، واحتلت القسطنطينية عام 1204م، بدت وكأنها حكمت منذ ذلك الحين، وحتى اليوم، على جميع محاولات التقارب بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية بالموت.

سادساً: المسيحية من الانشقاق الكبير حتى الحركات الإصلاحية الكبرى

1- في الغرب: تواجهنا ثماني وقائع:

1. روما والقسطنطينية تتبادلان الحرم عام 1054.
2. روما تواصل نشر المسيحية: السويد عام 1080، شبه جزيرة الغرونلاند عام 1126، بروسيا عام 1283، إنشاء كنيسة كاثوليكية في بلاد فارس عام 1321، وإحداث أبرشيات كاثوليكية في الهند عام 1330.
3. البابوية تدير الإصلاحات الكنسية وتفرض هيمنتها:

+) الإصلاح الكبير يقوده دير "كلوني" (Cluny) بفرنسا، بإشراف البابوات، ولا سيما البابا غريغوريوس الكبير.

+) الصراع بين البابوات والسلطات الزمنية يمضي في تأزّم...

+) دور البابوات الكبير في إطلاق الحملات الصليبية على الشرق.

4. بروز "النظام البابوي الملكي" وتعزيزه، ما بين نهاية القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثالث عشر.
5. ظهور البدع وتنوعها وردّ الكنيسة:

+) أهم هذه البدع: بدعة المتطهرين (الكاثاريين) - والمانوية - وبدعة الفُودْوَا - ودعوة "ويكليف" في انكلترا، و"يان هوس" في تشيكيا.

+) رد الكنيسة: إنشاء محاكم التفتيش عام 1231.

6. فرنسيس الأسيزي: منعطف كبير في الغرب...
7. انقسام الغرب على نفسه تبدّى في الكنيسة على نحوين:

+) تعدّد البابوات وحدوث الانقسام الكبير بشأن شرعية البابا ومكان إقامته (روما، وأفِنيون بفرنسا)

+) الخلاف اللاهوتي حول أولوية المجامع على البابا أو العكس...

8. ظهور عصر النهضة...

2- في الشرق: الكنيسة تواجه ذاتها، وتواجه الغرب، وتواجه الإسلام:

1. المسيحية الشرقية تواجه ذاتها:

+) هي في الحقيقة مقسمة إلى بيزنطية وأرمنية وسريانية وقبطية...
+) وهي تكاد تكون واحـدة
- في رفضها بالإجماع سلطة البابا الفعلية.
- في أخذها بأسرار الكنيسة السبعة.
- في قبولها بالأنظمة والقرارات التي جاءت في المجامع الأولى:
في جواز زواج كهنتها.
في تكريمها للأيقونات.
+) وهي تختلف فيما بينها من حيث:
- الطقوس الدينية ولغاتها.
- انتماؤها العرقي أو القومي.
- إيمانها بطبيعة واحدة أو اثنتين في السيد المسيح.

2. المسيحية الشرقية تواجه الغرب:

+) في هيمنته وعدوانيّته التي تجلّت خصوصاً في الحروب "الصليبية"، وكانت أبشعها الحملة الرابعة التي انتهت باحتلال القسطنطينية عام 1204، واستباحتها كلياً على أبشع نحو، وما أعقبها:
- من إحداث إمبراطورية لاتينية شرقية.
- ومن إحداث سلطات كنسية لاتينية محل السلطات السابقة، في كل من القسطنطينية وأنطاكية والقدس والاسكندرية الخ...

+) في استغلاله البشع، للضغوط الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها المسيحية الشرقية، لإرغامها على العودة إلى الوحدة الكنسية على النحو الذي يريده الغرب...

+) في الاختلال الديني والبشري والسياسي، العنيف، الذي عرفه الشرق كله، من جراء الغزو الصليبي.

3. المسيحية الشرقية تواجه الإسلام:

+) عرفت المسيحية، إلى جانب فترات من التعايش، فترات من

الاضطهاد، كان أسوأها ما حدث في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، في مصر وفلسطين.

+) فقدت المسيحية بلداناً بكاملها من جراء سقوطها بيد الأتراك: من سقوط أرمينيا عام 1064، إلى سقوط آسيا الصغرى عام 1078، فالرها عام 1143، فتركستان وفارس عام 1238 بيد المغول، إلى سقوط القسطنطينية عام 1453.

سابعاً: المسيحية من حركة الإصلاح الكبرى إلى اليوم

1- المسيحية الكاثوليكية في الغرب:

1. الإصلاح يقطّع أوصال الكاثوليكية في الغرب:

+) لوتر وإعلان أوغسبرغ (1520) في ألمانيا...

+) زفانكلي وفكرة الدولة المسيحية في سويسرا.

+) "كالفان" وكتابه "مؤسسة الديانة المسيحية" (1536) في فرنسا وسويسرا.

+) هنري الثامن وقضية طلاقه (عام 1533) في انكلترا...

2. الإصلاح الكاثوليكي المضاد:

+) بواسطة المجمع التريدانتيني (1545-1563)

+) ظهور جمعيات جديدة قوية مثل الرهبانية اليسوعية في إسبانيا، وشخصيات فذّة مثل القديس منصور (St. Vincent de Paul) في فرنسا.

+) تكثيف إجراءات الإصلاح وتشجيع البعثات التبشيرية داخل أوروبا وخارجها.

+) الغليان الفكري يؤدي إلى ظهور تيارات لاهوتية جديدة (مثل الجانسينية) ونزعات سياسية جديدة (مثل الغاليكانية والجوزيفية)، ومناحٍ تقويّة جديدة (مثل الاستكانية).

3. تثبيت أقدام الكنائس البروتستانتية أو الإصلاحية:

+) بينها خلافات عقائدية وإدارية لا بأس بها...

+) ولكنها كلها تجمع على:

- رفض كل سلطة إلا سلطة كلام الله، كما جاءت في الكتاب المقدس.

- رفض مركزية الإدارة الكنسية، ومعها سلطة البابا والمجامع الكنسية.

- رفض كل شفاعة إلا شفاعة السيد المسيح وحده.

- القول بالخلاص بواسطة النعمة الإلهية، دون الأعمال البشرية.

- القول بزواج خَدَمة الكلمة، بعيداً عن أي كهنوت، باستثناء الكنيسة الانكليكانية.

+) وقد كان لها انتشار سريع جداً في ألمانيا والبلدان الاسكندنافية (لوترية) وفي فرنسا وسويسرا واسكتلندا (والبلدان المنخفضة) هولندا، والمجر (الكالفينية)، وكان انتشاراً أحياناً بالغ الدموية في فرنسا وألمانيا.

4. منذ القرن الثامن عشر: الكثلكة والإصلاح يواجهان أخطاراً مشتركة:

+) القرن الثامن عشر وفكر الثورة الفرنسية:

- انتشار الفكر الموسوعي: عقلنة ونقد وعداء لكل دين.

- الثورة الفرنسية: عداء معلن وفعلي، وتشريع يلغي القيم السابقة والمؤسسات الدينية، ويطارد رجال الكنيسة.

+) القرن التاسع عشر وروح الثورة الصناعية:

- انتشار روح الثورة الفرنسية في أوروبا كلها، وتزايد ابتعاد الفئات المثقفة والطبقة العاملة عن الكنيسة والمسيحية.

- تسرب الروح التحرري النقدي إلى الكنائس كلها، ولا سيما الكاثوليكية: عقائدياً واجتماعياً (مثل الكاهنين المفكرين الفرنسيين: "لامنيه" و"لوازي")

- تفاقم المطالب الاجتماعية العمالية، واتهام الكنيسة بالتواطؤ مع الفئات الغنية وأرباب العمل.

- ظهور مؤسسات رهبانية قوية في الكنيسة، إلى جانب بروز وجوه من الكهنة الأفذاذ، مثل خوري آرس، والأب انطوان شفرييه، والأب الخطيب لاكوردير في فرنسا، والأبوان دون بوسكو وكوتولينغو في إيطاليا.

- تنامي الصدام بين الكنيسة والقوميات الناشئة، كما في ألمانيا وإيطاليا.

- تهافت النفوذ الكنسي المادي، وتزايد النفوذ الروحي، ولا سيما للبابوية.

- تزايد اهتمام الكنيسة، ولا سيما البابا لاون الثالث عشر، بالقضايا العمالية.

+) القرن العشرون والثورة الشيوعية والحركات الفاشية والنازية:

- واجهت الكنيسة الحداثة بتشنج وشجب (البابا بيوس العاشر).

- واجهت الشيوعية والفاشية والنازية بالإدانة (البابا بيوس الحادي عشر).

- واجهت العالم العمالي والصناعي بتجربة جديدة، ولكن متأخرة جداً، خاضها بعض "الكهنة - العمال" في فرنسا...

- واجهت التطور العام في العالم، بمحاولة تلاؤم قام به المجمع الفاتيكاني الثاني، بمبادرة من البابا يوحنا الثالث والعشرين، وقد كان من أهداف هذا المجمع (1962-1965) الرئيسية:

- التحاور مع العالم.
- الإصلاح الكنسي والأخذ بالقيادة أو الرعاية الجماعية في الكنيسة.
- التحاور مع الديانات كلها.
- السعي إلى إحداث تعاون فعّال مع العلمانيين في الكنيسة.
- السعي إلى إحداث تقارب فعلي وفعال، مع الكنائس الأخرى من أرثوذكسية وبروتستانتية.

(2) المسيحية الأرثوذكسية: بوسعنا أن نلخص واقعها العام بخمس وقائع:

1- **الأولى: المسيحية الأرثوذكسية تحت الحكم التركي:**

+) تحاول الحفاظ على "وديعة الإيمان" طوال قرون، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

+) نشأت كنائس مستقلّة فور تحرّر بلادها من الحكم التركي، وفي الفترة اللاحقة:

- **اليونان**	**عام** 1833	- **بلاد الصرب**	**عام** 1870
- **بلغاريا**	**عام** 1879	- **رومانيا**	**عام** 1885
- **جيورجيا**	**عام** 1919	- **فنلندا**	**عام** 1923
- **بولندا**	**عام** 1923	- **ألبانيا**	**عام** 1937
- **تشيكوسلوفاكيا**	**عام** 1951		

2- **الثانية: المسيحية الأرثوذكسية في روسيا:**

+) أُعلِنت موسكو مركزاً بطريركياً عام 1589.

+) التحالف بين السلطات الزمنية والكنسية لم يحل دون تعميق الإيمان في الشعب، وظهور وجوه نيّرة فريدة من أمثال الراهب سيرافيم الستاروفسكي.

+) الغليان الفكري والسياسي، ترافق مع اختمار أدبي وفلسفي وروحي عميق، تجلّى في كتّاب مثل دوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وغوغول، وفي فلاسفة مثل سولوفييف وبردیائیف.

+) ظهور الشيوعية كقوة سياسية حاكمة، قيّد فعالية الكنيسة واضطهد حتى الموت الكثيرين من مسؤوليها، ولكن دون أن يلغيها.

3- **الثالثة: المسيحية الأرثوذكسية في المشرق العربي:**

+) حاولت هي أيضاً الحفاظ على "وديعة الإيمان".

+) ولكنها تعرضت طوال قرون لضغوط خارجية وداخلية، سياسية ودينية:

- **من جراء "معاهدة الحمايات" التي أجراها ملك فرنسا: فرنسوا الأول، مع السلطان التركي عام 1535، ثم لويس الرابع عشر عام 1673، وما جرّت على المنطقة من تدخّلات قامت بها دول أوروبية أخرى بحجة حماية "مسيحييها"**

- من جراء وصول البعثات التبشيرية اللاتينية ونشاطها في المنطقة العربية.

4- **الرابعة**: المسيحية الأرثوذكسية تواجه انقسامات داخلية جديدة:

+) البعثات الكاثوليكية ومدارسها هيّأت في العمق وعلى المدى البعيد...

+) لظهور جماعات داخل الطوائف الأرثوذكسية، تؤيّد روما والمنحى الكاثوليكي.

+) وحدث ما كان "مرجوّاً" ومتوقّعاً: نشأت كنائس كاثوليكية من صلب الأرثوذكسية:

- الكنيسة الملكية عام 1724
- الكنيسة الأرمنية عام 1740
- الكنيسة القبطية عام 1742
- الكنيسة السريانية عام 1781
- الكنيسة الكلدانية عام 1830
- الكنيسة الحبشية عام 1961

5- **الخامسة**: المجازر والإبادات، أهمها عام 1860، في لبنان ودمشق...

6- **السادسة**: المسيحية الشرقية، بفرعيها الأرثوذكسي والكاثوليكي، تتحد في قاسم مشترك هو انتماؤها العربي:

+) قديماً، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، كان لمؤسساتها الرهبانية ومؤمنيها، ولا سيما في لبنان وسورية، أعظم الأثر في النهضة العربية، لغوياً وثقافياً وسياسياً وعلمياً واجتماعياً.

+) منذ الأربعينات في القرن العشرين، تعمّق انتماؤها العربي القومي في التزام شعبي عام، وفي زعامات دينية، مثل "ايلاريون كبوشي"، ومدنية مثل "انطون سعادة" و"ميشيل عفلق"، و"مكرم عبيد"، وكان لها سهم كبير في ظهور أحزاب لعبت وتلعب دوراً قيادياً في مواجهة التخلّف، والعدو الصهيوني.

أبرز المحطات في هذا التاريخ، وتوبة الكنيسة بشأنها

كُتب الكثير عن هذه المحطات المشؤومة في تاريخ الكنيسة، شرقاً وغرباً. ولكن الذي لم يُعرف بما فيه الكفاية، حتى الآن، كان اعتراف البابوية بالذات بهذه الأخطاء، وإعلان توبة الكنيسة الغربية عنها، بلسان بعض البابوات، ولا سيما البابا يوحنا بولس الثاني، وبعض مسؤوليها.

أرى لزاماً عليّ هنا، أن أذكر أبرز هذه المحطات، وأقابلها بأقوال هذا أو ذاك من البابوات أو من المسؤولين في كنائس الغرب، اعترافاً وتوبة.

ثمّة كتاب خطير صدر بهذا الشأن، عام 1997، في ثلاث لغات دفعة واحدة، هي الإيطالية والانكليزية والفرنسية. وقد وضعه الصحفي الإيطالي لويجي أكاتوللي، بطلب من صديقه البابا يوحنا بولس الثاني. وقد رأيت أن أنقله إلى العربية عام 2011، وهو بعنوان:

"عندما يطلب البابا الغفران".

وحسبي أن أختار منه بعض ما ورد في قسمه الثاني، وأوردها بحرفيتها، دون أي تعليق...

(1) التوبة بشأن الحملات "الصليبية"

1. « يجب علينا أن نكون شاكرين لروح الله، الذي اقتادنا إلى أن نفهم على نحو أوضح، أنّ السبيل الأفضل، والأكثر انسجاماً، في الوقت نفسه، مع الإنجيل، لمواجهة المسائل التي يمكنها أن تنشأ في العلاقات بين الشعوب والديانات والثقافات، هو سبيل الحوار الصبور، والذي يجمع بين الصرامة والاحترام ».

2. « إنّ ذكرى الماضي تثقلنا حتى اليوم: عشرة قرون من التصادم العنيف، شهدت العرب والأتراك يحاولون، مرات عديدة، اجتياح أوربا، وشهدت الغرب يدعو لحملات صليبيّة في القرون الوسطى، أو يبادر إلى الاستعمار الحديث بالقوة. واليوم، فإنّ الحضارة الغربيّة، وهي حضارةٌ علمانيّةٌ، فرديّة،

استهلاكية، تتسرّب إلى العالم الإسلامي، وتنخره من الداخل، فتثير ردّ فعل التشدّد الإسلامي، وتجرّ معها أيضاً المسيحيّة في الكراهية نفسها. »
(من كتاب "التعليم المسيحي للبالغين"، الصادر في إيطاليا عام 1995)

(2) التوبة بشأن الأنظمة الاستبدادية

« لو فحصنا الآن، بعد مرور بضع سنوات على هذه الفترة، وفي ضوء رسالة اليوبيل البابويّة، عَمَلَنا الرعوي خلال الأزمات الخطيرة والمؤلمة من ماضينا الحديث، لَوَجب علينا أن نقرّ، نحن الأساقفة، بأنّنا لم نُحسن التمييز بوضوح في الأحداث التي انخرطنا فيها. لم ننجح في تفهّم وتقييم خطورة الشرّ الذي كان يفتك بالجسم الاجتماعي، ولا سيما المظالم البشعة بحقّ كرامة الأشخاص، التي ارتكبها أولئك الذين كان يُفترض فيهم حماية الأمّة بالقانون. وإنّنا، بحكم المسؤوليات المترتّبة علينا، من أجل كلّ ما أهملنا القيام به، أو سكتنا عنه، ومن أجل ما لم نحسن فعله بسبب تردّدنا، وضُعفنا أو تقديرنا الخاطئ للأحداث، ومن أجل ما لم نفعله في الوقت المناسب، ومن أجل ما فعلناه في فتورٍ أو بطريقةٍ غير ملائمةٍ، من أجل كلّ ذلك، ومن صميم القلب، نسأل الله الغفران. » (أساقفة الأرجنتين) – (ص 92، من كتاب "عندما يطلب البابا الغفران")

(3) التوبة بشأن الانقسامات بين الكنائس

1. « قبل كلّ شيء، وفي ديناميّة الحركة نحو الوحدة، يجب تنقية ذاكرتنا الشخصيّة والجماعيّة، من ذكرى جميع صدامات الماضي ومظالمه وأحقاده... »
(البابا يوحنا بولس الثاني 1980 - ص 94)

2. « إن نحن لم نتهرّب من الوقائع، يتّضح لنا أنّ أخطاء البشر قادتنا إلى انقسام المسيحيّين المشؤوم، وإنّ خطيئتنا تواصل الحؤول دون تحقيقنا خطواتٍ جديدةً، ممكنة وضرورية نحو الوحدة. »
(البابا يوحنا بولس الثاني 1980 - ص 94)

(4) التوبة بشأن اللاسامية

1. « لا يُخامرنا أيّ شكّ في أنّ الآلام التي تحمّلها اليهود، هي أيضاً بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، مدعاةٌ لألمٍ صادق، لا سيّما إذا ما فكّرنا في اللامبالاة، وأحياناً في النقمة التي فرّقت بين اليهودِ والمسيحيّين، في هذه الظروف التاريخية الخاصة. أجل، إنّ ذلك يُثير فينا تصميماً أكثر حزماً، على التعاون من أجل العدالة والسلام الحقيقي. »

(البابا يوحنا بولس الثاني 1987 - ص 113)

2. « أن تكون اللاسامية قد تكوّنت في الضمير والممارسة المسيحيّين، أمر يستدعي فعل توبة واهتداء ومصالحة. »

(الكردينال "كاسيدي" 1990 - ص 116)

3. « طالما ظلّت اليهودية خارج تاريخنا الخلاصي، سنظلّ تحت رحمة منعكساتٍ لاسامية... وبعد أن نكون حدّدنا المدى الذي يجب أن تبلغه مهمّتنا، في المصالحة مع الشعب اليهودي، يجب علينا أيضاً أن نتعهّد، بجدّيّة، بمهمّتنا في التوبة والتكفير، عن موقفنا حياله الذي استطال قروناً... علينا أن نُتقن طلب الغفران من الربّ ومن إخوتنا... علينا أن نبذل كلّ ما بوسعنا، كي نعوّض عمّا يجب التعويض عنه. »

(الكردينال "كاسيدي" 1983 - ص 116)

(5) التوبة بشأن العالِم غاليليو

« وفي هذا الظرف التاريخي والثقافي، البعيد جداً عن زماننا، ظنّ قضاة غاليليو، في عجزهم عن الفصل بين الإيمان ونظريّة في علم الكون، مُغرقة في القِدم، دون وجه حقّ، أنّ الأخذ بنظريّة كوبرنيك، لا سيما وأنّها لم تكن بعد قد أُثبتت، كان من شأنه أن يهزّ أركان التقليد الكاثوليكي، وأنّه كان يتوجّب عليهم أن يمنعوا تعليمها. إنّ هذا الخطأ الذاتي في الحكم، البالغ الوضوح بالنسبة

إلينا اليوم، قد قادهم إلى اتّخاذ إجراء تأديبي، "عانى منه غاليليو الكثير". أيّها الآب الأقدس، يجب الإقرار بصدق بهذه الأخطاء، كما طلبتَ إلينا. »
(الكردينال بول بوبار في 1992/10/31 - ص 126)

(6) التوبة بشأن الحرب والسلم

(1) « في مواجهة جميع الحروب، كلّنا مدعوّون للتأمّل في مسؤوليّاتنا، في طلبٍ للغفران، وفي منحه. وبوصفنا مسيحيّين، فإنّنا نشعر بمرارةٍ عميقةٍ، ونحن نُعمِل الفكر في أنّ أشكال الوحشيّة في هذه الحرب، قد جرت فوق قارّةٍ كانت تتباهى بازدهارٍ مميّزٍ في ثقافتها وحضارتها؛ فوق قارّة ظلّت لفترة أطول من سواها تحت تأثير الإنجيل والكنيسة. ولذلك، يتوجّب على مسيحيّي أوروبا أن يطلبوا الغفران. »

(يوحنا بولس الثاني، 1995/5/16 - ص 136)

(2) « لقد سبّبنا نزاعات، ولم نكن دائماً قادرين على استثمار جميع فرص الحوار والمصالحة. لقد سلّمنا بالحروب، وكثيراً ما برّرناها بسهولة مفرطة. »
(تصريح جميع كنائس أوروبا في مؤتمرها في "بال"، 1989/5/20 - ص 136)

(7) التوبة بشأن الحروب الدينية

(1) « اليوم، أنا، بابا كنيسة روما، باسم جميع الكاثوليك، أطلب الغفران بسبب جميع الإساءات التي أُلحقت بغير الكاثوليك، طوال تاريخهم المضطرب. »
(يوحنا بولس الثاني، 1995 - ص 137)

(2) « كيف كان يمكن الدفاع عن الإنجيل، باعتماد وسائل تُناقِض جذريّاً روح الإنجيل؟ إنّ الرابطة الجوهريّة التي يريد بعضهم أن يقيموها بين روح التسامح والإلحاد المبدئي، لم تكن سوى الردّ المحزن على تطرّف الحروب الدينية. »

(الأب جورج كوتيه - لاهوتي الفاتيكان - ص 141)

(8) التوبة بشأن هنود أميركا

(1) « كيف يسعُ الكنيسة، التي كانت دائماً، برهبانها وكهنتها وأساقفتها، مع السكان الأصليّين، أن تنسى، في هذه الذكرى المئوية الخامسة، الآلام الهائلة التي أُنزلت بشعوب القارّة في عهد الفتح والاستعمار؟ يجب أن نقرّ بكلّ صدق، بالتجاوزات التي ارتُكبت، من جرّاء غياب الحبّ لدى هؤلاء الأشخاص، الذين لم يعرفوا أن يرَوا في السكان الأصليّين، إخوةً وأبناء الله الآب بالذات. »

(البابا يوحنا بولس الثاني، 1992/10/13 - ص 148)

(2) نحن لا نكفّ عن القول لهؤلاء الناس: "سامحونا!" وإنّ طلب الغفران هذا، يتوجّه خصوصاً إلى سكان هذه الأراضي الجديدة، الأصليّين، إلى "الهنود"، وكذلك أيضاً، إلى الذين هُجّروا إليها من أفريقيا، بصفة عبيد، ليقوموا فيها بأقسى الأعمال. »

(البابا يوحنا بولس الثاني، في 1992/10/21 - ص 149)

(3) « لنُقِم تحالفاً كي نتّخذ من الذكرى المئويّة الخامسة لاكتشاف أميركا، مناسبة، لا للاعتزاز، بل للاعتراف والتكفير والتوبة، بسبب الإبادة العنيفة للسكان الأصليّين واستغلالهم. »

(البابا يوحنا بولس الثاني في مؤتمر سيول 5-1990/3/12 - ص 153)

(9) التوبة بشأن المظالم

(1) « إنّ الأرض هي ملكٌ لله، ولكنّها أُعطيَت للبشر جميعاً. إنّ الله لا يريد تخمة البعض، والمجاعة للآخرين، الوفرة لبعضهم لأنّ أرضهم سخيّة، والبؤس للآخرين لأنّهم لا يملكون الحظ. لا يجوز أن تكون هناك امتيازاتٌ للأغنياء والأقوياء، والظلم للفقراء والمعاقين. [...] هل الكنيسة تصرّح

بذلك، بقوّةٍ كافية؟ ربّما لا! إنّ أعضاء الكنيسة يعانون أيضاً من ضعف. إنّنا نشكّل الكنيسة، أنتم وأنا. »

(البابا يوحنا بولس الثاني 1988/10/8 - ص 155)

(2) « لم نكن دائماً أوفياء لالتزامنا بالفقراء، ولانحيازنا المفضّل لصالح الفقراء.»

(الكردينال دانيلس في 1985/11/25 - ص 158)

(3) « تُقرّ الكنائس بأنّه يتوجّب عليها أن تتحرّر من تواطئها مع الأنظمة الاقتصاديّة الظالمة، وفي نطاق أكثر شمولاً: "نعترف نادمين أنّنا، بوصفنا كنائس، لم نكن في الخط الأول لندافع عن الحقوق الإنسانيّة، وأنّنا قدّمنا تبريراً، في معظم الأحيان، من خلال لاهوتنا، لانتهاكات حقوق الإنسان. »

(تصريح الجمعية المسكونية العالمية في سيول، 5-1990/3/12 - ص 159)

(10) التوبة بشأن محاكم التفتيش

(1) « هناك فصل آخر مؤلم، لا يسعُ أبناء الكنيسة ألاّ يعودوا إليه بروحٍ تائبة: الموافقة المعطاة، خصوصاً خلال بعض القرون، لأساليب خالية من التسامح، بل عنيفة، في خدمة الحقيقة. »

(البابا يوحنا بولس الثاني/ رسالة اليوبيل 2000 - ص 160)

(2) « كيف لنا أن نصمت إزاء جميع أشكال العنف التي ارتُكبت باسم الإيمان؟ حروب دينيّة، محاكم تفتيش، وأشكال أخرى من خرق حقوق الإنسان »

(البابا يوحنا بولس الثاني عام 1994 - ص 162)

(3) « إنّه ليتوجّب على الكنيسة أنّ تُعيد النظر من تلقاء ذاتها، على ضوء ما أعلنه المجمع الـڤـاتيكاني الثاني، في الجوانب المظلمة من تاريخها، لتتفحّصها على ضوء المبادئ الإنجيليّة. »

(البابا يوحنا بولس الثاني عام 1994 - ص 163)

(11) التوبة بشأن التطرف الديني

(1) « لفترة طويلة، ساد التأكيد بأنّ ميزة المسيحي هي شرط انتمائه إلى المجتمع السياسي في إطار الدولة المسيحيّة. وفي سبيل الدفاع عن ذاتها، كانت الدولة تتدخل في الميدان الديني، بوسائل قمعيّة خاصة بها. وكانت الكنيسة، إزاء ذلك، تستند إلى السلطة الزمنيّة. وبهذه الطريقة، لما كانت الدولة، في دفاعها عن سلامتها، تتدخّل في المسائل الروحيّة، تمادت في عدد كبير من المبادرات، تحت شعار اللاتسامح والعنف. والكلّ يعلم أنّنا بِتنا أمام تجاوزات مؤسفة لوّثت التاريخ المسيحي. والمبدأ الذي اعتُمد في نهاية الحروب الدينيّة، والقائل بأنّ "الشعوب على دين ملوكها"، هو، في جوهره، مبدأ وثني. »

(الأب جورج كوتيه، لاهوتي البابا يوحنا بولس الثاني - ص 167)

(2) « إنّ حضور الكنيسة في المجتمع انحلّ إلى تداخلٍ فوضوي بين الدائرة الدينيّة والدائرة المدنيّة، فأساء إلى نقاء الديانة، وإلى استقلاليّة الواقع الزمني... إنّ حقّ حرّية الضمائر لم يُقَرّ بما فيه الكفاية: من هنا، كان اللاتسامح حيال اليهود، ومحاكم التفتيش ضد الهراطقة، والتنصير القسري لشعوب برمّتها، والحروب الدينية. »

(كتاب "التعليم المسيحي للبالغين، الذي أصدرته هيئة الأساقفة الإيطاليين عام 1995 - ص 168)

(12) التوبة بشأن الإسلام

(1) « مسيحيّون ومسلمون، أسأنا عموماً فهْم بعضنا البعض؛ وفي الماضي، تصادمنا، بل استنفدنا بعضنا بعضاً في سجالات وحروب. »

(البابا يوحنا بولس الثاني عام 1996 - ص 172)

(2) « ما من شكّ أنّ ما فعله المسيحيّون باليهود والمسلمين في اسبانيا، عام **1492**، هو بالضبط نقيض ما كان يجب فعله وفق مبادئ إيماننا المسيحي. »

(المطران "توريلا كسّانته"، 1992/3/26 - ص 174)

(13) التوبة بشأن الانشقاق الشرقي

(1) « إنّ خطيئة انقسامنا جسيمة جدّاً... يتحتّم علينا أن نكفّر عنها، بطلب الغفران المُلحّ من المسيح... لقد حرمْنا العالم من شهادة مشتركة، كان يمكنها ربّما أن تجنّبه هذا الكمّ الهائل من المآسي، أو حتى أن تغيّر مجرى التاريخ... أَوَلسنا أمام منزلقٍ جديدٍ وخطيرٍ نحو الخطيئة، يتوجّب علينا جميعاً أن نحاول التغلب عليه بكلّ قوانا، إن كنّا نريد للشعوب التي تبحث عن إله المحبّة، أن تجده بسهولة أكبر، بدل أن تُصدم من جديد، بتمزّقاتنا ومعارضاتنا؟ »

(البابا يوحنا بولس الثاني، 1995/5/6 - ص 205)

(2) « يجب أن يُقترح عرض نزيه وشامل للتاريخ، يهدف إلى كتابة موّحدة للتاريخ، بلهَ مشتركة للكنيستين. وبذلك سيسهُل تبديد الأحكام المسبقة، ويتمّ تجنّب استخدام التاريخ لغايات خلافية. وسيبيّن هذا العرض أنّ أخطاء الانقسام كانت مشتركة، وأنّها تركت لدى الأطراف جميعاً، جروحاً عميقة. »

(وثيقة البلمند عام 1993 - ص 207)

(14) التوبة بشأن تجارة الزنوج

(1) هذه الأجيال من الزنوج والعبيد تحملني على التفكير بأنّ يسوع المسيح أراد أن يكون عبداً، وأن يصبح خادماً. لقد سلّط على العبوديّة نور الوحي، هذا الوحي الإلهي الذي يعني أنّ "الله محبّة". ولكنْ هنا، المقصود خصوصاً هو الظلم؛ إنّها مأساة الحضارة التي كانت تسمّى مسيحيّة. »

(البابا يوحنا بولس الثاني، شباط 1992 - ص 217)

(2) « في هذا المعبد الأفريقي، معبد الألم الأسوَد، نسأل عفو السماء، ونبتهل كي يسلك تلاميذ المسيح في المستقبل في أمانةٍ تامّة، للتقيّد بوصيّة المحبّة التي تركها لهم المعلّم. ونصلّي كي لا يكونوا بعد اليوم ظالمين لإخوتهم، أيّاً كان هذا الظلم، بل كي يسعَوا دائماً للاقتداء برحمة سامريّ الإنجيل، الطيب، بالمسارعة إلى نجدة

الناس الذين يعانون من الفاقة. ونصلّي كي يتلاشى إلى الأبد، وباء الاستعباد، ونتائجه معه: أَوَليس في أحداثٍ مؤلمةٍ حديثة، جرت في هذه القارة بالذات، ما يدعونا لليقظة الدائمة، ولمواصلة تنقية القلب، الطويلة والمضنية؟ ويجب علينا أيضاً، أن نقاوم أشكال الاستعباد الجديدة، وهي – في الغالب – خبيثة، مثل الدعارة المنظمة، التي تستغلّ، على نحوٍ مخزٍ، بؤس شعوب العالم الثالث. »

(البابا يوحنا بولس الثاني 1992/2/22 - ص 219)

(15) التوبة بشأن الانشقاقات الكبرى في كنائس الغرب

حركات الإصلاح ولوتر.

1- حول الكاهن التشيكي "يان هوس" الذي أُحرق حياً عام 1415

(1) « إنّها لماثلةٌ في ذهني حتى الآن، هذه الكلمات التي قالها الكردينال (بيران)، رئيس أساقفة براغ، بشأن هذا الكاهن، الذي لعب دوراً بالغ الأهمية في التاريخ الديني والثقافي للشعب البوهيمي. »

(البابا يوحنا بولس الثاني في 1990/4/21 - ص 143)

(2) « في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، يُولِّد خرق حرية الضمير الرثاء لدى الكثيرين. لذلك، تبدو الكنيسة اليوم، في وطني، وكأنّها تكفّر عن الأخطاء والخطايا، التي ارتُكبت باسمها بالأمس، ضد الحرية الدينية، كما كانت الحال في القرن الخامس عشر بالنسبة إلى مَحرَقة الأب "يان هوس"، أو في القرن السابع عشر، من أجل العودة القسريّة إلى الإيمان الكاثوليكي، لقسمٍ كبيرٍ من شعب "بوهيميا"، تبعاً لمبدأ "الناس على دين ملوكهم".

« إنّ هذا الاعتماد على السلطة الزمنيّة، إذ أريد له أن يخدم الكنيسة الكاثوليكيّة، أو هكذا ادُّعي، ترك، في الواقع، جرحاً ثابتاً في قلب السكان. وإنّ هذه الصدمة قد حالت دون التقدم الديني، وقد وفّرت أيضاً لأعداء الكنيسة حجّة سهلة في سبيل طعنها. فالتاريخ يحذّرنا، إذن، من أنّه يتوجّب على هذا

المجمع أن يعلن مبدأ الحريّة الدينيّة وحريّة الضمير، بكلماتٍ واضحةٍ جداً، وخالية من أيّ تحفّظ قد تمليه دوافع انتهازيّة. وإن نحن فعلنا ذلك، مدفوعين أيضاً بروح التكفير عن خطايا الماضي، فإنّ السلطة الأدبيّة للكنيسة ستكبر كثيراً، وإنّ في ذلك لأعظم الخير لشعوب كثيرة. »

(الكردينال "بيران" في 1965/9/20 - ص 144)

2- كالفان وزفانكلي

« هذا العام، نستحضر في فكرنا ذكرى الغَيرة التي كانت تحرّك شخصيّتَين دينيّتَين بارزتَين في تاريخ سويسرا: إحداهما، "هولدريخ زفانكلي" (Huldrych ZWINGLI)، الذي تحْيون ذكراه المئويّة الخامسة بشتّى التظاهرات، تكريماً لشخصه وعمله؛ والثانية، "جان كالفان" (Jean CALVIN)، الذي وُلِد منذ أربعمائة وخمسة وسبعين عاماً.

« نلمس التأثير التاريخي لشهادتهما، ليس في دائرة اللاهوت والبنية الكنسيّة وحسب، بل أيضاً في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي. فإنّ ما تركه كلّ من هذين الرجلَين، من إرثٍ فكريّ وخيارات أخلاقيّة، يتواصل حاضراً حتى اليوم، بقوة واندفاع، في مختلف القطاعات المسيحيّة...

"ربما سيأتي اليوم – وإنّي لأرجوه وشيكاً – الذي يصبح فيه الكاثوليك وأتباع الإصلاح في سويسرا، قادرين معاً على كتابة تاريخ تلك الحقبة المضطربة والمعقّدة، بالموضوعيّة التي تُمليها محبّةٌ أخويّةٌ عميقةٌ. وإنّ مثل هذا الإنجاز سيُتيح لنا أن نسلّم الماضي، دونما تحفّظ، إلى رحمة الله، وأن نكون في حريّةٍ مطلقةٍ، مشدودين نحو المستقبل، كي نجعله أكثر انسجاماً مع إرادته، هو الذي يريد ألاّ يكون للمؤمنين به سوى قلبٍ واحدٍ وروحٍ واحدة، كي يتّحدوا في الإشادة بمجد نعمته والإعلان عنه. »

(البابا يوحنا بولس الثاني في لقاء له مع اتحاد الكنائس البروتستانيّة في سويسرا، في 1984/6/14 - ص 146)

3- بشأن مارتان لوتر

(1) « اليوم، بعد مرور أربعمائة وخمسين عاماً على وفاته، يتيح لنا الزمان الذي مضى، أن ندرك، على نحو أفضل، شخص المصلِح الألماني وعمله، وأن نكون أكثر إنصافاً نحوه...

لقد اتّسمت فكرة لوتر بالتركيز الواضح على الفرد، أكثر منها على وجدان مقتضيات الجماعة. إنّ إصلاح الكنيسة، الذي كان مطلبه، كان في نيّته الأصليّة، نداءً إلى التوبة والتجديد، اللذين يجب أن يبدآ في حياة كلّ إنسان. والأسباب التي قادت إلى الانقسام كانت كثيرة؛ منها تكرار الرفض من قِبل الكنيسة الكاثوليكيّة، هذا الأمر الذي كان قد سبّب الحزن للبابا أدريانوس السادس، فأعرب عنه بكلماتٍ مؤثّرة، منها إقحام المصالح السياسيّة والاقتصاديّة، ومنها أيضاً هوى لوتر بالذات، الذي اقتاده إلى ما هو أبعد من مقاصده الأولى، حتى انتقاد الكنيسة الكاثوليكية نقداً جذريّاً، في بنيتها وعقيدتها. لقد اقترفنا كلّنا أخطاء، ولذا، فكلّنا مدعوّون للتوبة، وكلّنا بحاجة إلى تنقية الرب لنا على نحوٍ دائمٍ، وبصورة متكررة. »

(البابا يوحنا بولس الثاني، في بادربورن بألمانيا، في 1996/6/22 - ص 179)

(2) « إنّ ذكراه، بعد قرون من تباعد مؤلم ومن خصومات، تتيح لنا أن نقرّ اليوم، على نحو أوضح، بالقيمة الكبيرة التي اكتسبها إصراره على لاهوت لصيق بالأسفار المقدسة، وعلى ما أراد من تجدّد روحي في الكنيسة. »

(البابا يوحنا بولس الثاني، في بادربورن بألمانيا، في 1996/6/22 - ص 179)

(3) « اسمحوا لي، في بدء حوارنا، أن أعرب لكم عمّا يثير مشاعري على نحو خاص. أفعل ذلك في عودة إلى شهادة الرسالة إلى الرومانيّين، هذا السِّفر الذي كان بالغ الحسم بالنسبة إلى مارتن لوتر؛ فقد كتب يقول، عام 1522: "هذه الرسالة هي حقاً رائعة أسفار العهد الجديد، وهي زبدة الإنجيل".

وفي خطى رسول الأمم، يسعُنا أن ندرك أننا – كلّنا – بحاجة إلى اهتداء:

"لا نريد أن يحاكم بعضنا بعضاً" (روما 2: 23).

على العكس من ذلك، نريد أن نعترف معاً بخطيئتنا. »

(البابا يوحنا بولس الثاني في لقاء مع الكنيسة اللوترية في ألمانيا، في 1980/11/17 - ص 182)

(16) التوبة بشأن الانشقاقات الكنسية الحديثة في الشرق

قصة هذه الانشقاقات طويلة ومؤلمة. وليس في نيّتي التصدّي لها. حسبي الإشارة إليها بإيجاز كبير.

من المعروف أن ملك فرنسا، فرنسوا الأول، استطاع أن يبرم مع الباب العالي في اسطنبول، عام 1535، معاهدة مُنِح بها حقّ حماية المسيحيين العائشين في الدولة العثمانية، وحقّ إرسال رهبان كاثوليك يرعون شؤونهم الروحية. فقَدِم رهبان غربيّون، من كبوشيين وفرنسيسكانيين ويسوعيين. ونشطوا في أوساط الجماعات المسيحية العربية في بلاد الشام، حتى إنهم أسّسوا فيها جمعيّات خيريّة، وأخويّات تقويّة، انتهى بها الأمر، بمرور الزمن، إلى أن أصبحت كل منها تقريباً، في كنائسها الأرثوذكسية المختلفة، نواة ناشطة تدعو... للاتحاد بكنيسة روما! وهكذا نشأت شيئاً فشيئاً، كنائس كاثوليكية، انشقّت من كنائسها الأرثوكسية الأم، وجاء يوم أعلنت فيه، كل منها، اتحادها مع روما...

في عام 1724، كانت لبعض الروم كنيستهم الكاثوليكية...

وفي عام 1740، كانت لبعض الأرمن كنيستهم الكاثوليكية...

وفي عام 1742، كانت لبعض الأقباط كنيستهم الكاثوليكية...

وفي عام 1781، كانت لبعض السريان كنيستهم الكاثوليكية...

وفي عام 1830، كانت لبعض النسطوريين كنيستهم الكاثوليكية الكلدانية

وفي عام 1961، كانت لبعض الأحباش كنيستهم الكاثوليكية.

والمعروف أيضاً أن انجلترا وروسيا، سارعتا، إثر هذه النجاحات "الكنسية"، إلى الاتفاق مع الباب العالي، بذريعة حماية مؤمنيهما... فكان لروسيا بدورها حق حماية المسيحيين الأرثوذكس، كما أن لانجلترا حقّ إرسال "مبشّرين" استطاعوا بدورهم أن يكوّنوا جماعات خاصة بهم، وأن يُنشئوا مؤسّسات تربوية وثقافية، امتدّ تأثيرها إلى جميع قطاعات الحياة الفكرية والعلمية والدينية والسياسية، في طول الشرق العربي وعرضه!

المنعطف الكبير... الذي لم يكتمل!

ارتبط هذا المنعطف بالمجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965).

ولقد تجلى في وجهين.

الأول منهما صدر عن المجمع الفاتيكاني، وخلاله، تحت عنوان: "بيان في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية". وكان يشكل حقاً تحولاً جذرياً في علاقة المسيحية بجميع الأديان، ولا سيما بالإسلام.

كُتِب وسيُكتَب الكثير بهذا الشأن. ولكني هنا سأكتفي بإيراد فقرات كاشفة من البيان الرسمي، الذي صدر عن المجمع بتاريخ 1965/10/28، وحدد، للمرة الأولى، طبيعة العلاقات بين المسيحية والإسلام.

جاء فيه بالحرف الواحد، في الفقرة (3):

« وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيّوم، الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلّم لله إبراهيم، الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرّمونه نبياً، ويكرّمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين، الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يُبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم، خصوصاً.

ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرّضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعزّزوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية. »

ليس من يجهل أن هذا البيان قد أسّس لروح جديدة، بعثت الكثير من المبادرات الإيجابية والفاعلة، على صعيد العلاقات بين المسيحية والإسلام. فأنشئت في الفاتيكان هيئة خاصة باسم أمانة السر للعلاقات مع الإسلام. كما أنشئت في بعض الكنائس الأوروبية ما يشبه أمانة سر محلية، تعنى بالعلاقات بين المسيحيين والمسلمين. وعقدت مؤتمرات كنسية، محلية ودولية، تناولت شؤون هذه العلاقات، في ماضيها وحاضرها، وما يرجى لها من مستقبل. وأُحدِثت كراسي في جامعات كثيرة عبر العالم، لتدريس الإسلام. وكثرت الأبحاث والدراسات حول الإسلام خصوصاً، والعلاقات الإسلامية والمسيحية عموماً. وقد ترافق كل ذلك بتبادل الزيارات بين شخصيات تمثل المراجع العليا في هذه الهيئات الدينية، كما بين الفاتيكان والأزهر.

وكان أن خطت الكنيسة الكاثوليكية، في شخص البابا يوحنا بولس الثاني، خطوة جديدة وجريئة بشأن الإسلام، انبثقت أصلاً من تصميم البابا الشخصي، مع العديد من مسؤولي الكنيسة الكاثوليكية، على عملية مراجعة شاملة لعلاقاتها الماضية كلها، ولا سيما مع الإسلام. وقد شكل كل ذلك جزءاً هاماً من كتاب خطير، ذي عنوان صادم، هو "عندما يطلب البابا الغفران"، سبق وأشرت إليه مطولاً في فقرة سابقة من هذا البحث.

كان يفترض في جميع هذه التوجهات الجديدة، والجهود الحثيثة، أن تفضي إلى ترطيب الأجواء، وتنقية القلوب والعقول، على جميع الأصعدة، لا في الشرق والغرب وحسب، بل في العالم كله، وإلى طي صفحات الماضي، بكل ما تخللها من اتهامات متبادلة، قاطعة، وصدامات دامية، وأحقاد

متجذرة، من أجل البدء بكتابة تاريخ جديد لعلاقات متبادلة، طيبة، بناءة، بل إنسانية.

إلا أن العكس هو الذي حدث ويحدث، ولا سيما منذ شهر أيلول من عام 2001. وإذ بالشرق العربي كله يزداد غرقاً في جحيم حروب متواصلة، فيما العالم الغربي كله يؤخذ بحمّى التآمر الدائم والمفضوح على كل ما هو مسلم، فتستعر الأحقاد المتبادلة والدفينة، وينطلق إرهاب عالمي ومحلي في آن واحد، يفضي في بعض البلدان العربية، ولا سيما في سورية والعراق، إلى اقتلاع حضارات هي الأولى في تاريخ البشر، وإلى إبادات منتظمة للملايين من الناس، وإلى تشريد ملايين أخرى، وإلى تدمير مجتمعات برمتها، في تخطيط معلن، وتصميم فاجر، وبرود صقيعي، تشرف على تنفيذه في ازدواجية مكشوفة، مؤسسات دولية، مثل هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومجلس حقوق الإنسان - التي وجدت أصلاً لضمان السلام ورعاية العدالة في الأرض كلها! - تحت شعارات طنانة، ليست سوى الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان!

ويؤسفني أن أقول، أنا الكاهن العربي الكاثوليكي، إن جميع مبادرات الكنيسة الكاثوليكية، الصادرة بصورة خاصة عن الفاتيكان، إزاء هذا الواقع الجديد والمفجع، من تاريخ العالم، ولا سيما إزاء ما يحلّ بالعالم العربي والإسلامي، لم تتجاوز حدود الدعوات إلى الصلاة من أجل السلام، والتمنيات الفارغة والنافلة، تُرفع إلى دول "كبرى"، ليس من يجهل أنها هي التي خلقت هذا الإرهاب "الإسلامي"، وهي التي تستخدمه وتوجهه وتسلّحه وتحميه وتموّله، بقصد إحداث "الفوضى الخلاقة"، التي يراد لها في نهاية المطاف، أن تقضي على الإسلام ومجتمعاته كلها، بيد المسلمين أنفسهم، وعلى هذا النحو الجهنمي!

ولئن كان لجماهير المسلمين عموماً، في تخلفها وجهلها المزمنين من

جهة، وفي افتقارها إلى قادة، سياسيين وحزبيين، مؤمنين وصادقين من جهة ثانية، من أعذار حقيقية لانجرافها في مثل هذه الحروب الذاتية، المفجعة، فما هو يا ترى، عذر الكنيسة الكاثوليكية في الغرب أولاً، ثم في الشرق العربي، وجميع مسؤوليها دون استثناء، "مؤمنين" ومثقفين، في الامتناع التام حتى اللحظة، عن التنديد الصريح والجريء والدائم، بدول "كبرى"، بات همها الوحيد، الاستمرار في الهيمنة المطلقة على الأرض كلها، على حساب كوكب الأرض وطبيعته، وعلى حساب معظم دول الأرض، وشعوبها، وكرامة كل إنسان فيها؟

إن في ذلك لتواطؤاً صريحاً يتناقض تناقضاً مطلقاً مع تعاليم السيد المسيح أولاً، وما حمله للإنسان في كل زمان ومكان، من قيمة ذاتية مطلقة، وكرامة لا تعلو عليها إلا كرامة الله، كما أنه يتناقض ثانياً تناقضاً كلياً، مع بيان المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي لما يمضِ على صدوره أكثر من خمسين عاماً!

وإنه ليتناقض أيضاً... ثالثاً، مع الوجه الثاني لما أسميته المنعطف الكبير، الذي خصصت به هذا الفصل، وهو الوجه الذي سأتصدى له الآن.

هذا الوجه رسم ملامحه سبعة عشر أسقفاً كاثوليكياً، شاركوا في المجمع الفاتيكاني الثاني، وأصدروه بياناً مُدوّياً، بعد انتهاء المجمع بسنتين فقط، وذلك بتاريخ 1967/8/15. وقد وقّع عليه الأساقفة جميعاً، منهم ثمانية من البرازيل، واحد من الجزائر، واحد من أوقيانيا، واحد من مصر، واحد من كولومبيا، واحد من يوغسلافيا، واحد من لبنان، واحد من الصين، واحد من اللاوس، وواحد من أندونيسيا. وكان من أشهر الموقعين، المطران هلدر كامرا من البرازيل، والمطران غريغوار حداد من لبنان.

وبقدر ما يسعدني أن أقول إن هذا البيان جاء في منطق السيد المسيح أولاً، وفي امتداد تطلعات المجمع الفاتيكاني الثاني ثانياً، بشأن التشديد على كرامة الإنسان، ولا سيما الإنسان العامل والفلاح، وبشأن العدالة

الاجتماعية، حتى ضرورة توزيع الثروات داخل المجتمعات وبين الدول كلها، بحيث لا يبقى فقر مدقع، ولا غنى فاحش، على صعيد الأفراد والدول على السواء، بالقدر ذاته، يؤلمني أن أقول إن الأسقف الوحيد الذي ظل في حدود علمي، وفياً لما جاء في هذا البيان، والذي حاول بكل صدق وجرأة أن يعيشه في ذاته أولاً، ثم ضمن كنيسته ثانياً، كان مطران بيروت الأسبق، غريغوار حداد.

ثمة أسقف آخر يدعى "هلدر كامرا"، كان يُنظَر إليه في وطنه البرازيل أولاً، ثم في جنوب القارة الأميركية كلها، وأخيراً على نطاق العالم، على أنه الرائد الكنسي الأكبر للعدالة الإنسانية. ولذا جاء اسمه في رأس قائمة الموقعين على هذا البيان الشهير. ولقد كان حقاً كذلك في جميع الميادين، إلا في ميدان... الصراع العربي الإسرائيلي، هذا الصراع الذي كان وظل يغيب كلياً عن مواقفه وكتاباته، حتى طوال اعتقال مطران القدس العربي، إيلاريون كبوشي، وبعد إطلاق سبيله، وحتى وفاته عام (1999).

حسبي الآن أن أورد هذا البيان بحرفيته، فهو لا يحتاج إلى أي تعليق، وهو يتحدث عن نفسه، وعما يجب أن تكون عليه مسؤوليات من يمثّلون السيد المسيح في كنيسته. ولقد ترجمته عن الفرنسية بكل أمانة.

"الخروج من بابل"

رسالة بعض أساقفة من العالم الثالث

تلك هي أسماء الموقعين:

- **هلدر كامرا، رئيس أساقفة "ريسيفيه - نورديستيه - البرازيل**

Helder CAMARA, archevêque de Récife-Nordeste, Brésil

- **جان- باتسيت داموتا ايه البكركيه، رئيس أساقفة فيتوريا - البرازيل**

Jean-Baptiste DA MOTA e ALBUQUERQUE, archevêque de Vitoria, Brésil

- **لويس كونزاغا فرنانديز، معاون رئيس أساقفة فيتوريا - البرازيل**

Luis GONZAGA FERNANDES, auxiliare de Vitoria, Brésil

- **جورج مرسييه، أسقف لاغوات، الصحراء الكبرى - الجزائر**

Georges MERCIER, évêque de Laghouat, Sahara, Algérie

- **ميشل دارمانسييه، أسقف واليس وفوتونا - أوقيانيا**

Michel DARMANCIER, évêque de Wallis et Futuna, Océanie

- **أمان هوبير، مندوب رسولي في هيليو بوليس - مصر**

Amand HUBERT, vicaire apostolique d'Héliopolis, Egypte - R.A.U

- **انجيل كونيبرتي، مندوب رسولي في فلورنسيا - كولومبيا**

Angel CUNIBERTI, vicaire apostolique de Florencia, Colombie

- **سيفيرينو ماريانو ديه آغويار، أسقف باسكويرا، برنامبوكو - البرازيل**

Severino Mariano de AGUIAR, évêque de Pasqueira, Pernambuco, Brésil

- **فرانك فرانيش، أسقف سبليت - يوغسلافيا**

Frank FRANIC, évêque de Split, Yougoslavie

- **فرانشيسكو اوستريجيزيلو ديه ميسكيتا، أسقف أفوغادوس ديه انغازيرا، البرازيل**

Francisco AUSTREGESILO DE MESQUITA, évêque de Afogados de Ingazeira, Brésil

- **غريغوار حداد، أسقف ملكي معاون في بيروت - لبنان**

Grégoire HADDAD, évêque Melchite auxiliaire de Beyrouth, Liban

- **مانويل بيريرا داكوستا، أسقف كمبينا غرانديه، باراييبا - البرازيل**

Manuel PEREIRA de COSTA, évêque de Campina Grande, Paraïba, Brésil

- **كارلو فان ملكيبيكيه، أسقف نينغ هسيا - الصين**

Carlo VAN MELCKEBEKE, évêque de Ning Hsia, Chine

- **أنطونيو باتيستا فراغوزو، أسقف كراتيوس- شيارا البرازيل**

Antonio Batista FRAGOSO, évêque de Crateüs, Ceara, Brésil

- **ايتيين لوسدريغت، أسقف فيينتيان - لاوس**

Eienne LOOSDREGT, évêque deVientiane, Laos

- **جاك غرينت، أسقف طوال- مالوكو - أندونيسيا**

Jacques GRENT, évêque de Tual, Maluku, Indonésie

- **دافيد بيكاو، أسقف سانتوس - البرازيل**

David PICAO, évêque de Santos, Brésil

نص الرسالة الكامل

« أمام الحركات العميقة التي تستنهض اليوم جماهير العمال والفلاحين في العالم الثالث[1]، وجّه بعض الأساقفة، رعاة هذه الشعوب، بتاريخ 1967/8/15، إلى كهنتهم، ومؤمنيهم، وإلى جميع الناس ذوي الإرادة الطيبة، هذه الرسالة.

هذه الرسالة تأتي بمثابة امتداد وتطبيق للبراءة البابوية حول "تقدم الشعوب".

ما بين كولومبيا والبرازيل، وأوقيانيا والصين، مروراً بالصحراء الكبرى، ويوغسلافيا والشرق الأوسط، فإن نور الإنجيل يسلّط الضوء على القضايا ذاتها تقريباً، التي تطرح نفسها في كل مكان.

في الوقت الذي تعي فيه الشعوب والأعراق الفقيرة ذاتها، والاستغلال الذي لا يزال يمارس عليها، فإن هذه الرسالة، التي نُشِر نصّها حديثاً، ستشد أزر جميع الذين يتألمون ويناضلون في سبيل العدالة، التي هي الشرط الذي لا مفر منه من أجل تحقيق السلام.

1) نحن أساقفة بعض الشعوب التي تعاني وتناضل من أجل تطورها، نضم صوتنا إلى النداء القلق الذي وجّهه البابا بولس السادس في براءته "تَقَدّم الشعوب"، كي نحدّد لكهنتنا ومؤمنينا، واجباتهم، ونخص جميع إخوتنا في العالم الثالث، ببعض كلمات تشجيع منا.

---

1) تطلق عادة تسمية "العالم الثالث" على مجموع البلدان "الساعية إلى التطور"، التي يرهقها وضع متخلف على الأصعدة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والصناعية، والثقافية. هذه البلدان يتنامى وعيها لتضامنها يوماً بعد يوم: فهي تضم "شعوب باندونغ"، الذين اجتمعوا في مدينة الجزائر في شهر تشرين الأول (اكتوبر) الماضي، ليتدارسوا قضاياهم المشتركة.

2) إن كنائسنا، بحكم وجودها في هذا العالم الثالث، تجد نفسها منجرّة إلى الصراع الذي يتجابه فيه اليوم، لا الشرق والغرب فحسب، بل أيضاً كتل الشعوب الثلاث الكبرى: القوى الغربية التي اغتنت في القرن الماضي، البَلَدان الشيوعيان الكبيران، اللذان تحوّلا بدورهما إلى قوتين كبريين، وأخيراً هذا العالم الثالث الذي لا يزال يسعى إلى الإفلات من هيمنة الكبار، كي يتطور في حرية. وداخل الأمم التي حققت تطورها، تقوم طبقات اجتماعية، وأعراق أو شعوب، لم تنتزع حقها في حياة إنسانية حقاً. فإن اندفاعة لا تقاوم تعتمل في هذه الشعوب الفقيرة، من أجل تقدمها، وذلك بتحررها من جميع القوى القامعة. فلئن كان معظم الأمم قد نجحوا في انتزاع حريتهم السياسية، إلا أن القلة منهم حققت حريتها الاقتصادية. ونادرة هي أيضاً الأمم التي تسودها المساواة الاجتماعية، هذه المساواة التي هي الشرط اللازم لتحقيق أخوّة حقيقية، لأن السلام لا يمكنه أن يقوم دون عدالة. فإن شعوب العالم الثالث تشكل بروليتاريا الإنسانية الراهنة، التي يستغلها الكبار، والتي تهدَّد في وجودها بالذات، من قبل من يدّعون وحدهم، لأنهم الأقوى، امتلاك الحق في أن يكونوا قُضاةً وشُرطةً على الشعوب الأفقر منهم مادياً. والحال أن شعوبنا ليسوا دون "كبار" هذا العالم، حكمة واستقامة.

I– الحرية حيال أنظمة سياسية، اقتصادية واجتماعية

3) خلال التطور الراهن للعالم، حدثت ثورات أو هي تحدث، وليس فيها ما هو مفاجئ. فإن جميع السلطات القائمة الآن، قد نشأت، منذ فترة قريبة أو بعيدة، بفعل ثورة، أي بفعل قطيعة مع نظام لم يعد يضمن الخير العام، وذلك في مسعى لإنشاء نظام جديد مؤهل أكثر لضمانه. فجميع الثورات ليست بالضرورة صالحة. فمن الثورات ما لم يكن سوى استبدال لسلطات، أفضى إلى تبدلات في أشكال قمع الشعب. ومنها ما يولّد من الشر، أكثر مما يولّد من الخير، "فيسبّب مظالم جديدة..." (براءة "تقدم الشعوب"). إن الإلحاد والجماعية (Collectivisme)، اللذين ترى بعض الحركات الاجتماعية ضرورة الارتباط بهما،

يشكلان أخطاراً فادحة للبشرية. ولكن التاريخ يظهر أن بعض الثورات كانت ضرورية، وقد تحررت من عدائها المؤقت للدين، فأتت بثمار طيبة. وليس ثمة من يعترض على الثورة التي قامت في فرنسا عام 1789، والتي أتاحت الإقرار بحقوق الإنسان (راجع براءة البابا يوحنا الثالث والعشرين، "سلام على الأرض"، الأرقام 11–27). فإن العديد من أممنا اضطرت أو هي مضطرة الآن، لإحداث هذه التحولات العميقة. فما الذي يتوجب على المسيحيين والكنائس اتخاذه من مواقف إزاء هذا الوضع؟ إن البابا بولس السادس قد أنار لنا الطريق في هذا الشأن، في براءته حول تقدم الشعوب ("تقدم الشعوب"، الفقرات 30–32).

4) من وجهة النظر العقائدية، تعرف الكنيسة أن الإنجيل يفرض الثورة الأولى والجذرية، المسماة "اهتداء"، أي الانتقال الكلي من الخطيئة إلى النعمة، من الأنانية إلى الحب، من الكبرياء إلى الخدمة المتضعة. وإن هذا الاهتداء ليس داخلياً وروحياً فحسب، بل هو يستهدف الإنسان كله، جسدياً واجتماعياً، وفي الوقت نفسه، روحياً وشخصياً. وهو يكتسب وجهاً جماعياً، ينطوي على نتائج ثقيلة على صعيد المجتمع كله، ليس فقط في ما يتعلق بحياة الإنسان على الأرض، ولكن خصوصاً بالحياة الأبدية مع المسيح، الذي يشدّ بصليبه البشرية جمعاء إليه. ذلك هو في نظر المسيحي التفتح الكلي للإنسان. ولذلك كان الإنجيل دائماً، على نحو منظور أو خفي، داخل الكنيسة أو خارجها، المحرّض الأعظم للتبدلات العميقة التي طرأت على البشرية منذ عشرين قرناً.

5) إلا أن الكنيسة، خلال مسيرتها التاريخية على الأرض، ترتبط عملياً على نحو دائم، بالنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الذي يضمن، في هذه أو تلك من فترات التاريخ، الخير العام، أو على الأقل نظاماً اجتماعياً ما. بل يحدث أن تكون الكنائس على درجة من الارتباط بهذا النظام أو ذاك، بحيث يبدوان متداخلين، منصهرين في جسد واحد، كما في زواج. ولكن الكنيسة ليس لها سوى عريس واحد، هو المسيح. فهي غير مرتبطة بأي نظام، أياً كان، ولا سيما "يامبريالية المال

الدولية" (براءة "تقدم الشعوب")، كما أنها لم تكن يوماً مرتبطة بالنظام الملكي، أو بالنظام الإقطاعي القديم، ولن تكون مرتبطة غداً بهذه الاشتراكية أو تلك. فحسبنا التحديق في التاريخ، لنلحظ أن الكنيسة استمرت بعد انهيار الأنظمة التي ظنّت في وقت ما أنه يتوجب عليها أن تحميها، أو أنها تستطيع أن تستغلها. واليوم فإن التعليم الاجتماعي للكنيسة، كما أبرزه المجمع الفاتيكاني الثاني، يحررها من إمبريالية المال تلك، التي تشكل اليوم إحدى القوى التي كانت، لفترة ما، قد ارتبطت بها.

6) بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، ارتفعت أصوات قوية تطالب بوضع حد لهذا التواطؤ المؤقت بين الكنيسة والمال، والذي يستنكره الكثيرون هنا وهناك. ولقد كان بعض الأساقفة رواداً في هذا الشأن[1]. وإنه ليتوجب علينا نحن أيضاً أن نجري فحص ضمير جاداً، حول موقفنا من هذا الأمر، لنحرر كنائسنا من كل تبعية حيال القوى المالية العالمية! "لا يستطيع أحد أن يعبد الله والمال!".

7) إزاء التطور الحالي للإمبريالية المالية، يتوجب علينا أن نتوجّه لمؤمنينا، وأن نردد لذواتنا، الإنذار الذي وجهه لمسيحيي روما، الرسول يوحنا في منفاه في جزيرة بتموس، أمام الانهيار الوشيك لهذه المدينة الكبيرة الغارقة في دعارة الغنى الفاحش، بفعل استبدادها بالشعوب وتجارة العبيد: "اخرجوا منها، يا شعبي، لئلا تشاركوا في خطاياها، فتصيبكم نكبة من نكباتها".

8) إن الكنيسة، في ما هو جوهري وثابت فيها، أي من حيث أمانتها للمسيح في الإنجيل، وشركتها معه، لا يمكنها قط التضامن مع أي نظام سياسي، اقتصادي واجتماعي. فما إن يكف نظام ما عن توفير الخير العام، بسبب مصلحة بعض الناس، حتى يتوجب عليها، لا أن تندّد بالظلم وحسب، بل أيضاً أن تتبرّأ من النظام الظالم، وتستعدّ للتعاون مع نظام آخر، يتلاءم على نحو أفضل مع الحاجات القائمة، ويمتاز بمزيد من العدالة.

---

1) ذكرت براءة البابا بولس السادس، "تقدم الشعوب"، مثالاً على ذلك، أسقف "تلكا" (Talca) في التشيلي، المرحوم "مانويل لارين" (Manuel Larrin).

II– الأمانة للشعب

9) إن ذلك يصلح للمسيحيين، كما هو يصلح لمسؤوليهم الكنسيين وللكنائس. "ليس لنا ههنا مدن باقيات، لأن رأسنا المسيح اراد أن يتألم خارج المدينة" (الرسالة إلى العبرانيين 12/13–14). حتى لو لم نستطع أن نفعل ذلك بملء حريتنا وبدافع الحب، فلنتعلم أقله أن نرى يد الله الذي يودّبنا كأبناء، في الأحداث التي تضطرنا لمثل هذه التضحية (عبرانيين 5/12).

10) إننا لا ندين ولا نشجب أحداً ممن ظنّوا، أو يظنون أمام الله، أنه يتوجب عليهم الهجرة، لينقذوا إيمانهم أو إيمان أولادهم. إن الوحيدين الذين يجب أن يدانوا بحزم، هم أولئك الذين يَطْرُدون الشعوب، أو يظلمونهم مادياً أو روحياً، أو يغتصبون أراضيهم.

على المسيحيين وعلى رعاتهم أن يحرصوا على البقاء وسط الشعب، فوق الأرض التي هي أرضهم. والتاريخ يظهر أنه قلما يوفّق على المدى البعيد، الشعب الذي يهاجر بعيداً عن أرضه، ويهرب إلى سواها. إنه يتوجب عليه إما أن يدافع عن أرضه ضد غريب ظالم ومعتدٍ، وإما أن يسلّم بتغييرات في النظام القائم في بلده. وإنها لخطيئة يرتكبها المسيحيون، إذا هم تخلوا عن بلادهم وشعبهم في وقت الشدة، لا سيما إذا كان هؤلاء المسيحيون أغنياء، لا يبغون الهرب في الحقيقة إلا لإنقاذ ثروتهم وامتيازاتهم. صحيح أن عائلة ما أو شخصاً ما، قد يضطر للهجرة بحثاً عن عمل ينسجم مع قانون الهجرة (راجع براءة "سلام على الأرض"). ولكن الهجرات الكثيفة للمسيحيين، من شأنها أن تحدث أوضاعاً مؤسفة. فالمسيحيون مدعوون من قبل الله لتحقيق حياتهم في أرضهم ووسط شعبهم، تضامناً منهم مع إخوتهم أياً كان دينهم، كي يكونوا فيما بينهم، شهوداً لمحبة المسيح للجميع.

11) أما نحن، كهنة وأساقفة، فيتحتم علينا واجب أكثر إلحاحاً، للبقاء في

أماكننا، لأننا نواب المسيح الراعي الصالح، الذي ظل وسط قطيعه، مستعداً لبذل حياته من أجله (يوحنا 11/10-18)، بدل أن يهرب، لحظة الخطر، كالأجراء. وإذا ما قال يسوع لتلاميذه أن ينتقلوا من مدينة لمدينة، فإنما ذلك فقط في حال حدوث اضطهاد شخصي بسبب الإيمان (متى 23/10). وهذا أمر يختلف عن حال حرب أو ثورة تطال شعباً برمته، ويتوجب على راعيه أن يشعر بتضامنه معه. فعلى الراعي أن يظل وسط شعبه. وإذا ما قرر الشعب كله الرحيل، يتوجب على الراعي أن يرافقه. ولكنه لا يحق له أن يخلّص نفسه بمفرده، أو برفقة قلة من المستفيدين أو الجبناء.

12) أكثر من ذلك، يتوجب على المسيحيين ورعاتهم أن يتقنوا اكتشاف يد الله الكلي القدرة في أحداث تحطّ بين حين وآخر المتجبرين عن عروشهم، وترفع المتواضعين، ترسل الأغنياء خالي الوفاض، وتشبع الجياع. اليوم "يطالب العالم بإصرار وجرأة، بالاعتراف بكرامة الإنسان كاملة، وبالمساواة الاجتماعية لجميع الطبقات"[1]. وإن المسيحيين وجميع الناس ذوي الإرادة الطيبة، لا يسعهم إلا التضامن مع هذه الحركة، حتى لو اضطروا للتخلي عن امتيازاتهم وثرواتهم الشخصية، لصالح المجتمع البشري، في حال الأخذ باشتراكية أوسع. فالكنيسة ليست البتة حارسة للملكيات الشاسعة. وهي تطلب مع البابا يوحنا الثالث والعشرين أن تنتشر الملكية للجميع، لأن الملكية أولاً غاية اجتماعية[2]. ولقد ذكّرنا البابا بولس السادس، منذ فترة، بكلمة القديس يوحنا: "من كانت له خيرات الدنيا، ورأى بأخيه حاجة، فأغلق أحشاءه دون أخيه، فكيف تقيم فيه محبة الله؟". (1 يوحنا 17/3)، وكذلك بكلمة القديس امبروسيوس: "لقد أعطيت الأرض للجميع، لا للأغنياء وحدهم" (براءة البابا بولس السادس "تقدم الشعوب" رقم 23).

1) البطريرك مكسيموس الرابع، يوم 1964/10/27، خلال المجمع الفاتيكاني الثاني.

2) راجع براءة البابا يوحنا الثالث والعشرين، "أم ومعلمة" (الأرقام 389-391).

13) إن جميع آباء الكنيسة القدامى، الشرقيين والغربيين على السواء، يذكّرون بالإنجيل: « شارك إخوتك في حصادك. اقتسم هذه الغلال التي ستتلف غداً. يا له من بخل فظيع الذي يدع كل شيء للعفن، بدل أن يترك حصة منه للمعوزين. يقول البخيل: "لمن أسيء، إن كنت أحتفظ بما يعود إلي؟". ولكن قل لي: ما هي الخيرات التي تملكها؟ من أين جلبتها؟ أنت تشبه إنساناً يتخذ مكاناً في المسرح، ويريد أن يحرم الآخرين من الدخول، كي يتمتع وحده بالمشهد الذي هو من حق الجميع. ذلكم هم الأغنياء: إن الخيرات العامة التي احتكروها، يعلنون أنهم سادتها، لأنهم كانوا أول المحتلين لها. لو كان كل واحد يحتفظ لذاته فقط بما هو في حاجة إليه، من أجل ضروراته اليومية، ويتخلى عن الفائض للمعوزين، لتلاشت الثروة والفقر معاً... إن الخير الذي تحتفظ به، هو من حق الجائع. والثوب الذي تخفيه في صناديقك، هو من حق العريان. والحذاء الذي يتلف في بيتك، هو من حق الحفاة. والمال الذي تخبئه، هو من حق البائس... وبذلك فأنت تظلم من الناس بقدر ما تستطيع أن تساعدهم. وأنا لا أدين هنا جشعك، بل رفضك المشاركة ». (القديس باسيليوس، عظة 6 ضد الأغنياء).

14) إن الكنيسة، إذ أخذت بعين الاعتبار بعض الضرورات من أجل بعض التطورات المادية، قد تساهلت منذ قرن، مع الرأسمالية في ما يخص الدَين بفائدة قانونية، واستخداماته الأخرى، التي قلما تنسجم مع خلقية الأنبياء والإنجيل. ولكنها لا تستطيع إلا أن تفرح لظهور نظام اجتماعي على مستوى العالم، أدنى ابتعاداً عن هذه الخلقية. وإنه ليعود لمسيحيي المستقبل، وفق دعوة البابا بولس السادس، أن يعيدوا إلى ينابيعها الحقة، وهي مسيحية، هذه التيارات من القيم الأخلاقية، التي هي التضامن والأخوّة. ويتوجب على المسيحيين أن يظهروا "أن الاشتراكية الحقة، إنما هي المسيحية المعاشة دون انتقاص، في اقتسام عادل للممتلكات، وفي المساواة

الأساسية"[1]. وبدل أن نتجاهلها، فلنتعلم الأخذ بها بفرح، كما بشكل من الحياة الاجتماعية، المتلائمة أكثر مع زماننا، والمنسجمة أكثر مع روح الإنجيل.

وهكذا سنجنّب البعض الخلط بين الله والدين مع الإقطاع والرأسمالية والإمبريالية، التي هي في الحقيقة مَن تظلم عالم الفقراء والعمال. إن هذه الأنظمة اللاإنسانية قد ولّدت بدورها أنظمة أخرى، أرادت أن تحرر الشعوب، فظلمت الأشخاص، عندما وقعوا في الاشتراكية الكلية والاضطهاد الديني. ولكن الله والدين الحق، لا علاقة لهما البتة مع مختلف أشكال إله المال الظالم. على العكس من ذلك، فإن الله والدين الحق هما دائماً مع من يسعون إلى إنشاء مجتمع يتسم بمستوى أفضل من العدالة والأخوّة بين أبناء الله، ضمن العائلة البشرية الكبرى.

15) إن الكنيسة تحيّي بفرح واعتزاز إنسانية جديدة لا ينال فيها التكريم، المالُ المتراكم بين أيدي قلة، ولكنْ الكادحون، من عمال وفلاحين. ذلك أن الكنيسة ليست بشيء، من دون ذاك الذي يعطيها دون انقطاع وجودها وعملها، يسوع الناصري، الذي أراد طوال سنوات أن يعمل بيديه ليدلل على الكرامة الفائقة التي للعمال. ولقد ذكّر بذلك أحد الأساقفة في المجمع الفاتيكاني الثاني، يوم قال: "إن العامل يفوق المال بما لا يقاس"[2]. ولقد صرّح أيضاً أسقف آخر، قادم من بلد اشتراكي: "إن لم يستطع العمال أن يكونوا على نحو ما، مالكين لعملهم، فإن جميع الإصلاحات التنظيمية تظل غير فاعلة. وحتى لو تلقى العمال أحياناً راتباً أوفر في بعض الأنظمة الاقتصادية، فإنهم لن يرتاحوا لهذه الزيادات في الأجور. في الحقيقة، هم يريدون أن يتملكوا عملهم، لا أن يبيعوه. اليوم، يزداد العمال وعياً في أن العمل يشكل جزءاً لا يتجزأ من الشخص البشري. ولكن الشخص البشري لا يسعه أن يُباع، ولا أن يبيع ذاته. فإن كل بيع أو شراء لعمل، إنما هو نوع من الاستعباد...

---

1) مداخلة المطران جورج حكيم، في المجمع الفاتيكاني الثاني 1964/11/10.

2) البطريرك مكسيموس الرابع، 1965/9/28.

"إن تطور المجتمع الإنساني يتقدم في هذا الاتجاه، وذلك يصح حتى في ذاك النظام الذي يقال إنه لا يتحسس مثلنا كرامة الشخص البشري، أي النظام الماركسي" (المطران فرانيش من يوغسلافيا، في 1965/10/4).

16) هذا يعني أن الكنيسة تبتهج إذ ترى أشكالاً من الحياة الاجتماعية، تنمو، حيث يحتل العمل مكانه الحقيقي، الذي هو المكان الأول. لقد أخطأنا، كما اعترف بذلك رئيس الكهنة "بوروفوي" (Borovoï) في مجلس الكنائس العالمي، إذ إننا انسجمنا مع مبادئ قانونية وثنية ورثناها من روما القديمة، ولكن في هذا المجال، للأسف، لم تكن خطيئة الغرب دون خطيئة الشرق.

« في مجمل الحضارات المسيحية، فإن الحضارة البيزنطية كانت أكثر من ساهم ببساطة في تقديس الشر الاجتماعي. فقد تبنّت دون اعتراض جميع التراث الاجتماعي الخاص بالعالم الوثني، ومنحته المسحة المقدسة. فإن القانون المدني الذي أخذت به الإمبراطورية الرومانية الوثنية، احتفظ به تحت غطاء التقليد الكنسي، طوال أكثر من ألف عام في بيزنطة، وفي أوروبا القرون الوسطى، وطوال قرون في روسيا، بدءاً من القرن السادس عشر، عندما أخذ بلدنا يعتبر نفسه وريث بيزنطة. ولكن ذلك على طرفي نقيض مع التقليد الاجتماعي للمسيحية الأولى، ولآباء الكنيسة اليونان، ومع بشارة مخلصنا، ومع كل مضمون تعليم الأنبياء في العهد القديم، وهذه كلها لن تهرم أبداً. » (1966/7/12)

III– أمانة لكلمة الله

17) لا يبحثنّ أحد في أقوالنا عن توجه سياسي ما. إن مصدرنا الوحيد هو كلمة ذاك الذي تكلم بالأنبياء والرسل. إن الكتاب المقدس والإنجيل ينددان بكل مساس بكرامة الإنسان المخلوق على صورة الله، بوصفه خطيئة ضد الله. وفي هذا المطلب من الاحترام للشخص البشري، يتفق اليوم الملحدون ذوو

الإرادة الطيبة والمؤمنون، من أجل خدمة مشتركة للإنسانية، في بحثها عن العدالة والسلام. ولذلك فإنه يسعنا أن نوجّه للجميع، في ثقة، كلمات التشجيع هـذه، لأن الجميع يحتاجون إلى الكثير من الشجاعة والقوة ليحسنوا القيام بهذه المهمة الهائلة والملحة، التي تستطيع وحدها إنقاذ العالم الثالث من البؤس والجوع، وإنقاذ البشرية من كارثة حرب نووية: "لا حرب بعد اليوم! ألقوا أسلحتكم"![1]

18) إن جموع الفقراء، وفقراء الشعوب، الذين أقامتنا في وسطهم يد الخالق الرحيم، بوصفنا رعاة لقطيع صغير، يعرفون بالخبرة أنه يتوجب عليهم ان يعتمدوا على أنفسهم وعلى قواهم الذاتية، أكثر من اعتمادهم على دعم الأغنياء. صحيح أن بعض الأمم الغنية أو بعض أغنياء الأمم، يقدمون مساعدات لا بأس بها لشعوبنا، ولكنه من الوهم الصرف توقع الاهتداء الحر لجميع الذين حذّرنا أبونا إبراهيم بشأنهم: "لن يستمعوا، حتى لو قام واحد من الأموات" (لوقا **31/16**)

إنه يعود أولاً لجماهير الفقراء، ولفقراء الشعوب أن يحققوا بأنفسهم تقدمهم الذاتي. وليَستعيدوا الثقة بأنفسهم، ليتعلموا ويتحرروا من الأمية، وليعملوا بتصميم على بناء مصيرهم، وليُثقّفوا أنفسهم باستخدامهم جميع الوسائل التي يضعها المجتمع الحديث في تصرفهم، من مدارس وترانزيستور، وصحف، وليُصغوا لمن يستطيعون أن يوقظوا ضمير الجماهير ويكوّنوه، وخصوصاً لكلام رعاتهم الروحيين. وعلى هؤلاء أن ينشروا فيهم كلمة الحقيقة وإنجيل العدالة. وليتفهم المناضلون العلمانيون في الحركات الرسولية، تحريض البابا بولس السادس، ويترجموه في الواقع العملي.

«... يعود للعلمانيين، بمبادراتهم الحرة، ودون انتظار سلبي للأوامر والتوجيهات، أن ينفثوا روح المسيحية في العقليات والعادات، في القوانين، وفي

1) البابا بولس السادس في هيئة الامم المتحدة

بنى جماعاتهم الحياتية. ثمة تغييرات باتت ضرورية، وإصلاحات عميقة لا بد منها: يتوجب عليهم أن يسعوا بتصميم على بث روح الإنجيل فيهـا...» ("تقدم الشعوب" رقم **81**). أخيراً فليتحد الفقراء والعمال، لأن اتحادهم وحده يهب القوة للفقراء، كي يفرضوا العدالة وينجزوها ضمن الحقيقة.

19) إن شعب الله في جوع قبل كل شيء إلى الحقيقة والعدالة، ويترتب على جميع من يتحملون مسؤولية تثقيفه وتربيته، أن يمارسوا ذلك في حماس. ولا بد من تبديد بعض الأخطاء بسرعة: كلا، إن الله لا يريد وجود أغنياء، يستفيدون من خيرات هذا العالم باستغلالهم الفقراء. كلا، إن الله لا يريد وجود فقراء يتلبّسهم البؤس دائماً. فالدِّين ليس بأفيون للشعب. إن الدِّين قوة ترقى بالمتواضعين، وتهبط بالمتكبرين، قوة تعطي الخبز للجياع، وتجوّع المتخمين. صحيح أن يسوع يحذرنا من أنه سيكون هناك أبداً فقراء بيننا (يوحنا 8/12)، ولكن لأنه سيكون هناك دائماً أغنياء يحتكرون خيرات هذه الأرض، وسيكون أيضاً بعض التفاوتات العائدة إلى فوارق في القدرات، وإلى عوامل أخرى لا يمكن تجنبها. ولكن يسوع يعلمنا أن الوصية الثانية معادلة للأولى، لأنه ليس بالإمكان محبة الله دون محبة إخوته البشر. وهو يحذّرنا من أننا كلنا نحن البشر سنحاكَم حسب كلمة واحدة: "كنت جائعاً فأطعمتموني... كنت ذاك الذي كان جائعاً..." (متى 25/31-46). إن جميع الديانات الكبرى، وجميع مدارس الحكمة التي عرفتها البشرية، تتجاوب مع هذا الكلام. من ذلك أن القرآن يعلن الاختبار الأخير الذي سيتعرض له الناس خلال قضاء الله:

« وما أدراك ما العقبة؟ فك رقبة. أو أطعم في يوم ذي مسغبة. يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة، أولئك أصحاب الميمنة. » (سورة 90/11-18)

20) يتوجب علينا أن نقتسم خبزنا وجميع خيراتنا. إن ادّعى بعضهم احتكار ما هو ضروري للآخرين، لأنفسهم وحدهم، فعندها يتوجب على السلطات

العامة أن تفرض الاقتسام الذي يحدث طوعاً. وإن البابا بولس السادس ليذكّر بذلك في براءته الأولى:

« إن المصلحة العامة تقتضي أحياناً انتزاع الملكية، إن كانت بعض الملكيات تسيء إلى الازدهار العام، بسبب سعة مساحاتها، واستثمارها الضعيف أو المَلغي، بسبب البؤس الذي تسبّبه للسكان، والإساءة الضخمة التي تلحقها بمصالح البلد. وإن المجمع الفاتيكاني الثاني، إذ يؤكد ذلك بوضوح، فهو يذكر أيضاً بوضوح مماثل أن العائدات المتوفرة ليست متروكة لمزاجية تصرف الناس، وأن المضاربات الأنانية يجب أن تُستبعد. ولذلك لم يعد يجوز التسليم بأن مواطنين يمتلكون عائدات وافرة، أتتهم من مصادر وفعاليات وطنية، ينقلون قسماً عظيماً منها إلى الخارج، بما يعود عليهم وحدهم بالنفع، دون الاكتراث للأذى الصريح الذي يلحقونه بوطنهم » ("تقدم الشعوب").

ولا يجوز أيضاً التسليم بأن يأتي أغنياء أجانب ليستغلوا شعوبنا الفقيرة، بذريعة ممارسة التجارة أو الصناعة. كما أنه لا يجوز التساهل مع بعض الأثرياء الذين يستغلون شعبهم بالذات. فإن ذلك يثير تطرف القوميات المؤسفة دائماً، والمتعارضة مع تعاون حقيقي بين الشعوب.

21) وما يصح في الأفراد، يصح أيضاً في الشعوب. والمؤسف اليوم، أن ليس ثمة حكومة عالمية حقاً تستطيع أن تفرض العدالة بين الشعوب، وتوزّع الخيرات بالتساوي. فإن النظام الاقتصادي النافذ اليوم، يتيح للدول الغنية أن تزداد غنى، حتى عندما تساعد قليلاً الدول الفقيرة، التي تزداد فقراً بالنسبة ذاتها. فيتوجب على هذه الدول الفقيرة أن تطالب عبر جميع الوسائل المشروعة والمتاحة، بإنشاء نظام عالمي يكون فيه التمثيل متاحاً لجميع الشعوب دون استثناء، ويكون قادراً على المطالبة بتوزيع عادل للخيرات، بَلهَ على فرضه، بوصفه شرطاً لا بد منه للسلام. (راجع "سلام على الأرض"، رقم 137، و"تقدم الشعوب" رقم 78)

22) داخل كل دولة، يتمتّع العمال بحق وواجب الاتحاد في نقابات حقيقية، كي يفرضوا حقوقهم ويدافعوا عنها: من راتب عادل، وعُطَل مدفوعة، وضمان اجتماعي، وتأمينات عائلية، ومشاركة في إدارة الأعمال... ليس بكافٍ أن تَعترف بهذه الحقوق، قوانين على الورق. فهذه القوانين يجب أن تطبق، ويعود للحكومات أن تمارس سلطاتها بهذا الشأن في خدمة العمال والفقراء. وإنه ليتوجب على الحكومات أن تضع حداً للصراع الطبقي هذا، الذي خلافاً لما يُدّعى عادة، كثيراً ما يفجره الأثرياء ويؤججونه ضد العمال، إذ يستغلونهم بأجور منخفضة وظروف عمل لاإنسانية. إنها حرب مدمرة يخوضها المال منذ زمان بعيد، في دهاء، عبر العالم، بإبادة شعوب برمتها. وقد آن الأوان كي تدافع الشعوب الفقيرة بنجاعة عن حقها في الوجود، بدعم وتوجيه من حكوماتها الشرعية. فإن الله، في الحقيقة، قد تجلى لموسى وقال له: "إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الذِي فِي مِصْرَ، وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ بسبب مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُم" (خروج 7/3).

أخيراً فإن يسوع حمل في ذاته البشرية كلها، كي يقودها إلى الحياة الأبدية، التي يُمهّد لها على الأرض بتحقيق العدالة الاجتماعية، التي هي أول أشكال المحبة الأخوية. وعندما يحرر المسيح بقيامته البشرية من الموت، يقود جميع أشكال التحرير البشرية، إلى ملئها الأبدي.

23) ولذا، فإننا نوجه للجميع هذه الكلمة من الإنجيل، التي وجّهها بعضنا[1] في العام الماضي، لشعوبهم التي كان يستبد بهم القلق ذاته، والتي كان يملأها الرجاء ذاته الذي يملأ جميع شعوب العالم الثالث!

« نحرّضكم على البقاء ثابتين وشجعاناً، بوصفكم خميرةً إنجيليةً في عالم العمل، واثقين من كلمة المسيح: "انتصبوا وارفعوا رؤوسَكم، فقد اقترب خلاصُكم » (لوقا 28/21) (انتهى البيان)

[1]) بيان أساقفة شمال شرق البرازيل، ريسيفيه، في 1966/7/14.

الفصل الثامن

يسوع في مواجهة الإلغاء

أعرف أن مثل هذا العنوان من شأنه أن يثير احتجاجات كثيرة، بل شبهات، عربية وغير عربية، أُتّهَمُ فيها باستغلالي للميدان السياسي، بقصد إثارة قضايا دينية صرف، ما من أحد اليوم بحاجة إلى مثلها!

أعلن للتو ابتعادي الكلي عن مثل هذه الفرضيات المغلوطة.

إلا أني أصر على الاحتفاظ بهذا العنوان بالذات، وأستمهل القارئ حتى ينتهي من مطالعة تفاصيل هذا العنوان ومضامينه، ليدرك تماماً أين سأصل به، وأين سألتقي وإياه في مواجهة مشروع يتهدّده ويتهدّد كل إنسان دون استثناء، في طول الوطن العربي وعرضه، بل في العالم كله، بما فيهم أولئك "العرب" المتفانون اليوم في تنفيذ المشروع الصهيوني!

أما ما تشمله هذه الفقرة من الزمن، فقرابة مائة وعشرين عاماً، مطلعها بدأ بالإعلان عن المخطط الصهيوني، ومعظمها انقضى في التنفيذ الميداني، بغية الهيمنة على الشرق كله، هيمنة تلغي في حقيقة الأمر، كل وجود فعلي أو مؤثر لجميع المجتمعات التي كانت قائمة فيه منذ أقدم العصور، بدءاً بالمسيحية منها.

وفي هذه الفقرة، سألتزم النهج عينه، الذي اتّبعته في القسم الثاني من دراستي هذه. وهذا يعني أني سأبرز المحطات الكبرى، دون الغوص في التفاصيل. إلا أني سأعمد، بين هذه المحطة أو تلك، إلى الاستشهاد بوثائق هامة، قد يجهلها بعض القراء، أو حتى... بعض الباحثين!

ثمّة تسع محطات، تحتوي كل منها بضع نقاط، تستند إلى بضع وثائق.

1) المحطة الأولى، المشروع الصهيوني

أضمّنها النقاط التالية:

(1) ظهور كتاب لصحفي يهودي مجري، يدعى "تيودور هرتزل" (1860-1904)، بعنوان "الدولة اليهودية". كان ذلك عام 1894.

(2) انعقاد مؤتمر يهودي في مدينة "بال" بسويسرا، عام 1897، بقصد التأسيس للحركة الصهيونية، سعياً وراء هذه "الدولة"، دون تحديد مكان لها بعد.

(3) تأرجح البحث لدى مسؤولي هذه الحركة وهرتزل، عن "هذه" الأرض، بين "اوغندا" أو "جزيرة مدغشقر" في أفريقيا، أو "الأرجنتين" في أميركا الجنوبية.

(4) مساعي هرتزل، الحثيثة والخائبة، لدى الباب العالي في الآستانة، بدعم من آل روتشيلد، لإقناعه بالموافقة على اختيار فلسطين، "أرضاً" لهذه الدولة.

وثيقة أولى: ولادة الصهيونية

أستمدّها من كتاب "روجيه غارودي"، (إسرائيل القضية)، الصادر في باريس عام 1983، باللغة الفرنسية، من الصفحات (10-12). جاء فيها بالحرف الواحد:

« لم تكن فلسطين بوصلة تيودور هرتزل، لا من قريب، ولا من بعيد.

ولدت الصهيونية السياسية مع "تيودور هرتزل" (1860–1904)، وقد كان صاغ عقيدتها في فيينا، منذ عام 1882، ثم سكبها نظرية عام 1894 في كتابه "الدولة اليهودية"، وبدأ تطبيقها العملي في المؤتمر الصهيوني الأول، في "بال"، عام 1897.

"هذه الصهيونية السياسية، هي وحدها التي نتناولها في دراستنا، من حيث أصولها ونتائجها. ولنحدّدها إذن بدقة منذ المنطلق. بادئ ذي بدء، فإن "تيودور

هرتزل"، خلافاً للصهيونية الدينية، ملحد حتى العظم. بل هو يقاوم بشدة من يحدّدون اليهودية بوصفها ديانة.

"إن "اليهود"، في منظور الصهيونية السياسية، هم قبل كل شيء "شعب". وإن "تيودور هرتزل"، الذي لم يكن اهتمامه الأساسي دينياً، بل سياسياً، يطرح مسألة "الصهيونية"، على نحو جديد كل الجدة:

1) إن اليهود يشكلون في البلدان المختلفة التي يقيمون فيها، "شعباً" واحداً.

2) لقد كانوا كلهم، في كل زمان ومكان، عرضة للاضطهادات.

3) يستحيل انصهارهم في الأمم التي يعيشون فيها.

"وخلص "تيودور هرتزل" إلى النتائج العملية، وإلى الحلول المقترحة لوضع حد لهذا التعارض الدائم والنهائي، كما يرى، على النحو التالي:

1) رفض الانصهار – الذي لم يكن أصلاً متاحاً في دول شرق أوروبا (ولا سيما في الإمبراطورية الروسية)، والذي كان واسع الانتشار في دول غرب أوروبا (ولا سيما فرنسا)

2) إنشاء، لا "موطن" روحي، يكون مركز إشعاع للدين والثقافة اليهوديين، بل "دولة يهودية"، من شأنها أن تستوعب جميع يهود العالم.

3) وعلى هذه الدولة أن تقوم في مكان "شاغر". وكان هذا المفهوم الخاص بالاستعمار السائد آنذاك، يعني أنه لن يُحسب أي حساب في هذا المكان "الشاغر"، للسكان الأصليين. إن هرتزل (وقادة الصهيونية السياسية من بعده) يستندون إلى هذا المفهوم الاستعماري، الذي سيتحكم بمستقبل المشروع الصهيوني، وبدولة إسرائيل الصادرة عنه.

"لم يكن المكان مهماً بالنسبة إلى "تيودور هرتزل"، لأنه كان، كما سنرى، يرى في الأرجنتين، كما في أوغندا، احتمال إنشاء "شركته الاستعمارية".

"وكان هرتزل يفكر أيضاً بفلسطين، مكاناً محتملاً لإنشاء هذه الدولة، سعياً منه لدعم حركته، من خلال استثماره لتقليد ديني لم يكن ليؤمن به. » (انتهى)

وثيقة ثانية: نبوءة مبكرة

أستمدّها من مطلع كتاب لمفكر لبناني يُدعى نجيب عازوري، وهو بعنوان "يقظة الأمة العربية"، الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس، عام 1905.

جاء فيها بالحرف الواحد، وهي أشبه بنبوءة:

« إن ظاهرتين هامتين، متشابهتي الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن، تتّضحان في هذه الآونة، في تركيا الآسيوية، أعني: يقظة الأمة العربية، وجهد اليهود الخفي، لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى. وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع، بين هذين الشعبين اللذين يمثّلان مبدأين متضاربين، يتعلق مصير العالم بأسره...» (انتهى)

2) المحطة الثانية، اختيار فلسطين

أضمّنها النقاط التالية:

(1) تصميم الحركة الصهيونية على اختيار "فلسطين"، أرضاً لهذه "الدولة".

(2) مساعي مختلف الحركات الصهيونية للنجاح في "هذا" الخيار النهائي.

(3) النشاط اليهودي الواسع، داخل جميع الدول الأوروبية، وداخل الولايات المتحدة الأميركية، الذي قامت به جميع هذه الحركات، من أجل احتلال مواقع حساسة في إداراتها وإعلامها، واكتساب صداقات قوية لها، وتوفير الأموال الطائلة لتنفيذها على "الأرض".

(4) التنافس الحاد بين مختلف الحركات الصهيونية، طوال سنوات، وهو يذهب أحياناً إلى حدّ التصفيات الجسدية، ولكنّه لا يحيد عن البوصلة المسمّاة "فلسطين".

وثيقة أولى: جهوزية الحركة الصهيونية...

أستمدّها من كتاب للباحثة الفرنسية "كاترين نيكو" (Catherine Nicaud)، بعنوان "فرنسا والصهيونية"، الصادر في باريس عام 1992، من الصفحتين (51–52)، حيث تؤكد على وجود (130.000) مناضل صهيوني آنذاك، عام 1913؛

جاء فيه بالحرف الواحد:

« إن اندلاع الحرب في أوروبا في شهر آب من عام 1914، وتدخل الإمبراطورية العثمانية مع القوى المركزية في شهر تشرين الأول، قَلَبا في الحقيقة جميع المعطيات. فالفرنسيون والصهيونيون كانوا مأخوذين بهموم أخطر بكثير من علاقاتهم المتبادلة. وكان الفرنسيون، وقد فوجئوا باستراتيجية الألمان، على شفير الهاوية. وفي هذه الظروف، لم يكن ثمة مجال لتحديد أهداف الحرب، ولا بأولى حجّة الأهداف الاستعمارية للحرب. وكانت الحركة الصهيونية العالمية ترى في الحرب، في آن واحد، أملاً، وخطراً عظيماً وفورياً: الأمل، لأن الحرب كانت تفتح لهم فرصة سياسية حقيقية إزاء احتمال تفكك الإمبراطورية العثمانية. ولكن الحرب كان من شأنها أيضاً أن تحطم التنظيم الصهيوني، ذلك بأن الصهيونيين – وكانوا يقاربون (130.000) مناضل عبر العالم – يعيشون في حقيقة الأمر، في المعسكرين المتحاربين، وكانوا مختلفين حول الموقف المطلوب إزاءها.

كانت الغالبية منهم، ولا سيما في تنظيماتهم الهامة في روسيا والولايات المتحدة، تودّ تبنّي موقف محايد بالكلية. والحقيقة أن الكثيرين عندها، من يهود وصهيونيين، كانوا يتمنّون ويرجون انتصار القوى المركزية، لا بدافع العداء للدولتين الغربيتين الديمقراطيتين، انجلترا وفرنسا، ولكن بدافع البغض لحليفهما روسيا القيصرية. ومع ذلك، فإنّ الحياد كان من شأنه أن يوفّر الحماية لليهود والصهيونيين العائشين في المعسكرين المتحاربين، في حين أنه كان أيضاً يحمي الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

واتخذ المكتب التنفيذي، الذي كان يرأسه الألماني "اوتو فـــاربورغ" (**Otto Warburg**)، موقفاً وسطاً! لم يكن الإعلان عن شيء من الحياد بالأمر السـيئ، ولكنهم قدّروا أيضاً أن القطيعة بينهم وبين ألمانيا، تنطوي على تهوّر، ذلك بـأن ألمانيا هي حليفة تركيا، وهي المنتصر المرجح في الحرب. ثم إن حماية اليهـود في فلسطين، بل إن تحقيق الأحلام الصهيونية فيها، يتوقّفان على ذلـك الموقـف الوسط. فاكتفى المكتب التنفيذي في شهر كانون الأول من عام 1914، بالجمع بين موقفين: من جهة مع برلين، وهي لا تـزال المركـز النظـري للحركـة الصهيونية، ومن جهة ثانية مع القسطنطينية ونيويورك وكوبنهاجن، حيث يوجد مكتب للحركة الصهيونية. » (انتهى)

<u>وثيقة ثانية: سؤال لا غير...!</u>

أوجّهه إلى "الباحثين" العرب في الشأن العربي والفلسطيني

كم كان يومذاك – عام 1913 – عدد "المناضلين" العرب، داخل فلسطين وخارجها؟

<u>وثيقة ثالثة: خريطة لسورية، كما رسمتها وزارة الخارجية الفرنسية عام 1910.</u>

الغربيون يقرّرون وجود الدول كما يحلو لهم!

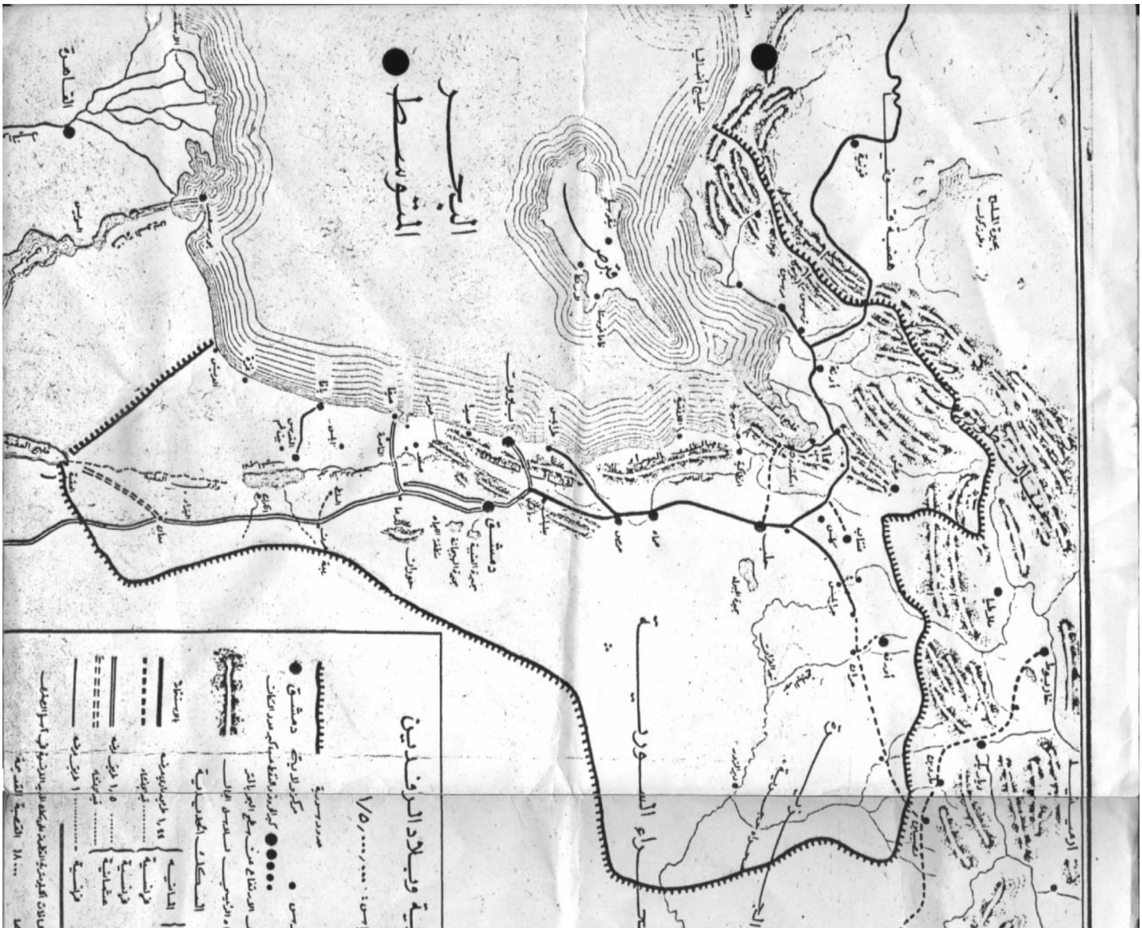

3) المحطة الثالثة، الازدواجية الغربية

أضمّنها النقاط التالية:

(1) الاتفاق الحاسم، الذي تمّ بين شريف مكة، الحسين، وماكماهون عام 1914، حول اصطفاف جميع العرب مع الحلفاء، في حربهم ضدّ العثمانيين والألمان، لقاء تأييد الحلفاء لقيام دولة عربية واحدة، فور الانتهاء من الحرب العالمية الأولى.

(2) إبرام معاهدة سايكس- بيكو، عام 1916، بين انجلترا وفرنسا، حول اقتسام الشرق العربي من قبل بريطانيا وفرنسا، بعد تقسيمه إلى دويلات صغيرة، طائفية، على أن تكون بريطانيا "منتدبة" على "فلسطين"، تمهيداً لنشوء الدولة اليهودية فيها.

(3) مسارعة بريطانيا إلى احتلال "فلسطين"، فعلياً، عام 1919.

(4) عقد مؤتمر "سان ريمو" بإيطاليا، عام 1920، بين بريطانيا وفرنسا، حيث منحتا نفسيهما، باسم "القانون الدولي"، حقّ فرض "انتدابهما" على جميع "الدول الجديدة" في الشرق العربي: فلسطين، الأردن، لبنان، سورية... والعراق.

(5) احتلال دمشق بقوة السلاح في شهر تموز من عام 1920، وصدور قرار تقسيم سورية إلى أربع دويلات طائفية حول مدنها الرئيسية: دمشق - حلب - اللاذقية - السويداء.

(6) قيام الثورات السورية... والثورة الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش.

وثيقة أولى: كذب الغرب الأوروبي، وعمله الدؤوب لتفتيت العالم العربي

أستمدّها من كتاب "عندما ستستيقظ سورية" (Quand la Syrie s'éveillera)، للكاتبين "ريشار لابيفيير" (Richard Labévière)، وطلال الأطرش، الصادر في باريس باللغة الفرنسية، عام 2011، من الصفحات (38-41)

جاء فيها بالحرف الواحد:

« إن الحرب العالمية الأولى وتحالف الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا، سرّعا في تفكيك "الرجل المريض" العظيم. وقد وعدت بريطانيا العظمى العرب، بإنشاء مملكة مستقلة إلى الجنوب من خط العرض 36، تضم سورية وبلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية، مقابل تمرّد القبائل العربية على العثمانيين.

وخلافاً للمعاهدات المبرمة مع العرب، وقّعت لندن سرّاً مع باريس عام 1916، معاهدات "سايكس- بيكو"، الرامية إلى اقتسام الهلال الخصيب، بين فرنسا وانجلترا، بعد تفكيك الإمبراطورية العثمانية. ووفقاً لهذه المعاهدات، حصلت بريطانيا من "عصبة الأمم"، على تفويض على بلاد ما بين النهرين وفلسطين، في حين مُنحت فرنسا التفويض على سورية... باسم حقوقها التاريخية التي كانت تدّعيها منذ عهد الممالك الصليبية! وكانت بريطانيا، في الوقت نفسه، قد وعدت اليهود البريطانيين، بموجب إعلان بلفور بتاريخ 1917/11/2، بإنشاء "وطن قومي يهودي" لهم في فلسطين.

وكان "توماس ادوارد لورنس"، المسمى "لورنس العرب"، قد تولى أمر التحالف العربي- البريطاني. فثار العرب على العثمانيين، الذين أخذوا يتقهقرون في جبهات عديدة. وفي الأول من تشرين الثاني من عام 1918، دخلت قوات الأمير فيصل، ابن شريف مكة، الحسين، مع الجنود البريطانيين إلى عاصمة الأمويين العريقة، ووضعت بذلك حداً لسيطرة عثمانية استطالت أربعة قرون.

وأعلنت على الفور الدولة العربية الموحدة، العلمانية والمتعددة الأديان: إنها مَلَكية برلمانية، تضم سورية التاريخية وبلاد ما بين النهرين، وعاصمتها دمشق. ولكن الحماس تلاشى بسرعة، وحلّت محلّه خيبة الأمل، إذ اجتاحت القوات البريطانية بلاد ما بين النهرين. وفي يوم 1918/10/8، احتل الجنرال "اللنبي" بيروت، وطرد منها الحكومة العربية. ووصل إلى بيروت في 1919/11/21،

الجنرال "هنري غورو"، بعد أن عُيّن مندوباً سامياً على سورية. وفي يوم 14 تموز 1920، وجه إنذاراً إلى الحكومة السورية بالاستسلام التام لقواته، دون قيد أو شرط. فجمع وزير الدفاع الشاب، يوسف العظمة، (600) جندي مزوّدين بأسلحة خفيفة، وقرر مواجهة القوة الفرنسية بالقرب من الحدود السورية- اللبنانية. ولقد صرّح: "لن يُقال إن دمشق سقطت دون دفاع العرب عنها"! وفي يوم 7/24، سحق عشرة آلاف جندي فرنسي - بما معهم من دبابات ومدافع وطائرات، هذه القوة السورية بالقرب من ميسلون. فقتل يوسف العظمة في هذه المعركة. وإن تمثاله المنتصب في قلب دمشق، يحيي أبداً ذكرى هذه الملحمة في مواجهة الاستعمار.

وفي الغد، دخلت القوات الفرنسية دمشق، في حين كان الملك فيصل يمضي إلى المنفى...

وفي دمشق، مضى المندوب السامي الفرنسي، "الجنرال غورو" إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، قاهر الفرنجة في القرن الحادي عشر، ووضع حذاءه على ضريحه وقال: "صلاح الدين، استيقظ، ها قد عدنا". » (انتهى)

وثيقة ثانية: الثورة على تقسيم سورية

أستمدها من الكتاب السابق نفسه "عندما ستستيقظ سورية"، ومن الصفحتين (46-47). وقد جاء فيهما بالحرف الواحد:

« استاء الوطنيون من وعود الانكليز والفرنسيين الكاذبة. فنظموا تمرّداً مسلّحاً جديداً بتاريخ 1945/5/29، كانوا قد هيّؤوه بدقة على نطاق البلد كله. فقُمِع التمرّد بشدة من قبل القوات المنتدبة، التي قصفت البرلمان السوري بالمدفعية، وكذلك قلب العاصمة. وقد دمر قسم من قلعة دمشق العريقة بقصف مدفعي تسبّب في قتل قرابة /700/ شخص. وكانت مدينة السويداء، عملاً بتاريخها العريق في التمرد، أول محافظة سورية تتحرّر من الوصاية الاستعمارية،

بفضل الدعم البريطاني لمختلف قواها السياسية المقاومة للانتـداب الفرنسـي. وكان هذا الدعم اللوجستي والمالي قد تضاعف في الفترة الأخيرة، لأن بريطانيا العظمى كانت تسعى بكل قواها لإزالة جميع أنـواع الحضـور الفرنسـي في المشرق. وبفعل الضغوط البريطانية التي كانت تؤجج الجبهة الداخلية، غادرت القوات الفرنسية نهائياً سورية يوم 1946/4/17.

وإن التمرد العام الذي شارك فيه الدروز والمسيحيون والعلويون والسنّة، ضد تقسيم سورية، لَيُقدّم تكذيباً صارخاً لنظريـة الأقليـات الـتي يسـتند إليهـا المستشرقون، ليدّعوا أن الشرق العربي مكوّن من موزاييك مـن القبائـل غـير المتجانسة والعاجزة عن التعايش. وإن هذه النظرية، علـى الـرغم مـن يقظـة القوميات العربية، تتواصل وتتناقل إلى الدول الاستعمارية المتعاقبة حتى اليوم. وما بين الانتداب الفرنسي والهيمنة البريطانية، استخدمها "دافيد بن غوريون"، وهـو أحد مؤسسي دولة إسرائيل، ليفرّق جيرانه ويضعفهم. وهي هي المصدر الرئيسي للمحافظين الجدد الذين قُيِّض لهم أن يؤثروا على السياسة العربية في عهد إدارتي بوش، والذي سيؤثر أيضاً على بعض مستشاري باراك أوباما. » (انتهى)

4) <u>المحطة الرابعة، قرار تقسيم فلسطين</u>

أضمّنها النقاط التالية:

(1) تكثيف هجرة اليهود إلى فلسطين...

(2) التنسيق الفعلي بين الحركة الصهيونية والنازية في ألمانيا، من أجل تكثيف هذه الهجرة إلى فلسطين...

(3) الضغط داخل الولايات المتحدة، من أجل إعادة انتخاب الرئيس ترومان، على أن يؤيد قرار التقسيم في الأمم المتحدة.

(4) الضغط داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة، من أجل إقرار قرار التقسيم في 1947/11/2.

وثيقة أولى: من كتاب "خطيئة إسرائيل الأصلية"

حول انتزاع الأصوات من أجل التصويت على مشروع قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة... أستمدّها من كتاب "خطيئة إسرائيل الأصلية" لـ "دومينيك فيدال" (D. Vidal)، الصادر في باريس عام 1997، باللغة الفرنسية ، وقد جاء فيه في الصفحة 38 بالحرف الواحد:

« كان هاري ترومان قلقاً بشأن إعادة انتخابه، فألقى بكل ثقله في المعركة. واستبيحت جميع الوسائل. من ذلك أن شركة فايرستون للكاوتشوك، الأميركية، حذّرت حكومة لايبيريا، وذلك بتحريض من الإدارة الأميركية الديمقراطية، من أنها ستعيد النظر في مشاريعها في لايبيريا، إن لم تتخذ موقفاً مؤيداً لصالح التقسيم. وقد طال التهديد فرنسا ذاتها، بقطع المساعدات الحيوية عنها، لأنها كانت قد امتنعت عن التصويت لصالح التقسيم، خوفاً من ردود أفعال دول شمال إفريقيا. ثم إن بعض رؤساء الوفود قبلوا تسلّم "مغلفات خاصة"، كما أن ثمة هدايا قُدِّمت لزوجاتهم... فأيّدت الجمعية العامة التقسيم بثلاثة وثلاثين صوتاً ضد (13)، بتاريخ 1947/11/29... » (انتهى)

وثيقة ثانية: حول تسليح المنظمات اليهودية

أستمدّها من الكتاب نفسه، من الصفحات (46-49)، حول تسليح المنظمات اليهودية، وقد جاء فيها بالحرف الواحد:

« إن الروايات القديمة تميل إلى التأكيد الملح على النقص الدائم في الأسلحة والذخيرة لدى "الهاغانا" وقوات الدفاع الإسرائيلي، نتيجة حظر الأسلحة الغربية، الذي فرض على الدولة اليهودية. وإن الوثائق المتعلقة بعام 1948، والمتواجدة في أرشيف دولتي بريطانيا والولايات المتحدة، كما أن "كتب التاريخ الجديدة"، تميل إلى الاعتدال في هذا التقييم، بسبب المشكلات المعقدة التي واجهت الدول العربية في شراء الأسلحة والذخائر. فلقد عانى العرب أيضاً من قسوة الحظر المتقطع أو الدائم، ومن إجراءات التأخير في تسليم الأسلحة،

لأسباب سياسية. من ذلك مثلاً أن أحد الأسباب التي جعلت الأردنيين يفقدون في شهر تموز مدينتي "اللد" و"الرملة"، ويعجزون عن استعادهما، كان افتقارهم المريع إلى القنابل. وإلى ذلك، يجب أن نضيف أن الجماعات اليهودية كانت، خلافاً للعرب الفلسطينيين وللدول العربية المجاورة، تملك قدرة على إنتاج السلاح، متقدمة نسبياً، ولو محدودة. وهكذا، فإن معامل "الهاغانا" أنتجت ما بين شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 1947، وشهر تموز (يوليو) من عام 1948، ثلاثة ملايين طلقة من عيار 9 مم، و(150.000) قنبلة، و(16.000) رشاش من نوع (شتين STEN)، و(210) مدافع "مورتر" من عيار ثلاث بوصات.

"بذلك، تحقق تفوّق الجماعات اليهودية عسكرياً، كما تحقق أيضاً وخصوصاً سياسياً. أما خصومها، فقد كانوا يعانون من انقسام عميق، بدل أن يشكلوا وحدة متماسكة وهادفة. وكان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الحركة الوطنية الفلسطينية، التي أبيدت إثر القمع الذي حل بالثورة الكبرى الممتدة من عام 1936 إلى عام 1939... وكان وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك، جورج مارشال، قد لاحظ ذلك جيداً، فبيّن لدبلوماسيّيه "نقاط الضعف الداخلية لدى العديد من الدول العربية، التي تحول دون عملهم المشترك"، كما أبرز بصورة خاصة، "أشكال الغيرة القائمة بين العربية السعودية والسوريين من جهة، والحكومات الهاشمية في الأردن والعراق من جهة ثانية، وهي تحول دون تمكين العرب من الاستفادة الجادة من قواهم الراهنة". أما سفير الولايات المتحدة في هيئة الأمم، فقد أعلن في 1948/5/8، "أن تدخل البلدان العربية سوف يكون قليل الفائدة".

"ههنا يكمن سرّ حرب 1947–1948... فإن كانت هيئة الأمم المتحدة قد قررت في 1947/11/29، تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية (فضلاً عن منطقة "ذات نظام دولي خاص" لمدينة القدس)، فقد كان هناك تقسيم آخر، تم الاتفاق عليه بين "غولدا مئير" والملك عبدالله – بتشجيع من لندن – على نحو غير رسمي، قبل ذلك بخمسة عشر يوماً، وهو يقرّ بأن الدولة اليهودية

ستقوم، دون أن تقوم الدولة العربية، لأن القسم الأكبر منها سيحتله الجيش الأردني، ويضمّه إلى الأردن. وهذه التسوية، كانت قد أعدّت من زمان طويل، من خلال العلاقات القديمة التي كانت الحركة الصهيونية قد أقامتها مع الشريف الحسين وخلفائه، لاسيما ابنه عبدالله، كما سيتواصل ذلك مع حفيده الملك حسين الحالي، وهي تسوية تمنح اليهود تفوقاً كبيراً، في الوقت الذي ستضاعف فيه الانقسامات بين العرب. ولذلك، فإن خصوم الدولة اليهودية العتيدة، الذين كانوا يستشعرون "خيانة" الملك عبدالله، دون أن يكونوا مطلعين عليها، كانوا سيبذلون كل ما بوسعهم، ليحولوا دون استيلاء الهاشميين على فلسطين. ولذلك، دخلت الجيوش العربية، الحرب في 1948/5/15، ضد الملك عبدالله وضد إسرائيل في آن واحد. أما مصر، فلم تقرّر الدخول في الحرب إلا على نحو متأخر جداً، وبالدرجة الأولى لتقاوم الطموحات الهاشمية. وإن هذا "الوجه الخفي" من النزاع الأول بين إسرائيل والعرب، ما كان بخافٍ على المؤرخين، إلا أنه ظل لفترة طويلة، بعيداً عن الاهتمام الجاد، حتى طلع المؤرخ "آڤي شلايم" (Avi SCHLAÏM) بأبحاثه التي جمعها في كتابه المثير "تواطؤ عبر الأردن".

« ولقد كتب المؤرخ "آڤي شلايم" يقول:

"إن إعادة النظر في تاريخ الصراع الإسرائيلي- العربي، في أواخر الأربعينيات، تُبرِز نتيجتين هامتين: الأولى أن الضحية الأولى والأبرز كانت الفكرة القائلة بأن دولة إسرائيل، لحظة نشوئها، كانت تواجه عالماً عربيّاً متكتّلاً ومتماسكاً في عدائه، ومتشدّداً في تصميمه على محوها من خريطة الشرق الأوسط [...] وأما الضحية الثانية الكبرى، فهي مقولة الوحدة العربية، الغالية جداً على قلب القوميين العرب [...]. باختصار، إن التواطؤ الهاشمي الصهيوني هو أحد المفاتيح، الذي يفهمنا كيف قُسّمت فلسطين، ولماذا تعرّضت الحركة الوطنية الفلسطينية لكارثة بمثل هذا الحجم، في حين أن الحركة الوطنية اليهودية حققت طموحها في إنشاء دولة يهودية مستقلة على قسم هام جداً من فلسطين..." » (انتهى)

5) المحطة الخامسة، بزوغ إسرائيل

أضمّنها النقاط التالية:

(1) إعلان استقلال إسرائيل في 1948/5/15

(2) حرب الإبادة والتطهير العرقي، المستمر حتى اليوم في فلسطين.

(3) تحدي إسرائيل الدائم لجميع قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

(4) دعم الولايات المتحدة السافر والفاضح لإسرائيل، من خلال استخدامها حق النقض (الفيتو)، 44 مرة.

وثيقة أولى: تصريح رئيس الجامعة العبرية عام 1946

أستمدّها من خطاب لرئيس الجامعة العبرية في القدس، "يهوذا ماغنيس" (Judas MAGNES)، في افتتاح العام الدراسي فيها، عام 1946، وكان يرأس هذه الجامعة منذ عشرين عاماً. وقد ورد هذا الخطاب في مقدمة كتاب "روجيه غارودي"، "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية". جاء فيه بالحرف الواحد:

« إن الصوت اليهودي الجديد يتحدث بأفواه البنادق... تلك هي التوراة الجديدة لأرض إسرائيل. لقد قُيِّد العالم بجنون القوة المادية. لِتَقِنا السماء الآن تقييد اليهودية والشعب اليهودي بهذا الجنون. إنها يهودية وثنية، استولت على قسم كبير من الشتات اليهودي القوي. كنا نفكر، في عهد الصهيونية الرومانسية، أن صهيون يتوجب عليها أن تفتدي ذاتها بالاستقامة. إن جميع يهود أميركا يتحمّلون مسؤولية هذه الخطيئة، وهذا التحوّل... حتى الذين لا يوافقون على أعمال هذه القيادة الوثنية، ولكنهم يظلّون جالسين على مقاعدهم، مكتوفي الأيدي. إن تخدير الحس الأخلاقي يقود إلى موته. » (انتهى)

وثيقة ثانية: حول مفهوم الإنسان في الدستور الإسرائيلي

أستمدّها من كتاب لباحث إسرائيلي يدعى "إسرائيل شاحاق"، بعنوان "عنصرية دولة إسرائيل"، وقد نشره باللغة الفرنسية في باريس عام 1975،

وقد وردت في الصفحة 58. جاء فيها بالحرف الواحد:

« في الدولة اليهودية، اليهود وحدَهم يُعتبرون بشراً، ولغير اليهود وضع الحيوانات.

"هم حيوانات مفيدة أحياناً، ومؤذية، بل خطيرة أحياناً أخرى.

"ثمّة أناس يرَون أنه لا يجوز التعامل بقسوة مع الحيوانات وغير اليهود. وآخرون يرَون أن ذلك لا أهمية له.

"وكل مَن يؤمن بمبدأ الدولة اليهودية، يقرّ أيضاً بأن غير اليهودي في الدولة اليهودية، ليس بإنسان، (وفقاً لتعريف "كانت" (KANT)، أي ليس "غايةً في ذاته")، بل هو مجرّد وظيفة من وظائف المصلحة اليهودية. » (انتهى)

وثيقة ثالثة: حول التطهير العرقي والجغرافي في دولة إسرائيل

أستمدّها من الفصل الرابع من الكتاب السابق نفسه، ومن الصفحات (152-170).

حسبي ترجمة مطلع الفصل وخاتمته، وذكر أرقام القرى المدمرة، والقرى المتبقية حتى عام 1975، تاريخ صدور الكتاب.

جاء فيه بالحرف الواحد:

« القرى العربية المدمرة في إسرائيل:

إن الحقيقة حول السكان العرب، كما كانوا يعيشون في أرض دولة إسرائيل قبل عام 1948، هي أحد أهم أسرار الحياة الإسرائيلية. ما من منشور، ما من كتاب أو كتيّب، يعطي أرقامها أو مواقعها. إن الغاية من هذا الصمت هو بالطبع تثبيت الأسطورة الرائجة رسمياً، أسطورة "البلد الصحراء"... هذه الأسطورة تُدرَّس وتُعمَّم في المدارس الإسرائيلية، وتُذكَر دائماً أمام الزوار. إن مثل هذا التزوير للوقائع هو أحد أخطر خروقات القانون الأخلاقي، وهو أحد أبرز المعوقات أمام كل مسعى للسلام، سلام لا يقوم على القوة، ولا على القمع. وهذا التزوير يزداد خطورة في رأيي، بقدر ما هو مقبول على نطاق العالم خارج الشرق الأوسط. ولما كانت القرى العربية قد دُمّرت تقريباً دائماً على

نحو تام، بما فيها من بيوت وحواجز، بل وقبور وأضرحة، بحيث لم يبقَ منها ولا حجر واحد، فإن الزوّار يسهل عليهم أن يصدّقوا أنه لم يكن هنا سوى صحراء!

"وإني لأرى أن الواجب الأول لكل إنسان مستقيم، داخل إسرائيل وخارجها، هو أن يسعى، قدر المستطاع، للكشف عن هذه الحقيقة. وضمن هذا المقصد، أنا أقدم التقرير التالي: إنه يضم قائمة كاملة بجميع القبائل والقرى العربية التي كانت قائمة على أرض إسرائيل (في حدود 1967/6/5)، ولتلك التي لا تزال قائمة حتى الآن...

هذه القائمة لسكان ما قبل عام 1948، تستند إلى الدراسات التي قام بها السيد عارف العارف من رام الله، وهو أشهر المؤرخين والجغرافيين في فلسطين. وإن وجود القرى، قد أُعيدت دراسته بمساعدة الكثيرين من العرب الإسرائيليين. »

وإسرائيل شاحاق يقدم في الصفحة (156) هذه الأرقام:

« 1. القرى القائمة قبل عام 1948	475	قرية
2. القرى القائمة حالياً (عام 1975)	90	قرية
3. القرى المدمّرة	385	قرية » (انتهى)

6) المحطة السادسة، دولة العدوان

أضمّنها النقاط التالية:

(1) إنشاء محطة ديمونا النووية في فلسطين المحتلة عام 1955، بتعاون بريطاني فرنسي.

(2) العدوان الثلاثي على مصر عام 1956

(3) حرب عام 1967، واحتلال سيناء والجولان والضفة الغربية.

(4) حرب عام 1973.

(5) اجتياح إسرائيل للبنان عام 1982.

(6) الحرب على لبنان عام 2006.

(7) الحرب على غزة عام 2009-2010-2012.

(8) الحرب على غزة عام 2014.

وثيقة أولى: رسالة البروفسور الإسرائيلي "بنجامان كوهين" إلى صديقه

أستمدّها من رسالة لبروفسور إسرائيلي يدعى "بنجامان كوهين" (Benjamin Cohen)، كتبها لصديقه الكاتب اليهودي الفرنسي. "بول فيدال- ناكيه" (Paul Vidal-Naquet)، بتاريخ 8 حزيران عام 1982، أي إبان اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان، وقد نشرت في صحيفة "لوموند" (le Monde) الفرنسية بتاريخ 1982/8/19. يقول فيها بالحرف الواحد:

« أكتب لك وأنا أصغي إلى "الترانزيستور"، الذي أعلن للتو "أننا على وشك تحقيق هدفنا" في لبنان: وهو ضمان "السلام" لسكان الجليل. إن هذه الأكاذيب الجديرة بـ "غوبلز" (Gobbels)، تصيبني بالجنون. من الواضح أن هذه الحرب المتوحشة، التي تفوق ببربريّتها جميع الحروب السابقة، ليست لها أية علاقة، لا بالاغتيال الذي حدث في لندن، ولا بأمن الجليل... كيف ليهود، أبناء إبراهيم... يهود كانوا هم بدورهم ضحايا ما لا يحصى من المظالم... كيف يسعهم أن يصبحوا قساةً إلى هذا الحد؟ إن النجاح الأكبر للصهيونية ليس سوى هذا: "إفراغ اليهود" من يهوديّتهم...

افعلوا يا أصدقائي الغالين، كل ما بوسعكم كي تمنعوا أمثال "بيغن" و"شارون" من تحقيق هدفيهم الاثنين: التصفية النهائية (هذه هي العبارة الرائجة هذه الأيام) للفلسطينيين بوصفهم شعباً، وللإسرائيليين بوصفهم كائنات بشرية. » (انتهى)

وثيقة ثانية: "ديانة المحرقة"

أستمدّها من كتاب للموسيقى اليهودي "جيلاد آتزمون" (Gilad ATZMON) بعنوان "قصة أستير - تشريح الشعب المختار"، الصادر في باريس عام 2012، في ترجمته الفرنسية.

أختار فقرات من صفحاته الأولى (29-31)، وأترجمها بحرفيتها. قال بالحرف الواحد:

« في دراستي تجاوزت بضعة خطوط صفراء بضمير بارد. وأنا أتفحص فلسفياً الجوانب القبلية، القائمة في الخطاب اليهودي العلماني، الصهيوني منه واللاصهيوني على السواء. وأنا أتحمّل كامل المسؤولية في ادّعائي أن بعض وجوه الشبه، القائمة بين الصهيونية واللاصهيونية اليهودية، هي مقلقة. وإني لأتفحص "ديانة المحرقة"، وأمضي في تفكيري إلى ما هو أبعد، فأتساءل ما تعنيه مفاهيم التاريخ والزمن، في الخطاب السياسي اليهودي.

"يجدر بي أن أشير إلى أن هذا التفكير يقيم تمييزاً بين اليهود (بوصفهم شعباً)، واليهودية (بوصفها ديانة)، واليهودية (بوصفها ايديولوجيا). وإن تفكيري ليتركز بصورة خاصة على هذه المقولة الأخيرة، وهو يجري انتقاداً للسياسة الذاتية اليهودية، وللايديولوجيا اليهودية المعاصرة. ومع أن بعض مروّجي الدعاوة اليهودية أكدوا أن هذا النص هو "لاسامي"، فأنا أدحض اتهاماتهم. إن عملي هذا ليس موجهاً، لا ضد اليهود، ولا ضد اليهودية. ولكن ذلك لا يمنعني من انتقاد مجموعة من الأفكار والفلسفات، ذات طبيعة قبلية، ولكنها تنطوي على مرامي عالمية غير خافية. ويودّ بعضهم أن يصف هذه الحزمة من الأفكار والفلسفات، بالصهيونية، ولكني لا أشاطرهم هذا الرأي.

"فالصهيونية في الواقع مدلول غامض، وأضيق من أن تفسر تعقيد القومية اليهودية المعاصرة، وحشيّته، ايديولوجيته وممارساته.

"فضلاً عن ذلك، فإن القومية اليهودية هي حالة نفسية وذهنية لا تعرف حدوداً واضحة. وفي الواقع، فليس هناك من يعرف أين تنتهي حقاً اليهودية، وأين تبدأ الصهيونية، والعكس بالعكس. من ذلك أننا لا نعرف أين تنتهي مصالح إسرائيل، وأين تبدأ مصالح المحافظين الجدد.

"طالما أن الموضوع المطروح هو همّ العدالة والسلام، فإن الرسالة مقلقة، فنحن هنا نواجه ايديولوجيا سياسية، وجماعات ضغط قوية جداً لا يسمحون بأي انتقاد، وبأولى حجة بأي معارضة، فمن الواضح، أننا لا نواجه فقط إسرائيل أو الإسرائيليين. وفي الحقيقة، فنحن نواجه فلسفة براغماتية تبلغ منتهى التصميم، وهي تُولِّد وتُحدِث نزاعات دولية، ذات حجم كوني. إنها ممارسة قبلية تبحث عن النفوذ في أروقة السلطات، ولا سيما لدى القوى الكبرى. إن المجلس اليهودي الأميركي يدفع علناً في فتح حرب مع إيران، وهذا ليس وليد الأمس.

"ثمة ناطقون باسم الصهيونية مثل برنار هنري ليفي، يدعون علناً لتدخّلات مسلّحة. وإن اللوبي اليهودي في بريطانيا العظمى ليمارس بالأسلوب العلني ذاته، الضغط على الحكومة البريطانية، لا لشيء إلا ليضمن أن القوانين البريطانية ذات الصلاحية العمومية، تعدّل لصالح الإسرائيليين المتهمين بجرائم حرب.

"وفيما يحدث كل ذلك، فإن ملايين الفلسطينيين يُجوَّعون في قطاع غزة، التي باتت سجناً واسعاً، تهدده أزمة إنسانية.

"وفيما يحدث كل ذلك، فإن اليهود الذين يدّعون مناهضة الصهيونية، ويهوداً يساريين (لا سيما تشومسكي)، ينشطون ليحولوا دون انتقاد (الإيباك) (لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية)، وانتقاد القوى اليهودية، الذي يعبر عنه الجامعيان الأميركيان "جون ميرشايمر" و"ستيفن والت"، أو هذا الكتاب بالذات.

"هل الأمر يتعلق بإسرائيل فقط؟ هل الأمر يتعلق حقاً بالصهيونية؟ أم ترانا سننتهي إلى التسليم بوجود شيء آخر، على جانب أعظم من الأهمية؟

"إن قناعتي بأن واقعة التضامن مع الفلسطينيين، تقود إلى إنقاذ العالم. إن

إنقاذ فلسطين يعني إعادة اعتبار الحقيقة، والسلام والعدالة. ولكن ذلك يفرض علينا شجاعة اليقظة وإدارك أن الأمر ليس مجرد معركة سياسية. فنحن لا نواجه إسرائيل وحدها، ولا جيشها أو قادتها... إن الأمر يعني في الحقيقة حرباً على ذهنية مؤسفة حوّلت الغرب إلى رهينة، وحولته، أقله مؤقتاً، عن ميوله الإنسانية وتطلعاته العقلية. فإن القتال ضد حالة نفسية أشد صعوبة من القتال ضد الناس، لا لشيء إلا لأن ذلك يقتضي القتال ضد الآثار التي تكون هذه الحالة النفسية، قد تركتها في ذواتنا. فإن كنا نريد أن نواجه "أورشليم"، فإنه يتوجّب علينا أولاً أن نواجه "أورشليم" الداخلية فينا. ربما، يجدر بنا أن ننظر إلى ذواتنا في مرآة، وأن ننظر أيضاً حولنا. ربما يجدر بنا أن نبحث عن بقية من "مودّة" في ذواتنا، راجين بقاء شيء منها بعد؟ » (انتهى)

وثيقة ثالثة: "الشرق الأدنى المتفجر"

أستمدّها من مقدمة كتاب للمؤرخ اللبناني المعاصر "جورج قرم"، بعنوان "الشرق الأدنى المتفجر" (1956–2007)، وقد نشره بالفرنسية في باريس عام 2007. من الصفحتين (II–III). جاء فيهما بالحرف الواحد:

« إنّ المراقب المؤرّخ لا يني يتعرض للمفاجآت في الشرق الأدنى. وفي الواقع، من كان يخطر بباله في مطلع القرن الماضي، أن فلسطين التاريخية، فلسطين الكنعانيين، وممالك إسرائيل القديمة، فلسطين المسيح وجبل الزيتون، فلسطين المسجد الرائع للخليفة عمر في القدس، ستصبح دولة إسرائيل، صاحبة أرهب قوة عسكرية، بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين؟ من كان يخطر بباله أن الثروة النفطية ستطرق أبواب القبائل البدوية الفقيرة في الصحراء؟ وأنها ستحوّل شبه الجزيرة العربية، إلى آلة مالية ضخمة، مرهونة للدعاية الوهابية، وهي إحدى الحركات الإصلاحية المتطرفة للديانة الإسلامية، التي سيحوّلها آل

سعود، بما ينطوون عليه من اندفاع للقتال والغزو، إلى تشدّد مناقض لروح الديانة الإسلامية، التي يصفها القرآن بالذات بديانة "الوسط القويم"؟ من كان يتصور أن لبنان الودود والجميل، الذي تغنّى به شعراء فرنسا الرومانسيون، "جيرار دونرفال" أو "الفونس دو لامارتين"، سيغوص طوال خمسة عشر عاماً في عنف متلاحق؟ وأن الطوائف الدينية اللبنانية، البالغة الشهرة لدى علماء الانتروبولوجيا والأعراق، بتفرّدها وتداخلها الطيب والسموح، ستتحوّل إلى طعام لمدافع زعماء ميليشيات قساة، يختبئون وراء رعاة أجانب لا يعرفون الرحمة، زعماء مجرمين لم يمثلوا يوماً أمام قضاء، من جراء تهجيرهم القسري للناس، وارتكابهم المجازر الجماعية؟

"ولكن، من كان يخطر بباله أيضاً أن العالم المسمى "متحضّراً"، وفي قلب زمان تاريخي عرف تفكيك الاستعمار، وتطبيق المبادئ الحديثة الكبرى لحرية الشعوب، سيسهّل استعماراً سكانياً لمجمل أرض فلسطين التاريخية، وقد انتزع منها سكانها الفلسطينيين، على الرغم من القرارات الكثيرة جداً والصريحة جداً، الصادرة عن الأمم المتحدة، في حين أن المستعمرين والمستبدين في أماكن أخرى، مثل جنوب أفريقيا أو في روديسيا، أو حتى في تيمور الشرقية، قد أكرهوا على التنحي وعلى منح الحرية للشعوب المستعبَدة؟ من كان يخطر بباله أيضاً أن منظمة الأمم المتحدة، التي يفترض فيها أن تجسّد جميع المبادئ الحديثة في كرامة الإنسان وشعوب الأرض، ستفرض على الشعب العراقي، حصاراً اقتصادياً شاملاً، كانت نتيجته الوحيدة القضاء على عشرات الألوف من الأطفال والمسنّين الفقراء، وتدعيم سلطة النظام، المستبدّة والمطلقة؟ وأخيراً، من كان يخطر بباله أن الولايات المتحدة، بعد دعمها العديد من الدكتاتوريات في العالم العربي من أجل مقاومة الشيوعية، وبعد أن اجتاحت العراق بفظاظة، ستبلغ من القحة ما يجعلها تدّعي حماية الحرية وحقوق الإنسان في الشرق الأدنى؟ » (انتهى)

7) المحطة السابعة، طلائع "الربيع العربي"

أضمّنها النقاط التالية:

1. التفجيرات الداخلية العربية:

- **في فلسطين...**
- **في الأردن: حرب عام 1970 ضد الفدائيين.**
- **في لبنان (1973-1990)**
- **في السودان حتى انفصال الجنوب عام 2014 وبعده.**
- **الحرب بين العراق وإيران (1980-1989).**
- **اجتياح الكويت (1990)**
- **الحرب الدولية على العراق (1991)**
- **الحصار المتواصل على العراق، حتى اجتياحه عام 2003.**

2. "الربيع العربي" الراهن:

- **في تونس** 2010
- **في مصر** 2010-2011
- **في سورية** 2011-؟؟؟
- **في ليبيا** 2011
- **في البحرين** 2011
- **في اليمن** 2015

الوثيقة الكبرى: الكشف الأكبر!...

وفي شهر شباط من عام 1982، صدر، في القدس، العدد (14) من مجلة "كيفونيم" (أي التوجّه) الصهيونية، وهو يحتوي مقالاً بعنوان "إستراتيجية إسرائيل في الثمانينات"، أنقل منه بضع فقرات فقط، بحرفيتها:

« إن إعادة احتلال سيناء، لِما فيها من موارد طبيعية، هي من أولويّاتنا الكبرى.

"إن مصر، بفعل نزاعاتها الداخلية، لم تعُد تشكّل، بالنسبة إلينا، مسألة

إستراتيجية. وإنه لَيمكننا إعادها في أقلّ من 24 ساعة، إلى الوضع الذي وجدَت فيه نفسها، بعد حرب حزيران 1967. أما أسطورة مصر "رائدة العالم العــربي"، فلقد ماتت وانتهت. ومصر اليوم هي جثّة... وتقسيمها إلى مناطق جغرافيــة مستقلّة، يجب أن يكون هدفنا السياسي في التسعينات.

"ومتى تمّ تفكيك مصر على هذا النحو، فإن بلداناً مثل ليبيــا والســودان، وبلداناً أخرى أكثر بُعداً، ستواجه التفكيك ذاته.

"... إن الجبهة الغربية تواجه مشاكل دون الجبهة الشرقية. فإن تقسيم لبنان إلى خمس ولايات، هو الصورة المسبقة لِما سيحلّ بمجمل العــالم العــربي. وإن تفجير سورية والعراق إلى مناطق محدّدة، وفقاً لمعايير إثنية أو دينيــة، يجــب أن يكون، على المدى البعيد، هدفاً أولياً لإسرائيل...

"إن شبه الجزيرة العربية كلها، مدعوّة للانحــلال ذاتــه، تحــت الضــغوط الداخلية. وذلك هو، على نحو خاص، وضع العربية السعودية...

"والأردن هو هدف إستراتيجي راهن لنا، وهو، على المدى البعيــد، لــن يشكّل تهديداً لنا، بعد انحلاله، ورحيل الملك حسين، وانتقــال الســلطات إلى أيدي الغالبية الفلسطينية...

"هذا ما يجب أن ترمي إليه السياسة الإسرائيلية، وهذا التغيير سيعني الحــل لمسألة الضفة الغربية، ذات الكثافة السكانية العربية الكبيرة...

"يجب علينا أن نرفض خطة الدولة المستقلة، وأية خطة تنطوي على مساومة أو اقتسام للأراضي، يحول دون فصل القوميتين...

"وعلى العرب الإسرائيليين أن يدركوا أنه لن يكــون لهــم وطــن إلا في الأردن... وأنهم لن ينعموا بالأمن، ما لم يعترفوا بالسيادة اليهودية بين البحــر والنهر...

"لم يعُد ممكناً، ونحن في مداخل الزمن النووي، أن نقبل بأن يكون ثلاثة أرباع السكان اليهود مجموعين في ساحلٍ كثيف السكان، وعُرضة للمخــاطر بحكــم

طبيعته. وإن تهجير هؤلاء السكان ضرورة قصوى، بالنسبة إلى سياستنا الداخلية. فإن اليهودية والسامرة والجليل، تشكّل الضمانات الوحيدة لبقائنا القومي. فإنْ لم نصبح نحن الغالبية في المناطق الجبلية، فإننا سنتعرض لمصير الصليبيين الذين خسروا البلد...

"إن إعادة توازن المنطقة على الأصعدة الديموغرافية والإستراتيجية والاقتصادية، يجب أن تكون في طليعة طموحاتنا...

إن تقسيم لبنان إلى خمس مناطق، هو الصورة المسبقة لما سيحلّ بالعالم العربي كله، بما فيه مصر وسورية والعراق وشبه الجزيرة العربية كلها. هذا الأمر، في لبنان، هو قائم فعلاً. وإن تفتيت سورية والعراق إلى مناطق منسجمة عرقياً أو دينياً، كما في لبنان، هو الهدف الأول لإسرائيل، على المدى البعيد، في جبهتها الشرقية. وإن هدفها، على المدى القريب، هو تفتيت هاتين الدولتين عسكرياً. ولسوف تُقسّم سورية إلى دويلات كثيرة، وفقاً لطوائفها العرقية، بحيث يصبح الساحل دولة علوية شيعية، ومنطقة حلب دولة سنية، ودولة دمشق دولة سنية أخرى، معادية لجارتها في الشمال. وسينشئ الدروز دولتهم الخاصة، التي ستمتدّ ربما إلى جولاننا، وعلى كل حال إلى حوران وشمال الأردن. وستضمن هذه الدولة السلام والأمن في المنطقة على المدى البعيد: وهذا الهدف، هو اليوم، في متناول يدنا. »

8) المحطة الثامنة، الحرب الكونية على سورية

أضمّنها النقاط الثابتة التالية:

1- 140 دولة، أعلنتها باسم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان.

2- 83 دولة ترسل علناً مقاتليها ومحكوميها، للقتال في سورية.

3- الإعلام الغربي كله، والعربي جله، ضد سورية.

4- صمت مطبق إزاء القتل والتدمير، الممارسين على سورية وفي سورية.

وثيقة أولى: اعتراف من نعوم تشومسكي

أستمدّها من كتاب للمفكر والمؤرخ الأميركي، "نعوم تشومسكي"، وهو بعنوان "بركان الشرق الأوسط"، وقد نُشر بترجمته الفرنسية في كندا، عام 2007. جاء في الصفحات (184-186):

سأورد السؤال ومن ثم الجواب:

« سؤال الصحفي الإسرائيلي ستيفن شالوم

« شالوم: ثمة كلام عن احتمال قيام عمل عسكري من قبل الولايات المتحدة، ضد بلدين آخرين في الشرق الأوسط، هما سورية وإيران. كيف لك أن تقيِّم سياسة الولايات المتحدة حيال سورية؟

جواب تشومسكي: سياسة الولايات المتحدة حيال سورية، كانت دائماً انتهازية جداً... في عام 1990، كان جورج بوش الأب يؤيد كل التأييد بقاء سورية في لبنان، لأنه كان يريد لها أن تنضم إلى التحالف المعادي للعراق... إلا أن واشنطن عادت عبر السنوات، إلى موقف مختلف، لأن سورية لا تخضع لأوامر واشنطن... ففي معظم البلدان، ينحني المسؤولون أمام الولايات المتحدة بكل بساطة. أما سورية، فلا. ولكي نرى مدى جدية انتقاد الولايات المتحدة لسورية، بشأن خروقها لحقوق الإنسان، حسبنا أن نلقي نظرة على تاريخ الأحداث. وفي الواقع، هناك قائمة بدول داعمة للإرهاب، أي دول هي، في حقيقة الأمر، لا تُرضي الولايات المتحدة، لسبب تافه. من ذلك، أن كلينتون عرض على سورية، عام 1994، أن يشطب اسمها من هذه القائمة، إن هي قبلت بالاقتراحات "الأميركية – الإسرائيلية" (كذا!) بشأن هضبة الجولان، التي كانت إسرائيل قد احتلتها أثناء حرب عام 1967. ولما كانت سورية تريد استرداد أرضها، رفضت هذه المقايضة، فبقيت إذن في قائمة الدول الداعمة للإرهاب. ولا يحتاج الأمر إلى المزيد من الكلام بشأن هذا الموضوع.

"وفي عام 2004، توفرت فرصة للتخلص من سورية. فاتفق المسؤولون في

الولايات المتحدة مع فرنسا، وفرضوا على الأمم المتحدة قراراً يقضي بإرغام القوات السورية على مغادرة لبنان. واليوم تمارس الولايات المتحدة ضغوطاً قوية للإطاحة بالنظام السوري، ولكن لا للأسباب التي تدّعيها الولايات المتحدة. إن دافعها الحقيقي هو الدافع عينه الذي استخدمته في قصف صربيا: لأنها غير مطيعة!...

إن الأسباب التي تدفع الولايات المتحدة إلى معارضة سورية، ليست نبيلة البتة. ويسعنا أن نقول الأمر نفسه عن فرنسا، بقدر ما يتاح لي أن أعرب عن رأيي. إن ما دفع الولايات المتحدة بإصرار لإخراج سورية من لبنان، يعود إلى أن سورية رفضت الانضمام إلى الحرب الثانية التي شنت على العراق عام 2003، بل تبنّت، بالمقابل، موقفاً معادياً... ولذلك قررت الولايات المتحدة معاقبة النظام السوري. » (انتهى)

وثيقة ثانية: صوت حق من فرنسا

أستمدّها من مقدمة كتاب للسفير الفرنسي، "ميشل رامبو" بعنوان "عاصفة على الشرق الأوسط الكبير"، صدر في باريس عام 2015. وقد جاء في الصفحتين (32-33)، ما ترجمتُه بالحرف الواحد:

« ليس ما يدعو لإخفاء الحقيقة.

إن الاضطرابات الراهنة، سواء كانت من صنع العرب أنفسهم، أم لا، لا تشكل سوى محطة في المشروع الذي نظّرته وخططته الإمبراطورية الأميركية منذ عشرات السنين. إن عبارة "زعزعة الاستقرار"، بفعل ما تنطوي عليه من غموض وضعف، لا تفي قط بما يصوّر الهدف الاستراتيجي البعيد المدى، الذي يعنينا، وهو تحقيق التدمير الكلي، بجميع الوسائل المتاحة، لهذا الكون الذي تحول رحابته دون أن تتمكن "العولمة" من ابتلاعه وإلغائه. إن الكتّاب "الصالحين" – الصالحين بفعل خضوعهم لمن يستقون منهم أفكارهم، سيحتجون بصراخ عالٍ، إذا ما سمعوا أو قرأوا أن العولمة على الطريقة الأميركية هي "توتاليتارية" خبيثة،

متراخية أحياناً، ولكنها في الغالب عنيفة في شكلها، وبالغة القسوة في تحقيق هدفها. وأياً كان رأي المهووسين بكل ما هو أميركي، فإن الأمر يعني، لا أكثر ولا أقل، تحقيق مجتمع "توتاليتاري" على نطاق العالم، يتوهم فيه المواطنون أنهم يعيشون في مجتمع حر بالمطلق، لبيرالي، متحرر وإباحي، في حين أنهم يكونون خاضعين لرقابة كلية، مصورة ومصنفة، تشمل سجلاتهم وتحركاتهم وتنقلاتهم ولقاءاتهم، حتى في جميع جوانب حياتهم، بما فيها التفاصيل اليومية التافهة.

"إن المناضلين في سبيل الإسلام السياسي، لم يخفوا يوماً تصميمهم على خلق مجتمع كلي، تسوده توجيهات ومبادئ الشريعة القرآنية الشهيرة، التي يلوّحون بها بوصفها العلاج الناجع لجميع القضايا وجميع المظالم، في وجه خصومهم، الذين يرون فيهم خطراً على الحضارة. وسواء أكانوا انتهزوا هذه الفرص الذهبية أو تعاونوا مع أسياد الإمبراطورية كي يحققوا غاياتهم، في ما يظنونها لعبة ذكية، فالأمر لا يقدم ولا يؤخر.

"إن سورية، بدعم من حلفائها الأقوياء، صمدت في وجه العدوان الكوني الذي استهدفها، وهي تسجل عليه مكاسب. إنها هي العقدة الأخيرة القادرة على إيقاف تدمير غير مسبوق للشعوب المعنية ولدولها. ويبدو أن الإمبراطورية قد فشلت في محاولتها، كما فشل الإسلاميون في محاولتهم. وإن السياق الدولي قد تبدل كثيراً، خلال هذه السنوات الأربع أو الخمس، حتى لو بدا للغرب أن الصراع في سورية قابل للأخذ والرد. فليس ثمة بعد اليوم من يؤمن بأن للتاريخ البشري معنى (وقد يكون ذلك خطأ). ولكن الإنسان يتمنى أحياناً أن تكون هناك في سير الكون عدالة ذاتية » (انتهى)

وثيقة ثالثة: البربرية الحديثة

أستمدّها من كتاب "أمين معلوف"، "اختلال العالم"، الصادر في باريس باللغة الفرنسية، عام 2011، ومن الصفحتين (74-75)، وقد جاء فيهما ما ترجمتُه بالحرف الواحد:

« في الغرب، لا تقوم البربرية على انعدام التسامح والظلامية، بــل علــى الغطرسة وانعدام الإحساس. فقد اجتاح الجيش الأميركي بلاد ما بين النهرين، وكأني به حصان بحر يمشي على حقل من التوليب! وباسم الحرية والديمقراطيـــة والدفاع عن الذات، وحقوق الإنسان، أساؤوا التصرف، ودمّــروا وقتلــوا. ولسوف ينسحبون بعد قتلهم سبعمائة ألف إنسان، وعلى شفاههم كلمة اعتذار غامضة. وقد أنفقوا قرابة "ثلاثة آلاف مليار دولار، بل ضعفي هذه التقديرات أو ثلاثة أضعافها، وفق بعض الدراسات. وقد غادروا البلد الذي احتلوه، أشد فقراً مما كان. وأرادوا أن يحاربوا الإرهاب، ولكن الإرهاب فيه لم يكــن يومــاً أكثر انتشاراً. وتذرّعوا بإيمان الرئيس بوش المسيحي، فبات كــل صــليب في كنيسة، مشتبَهاً بالتعامل معهم. وادّعوا نشر الديمقراطية، ولكن ما فعلوه، شوّه مفهوم الديمقراطية لحقبة طويلة.

"إن أميركا ستنهض من صدمتها في العراق، ولكن العراق لن ينــهض مــن صدمته الأميركية. ولسوف تفقد أكثر طوائفه الدينية عدداً، مئات الآلاف مــن أبنائها، كما أن أدنى طوائفه عدداً، لن يكون لها فيه مكان بعد اليوم. وهذا يعني ليس المانديين أو اليزيديين وحسب، ولكن أيضاً الآشوريين والكلدانيين، الذين يذكّر مجرد ذكر اسمهم، بحقبات رائعة من مغامرتنا الإنسانية العظيمة.

"والآن، فإن مصير جميع هذه الأقليات قد حُسم. ففي أحســن الحــالات، سوف يُنهون مسيرتهم التاريخية في منفى بعيد عن أرضهم، أو سيُسحَقون بــين فكَّي البربرية المعاصرة، المتباينين. » (انتهى)

وثيقة رابعة: أساليب الاستعمار الجديد

أستمدّها من الصفحات الثلاث الأولى، من كتاب مرعب حقاً، يتوجب على كل مثقف قراءته ودراسته، وهو لباحث فرنسي يدعى "اينياسيو رامونيه"، الذي رئس لفترة طويلة صحيفة "لوموند دبلوماتيك". والكتاب

بعنوان "حروب القرن الحادي والعشرين"، وقد صدر في باريس عام 2002، جاء فيه بالحرف الواحد تحت عنوان "الوجه الجديد للعالم":

« بعد اعتداءات 2001/9/11، وبعد الحرب ضد شبكة القاعدة ونظام طالبان في أفغانستان، ما هي الميزات الجيوسياسية الرئيسية لكوكب الأرض، في مطلع القرن الحادي والعشرين هذا؟

"إن الولايات المتحدة تسيطر على العالم، كما لم يُتَح لأي إمبراطورية سابقة. فهي تمارس تفوقاً ساحقاً في ميادين القوة التقليدية الخمسة: الميدان السياسي والاقتصادي والعسكري والتكنولوجي والثقافي. يقول أحد المحللين الأميركيين في "الهيرالد تريبيون"، بتاريخ 2002/1/7:

"إن الولايات المتحدة هي على نحو ما، أول دولة عالمية. إنها تملك القدرة على تزعّم صيغة جديدة للإمبراطورية الكونية، وهي إمبراطورية تلقائية، يخضع فيها الأفراد لسلطتها، راضين". (انتهى)

"للمرة الأولى في تاريخ البشرية، يخضع العالم إذن لسلطة متفوقة وحيدة. وقد أتيح لها أن تستعرض في أفغانستان هيمنتها الإمبراطورية بطرق ثلاث: أولاً بسحقها تحت القنابل، في أسابيع قليلة، نظام الطالبان وشبكات القاعدة المسلحة، التي كانت تدعمه. ثانياً بإنشائها تحالفاً دبلوماسياً واسعاً جداً، لدعم أعمالها الانتقامية (وذلك بمساندة خاصة من روسيا والصين)، في الوقت الذي قلّصت فيه إلى الحد الأقصى، كل مرجعية لمنظمة الأمم المتحدة، وأخيراً بتجنيدها القوى البريطانية المتغطرسة سابقاً، بوصفها مجرد قوى رديفة، في الوقت الذي استبعدت فيه حلفاء متهالكين عليها، إذ اعتبرتهم مزعجين، مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وكندا أو اليابان.

"إلا أن مثل هذا الاستعراض للقوة العسكرية والدبلوماسية، في مثل هذه الحقبة الجديدة، ينطوي على خداع. فإن الولايات المتحدة، بالرغم من تفوقها الساحق، لا تستطيع في الحقيقة أن تهدف إلى احتلال أفغانستان وغزوها

عسكرياً (كما حاولت أن تفعل، كل من بريطانيا في القرن التاسع عشر، وروسيا في القرن العشرين)، في حين أن ذلك لا يشكل بالنسبة إليها، على الصعيد التقني، أي صعوبة. لماذا؟ لأن التفوق العسكري لم يعد يُترجَم، كما في القرن التاسع عشر، وخلال النصف الأول من القرن العشرين، باحتلال الأراضي، ذلك بأن الأراضي باتت على المدى البعيد، عصية سياسياً، مكلفة مالياً، وكارثية إعلامياً. وقد ثبت أن الإعلام أصبح عاملاً استراتيجياً من الدرجة الأولى.

"ثمة ظاهرة مركزية أخرى: إن جميع الدول مدفوعة بدينامية العولمة. فإن ذلك يكاد يكون ثورة رأسمالية ثانية. لأن العولمة الاقتصادية تطال أدنى الزوايا في الكرة الأرضية، وهي تتجاهل استقلال الشعوب وتنوّع الأنظمة السياسية، سواء بسواء.

"بذلك تتعرض الأرض لحقبة جديدة من الفتوحات، كما في حقبات الاستعمار. ولكن، في حين أن القائمين الرئيسيين بالتوسّع الاستعماري السابق، كانوا الدول بالذات، فاليوم فإن الشركات والتجمعات والتكتلات الصناعية والمالية الخاصة، هي التي تريد السيطرة على العالم.

"لم يكن سادة الأرض، يوماً، أقل عدداً وأوفر قوة، منهم اليوم. وهذه التجمعات تقوم أصلاً في مثلث الولايات المتحدة – الاتحاد الأوروبي – اليابان. وإن نصفهم متواجد في الولايات المتحدة.

"هذا التركيز في الرأسمال وفي النفوذ، قد تسارع بشكل غير مسبوق خلال السنوات العشرين الأخيرة، تحت تأثير الثورة التكنولوجية الرقمية.

يلوح ارتباط وتواصل جديد في الأفق ببداية الألفية الجديدة، مع التقنيات الجينية الحديثة التي تستطيع أن تتحكم بمستوى الحياة البشرية.

إن خصخصة الجينوم الإنساني والحصرية العامة للمخزون الإنساني، تفتحان

مجالات جديدة في التوسع الرأسمالي. وإن خصخصة كبيرة لكل ما يتعلق بالحياة وبالطبيعة، هو في إطار التحضير لظهور سلطة قد تكون الأقوى من كل ما يمكن أن نكون قد عرفناه خلال التاريخ الإنساني.

"إن العولمة لا تهدف إلى احتلال البلدان، بقدر ما هي تهدف إلى احتلال الأسواق. وإن هاجس هذه السلطة الحديثة ليس، في واقع الحال، غزو الأراضي، كما كان يحدث إبان الغزوات الكبرى أو حقبات الاستعمار، ولكنه في الاستيلاء على الثروات.

"إن هذا الغزو سيتزامن مع أعمال تدمير مرعبة، كما يشهد بذلك الانهيار المدهش للأرجنتين في شهر كانون الأول من عام 2001. فقد كان هذا البلد النموذج الأمثل لما كان "صندوق النقد الدولي" يعدّه نموذجاً عمومياً، كان يحاول تصديره بعناد لا يلين، لمجمل الكرة الأرضية. ولقد كان سقوط الأرجنتين بالنسبة إلى النيوليبرالية، ما كان سقوط جدار برلين بالنسبة إلى اشتراكية الدول: كان إعلاناً عن فشل، واكتشافاً لطريق مسدود. وبذلك واجه العالم بأسره، انهيار صناعات برمتها على نحو مفاجئ، في جميع المناطق، بما ينطوي عليه من آلام اجتماعية: فثمة بطالة كثيفة، واعتماد أعمال تافهة، وعدم استقرار، وفصل من العمل. فنجم عن ذلك (11) مليون عاطل عن العمل في الاتحاد الأوروبي، ومليار عاطل عن العمل، واعتماد أعمال ثانوية على نطاق العالم... واستغلال في عمل الرجال والنساء، والأكثر فداحة، في عمل الأطفال: فهناك (300) مليون طفل يُستغَلون في ظروف تتّسم بقسوة بالغة.

"والعولمة هي أيضاً نهب للكون. فإن الشركات الكبرى تدمّر البيئة بوسائل متمادية: إنها تستثمر ثروات الطبيعة، التي هي ملك مشترك للبشرية، وذلك دون وازع من ضمير، ودونما حدود. وإن ذلك ليترافق بنزعة إجرامية في نطاق المال، ترتبط بأوساط العمل والمصارف الكبرى، التي تدوّر مبالغ تتجاوز ألف مليار يورو سنوياً، أي ما يفوق مجمل الناتج الوطني العام، لثلث البشرية. » (انتهى)

9) المحطة التاسعة، مسؤولية الكنيسة في الشرق والغرب معاً

أسجل بكل أسى، غياب السلطة الكنسية، فردياً وجماعياً، عن مجمل هذه الأحداث المصيرية، في العالم كله، وفي العالم العربي على الأخص. مع أن ما جرى، وما كان يجري على مساحة الوطن العربي كله، منذ بزوغ الكيان الصهيوني في فلسطين، كان كفيلاً بإحياء حتى الموتى في قبورها، هلعاً وحذراً...

بالطبع، لهذا الغياب المؤسف والمزدوج، أسباب كثيرة، وتبريرات أكثر...

إلا أني أرى، في ما يعني الكنيسة الشرقية، أن البنية الكنسية المتوارثة من جهة، وأن الممارسة الفردية "العريقة" للسلطة فيها، من جهة ثانية، جعلتا كل مسؤول كنسي أعلى، يتصرف من وحي ذاته في أحسن الأحوال، وفي أسوئها من وحي بعض المحيطين به... فكان الجميع... دون المسؤولية المطلوبة منهم، بما لا يقاس!

وإلى ذلك، فلم يكن بخافٍ على أي متتبّع للأحداث المتفاقمة، من حروب خارجية واجتياحات، ومن حروب داخلية مروعة، وما نجم عن هذه وتلك، من قتل ومظالم وتشريد وإفقار وإذلال ورعب ويأس... ولا على أي متابع لما كُتب علناً، منذ زمان طويل، سواء في إسرائيل أو في الغرب ذاته، حول مشروع "الفوضى الخلاقة"، أي التدمير الشامل والممنهج للوجود العربي كله؛ بوصفه وجوداً وحسب، على اختلاف مكوناته القديمة والجديدة، وعلى اختلاف انتماءاته الدينية والعرقية والاجتماعية والسياسية، أقول: لم يكن بخافٍ... أن ما حدث، وما يحدث، وما قد يحدث، يستدعي يقظة دائمة، وتأهّباً شديداً، وخطة مدروسة وسبّاقة، تواجه بها الكنيسة جميع الاحتمالات، أو أقلّه جلّها!

ولكم تمنيت من ناحيتي، لو أن رئيسي الكنسي الأعلى، كان قد استجاب، ولو لمرة واحدة، منذ اعتلائه الكرسي البطريركي عام 2000، لدعوتي المتكررة والمكتوبة له، إلى المسارعة مع سائر البطاركة الشرقيين،

إلى عقد مؤتمر دولي حول الصراع العربي- الإسرائيلي، قبل فوات الأوان... وكان قد فات منه الكثير... حتى كانت الجحيم الكونية، المسماة تهكّماً "الربيع العربي"!...

ومع ذلك، فلم تبدر من السلطات العليا في الكنائس الشرقية جميعاً، ولا بادرة واحدة جادة، خارج الاجتماعات "المغلقة"، والبيانات الفضفاضة، بل الخجولة، الفردية منها والجماعية على حد سواء، إزاء حرب كونية صريحة وغير مسبوقة، تستهدف المجتمعات العربية كلها، ولا سيما في سورية، لا وجودها الراهن وحسب، بل حتى معالم تاريخها الفريد، القديم والأصيل...

أولم يكن في هذا الطوفان الكاسح من القتل والرعب والتشريد والتجويع والإذلال، ما يلزم بالضرورة جميع المسؤولين الأعلين في كنائس، هذه بناها، وهذه إداراتها، وهذه عقلياتها، ان يتداعوا، صلاة، وتفكيراً وبحثاً، لمواجهته معاً، بطريقة ما؟...

ولما كانت دواوين المؤسسات الكنسية الشرقية، تفتقر كلها إلى المراجع المختصة بمثل هذا الشأن الفريد والمصيري، كان يتوجّب بالبديهة على مسؤوليها أن يستعينوا بخبراء، معروفين وأوفياء، في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والإعلامية وحتى العسكرية، ممن تخطّوا كل انتماء ديني، إلى انتماء وطني وقومي يُشهَد لهم به، ليتدارسوا وإياهم، خلال أيام وأيام، صيغة الوقفة التاريخية الجديدة المطلوبة منهم، ومنهم وحدهم، بكل أسسها وأبعادها، وتبعاتها، مهما عظمت، لأنها ثمن الوجود!

ترى، لو كانوا فعلوا، ثم أعلنوا وقفتهم تلك على الملأ، بوصفها خياراً مصيرياً، وجودياً، عربياً، مسيحياً، أوحد، أما كانوا اشتروا أنفسهم ومؤمنيهم وأوطانهم جميعاً، وساهموا في انضواء جميع المؤمنين الأوفياء، على اختلاف مشاربهم الدينية، صفاً واحداً مرصوصاً، تحت لواء الشرعية الوطنية والدولية، بدل أن يحوّلوهم، كما هم اليوم، إلى قطعان شاردة، لا تدري ما تفعل؟

وإن لغياب مثل هذه الوقفة، من التأثير المدمّر، ما جعلني أدعوهم إليها علناً، في مؤتمرات رسمية، وحتى على شاشة التلفاز. وعبثاً فعلت. وإني لأجزم بأن مثل هذه الوقفة الواحدة، والقوية، والجريئة، والثابتة، ليس من إنسان واحد لم يكن بحاجة إليها. ففي المجتمعات العربية، الهائجة والمقتتلة والحائرة، كانت وقفتهم تلك قد شكّلت دون أدنى شك، مرجعية روحية هامة، في غياب سائر المرجعيات الإسلامية... وأما في المجتمعات الغربية، فلكَم كان تأثيرها عظيماً، لو كانوا فعلوا، وقد أُعطوا أن يتكلموا أمام أعضاء من الكونغرس الأميركي، وحتى أمام أوباما!...

إلا أن تأثيرها الأكبر كان يكون على الكنائس الغربية كلها، الغارقة في عقدة ذنبها الهائلة حيال اليهود والصهيونية وإسرائيل، من جهة، وفي تبعية عمياء لدولها، وكأني بها تريد بهذه التبعية أن تنسي مجتمعاتها، الاستبداد الذي مارسته بحقّها طوال قرون من جهة ثانية، فضلاً عن غرقها في تخمة مادية عارمة، أنستها المسيح ومقتضيات إنجيله القاطعة، وممارسات دولها الظالمة بحق شعوب برمّتها، من جهة ثالثة...

ويؤسفني أن أقول إن شيئاً من كل هذا لم يحدث، ولا بحدوده الدنيا.

وأما ما كان يصدر هنا وهناك، من بيانات وتصريحات مرتجلة أو مكتوبة، فردية أو جماعية، من هذه السلطة الكنسية أو تلك، فلم يكن يوماً بمستوى الحدث، ولا بمستوى توقّع الناس. بل كان في بعضه من التزلّف والتوسل لطغاة الأرض، ما لا يليق بمسؤول كنسي يمثّل يسوع من جهة، ويعرف من جهة أخرى أن وجود كنيسته مهدّد فعلياً، لا على المدى البعيد، بل على المدى المنظور... قتلاً أو تهجيراً... هذا، ما لم يكن هو نفسه، للأسف، مَن يُنظّم الهجرة لبعض مؤمنيه!

أخيراً، قطعاً لكل مزاودة أو سجال نافلين، رأيت أن أورد وثيقتين، كما في المحطات الثماني السابقة، تاركاً لقرائها استخلاص الرأي بهذا الشأن.

وثيقة أولى، بيان صادر عن ثلاثة بطاركة شرقيين

هم أصحاب الغبطة: يوحنا يازجي، وأفرام الثاني، وغريغوريوس الثالث لحام... وقد صدر البيان بتاريخ (2016/8/23):

« منذ بداية الأزمة السورية عام 2011، زاد تأثير العقوبات الاقتصادية والمالية على الحياة المعيشية في سوريا، مّما شكل عبئاً أثقل كاهل الشعب السوري وضاعف معاناته. وهذه العقوبات تشكل وجهاً آخر للأزمة، وتهدف إلى فرض الضغط على الأفراد والمؤسسات والشركات، وبالتالي على الشعب بأسره.

إن غياب الاستثمارات الجديدة وحظر الرحلات الجوية إلى سورية، بالإضافة إلى تقليص حجم التصدير إليها، وإدراج أسماء بعض الشركات السورية على القائمة السوداء للتجارة الدولية، يُعدّ من الخطوات الاقتصادية التي تعزل سورية عن المجتمع الدولي. كذلك، فإن إغلاق معظم السفارات الغربية في سورية، وسحب موظفيها والعاملين فيها، يضيّق على العلاقات الدبلوماسية، ويصبّ في عزل سورية عن المجتمع الدولي، ويحدّ من علاقاتها الخارجية. كما أن منع التداولات المصرفية الدولية مع سورية، يضع الشعب في ضيقة اقتصادية، مما يفقر المواطن ويهدّد لقمة عيشه وكرامته الإنسانية.

وقد نتج عن ذلك موجة من الغلاء الفاحش، وتقلّص قدرة المواطنين السوريين على الحصول على موارد أساسية للحياة، بسبب انخفاض سعر الصرف وتأثيره المباشر على القيمة الشرائية، الأمر الذي حمل أبعاداً خطيرة انعكست على المجتمع السوري في جميع شرائحه وفئاته كافة، وطالت كل نواحي الحياة اليومية والمعيشية. كما أدّت إلى ظهور مشاكل اجتماعية جديدة.

وإذا كانت الأهداف الرئيسية لفرض هذه العقوبات، سياسية، فهي قد طالت الشعب السوري، والطبقة الفقيرة والكادحة من الناس، بشكل خاص وحاد، في أمور حياتهم اليومية من غذاء واستشفاء. وبالرغم من صمود الشعب السوري في وجه المحنة، إلا أن الحالة الاجتماعية تزداد سوءاً، ويزداد فقر

الشعب السوري ومعاناته الإنسانية. وهذا دفعنا، نحن البطاركة الثلاثة المتخذين من دمشق مقراً لنا، حيث نعاين عن كثب ما يعانيه السوريون من جميع الأديان والمذاهب، إلى إعلاء صوتنا في هذا النداء الإنساني، مطالبين برفع العقوبات الاقتصادية عن أبناء سورية المتمسكين بأرضهم وتراب أجدادهم، وحضارات عمرها آلاف السنين.

يأتي نداؤنا هذا دعوة لاتخاذ إجراءات غير عادية، وقرارات شجاعة وحكيمة ومسؤولة، ذات بُعد إنساني يستند إلى شرعة حقوق الإنسان والمواثيق الدولية، من خلال رفع العقوبات الاقتصادية عن سورية. فهذا سيلبّي تطلعات أبناء الوطن بتحسين وضعهم المعيشي، ويزيد من تجذّرهم في أرض الآباء والأجداد، ويساعد في إعادة اللحمة بين أبناء الوطن الواحد، ويحدّ من استغلال مأساة الشعب السوري، من قبل المجموعات التي لا تريد الخير لهذا البلد، ويسهّل عملنا كمؤسسات كنسية وإنسانية، في التداول بالمساعدات الإنسانية وإيصال الأدوية النوعية والمعدات الطبية إلى من يحتاجها في جميع أنحاء الأراضي السورية. إن نداءنا هذا ينسجم مع، ويلاقي رغبة عدد من الدول والمؤسسات الإنسانية، بمساعدة الشعب السوري الذي يعاني من وطأة الأزمة، ويساهم في التخفيف من معاناته ومعالجة الأضرار الناجمة عن الأزمة.

نأمل أن يتجاوب المجتمع الدولي مع صرخة السوريين الإنسانية: كفى حصاراً اقتصادياً على الشعب السوري، وارفعوا العقوبات الدولية عن سورية، واسمحوا لهذا الشعب أن يعيش ويتمتع بالكرامة، التي هي حق أساسي لكل شعوب العالم.

دمشق، 23 آب 2016

غريغوريوس الثالث	إغناطيوس أفرام الثاني	يوحنا العاشر
بطريرك الروم الملكيين الكاثوليك	بطريرك السريان الأرثوذكس	بطريرك الروم الأرثوذكس »

وثيقة ثانية: بيان لمؤتمر الأساقفة الكاثوليك في أميركا

صدر بيان عن اللجنة الإدارية لمؤتمر الأساقفة الكاثوليك في أميركا بتاريخ (2013/9/10)، تحت عنوان: "تصريح حول سورية".

جاء فيه بالحرف الواحد:

« تصريح حول سوريا

مؤتمر الأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة

اللجنة الإدارية

10 أيلول/ سبتمبر 2013

اجتمعت اللجنة الإدارية لمؤتمر الولايات المتحدة للأساقفة الكاثوليك في أيلول/ سبتمبر 2013، في العاصمة واشنطن، وعلى بعد ثلاثة أميال فقط، من مبنى الكابيتول، حيث يناقش الكونجرس قراراً، يجيز استخدام القوة العسكرية في سورية. اليوم صلّينا لقادة دولنا، وللكنيسة والشعب في سورية. بعد أن شاركنا للتو، مع شعبنا، في "يوم الأب الأقدس للصلاة والصوم من أجل السلام في سورية، والشرق الأوسط والعالم"، يوم 7 أيلول- سبتمبر، ونحن نلزم أنفسنا بمواصلة الصلاة والعمل، من أجل السلام في الأيام المقبلة.

وحيث إن دولتنا تعتزم التدخل العسكري، نحن نقف تضامناً مع الكنيسة والشعب في سورية، ومع أبينا الأقدس فرانسيس، وأساقفة الشرق الأوسط. نؤكد أعمال ورسائل رئيسنا، الكاردينال "تيموثي دولان" (Timothy Dolan)، ورئيس لجنتنا من أجل العدالة الدولية والسلام، المطران "ريتشارد اي. باتس" (Richard E. Pates)، والآن نضمّ صوتنا الجماعي إلى رغبتهم في الحوار الوطني.

الأسلحة الكيميائية لا مكان لها في ترسانات أسرة الأمم. ليس هناك شك في أنّ استخدام الأسلحة الكيميائية في سورية، كان جريمة بشعة ضد الإنسانية. حيث أعلن البابا فرانسيس: "بمنتهى الحزم، إنني أدين استخدام الأسلحة

الكيميائية، أقول لكم إن تلك الصور الرهيبة من الأيام الأخيرة، قد كوَت مني العقل والقلب. هناك حكم الله والتاريخ على أفعالنا، ولا مفر منهما أبداً!".

بكل أسى، إن الوفيات الناجمة عن الأسلحة الكيميائية، ليست سوى جزء من القصة المؤلمة لسورية هذه الأيام... فَقَدَ أكثر من /100.000/ من السوريين حياتهم. وفرّ أكثر من /2/ مليون من البلاد كلاجئين. ونزح أكثر من /4/ ملايين داخل سورية، عن ديارهم بسبب العنف. كارثة إنسانية تتكشّف في سورية. ندعو دولتنا والمجتمع الدولي لإنقاذ الأرواح، عن طريق الضغط لحوار جاد لإنهاء الصراع، من خلال الامتناع عن تأجيج المزيد من العنف مع الهجمات العسكرية أو عمليات نقل الأسلحة، وتقديم المزيد من المساعدات الإنسانية.

لقد استمعنا إلى نداءات عاجلة من أبينا الأقدس فرانسيس، ومن إخوتنا المتألمين، أساقفة الكنائس المسيحية الجليلة القديمة، وبرجاء موحّد، فإنها تلحّ على المجتمع الدولي عدم اللجوء إلى التدخل العسكري في سورية. لقد أوضحوا أن الهجوم العسكري سوف تكون له نتائج عكسية، وسوف يؤدي إلى تفاقم حالة مميتة بالفعل، وسيكون له عواقب سلبية غير مقصودة. قلقهم هذا سيرجع صداه بقوة في الرأي العام الأمريكي، ما من شأنه التشكيك في الحكمة من التدخل مع عدم وجود دعم دولي.

نتذكّر قبل عقد من الزمن، عندما حذّر الكرسي الرسولي، والكنيسة في الشرق الأوسط، بإلحاح شديد، من عواقب "لا يمكن التنبؤ بها"، و"خطيرة"، من غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة... كنا نشارك حكومتنا هذا القلق. على الرغم من أن سورية ليست العراق، والقرار أمام الكونغرس يدعو إلى هجوم محدود، وليس غزواً، فإنّ التحذيرات التي نسمعها من الكرسي الرسولي والأساقفة المحليين في المنطقة متشابهة؛ إنها تشكك في احتمال نجاح استخدام القوة العسكرية، في تقصير النزاع وإنقاذ الأرواح. ونحن ندرك العبء الثقيل الذي سينتقل إلى الجيش وأسرهم أيضاً.

لهذا السبب، نحن نتبنّى نداء البابا فرانسيس: "أنا أحثّ المجتمع الدولي على بذل كل جهدٍ ممكن، لتعزيز مقترحات واضحة لتحقيق السلام في ذلك البلد، دون مزيد من التأخير، السلام القائم على الحوار والتفاوض، من أجل خير الشعب السوري بأكمله. وعسى ألاّ يُدّخر أي جهد لضمان المساعدة الإنسانية إلى المصابين من جراء هذا النزاع الرهيب، ولا سيما أولئك الذين أُجبروا على النزوح، والكثيرين من اللاجئين في البلدان المجاورة".

ويقرّ قرار الكونغرس أنّ "الصراع في سورية لن يتمّ حلّه إلا من خلال تسوية سياسية عن طريق التفاوض"، بدلاً من استخدام القوة المسلحة. يجب أن تعمل دولتنا مع المجتمع الدولي، وتوجّه جميع قدراتها الدبلوماسية الكبيرة، لبدء الحوار والتفاوض. فاستخدام القوة هو دائماً الملاذ الأخير، وينبغي استخدامها فقط من قبل السلطة الشرعية، وفقاً للمعايير الدولية. إنّ غياب الإجماع الدولي والوطني في هذه الحالة هو مقلق للغاية. وإن المقترحات الدولية الأخيرة لتأمين وتدمير الأسلحة الكيميائية في سورية، تستحقّ التقدير والتشجيع والاهتمام الجدّي.

نؤكّد على الموقف الثابت لمؤتمرنا، إن الشعب السوري بحاجة ماسّة إلى حلّ سياسي. نطالب الولايات المتحدة بالعمل مع الحكومات الأخرى للوصول إلى وقف إطلاق النار، والشروع في مفاوضات جادّة، وتقديم الدعم الإنساني المحايد، وتشجيع الجهود الرامية إلى بناء مجتمع شامل في سورية، يحمي حقوق جميع مواطنيه، بما في ذلك المسيحيين والأقليات الأخرى.

وكما يواجه الكونغرس التحديات المعقّدة، والكارثة التي اجتاحت سورية، نقدّم صوت الكنيسة الجامعة، وصلواتنا من أجل السلام. » (انتهى)

الفَصْلُ التَّاسِعُ

هل من مخطط إلهي في الصوفانية (1982-2017)؟

يبدو لي، بادئ ذي بدء، من الضروري أن أواجه اعتراضين وجيهين، الأول يأتي في نطاق الوقائع المادية، والثاني في نطاق المفهوم اللاهوتي.

ما عنيت بالوقائع المادية، هو كل ما يتعلق بمجمل ما جرى من أحداث في حي الصوفانية بدمشق، منذ أواخر تشرين الثاني عام 1982، حتى 2014/4/17...

ذلك بأنه جرى حقّاً في أحد بيوت هذا الحي، ما لم يتوقعه إنسان، حتى إن الكثيرين إلى اليوم من شهر أيار عام 2017، يرفضون تصديقه، بل هم لا يريدون أن يحاولوا معرفة ما جرى فيه، أو ما قد يكون جرى فيه. إنه رفض مبدئي، يصعب على أي باحث تأسيسه على مبدأ عقلي أو علمي، أو حتى نفسي. إنه الرفض للرفض!

إلا أن ثمة أموراً غريبة، منظورة وملموسة، جرت في هذا البيت، بدءاً من يوم السبت 1982/11/27، فجلَبَت إليه تلقائياً، ليلاً ونهاراً، وذلك على مدى أيام وأسابيع وأشهر، آلافاً من الناس. فشاهد الكثيرون، وتابع الكثيرون في دهشة وصلاة، وما زالوا حتى اليوم. وأعرض الكثيرون، وأنكر الكثيرون، واعترف الكثيرون، بل وشهد الكثيرون!...

وكان هؤلاء "الكثيرون"، بادئ ذي بدء، كلهم دمشقيّين، مسيحيّين من جميع الكنائس، ومسلمين ويهوداً. ثم قَدِم أناس من مدن وبلدات سورية أخرى، من حلب، وحمص، وحماة، ومن الجزيرة، وخبب ودرعا والسويداء...

ثم قدِم الكثيرون من الأردن، ومن لبنان، ومصر والعراق وإيران. ثم قَدِم أناس من الولايات المتحدة وكندا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وبلجيكا واستراليا وسويسرا والبرازيل، والسويد والدانمارك والنروج وروسيا وبولندا...

وكانوا خليطاً عجيباً من أناس عاديين ومرموقين، جلبتهم المعجزة، تحدث في أرض عربية، وفي دمشق تحديداً. وكان بينهم إعلاميّون، ولاهوتيّون، وأطبّاء تعدّدت اختصاصاتهم، بين التصوير الشعاعي والتشريح المرضي، والتحليل المخبري، والجراحة العامة، وجراحة القلب والأعصاب، وطب العيون والقلب، والأعصاب والغدد والكلى، والطبّ النفسي والتحليل النفسي...

إلاّ أنّ أول من جاء، قبل أن ينتشر الخبر، كان أسقفاً ممثِّلاً لأحد البطاركة، برفقة كاهنين شابين...

ثمّ قَدِم مع جماهير الناس، كهنة كثيرون...

في هذه الأثناء، كانت الأحداث والوقائع تتكشّف عن مفاجآت جديدة، خارقة، أعقبت انسكاب زيت معطّر على نحو شبه دائم، من صورة صغيرة للسيدة العذراء وهي تحمل الطفل يسوع. ولقد كانت تلك الصورة نسخة من أيقونة سيدة قازان، شفيعة روسيا، ولكنا كنّا نجهل حينئذ أصلها واسمها الحقيقيّين، فأطلقنا عليها الاسم المتواضع الذي بات يلازمها حتى اليوم، وهو اسم الحارة الصغيرة والمغمورة التي يقوم فيها هذا البيت، فباتت تعرف باسم "سيدة الصوفانية".

وأما الأحداث والوقائع التي أشرت إليها للتو، فقد كانت:

1. خمسة ظهورات للسيدة العذراء، خصّت بها صاحبة الأيقونة العجائبية، واسمها ميرنا الأخرس، زوجة نقولا نظور الفتيّة. وقد حمّلتها خلالها أربع رسائل، متفاوتة الطول والمضمون، بعضها باللغة العربيّة الفصحى، وبعضها باللغة العامية. وتلك كانت هي المرة الأولى التي تتكلّم فيها السيدة العذراء، اللغة العربية منذ ألفي عام.
2. حدوث أشفية، في البيت وخارج البيت، من أمراض مختلفة، مستعصية، كان أولها شفاء امرأة مسلمة.

3. حدوث حالات غيبوبة لميرنا، ينسكب خلالها الزيت من وجهها ويديها، وذلك بمرأى من الجميع وحضورهم، فتفقد شيئاً فشيئاً البصر والسمع والحس. وقد تفاوتت مدّة هذه الغيبوبة بين خمس دقائق وساعة ونصف الساعة. وقد أطلقنا على هذه الحال من الغيبوبة، اسم "الانخطاف"، المستخدم في لغة اللاهوت. وكنّا أبداً نستدعي أطبّاء من دمشق ومن مختلف الاختصاصات، وقد كتب الكثيرون منهم شهاداتهم، وأدلوا بآرائهم. وجاء يوم بات فيه الأطبّاء على اختلاف اختصاصاتهم، يأتون من مختلف بلدان العالم، وقد كتبوا بدورهم تقاريرهم وشهاداتهم.

وكانت ميرنا، عند استعادتها وعيها، تخبرنا بما رأت، وكان إما نوراً ساطعاً، وإما السيدة العذراء، وكانت أبداً تحمّلها رسالة بالعربية، كانت تمليها علينا بحرفيتها. وبدءاً من 31 أيار عام 1984، سبق هذه الحالات من الغيبوبة، انسكاب زيت من عيني ميرنا أيضاً، فضلاً عن وجهها ويديها. وقد اتضح لنا أن انسكاب الزيت من عينيها، كان إيذاناً بمشاهدتها السيد المسيح خلال الانخطاف. وكان السيد المسيح أيضاً يملي عليها رسائله بلغة عربية فصحى. ولا بدّ لي من الإشارة إلى أن حالات الانخطاف هذه، قد حدثت لميرنا (37) مرة، ما بين يوم الجمعة 1983/10/28، ويوم الخميس العظيم 2014/4/17.

4. ظهور جراح في جسم ميرنا، في راحتي يديها، ووجه قدميها، وفي جنبها الأيسر. وقد حدث ذلك أول مرة، يوم الجمعة 1983/11/25. ثم تجدّد حدوثه في السنوات التي كان جميع المسيحيين يحتفلون فيها بعيد الفصح في تاريخ واحد، أي في الأعوام 1984، 1987، 1990، 2001، 2004. وقد حدث لها في عامي 1987 و1990، أن انفتحت الجراح في جبينها أولاً. وكانت جميع الجراح تلتئم كلياً، إما في اليوم نفسه، وإما في اليوم التالي، وذلك دون اللجوء إلى أي وسيلة طبية.

والجدير بالذكر أن جميع هذه الحالات قد صُوّرت وسُجّلت من باب

التوثيق، وقد جلبت شيئاً فشيئاً، العديد من الأطبّاء والإعلاميّين، واللاهوتيين، من بلدان غربية، مثل فرنسا، وإيطاليا، والولايات المتحدة، وألمانيا، والنمسا، وكندا، والبلدان الاسكندنافية.

وقد كتبوا جميعهم تقاريرهم، بل إن بعضهم وضع كتباً حول هذا الحدث، وقد ترجم بعضه إلى عدد من اللغات. وقد اعترفوا جميعهم بعجزهم عن تقديم أي تفسير علمي أو طبي، لجميع هذه الحالات الاستثنائية، علماً بأنهم جميعاً يُجمِعون على الاعتراف بأن ميرنا إنسان طبيعي، لم يعانِ يوماً، ولا يعاني اليوم من أي خلل مرضي، جسدياً كان أم نفسياً.

وهنا نفضي إلى دنيا اللاهوت، بعد أن استنفدت جميع العلوم الطبية والنفسية، قدراتها بهذا الشأن.

والمعروف أن الشأن اللاهوتي هو من اختصاص الكنيسة.

بالطبع، للكنيسة المحلية المرجعية الأولى والدور الحاسم في هذا الأمر.

وهنا يبرز دور الكنيسة الأرثوذكسية في دمشق، لأن زوج ميرنا ينتمي إلى كنيسة الروم الأرثوذكس.

والحق يقال أن هذه الكنيسة كان لها في بادئ الأمر، حضور فعّال، بمجيء نائب البطريرك آنذاك، المطران بولس بندلي، يرافقه كاهنان شابان، منذ اليوم الأول لانسكاب الزيت. ثم تعاقب حضور الكهنة الأرثوذكس طوال شهر، للصلاة مع جمهور المؤمنين في البيت، أمام الأيقونة العجائبية. ثم كان أن استقبل البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم ميرنا ونقولا في مكتبه الخاص، بتاريخ 1982/12/30. وفي اليوم التالي، صدر بيان رسمي عن البطريركية، يقرّ بحدوث ما سُمّي فيه "رؤية غير عادية" في وصف انسكاب الزيت، ويؤكّد أيضاً على ضرورة تشكيل لجنة طبية ولاهوتية بإشراف السلطة الكنسية المسؤولة، لمتابعة الحدث، ويوعز أخيراً بضرورة نقل "الأيقونة المقدسة" - كما جاء وصفها في البيان - من البيت إلى كنيسة الصليب المقدس. وبالفعل نقلت الأيقونة إلى كنيسة الصليب صباح يوم الأحد 1983/1/9، في موكب عظيم، وظلّت في الكنيسة تجلب المصلّين من كل حدب وصوب، حتى يوم الإثنين

1983/2/21، حيث أعيدت إلى البيت في تكتم تام، يحملها كاهنان أرثوذكسيان. ويؤسفني أن أشير إلى أنّ اللجنة الطبية واللاهوتية التي دعا البيان إلى تشكيلها، ظلّت حتى اليوم من عام 2017، حبراً على ورق.

ولكن ثمة مراجع لاهوتية، أرثوذكسية وكاثوليكية، تدخّلت منذ ذلك الحين في متابعة الظاهرة. ولم يكن المرجع الأرثوذكسي سوى اللاهوتي والمحامي الأرثوذكسي المعروف، اسبيرو جبور، الذي ارتأى أن يتابع الحدث، ويدافع عنه، وطالب في رسائل خصّ بها المراجع العليا في الكنيسة الأرثوذكسية، برعايته وإحاطته بالعناية الضرورية.

ولا بد لي هنا، من الإشارة الصريحة والسريعة، إلى أن مرجعاً أرثوذكسياً آخر، كبيراً بحجم البطريرك المرحوم زكا عيواص الأول، قد تدخل أيضاً، ولكن خلال شهر آب من عام 1987 فقط. ومع أن تدخّله ذاك، امتدّ تأثيره القوي والإيجابي، بسرعة فيما بعد، على امتداد كنيسته الواسع، في الشرق العربي والخليج، والبلدان الأوربية، وكندا، والولايات المتحدة، وأستراليا، وحتى الهند، فإني أؤثر تجنّب الحديث عنه، في هذه المرحلة الأولى من انطلاقة الحدث.

وأما الجانب الكاثوليكي المسؤول في دمشق، فقد ارتأى الانحجاب، ريثما يتضح موقف السلطة الأرثوذكسية...

غير أن السفير البابوي بدمشق، وكان يومها المطران نقولا روتونو، تدخّل على غير ما هو مألوف من المسؤولين في روما، وطلب مني في رسالة شخصية لا تحمل توقيعاً، خلال شهر تموز من عام 1984، تقريراً مفصلاً وسرياً عن الحدث.

وكان أن تابع تدخّلاته، ولكن في تكتّم تام، حتى مغادرته دمشق في شهر أيلول عام 1987. وقد تواصل هذا التدخل من خلال السفيرين البابويّين اللذين خَلَفاه من عام 1987 حتى عام 1999، ولكن على نحو مكشوف، إذ كان كل منهما لا يتورّع عن حضور الصلوات التي كانت تقام في الذكرى السنوية، في مختلف كنائس دمشق الكاثوليكية. بل إن ثاني هذين السفيرين، وهو المطران "لويجي

أكولي"، قد أقام في روما، مركزاً باسم "الأب بيو – سيدة الصوفانية لحوار الأديان"، وقد دُشّن في احتفال رسمي يوم الأحد 1999/10/15، بحضور كرادلة مسؤولين وشخصيات كاثوليكية، ووسائل إعلام رسمية، فيما كانت ميرنا حاضرة، وقد انسكب يومها الزيت من يديها أمام دهشة الجميع.

ولا بد من الإشارة إلى أن ميرنا دعيت منذ عام 1988 لزيارة بلدان كثيرة، استجابة لأمر الرب الذي قال لها مساء 1987/11/26:

"اِذهبي وبشّري في العالم أجمع، وقولي بلا خوف أن يعملوا من أجل الوحدة".

إلا أنها لم تكن لتغادر دمشق إلاّ بدعوة رسمية ومكتوبة من مطران كاثوليكي، يتولّى مع مؤمنيه أمر زيارتها. وكان زوجها نقولا يرافقها على نحو شبه دائم، كما أنّ كاهناً من دمشق كان يرافقها، وقد رافقها أيضاً في جولتها في أستراليا عام 1993، المطران جورج رياشي بالذات. وبذلك، أتيح لميرنا أن تزور حتى اليوم من عام 2017، خمس عشرة مرة الولايات المتحدة، وتسع مرات كندا، وعشرات المرات البلدان الأوروبية، مرتين استراليا، وعشرات المرات أيضاً العديد من البلدان العربية... وكانت الحشود تتجاوز بعددها وهدوئها وتجاوبها كل تصوّر، مما حملني مراراً على الاعتراف لهم بأنهم في الغرب ينامون على بحار من الإيمان، ينتظر من يفجّره، مثلما أننا نحن العرب ننام على بحار من... النفط!

وهنا، لا بد لي من العودة إلى السؤال الكبير، الذي افتتحتُ به هذه الفقرة من بحثي، وهو:

هل في حدث الصوفانية جواب ما، أو بعض جواب على ما حدث ويحدث منذ ست سنوات ونيف، في سورية خاصة، وفي الشرق العربي عامة، من تفتيت وتدمير وتقتيل وتشريد، يخضع كله لمنهجية صارخة، ومن تهجير مقصود للمسيحيين من الشرق كلّه، بقصد تذويبهم في غرب ماتت فيه القيم الروحية والأخلاقية على نحو صارخ، على كل صعيد؟

السؤال كبير وخطير، وإني لأواجهه بكل ثقة، وأقول بصريح العبارة، دون أي لبس:

أجل، هذا السؤال يجد في حدث الصوفانية أكثر من جواب!

فالحدث في حد ذاته، من حيث توقيته، ووحدته على تعدّد مظاهره، ومن حيث ديمومته، وكثافته، وموقعه، ينطوي على دلالات كثيرة، يستحيل تجاهلها، أو تحجيمها، أو تغييبها...

ولا بدّ من الإشارة، قبل أي شيء، إلى المتابعات الكثيرة التي خضع لها، أولاً في نطاق دمشق، من قبل السلطات الكنسية والأمنية، ومن قبل المراجع العلمية والطبية، ومن ثم من قبل المراجع الكنسية العليا، بدءاً من المسؤولين الأعلين في السفارة البابوية بدمشق، وعن طريقهم، من قبل المراجع المختصة في روما... ثم كان من تأثير هذا الحدث وأصدائه، أنه جلب إلى دمشق، العديد من الأطباء والعلماء واللاهوتيين والإعلاميين، من بلدان كثيرة، بدءاً من لبنان والأردن ومصر، ومن ثم من الولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا وكندا وألمانيا والنمسا وبلجيكا وروسيا والبلدان الاسكندنافية. والمعروف أن جميع من أتى من هذه البلدان كانوا في الحدود الدنيا، مشكّكين، فيما كان غيرهم مصرّاً على تفسير أحداث هذه الظاهرة، بعوامل نفسية، وطبية واجتماعية ليس إلاّ... وقد انتهى الأمر بهم جميعاً إلى التسليم بعجز العلوم الفيزيائية والطبية والنفسية عن تقديم أي تفسير معقول ومقبول. وقد مضى الأمر بعدد منهم، من أطبّاء ولاهوتيّين وإعلاميّين، إلى وضع مؤلّفات كاملة، بل وإلى إنتاج أفلام تلفزيونية، أيّدوا فيها الأبعاد الدينية والروحية والإنسانية، التي تنطوي عليها هذه الظاهرة.

وفي عودة كثيفة إلى الحدث، أقول:

إنه يحدث في دمشق... ولدمشق في التاريخ البشري العام، وفي التاريخ المسيحي الخاص، وفي التاريخ المسيحي- الإسلامي المشترك، ما ليس لأي مدينة أخرى على وجه الأرض...

والحدث فاجأ الجميع، وانطلق في فترة تاريخية محددة، عرفت فيها سورية اضطرابات خطيرة ودامية، طويلة، اتضح بمرور الزمن، وبتتابع الأحداث اللاحقة، أنها كانت البوادر الأولى لما سمّي لاحقاً في سخرية جهنمية "الربيع العربي"!

ثم أنّ هذا الحدث المفاجئ، تواصل بوقائع جديدة، مادية وروحية، متعدّدة ومتكاملة، شهدها عشرات الألوف من الناس، من سورية ولبنان والأردن ومصر أولاً، لم يسبق أن حدث ما يشبهها أو يقاربها، منذ ألفي عام إلى اليوم، في طول العالم المسيحي وعرضه، على كثرة وتنوّع ما حدث فيه من خوارق وظهورات للسيدة العذراء وللسيد المسيح!

وقد استطال هذا الحدث على نحو غير مألوف، فبلغ من العمر، إن جاز التعبير، مع مفاجأة أسبوع الآلام من عام 2014، ما يعادل عمر يسوع في فلسطين لألفي سنة خلت، أي ثلاثاً وثلاثين سنة!

أتراه يحمل في طياته ما يكاد يكون تجسّداً جديداً ليسوع في زماننا هذا الحاسم والمصيري، بكل ما ينطوي عليه هذا "التجسّد الجديد"، ممّا انطوى عليه تجسّده السابق في فلسطين، من تذكير بأولوية الله في كل شيء، وبيقين حبّه لكل إنسان، كي يعمّ السلام، وتتّحد الأسرة البشرية كلها، ومن تصميمه على فداء البشرية جمعاء على الصليب، ومن وعدٍ له صريح بانطلاقة نوره من جديد، من دمشق إيّاها إلى العالم بأسره؟

أعرف أن مثل هذا الكلام قد يبدو للكثيرين، هلوسة تدغدغ عقول من أخلّت بتوازنهم العقلي والنفسي، الأحداث الرهيبة، غير المألوفة، التي عصفت وتعصف منذ ست سنوات ونيف، بكل حي من أحياء سورية، حتى تلك التي حافظت على شيء من السلامة والهدوء، وبكل إنسان فيها، حتى ذاك الذي هجرها، وبات على بعد آلاف الكيلومترات منها!

مع ذلك، أعود فأقول بكل ثقة وجرأة، إن لفي هذا الحدث العظيم الذي يجري في دمشق منذ أواخر شهر تشرين الثاني عام 1982، ما يشير بكل وضوح إلى مخطّط إلهي صريح، كشفت عنه في جلاء مطلق، الرسائل التي واكبت هذا الحدث، والتي نطقت بها السيدة العذراء أولاً، ثم السيد المسيح، على مدى سنوات طويلة، قد تفاجئنا الأيام الآتية، بمزيد منها!

وإن هذا المخطط الإلهي، ليرتسم بجلاء في مواجهة مخطط بشري، وضعه بعض "المتجبّرين والمتسلّطين" من حكام الأرض في الغرب، وعلى رأسهم من يحكمون الولايات المتحدة، وخصوصاً من يتحكّم بهم!

ومن كان في شك من صحة هذا المخطط البشري للتحكم بالأرض كلها، ليس له إلا أن يكلف نفسه ويقرأ بعض ما كتب بهذا الشأن باحثون أميركيون وغربيون لا يجوز لأحد أن يجهلهم، ولا خصوصاً أن يجهل أو يتجاهل ما تجرأوا وكتبوا. حسبي أن أشير إلى بعض هذه الأبحاث المشهورة:

1- **"من يجرؤ على الكلام" الكاتب الأميركي بول فيندلي، عام 1987.**

2- **"إخفاقات مقصودة"، لبول فيندلي أيضاً، عام 1993.**

3- **"أميركا في خطر"، لبول فيندلي أيضاً، عام 2011.**

4- **"إمبراطورية العار" للباحث السويسري جان زيغلر عام 2005**

5- **"كراهية الغرب" " " " عام 2008**

6- **"تدمير شامل" " " " عام 2011**

7- **"الهويات القاتلة"، للباحث اللبناني الفرنسي أمين معلوف، عام 2009**

8- **"اختلال العالم" " " " " عام 2011**

9- **"الكابوس الأميركي"، للباحث الأميركي "روبرت دول"، عام 1997.**

10- **"بركان الشرق الأوسط"، للباحث الأميركي نعوم تشومسكي عام 2007.**

11- **"حروب القرن الحادي والعشرين"، للباحث الفرنسي اينياسيو رامونيه، عام 2002.**

12- **"الإرهاب الأميركي"، للباحث الفرنسي اميل فلاجكي، عام 2003.**

13- **"مجتمع الخراف-الذئاب"، للباحث الفرنسي اميل فلاجكي، عام 2005.**

14- **"سيريانا"، للباحث البلجيكي بهار كيميانكور، عام 2011.**

15- **"تهديدات لمسيحيي العراق"، للباحث السوري الفرنسي جوزيف يعقوب، عام 2003**

16- **"الإبادة المنسية: مسيحيو الشرق، آخر الآراميين"، للباحث الفرنسي "سيباستيان كورتوا" عام 2002**

17- **"مجموعة بيلدربرغ"، "نخبة السلطة العالمية"، للباحث الإيطالي "دومينيكو مورو" عام 2014**

بالطبع، لمخططات البشر، قوى وأسلحة، ونفقات، لا يعرف بعض حقيقتها إلاّ القلّة القليلة من الناس.

أما مخطط الله، فهو أبداً، كما جرى في فلسطين منذ ألفي عام، يحدث في تواضع لا يدركه إلاّ... الله، وفي توقيت لا يحدّده إلا الله، وبأدوات متناهية الهشاشة، لم تكن يوماً من صنع البشر!

وما أستند إليه في هذه الطروحات... البعيدة عن كل واقعية بشرية، ليس سوى الكلمات القليلة التي تفوّهت بها السيدة العذراء أولاً، ثم تفوّه بها السيد المسيح، على مدى سنوات بلغت ثلاثاً وثلاثين، في دمشق، ثم خارج دمشق، ولكن أبداً ودائماً ضمن هذا الحدث الفريد، حدث الصوفانية...

وقد آن لي أن أستعرض أهم هذه الرسائل بحرفيتها، تاركاً أحياناً لكلماتها وحدها فتح الآفاق الجديدة، أمام من يريد أن يرى، أو شارحاً هذه العبارة أو تلك، وأحياناً أخرى، طارحاً سؤالاً ما...

1- ليلة 1983/3/24، قالت السيدة العذراء، خلال ظهورها الخامس لميرنا، عبارة، كررها السيد المسيح بحرفيتها، إبان الانخطاف الذي حدث لميرنا، يوم سبت النور 1990/4/14:

« أبنائي،

أنتم ستعلّمون الأجيالَ كلمةَ الوحدةِ والمحبّة والإيمان »

2- خلال الانخطاف الذي حدث لميرنا يوم 1983/11/4، قالت لها السيدة العذراء، هذه العبارة المدهشة، باللغة العامية:

« قلبي احترق على ابني الوحيد، ما راح يحترق على كل أولادي... »

أوَليس في هذه العبارة الصغيرة، ما يُغني عن كل تعليق أو تخمين، مما شاءت السيدة العذراء أن تنذرنا به، من أهوال تنتهي إلى القضاء على الكثيرين، فيما هي تضعهم كلّهم في مصفّ ابنها الوحيد يسوع، محبّةً وقيمةً وقدسيّةً، في الوقت الذي شاءت أن تطمئنَنا فيه، منذ ذلك الحين، إلى أن لهذه الأهوال حدوداً لن يسمح لها الله، في حكمته، بتجاوزها؟...

وهل في ما جرى في سورية، وغير سورية، ما لم يكن تطبيقاً حرفياً لهذا الإنذار، يصدر من السيدة العذراء، منذ عام 1983؟

3- وهنا، أجدني أقفز تلقائياً إلى الرسالة القصيرة و... الكبيرة، التي أملتها السيدة العذراء لميرنا، خلال انخطاف حدث لها إذ كانت في إحدى كنائس بلجيكا، في بلدة تدعى "براسكات"، يوم 1990/8/15، أي يوم عيد انتقال السيدة العذراء إلى السماء، وكانت الكنيسة يومها تغصّ بالغربيين من مؤمنين وفضوليين، وعلى رأسهم كهنة وأطباء. وقد جاء في هذه الرسالة الوجيزة:

« أبنائي،

صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق،

لأنكم كلّكم أخوةٌ في المسيح ».

كان ذلك قبيل الحرب الظالمة على العراق بخمسة أشهر فقط!

وهل هي إلا دعوة للغربيين كي يدركوا أن سكان الشرق وإياهم إخوة في المسيح؟

أوليس هذا ما كان نادى به منذ ألفي عام القديس بولس نفسه؟

فأين المسيحي، وأين المسلم، إذن، في نظر السيدة العذراء؟

أفلا تريد هي، بهذا القول، أن تفهم الجميع أنهم كلهم أخوة في المسيح، الذي هو ابنها بالذات؟

4- في عودة وجيزة إلى الوراء، تستوقفني الرؤيا التي شاهدتها ميرنا خلال انخطاف حدث لها يوم 1987/5/28 في دمشق، وقد أوجزتها للكهنة الحاضرين فقط، بالكلمات التالية، التي سجّلها بحرفيتها الأب بولس فاضل على الفور، فيما كانت ميرنا ترتعد خوفاً وحزناً! قالت:

« جايينا وقت كتير صعب.

مو علينا بس، عكل الناس.

هو قللي.

لازم كتير نصلي.

لأنو باسمو منخلص.

شيء عالمي.

بسورية ككل...

هو حرب، هو جوع...

ما بتخلصوا إلا باسمي...»

هذا بالحرف الواحد، ما أملته ميرنا ليلة 1987/5/28، على الكهنة الحاضرين: الأب يوسف معلولي، والأب بولس فاضل، والأب رزق الله سمعان.

كان ذلك في شهر أيار عام 1987...

هل من ذريعة للتهرب؟

وهل من حاجة لتعليق؟

5- أما انخطاف يوم سبت النور الموافق 2004/4/10، فقد حمل للحاضرين في دمشق، من أطباء ولاهوتيين وإعلاميين غربيين، ومن أطباء وأناس عاديين من سورية ولبنان، رسالة على لسان السيد المسيح، فاجأت الجميع بمضامينها الواعدة، وأحكامها القاسية، ودعوتها الصارمة والواثقة.

وقد جاء فيها بالحرف الواحد:

« وصيّتي الأخيرة لكم:

ارجعوا كلٌّ واحدٍ إلى بيتِه

ولكن احملوا الشرقَ في قلوبِكم.

من هنا انبثقَ نورٌ من جديد

أنتم شعاعُه

لعالمٍ أغوته المادةُ والشهوةُ والشهرة،

حتى كادَ أن يفقِدَ القيمَ.

أما أنتم،

حافظوا على شرقيّتِكم.

لا تسمحوا أن تُسلَبَ إرادتُكم،

حريّتُكم وإيمانُكم في هذا الشرق ».

أعرف تماماً أن مثل هذا الكلام، الصادر عن السيد المسيح منذ عام 2004، من شأنه أن يصدم كل إنسان، أياً كانت ثقافته أو مواقفه السياسية أو علمه... إلا أنه كلام قيل، ولهذا الكلام ثقل يفوق ثقل الكون كله.

وإن كانت لكل وصية بشرية قدسيّة، أياً كان صاحبها، فكيف بها إذا كانت وصية للسيد المسيح، كما ارتأى هو أن يصفَها؟

وإنها لوصية استثنائية، ما كان لأحد أن يتوقّعها، تطلع على العالم كلّه برؤيا تعلن كل كلمة فيها، أن مصير البشرية كلها مهدد، إن لم تجد في الإنسانية كلها من يريد أن يراعيها.

وهل مَن يتقن معرفة خير البشرية، سوى الله، وما يخبئ البشر لأنفسهم، في غرب فقد كلياً مرجعياته الروحية، فسكر بسلطانه، وهو يهدّد به البشر جميعاً، ناسياً أنه، إن لم يرعوِ ويرتدع، فإنما هو يهدد نفسه بالفناء عينه!

وها هو الرب يعلن فجأة عن انبثاق نور من جديد من هذا الشرق عينه، السائر، في الظاهر، إلى الانطفاء الكلي، ومن دمشق تحديداً، في إشارة واضحة إلى النور المفاجئ الذي كان قد انبثق قبل ألفي عام، في دمشق أيضاً، في غير توقّع من مطلق إنسان، والذي انطلق منها إلى العالم في سنوات قليلة...

وها هو أيضاً يحمّلهم مسؤولية العودة بهذا النور إلى غربهم ذاك، الذي قال عنه السيد المسيح في لطفه اللامتناهي، إنه "كاد أن يفقد القيم"...

وهنا لا بد لي من وقفة متأنية إزاء كلمة واحدة ليس إلا، وردت في هذه الرسالة الخطيرة، إذ جاء فيها:

"من هنا انبثق نورٌ من جديد

أنتم شعاعُه لعالَمٍ أغوته المادة والشهوة والشهرة، حتى كاد أن يفقد القيم..."

أما الكلمة التي تستوقفني في هذه الرسالة، فهي كلمة "عالَم"...

ترى، ما الذي يعنيه السيد المسيح بهذه الكلمة تحديداً؟

أهو مجمل المؤسسات الغربية، من اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية وعسكرية وفنية الخ... فقط، أي كل ما ينضوي تحت اسم "مجتمع"، بعيداً عن كل ما له علاقة بالدين، وبالتالي بالكنيسة؟

أم تراه يطوي أيضاً تحت كلمة "عالَم"، كل ما هو في الغرب، بما فيه المؤسسات الدينية والكنسية والروحية؟

أعرف أن مثل هذا الطرح ينطوي في نظر البعض، بل ربما الكثيرين، على تمادٍ فظيع لا مبرر له، إذ كيف للسيد المسيح أن يتّهم كنيسته، بما يتّهم به المجتمع من فقدان للقيم يكاد يكون مطلقاً؟

ومع ذلك، فأنا أرجّح مثل هذا الاتهام دون أي تردد. ذلك بأن اتهام السيد المسيح يتخذ صفة العمومية، التي لا تنفي وجود أفراد كثيرين يتحلّون بقيم راهنة، لا شك فيها.

وفي الكنيسة أيضاً أفراد من أساقفة وكهنة ومؤمنين، يتحلّون دون شك بقيم راهنة، لا مراء فيها.

إلا أن مواقف الكنيسة الغربية جمعاء، إزاء سياسات حكام الغرب، الظالمة، المدمرة والقاتلة، تخلو في نظري، بكل وضوح، من كل قيمة! ذلك بأن الصمت الذي تنتهجه هذه الكنائس حيال هذه السياسات، ليس في مقاييس القوانين البشرية، والشرائع المسيحية، ما يبرّره البتة. وإني لأمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، دون أي تردد، فأقول إنه صمت يبلغ حد التواطؤ. أجل التواطؤ. وإلا فكيف لي أن أفهم أو أفسر الصمت المطبق الذي التزم به جميع مسؤولي كنائس الغرب دون استثناء، طوال الحروب المخزية التي يشنّها الغرب على البلدان العربية عامة، وعلى سورية خاصة؟ هذا، وإن تكلم أحدهم لمناسبة ما، فإنما هو يستخدم كلمات عامة لا تعني شيئاً، سوى

ما قد يكون مسعى لتخدير ضميره وضمائر أمثاله.

وإلى ذلك، فلدي على كل حال، مثال استثنائي في ما حدث خلال زيارة البابا فرنسيس الأولى، إلى الولايات المتحدة، في شهر أيلول من عام 2015. فلقد ألقى خلالها خطباً كثيرة، وكلها مكتوبة، وقد نشرت بحرفيتها في صحيفة الفاتيكان الرسمية، المسماة "المراقب الروماني"، في العدد (40) الصادر في الأول من شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام 2015. ولقد استوقفتني منها، طويلاً، أربع، رأيت أن أعيد قراءتها خمس مرات، في أوقات مختلفة، لئلا أخضع لتأثّر فوري وآني. إنها الخطب التي ألقاها أمام أوباما وزوجته، وأمام هيئة الأمم المتحدة، وأمام هيئة الأساقفة الأميركيين، وأمام الكونغرس الأميركي. وإني لأتحدى أي قارئ أن يجد فيها، فضلاً عن عموميات في السياسة ومخاطر البيئة، لا تقدّم ولا تؤخّر، سوى الشكر والإطراء والاعتزاز!... وأما ما مارسته وتمارسه الولايات المتحدة وأجراؤها من غربيين وعرب منذ عشرات السنين، في العالم عامة، وفي سورية خاصة، من إرهاب منتظم، يقوم على الاجتياح المباشر، كما حدث في العراق، وغير المباشر كما يحدث في سورية، بتجنيدها مئات ألوف المسلّحين، وإطلاق يدهم في قتل وتدمير وتشريد وخطف ونهب واغتصاب، لا يهدأ ولا يني يتمدد ويتمدد، دون أن يلقى إدانة واحدة من قبل المؤسسات الدولية والكنسية، أما كل ذلك، فلم أقرأ للبابا كلمة واحدة بشأنه، وكأني به يعيش على كوكب آخر!

إن لم يوصف هذا الصمت الفاضح بالتواطؤ، فبماذا عساه يوصف؟!

ترى، لو كان السيد المسيح اليوم مكان البابا فرنسيس، في مواجهة أوباما، وهيئة الأمم المتحدة، وهيئة الأساقفة الأميركيين، والكونغرس، أكان سكت وشكر، إزاء ما تفعل الولايات المتحدة وحكومات الغرب، من نشر إرهاب يدمر شعوباً برمتها، بل من نشر أسلحة نووية تهدد البشرية بأسرها، أم كان قلب المنصات والمقاعد على رؤوس أصحابها، كما فعل قديماً في الهيكل؟

ولمن يقول لي، في غباء وجبن: ما من أحد يسمع، أقول: كلمة الحق يجب أن تُقال، حتى لو لم يسمع لها أحد، وهذا بالذات ما فعله السيد المسيح منذ

ألفي عام! لأن اليوم آتٍ، وهو الآن حاضر، الذي يقول جميع الناس فيه: لماذا لم تتكلم الكنيسة، كما كان يفعل السيد المسيح؟ وكما فعل قبله يوحنا المعمدان، وبعده يوحنا الذهبي الفم وأمثاله العظماء؟

أم ننتظر مئات الأعوام من الهول والقتل الممنهجين، حتى يأتي يوم، يطلّ فيه بابا جديد، فيقرع الصدر أمام شعوب الأرض، وهو يستغفر اللّه والبشر، كما فعل البابا يوحنا بولس الثاني في كتاب صدر عنه عام 1997، تحت عنوان "عندما يطلب البابا الغفران"؟

ما نفع توبة مئات البابوات، إن لم تستنهض ضمائر الناس في كل مكان، بدءاً من المسؤولين في كنائس الغرب، وتَحُلْ دون استمرار هذا الطغيان الجهنمي الذي قضى ويقضي بالمجان، على الملايين من خلائق اللّه، المدعوين لحياة كريمة، هانئة، سعيدة، على وجه البسيطة، حياة تليق حقاً باللّه والبشر؟

هذا بعض ما أثار ويثير لدي، من تعليقات وتساؤلات حارقة، القسم الأول من رسالة السيد المسيح في الصوفانية، يوم سبت النور 2004/4/10.

أما قسمها الثاني، فهو يخص أبناء الشرق وحدهم، وقد جاء فيه بالحرف الواحد:

"أما أنتم،

حافظوا على شرقيتكم.

لا تسمحوا أن تُسلَب إرادتكم، حريتكم وإيمانكم في هذا الشرق!"

من حقّ كل إنسان أن يتساءل ما الذي تعنيه كلمة "أنتم"... على لسان السيد المسيح.

بالطبع هناك من يريد أن يرى فيها توجيهاً خاصاً بالمسيحيين.

إلا أني أستبعد هذا الرأي، لا اعتباطاً، ولا استنباطاً عشوائياً، ولكن استناداً إلى العديد من الرسائل التي وردت على لسان السيدة العذراء والسيد المسيح طوال ثلاثين سنة ونيف، بدءاً من الكلمة الأولى التي افتتحت بها السيدة العذراء رسالتها الأولى، يوم 1982/12/18، حيث قالت:

"أبنائي اذكروا الله، لأن الله معنا"...

ولمن يريد أن يرى في كلمة "أبنائي" هذه، المسيحيين وحدهم، أرى لزاماً علي أن أذكّره بالعديد من الرسائل التي وردت على لسان السيدة العذراء، والتي تتقاطع مع رسالة 2004/10/4.

ففي تاريخ 1983/11/24، قالت السيدة العذراء كلمة لها من الشمولية ما لا يدع مجالاً لأي شك في مرماها. يومها كانت سورية تنعم بأمان واسع، ولو نسبي، فقالت السيدة العذراء، بالعامية:

"قلبي احترق على ابني الوحيد، ما راح يحترق على كل أولادي".

تلك الرسالة لا يحقّ لمطلق إنسان، أياً كانت دوافعه، أن يرى فيها ذكراً استثنائياً لفئة من المؤمنين دون غيرها! إنها، بكل وضوح، إعلان صريح تشمل فيه السيدة العذراء جميع سكان هذا الشرق، بحبها وحنانها، على أنهم مساوون لابنها الوحيد يسوع، فيما هي تؤكد من جهة أن ما سيحل بهم من أهوال وآلام، يساوي ما حلّ بابنها يسوع، ومن جهة ثانية أنه لن يُقضى عليهم جميعاً، كما قُضي عليه هو!

إذن فثمة تحذير مرعب، ووعد قاطع على لسان السيدة العذراء منذ 1983/11/24!

وهناك رسالة أخرى وردت على لسان السيدة العذراء في 1990/8/15، توسّع شمولية الرسالة السابقة وتعمّقها. ويومها كانت ميرنا في إحدى كنائس بلجيكا، فحدث لها انخطاف مفاجئ عند درجات الهيكل، وقد جاءتها خلاله الرسالة التالية:

"أبنائي،
صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق،
لأنكم كلّكم أخوة في المسيح"

يا لرحابة هذه الكلمات القليلة، وحجم المسؤوليات التي تثيرها!

فالسلام بيد الغربيين، وهم يخططون لإلغائه في الشرق، فيما السيدة العذراء تذكّر الجميع، غربيين وشرقيين، أنهم "أخوة في المسيح"! ومثلما أن السلام لا يتجزأ، فالأخوّة في المسيح حقيقة جوهرية لا تتجزأ، وتفرض

التعامل الحسن بين الجميع، أياً كان انتماؤهم الديني الظاهر... وهل من يجهل أو يتجاهل أن غالبية سكان هذا الشرق مسلمون؟ والجدير بالذكر أن هذه الرسالة سبقت الحرب الظالمة على العراق بخمسة أشهر فقط! إلا أن للغرب كله، حكومات وكنائس وشعوباً، آذاناً لا تسمع، وعقولاً لا تفهم!

ومع ذلك، فقد تكلمت السيدة العذراء!

وفي عودة إلى كلام السيد المسيح، في 2004/4/10 الذي يخص به أبناء هذا الشرق، ما يدهش حقاً.

إن لمجرد قوله لهم: "حافظوا على شرقيتكم"، دعوة ووعد لا ينفصلان. فهو يدعو الشرقيين للحفاظ على ما سماه "شرقيتهم"، في حين أنه على علم جلي بما بلغوه من هشاشة ذاتية، وغياب فعلي على الساحة الدولية.

إلا أن ما جاء في كلام السيد المسيح، يحمّل "أبناء الشرق" مسؤوليتين كبريين: الحفاظ على الشرق، ومقاومة ما يدبّر له من أجل تدميره!

أتراه يجهل، في حكمته اللامتناهية، أن "أبناء هذا الشرق" باتوا أعجز من أن يحافظوا على الحدود الدنيا من الوجود، فكيف به يطالبهم بالحفاظ حتى على شرقيتهم؟ أما كان في المشهد العراقي ما يكفي من الكذب والبطش الغربيين، ومن الضعف والتشرذم العربيين، كي يدرك جميع أبناء الشرق أنه حُكِم عليهم بالفناء، على المدى القريب أو البعيد، بالغاً ما بلغت أشكال مقاومتهم؟

أم تراه كان يَعِدُنا من طرف خفي بعدم التخلي عنا في هذا الشرق، وفي سورية تحديداً - على تألب مائة وأربعين دولة علينا، على رأسها الولايات المتحدة والغرب كله، بكل ما يملك من قوى معلنة وخفية، وتوحّش لم يعرف التاريخ له مثيلاً - كي يستنهض ما لدينا من إيمان بات ميتاً في الغرب، ومما تبقى فينا من روح عظيمة، حملت الأرض كلها في أزمان سابقة، وعلّمت الناس جميعاً نمطاً من الحياة المشتركة بين المسلمين والمسيحيين واليهود، لم يعرف الغرب كله مثيلاً له، على ما كان يدّعي حمله من رسالة السيد المسيح، وذلك طوال مئات السنوات؟

وإزاء خطر إلغاء الشرق كله، وما يحمله من تاريخ وحضارات وقيم إنسانية، وإزاء ما سيجلب إلغاؤه من كوارث ستجتاح الأرض كلها دون رحمة، بفعل اشتعال الحرب الدينية المجنونة والممنهجة على نطاق العالم كله، بين إسلام متطرف ومصطنع، ومسيحية فقدت أصلاً وجودها فيه، ها هوذا يأمر أبناء الشرق جميعاً، أن "حافظوا على شرقيتكم!"

أفتراه يريد أن يفهمنا بالبند العريض، كما يقال، أن ما كان يميز الحياة في بلاد الشام، وفي دمشق تحديداً، منذ أن دخلها الإسلام، وامتد منها إلى القدس فمصر فالأندلس، حتى اليوم، إنما هو عيش مشترك قام بين المسلمين والمسيحيين واليهود، واستطال مئات السنوات، عيش بات العالم كله اليوم يحتاج إلى ما يشبهه، وإلى ما جاء الأمر الصريح به أن "حافظوا على شرقيتكم"! ذلك بأن النقيض الذي يختطه الغرب للعالم بأسره على نحو مفضوح، إنما هو، كما وصفه أمين معلوف في كتابه "اختلال العالم"، سحق العالم، كما يسحق حصان البحر حقلاً من التوليب!

صحيح أن هذه الفترة الطويلة من العيش المشترك بين مسلمين ومسيحيين ويهود، تخللتها اضطرابات كثيرة ودامية، ولكنها كانت كلها دون استثناء، بفعل الغزوات البربرية المتلاحقة، وبفعل تبدّل أنظمة الحكم، وبفعل جور هذا أو ذاك من الحكام المحليين، وخصوصاً بفعل التدخلات العسكرية والسياسية الغربية، بدءاً من الحروب المسماة صليبية، ومروراً بمعاهدات الحماية المشؤومة، التي قامت أولاً بين فرنسا والباب العالي، وثانياً بين انكلترا وروسيا والباب العالي، وامتداداً إلى المجازر المدبرة بين تركيا وبعض الدول الغربية، مثل فرنسا وانكلترا في لبنان ودمشق عام 1860، وبين تركيا وألمانيا في ماردين عام 1900، ثم في أرمينيا عام 1915، وانتهاء بالكارثة الفلسطينية عام 1948، تلك الكارثة التي كانت المدخل الحقيقي إلى تفجير العالم العربي برمته...

ويخطئ من يظن أن الحفاظ على الشرق هو في مصلحة الشرقيين فقط. فالحقيقة أنه يصب أيضاً في مصلحة الغربيين الذين يسعون إلى

إلغـاء الشـرق وتفجـيره. ذلـك بـأنهم يرفضـون إدراك المخـاطر الكامنـة في مجتمعاتهم، سواء في أوروبا أو القارة الأميركية أو استراليا، من جراء انتشار المسلمين فيها بأعداد كبيرة، منذ عشرات السنين، دون أن يكون أتيح لمعظمهم الانصهار في هذه المجتمعات، للعمل على تطويرها والنهوض بها مع سائر مكوناتها التاريخية والاجتماعية، حتى باتوا يشكّلون في أعقاب الحروب التي شُنّت في أفغانستان والعراق، واليوم في ليبيا وفي سورية واليمن، مجتمعات قابلة للانفجار في كل لحظة، وعلى نحو مفاجئ، يستحيل على أي جهاز أمني، مهما كان متطوراً، توقّعه وتتبّعه وتداركه! إن لفي دعوة السيد المسيح للشرقيين، إنذاراً صريحاً للغربيين أيضاً!

أما القسم الثاني من هذه الرسالة، فهو أشبه بالنفير العام الموجّه إلى أبناء الشرق جميعاً، ليدعوهم إلى... المقاومة، أجل إلى المقاومة.

"لا تسمحوا...!"

إلا أن في هذه الدعوة إلى المقاومة، إقراراً صريحاً بتوفّر الإرادة والحرية والإيمان في هذا الشرق، على الرغم من مُنكريها من أبناء الشرق والغرب على السواء! وإنه لإقرار خطير، لأنه يأتي من علُ! وهو يدعو بالتالي إلى تأمل طويل وعميق وصادق في حقيقة ما يمارس في الشرق والغرب على السواء، في ما يسمى "إرادة، حرية وإيمان"! وإني لأرى في هذه الدعوة القوية، إعلاناً عاماً مزدوجاً، ظاهره موجّه إلى أبناء الشرق، وباطنه موجّه إلى أبناء الغرب. فما هو لأبناء الشرق، دعوة صريحة إلى المقاومة، وهي دعوة عامة، لا تخصيص فيها لأحد البتة، ولا أفضلية فيها لأحد على أحد، ذلك بأن أبناء الشرق جميعاً مهدّدون بفقدان ما يجعل الإنسان إنساناً! ولكم برهنت الأحداث اللاحقة في سورية، على صحة هذا الإنذار، وعلى شموليته لمنفّذيه وضحاياه على السواء.

وأما باطن هذه الدعوة، فهو لغرب يدّعي امتلاك الإرادات والحريات والإيمان، فيما هو يمارس في واقع الحال، ما يسلب بالكلية إرادات وحريات

وإيمان شعوبه، في الوقت الذي يسلب فيه شعوب الأرض مبرّرات وجودها، بل وجودها بالذات، لينهب خيرات أرضها.

هذا، ما لم يكن الغرب نفسه خاضعاً لقوة خفية تتحكم به، ومن خلاله، بالعالم بأسره!

ومع ذلك فثمّة قوة عُليا، تدعو في الرسالة، إلى المقاومة!

كان ذلك في شهر نيسان من عام 2004!

هذا يعني أنه أخذ في عين الاعتبار اجتياح الولايات المتحدة، مع جحافل الجيوش الحليفة، للعراق! كما أخذ بعين الاعتبار مجيء أحد اكبر المسؤولين الأميركيين إلى سورية، حاملاً معه تهديداً ووعيداً!

إن في ترابط هذه الأحداث مع توقيت الرسالة، ما يدهش ويدعو للتساؤل! والسؤال الأكبر هو: هل من دخل لله في حياة البشر؟

أياً كان الجواب أو الأجوبة على مثل هذا السؤال، فنحن، إزاء هذه الرسالة، نواجه حدثاً جللاً لا يجوز التغاضي عنه، ولا إنكاره، ولا استصغاره! ولقد حملت الأحداث ما يدعم صحته وصوابيّته!

هل كان لسورية وحدها أن تقاوم هذا الزحف الكوني، الأهوج، المتوحّش؟

هل كان لجبهة المقاومة كلها في سورية ولبنان وإيران، القدرة على الصمود في وجهه؟

وهنا، هنا بالذات، يأتي تدخّل روسيا في منطق رسائل الصوفانية... فضلاً عما في تدخّلها أيضاً، من أسباب سياسية واقتصادية، بل ووجودية... ليس من يُنكِرها...

فحتى استخدام روسيا حقّ النقض (الفيتو) في هيئة الأمم، ضد "القرار" الأميركي بضرب سورية عسكرياً، لم يكن جلياً الربط بين صورة سيدة الصوفانية - أي سيدة قازان، شفيعة روسيا - والأحداث الجارية في سورية. ولكن، يومها، ويومها فقط، اتضح على نحو لا يدع مجالاً لأي شك، أن روسيا منخرطة حتى العظم في ما يحدث في سورية، وأنها ستمضي حتى

آخر الدرب في الدفاع عن سورية... وفي الدفاع عن ذاتها، وفي الدفاع أيضاً عن العالم كله، ضد المخطط الأهوج الذي رسمته بعض الأيادي، وتنفّذه بغباء مطلق، الدول الغربية كلها، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية!

وتَكرّر استخدام امتياز النقض (الفيتو) من قبل روسيا والصين معاً في هيئة الأمم مرات عديدة! ثم كان التدخل العسكري الروسي...

لم يعد ثمة شك، لمن يريد أن يرى ويفهم، إن المعركة الدائرة في سورية، ستؤول إلى تحوّل على نطاق العالم، يمسّ جوهر العلاقات بين الدول جميعاً، وبين شعوب الأرض جميعاً...

كل ذلك، كان ينطوي بجلاء، ولكن في غفلة منا، في حدث الصوفانية الفريد.

والآن، بعد مضي قرابة خمس وثلاثين سنة على بداية هذا الحدث، ونظراً لتعاقب الأحداث الخطيرة التي اجتاحت المنطقة العربية كلها، والحرب الجهنمية التي شنّت وتشنّ على سورية، لكَم بات واضحاً المخطط الإلهي في مواجهة مخططات البشر، في ضوء رسائل السيدة العذراء والسيد المسيح!

وإنّ لنا في رسالة السيد المسيح الأخيرة، بتاريخ 2014/4/17، ما يضفي بعداً فدائياً على جبهة المقاومة كلّها، قياداتٍ وشعوباً وجيوشاً، إذ يساوي فيها بين جراحه وجراحها، أي بين فدائه وفدائها، بين خصومه وخصومها، وبالتالي بين قيامته وقيامتها.

ولكم يسعدني أن أختم محاولتي هذه، بكلمات هذه الرسالة العظيمة التي شاء لها السيد المسيح أن تأتينا في يوم الخميس العظيم من أسبوع آلام عام 2014، الذي كان يصادف - أهي صدفةٌ حقاً؟! - عيد الجلاء في سورية:

« الجراحُ التي نزَفتْ على هذِهِ الأرض،
هي عينُها الجراحُ التي في جسدي،
لأنّ السببَ والمسبّبَ واحدٌ.
ولكنْ كونوا على ثقةٍ، بأنَّ مصيرَهم مثلُ مصيرِ يهوذا. »

دمشق في 2017/5/15

الفهرس

بمثابة مقدمة 7

الفصل الأول

يسوع في إطاره الزمني والاجتماعي والديني 11

الإمبراطورية الرومانية 11

الفقرة الأولى: الدولة الرومانية 11

1) اتساعها الجغرافي 11

أ- أقاليمها وحدودها 11

ب- الأمن الشامل 12

2) تنظيمها السياسي 13

أ- السلطة المركزية 13

1- الإمبراطور وكبار موظفيه 13

2- مجلس الشيوخ 14

3- الشعب 15

ب- إدارة الأقاليم أو الولايات 16

1- تقسيم الولايات 16

2- الولاة والمندوبون 17

ج- الجيش 18

1- تكوين الجيش 18

2- انتقاء عناصره 19

3- تنظيم البلديات 19

د- وضع الأحرار والعبيد 22

الفقرة الثانية: الحضارة اليونانية - اللاتينية 23

1) العبادات الرسمية: 23

أ- عبادة المدينة: 24

ب- تعدد العبادات والنزعة التوفيقية 24
ج- النهضة الدينية التي رمى إليها "أوغسطس" ومعوقاتها 25
2) المذاهب الفلسفية 26
أ- المذهب الكلبي 26
ب- أفلاطون ومدرسته (الأكاديمية) 28
ج- مذهب أرسطو (384-322 ق.م) 28
د- مذهب الرواقية 29
هـ- الخلاصة عن الفلسفة الإغريقية 30
3) الأخويات الصوفية 30
أ- الأخوية الأورفية 30
ب- الأخوية الفيثاغورية 31
ج- من أهم معتقداتها القول بالتقمص سعياً وراء خلاص مرتجى 31
4) العبادات ذات الأسرار 32
أ- أسرار "إيلوزيس" 32
ب- أسرار "إيزيس" 32
ج- أسرار "كيبيليس" 33
5) آلهة الخلاص 33
أ- لقب المخلص الإلهي 33
ب- ما المعني بالخلاص؟ 34
ج- طرق تحقيق هذا الخلاص 34
د- من هم هؤلاء الآلهة؟ 34
الفقرة الثالثة: العالم اليهودي في فلسطين زمان المسيح 36
1) مصادر هذه الدراسة 37
1- الإنجيل بجميع أسفاره: 37
2- مؤلّفات المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" 37
3- الأدب اليهودي المنحول 37
4- التلمود 38
5- مؤلّفون أغارقة ورومانيّون 38

2) لمحة جغرافية 39
(1)- اليهودية 39
(2)- الجليل 40
(3)- المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن 41
(4)- السامرة 42
3) لمحة تاريخية 43
(1)- هيرودس الكبير 43
(2)- أبناء هيرودس 46
(3)- الولاة الرومان 49
4) الحياة الدينية 52
1- الديانة 53
1. التوحيد 53
2. التوراة 54
3. الإيمان بالأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة 55
4. الحياة الأخرى 57
5. الممارسات الدينية 59
6. المسيحانيّة أو تصور المسيح المنتظر 64
7. تصوّر المستقبل ونهاية العالم 67
8. مقاومة الحركة الهيلينية 68
2- الهيكل والكهنوت 69
1. هيكل القدس 69
2. رئيس الكهنة 71
3. الكهنة واللاويّون 73
3- الشعور الديني 74
1. الكتبة والتقليد 74
4- الأحزاب والبدع 82
1. الفريسيّون 82
2. الصدّوقيّون 87

3. الهيرودوسيون 89
4. الغيورون 90
5. الأسينيّون 90
5- المحاكم أو المحافل 94
1. المحفل الأكبر أو السنهدريم 94
2. المحافل المحليّة 97
5) المسيح المنتظر بحسب العهد القديم 97
1- أولى الوعود بالمسيح 98
2- المسيح وأعماله وفق كتابات الأنبياء وفي المزامير 101
1. وجه المسيح - الملك 102
2. وجه المسيح - المتألّم 109
3- مسيح العهد القديم ويسوع المسيح 114
1. مجمل أوصاف المسيح بحسب العهد القديم 114
2. التطابق بين "يسوع" و"المسيح" 115

الفصل الثاني

يسوع في ذاته 117
المصادر الرئيسة 117
أولاً: مراحل تدوين الإنجيل 117
1- الإنجيل المتداول ليس المصدر الوحيد لسيرة وحقيقة يسوع 117
1. مصادر يهودية 117
2. مصادر وثنية 119
2- الإنجيل المتداول لم يكن أول ما كتب عن البشرى المسيحية 120
3- العهد الجديد كان أولاً 122
ثانياً: حياة يسوع من الطفولة إلى عتبة الحياة العلنية 133
ثالثاً: نص من الإنجيل المقدس - العظة على الجبل 144
المصادر الثانوية 151
أولاً: المصادر اليهودية 152

1- فلافيوس يوسيفوس 152
2- التلمود 155
ثانياً: المصادر الوثنية 156
1. المؤلّفون اللاتينيّون 156
1- "أعمال بيلاطس" 156
2- بلينوس الصغير 156
3- تاكيتوس 157
4- سويتونوس 158
2. الفلاسفة 159
1- مارا 159
2- لوقيانوس الساميساطي 160
3- قلسيوس 160
4- بروفيووس 160
5- هييروكليس 161
ثالثاً: المصادر المسيحية 161
1. مؤلفات الهراطقة 161
1- "حكمة الإيمان" 161
2- أقوال يسوع في الأناجيل المنحولة 162
2. مؤلفات منحولة 162
1- المؤلفات المنحولة الشعبية 162
2- المؤلفات المنحولة الروائية 165
3- مؤلفات مجهولة المؤلف 166
4- مكتشفات حديثة من ورق البردي 168
5- مؤلّفات لبعض آباء الكنيسة 168
أ. "أحاديث" وردت لدى بعض الآباء 168
ب. تفاصيل عن سيرة يسوع 169
6- متغيرات المخطوطات الإنجيلية 170
أ. "أحاديث" بعض المخطوطات 170

ب. أحداث من حياة يسوع في بعض المخطوطات: 171
ج. ما قيمة هذه الإضافات وسواها؟ 171
7- أسفار العهد الجديد باستثناء الأناجيل: 171

الفصل الثالث

يسوع في بداياته 177
يسوع قائداً 177
أولاً: يسوع قائداً في شخصه 177
ثانياً: يسوع قائداً في تلاميذه 179
التلاميذ قادة في خطى يسوع 183

الفصل الرابع

نشوء المسيحية 187
أولاً: العالم الروماني 187
(1) قوة الإمبراطورية 187
(2) الجو الديني والأخلاقي 188
(3) العناصر الداعمة للمسيحية أو المؤاتية 189
(4) العناصر المقاومة للمسيحية 189
ثانياً: العالم اليهودي 190
(1) اليهود داخل فلسطين 190
(2) اليهود في الشتات 190
(3) العوامل المؤاتية للمسيحية 191
(4) العوامل المناوئة للمسيحية 191
ثالثاً: الخميرة المسيحية المتناهية في الصغر 192
(1) الحدث التاريخي الأساسي: موت يسوع 192
(2) الحدث الأكبر الحاسم: قيامة يسوع 192

رابعاً: أهمية حدث القيامة ومرماه 193
(1) القيامة هي قلب التاريخ........ 193
(2) حضور الرب الدائم في التاريخ. 193
خامساً: الكنيسة الأولى 194
(1) هوية المسيحيين الأوائل 194
(2) الصدام المبكر بين "المسيحية" واليهودية 197
(3) الكنيسة بين بنائها الخارجي ووحدتها الداخلية 198
سادساً: التأسيس 199
(1) منطق التاريخ وعلم الاجتماع 199
(2) الأحداث البارزة في تأسيس المسيحية 200
سابعاً: الانتشار المسيحي 208
(1) القوى الثلاث المتقابلة والمتفاوتة 208
(2) الانتشار ما بين نقطتين رئيسيتين، نقطة الانطلاق وأواخر القرن الثالث 209
ثامناً: المواجهة بين الكنيسة و"العالَم" 213
(1) على صعيد المواجهة مع "العالَم" 213
(2) على صعيد المواجهة مع سلطة الإمبراطور 214
(3) على صعيد المواجهة مع الكنيس اليهودي 215
(4) على صعيد المواجهة مع البدع الجديدة في المسيحية 216
(5) على صعيد المواجهة الدائمة 217

الفصل الخامس

يسوع في كنيسته 219

القداس في القرون الأولى 219
الصلاة في القرون الأولى 222
الأعياد المسيحية على مدار السنة 224
الحياة المسيحية في الترنيم 227
الحياة الرهبانية في المسيحية 230
جوهر الإيمان المسيحي 234

الفصل السادس

الفكر المسيحي في نشأته ووجوهه 241

آباء الكنيسة 241

أولاً– "آباء" أواخر القرن الأول حتى إعلان ميلانو عام 313 242

ثانياً- عصر "الآباء" الذهبي 251

ثالثاً– آخر عصر "الآباء" 258

من أدب الآباء: "الرسالة إلى ديوغنيتس" 271

الفصل السابع

يسوع في التاريخ 275

ملمح عام للمسيحية 275

أولاً: نشأها 275

ثانياً: المسيحية في الإمبراطورية الرومانية الوثنية، 30–313 276

ثالثاً: المسيحية في الإمبراطورية الرومانية المنتصرة: 313–632: استمرار وتجديد 278

رابعاً: المسيحية في الشرق والغرب حتى الانقسام الكبير، 632–1054 279

خامساً: الانشقاق الكبير في الكنيسة المسيحية 281

سادساً: المسيحية من الانشقاق الكبير حتى الحركات الإصلاحية الكبرى 292

سابعاً: المسيحية من حركة الإصلاح الكبرى إلى اليوم 294

أبرز المحطات في هذا التاريخ، وتوبة الكنيسة بشأنها 299

(1) التوبة بشأن الحملات "الصليبية" 299

(2) التوبة بشأن الأنظمة الاستبدادية 300

(3) التوبة بشأن الانقسامات بين الكنائس 300

(4) التوبة بشأن اللاسامية 301

(5) التوبة بشأن العالِم غاليليو 301

(6) التوبة بشأن الحرب والسلم 302

(7) التوبة بشأن الحروب الدينية 302

(8) التوبة بشأن هنود أميركا 303
(9) التوبة بشأن المظالم 303
(10) التوبة بشأن محاكم التفتيش 304
(11) التوبة بشأن التطرف الديني 305
(12) التوبة بشأن الإسلام 305
(13) التوبة بشأن الانشقاق الشرقي 306
(14) التوبة بشأن تجارة الزنوج 306
(15) التوبة بشأن الانشقاقات الكبرى في كنائس الغرب 307
(16) التوبة بشأن الانشقاقات الكنسية الحديثة في الشرق 310
المنعطف الكبير... الذي لم يكتمل! 311
"الخروج من بابل" 310

الفصل الثامن

يسوع في مواجهة الغائه 331
1) **المحطة الأولى، المشروع الصهيوني** 332
وثيقة أولى: ولادة الصهيونية 332
وثيقة ثانية: نبوءة مبكرة 334
2) **المحطة الثانية، اختيار فلسطين** 334
وثيقة أولى: جهوزية الحركة الصهيونية... 334
وثيقة ثانية: سؤال لا غير...! 336
وثيقة ثالثة: خريطة لسورية، كما رسمتها وزارة الخارجية الفرنسية عام 1910 336
3) **المحطة الثالثة، الازدواجية الغربية** 338
وثيقة أولى: كذب الغرب الأوروبي، وعمله الدؤوب لتفتيت العالم العربي 338
وثيقة ثانية: الثورة على تقسيم سورية 340
4) **المحطة الرابعة، قرار تقسيم فلسطين** 341
وثيقة أولى: من كتاب "خطيئة إسرائيل الأصلية" 342
وثيقة ثانية: حول تسليح المنظمات اليهودية 342

5) **المحطة الخامسة، بزوغ إسرائيل** 345
وثيقة أولى: تصريح رئيس الجامعة العبرية عام 1946 345
وثيقة ثانية: حول مفهوم الإنسان في الدستور الإسرائيلي 345
وثيقة ثالثة: حول التطهير العرقي والجغرافي في دولة إسرائيل 346
6) **المحطة السادسة، دولة العدوان** 347
وثيقة أولى: رسالة البروفسور الإسرائيلي "بنجامان كوهين" إلى صديقه 348
وثيقة ثانية: "ديانة المحرقة" 348
وثيقة ثالثة: "الشرق الأدنى المتفجر" 351
7) **المحطة السابعة، طلائع "الربيع العربي"** 353
الوثيقة الكبرى: الكشف الأكبر!... 353
8) **المحطة الثامنة، الحرب الكونية على سورية** 353
وثيقة أولى: اعتراف من نعوم تشومسكي 356
وثيقة ثانية: صوت حق من فرنسا 357
وثيقة ثالثة: البربرية الحديثة 358
وثيقة رابعة: أساليب الاستعمار الجديد 359
9) **المحطة التاسعة، مسؤولية الكنيسة في الشرق والغرب معاً** 363
وثيقة أولى، بيان صادر عن ثلاثة بطاركة شرقيين 366
وثيقة ثانية: بيان صادر عن مؤتمر الأساقفة الكاثوليك في أميركا 368

الفصل التاسع

هل من مخطط إلهي في الصوفانية (1982-2017)؟ 371
الفهرس 393